نوع گزارش : نمایش متن
روز:١٣٨٧/١٢/٢٨ ساعت:٦: ١٢

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥

الجزء الثالث

سورة المائدة

مدنية الا قوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» فإنه نزل في حجة الوداع، و عدد آياتها ١٢٠.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة المائدة (٥): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعٰامِ إِلاّٰ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مٰا يُرِيدُ (١) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اللهِ وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ وَ لاَ الْهَدْيَ وَ لاَ الْقَلاٰئِدَ وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ (٢)

اللغة:

العقود واحدها عقد، و المراد بها كل التزام جرى بين بالغين عاقلين عن طيب نفس على أي شيء كان، شريطة ان لا يحرم حلالا، و لا يحلل حراما.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦

و البهيمة في اللغة الحيوان الذي لا نطق له لما في صوته من الإبهام، و لكن العرب لا يستعملون هذه اللفظة في الطير. و الأنعام الإبل و البقر و الغنم. و شعائر جمع شعيرة، و الشعيرة و العلامة و الآية بمعنى واحد، و شعائر اللّه علامات دينه و دلائله و مظاهره و آياته. و المراد بالهدي ما يهدى من الانعام الى الكعبة ليذبح هناك.

و القلائد جمع قلادة، و كانوا يقلدون الإبل من الهدي بما يدل عليها، فلا يتعرض لها أحد. و آمّين أي قاصدين. و لا يجرمنكم أي لا يبعثنكم. و الشنآن البغض.

الاعراب:

الا ما يتلى (ما) في محل نصب على الاستثناء المتصل من بهيمة. غير حال من الضمير المجرور في لكم و لا القلائد على حذف مضاف، أي و لا ذوات القلائد. و لا آمين أيضا على الحذف، أي و لا قتال آمّين. و البيت مفعول لآمّين.

و جملة يبتغون حال من الضمير في آمين. و ان صدوكم المصدر المنسبك مفعول لأجله ليجرمنكم. و المصدر المنسبك من ان تعتدوا مجرور بحرف جر محذوف، و المجرور متعلق بيجرمنكم، أي لا يبعثنكم شنآن قوم لأجل صدهم إياكم عن المسجد على الاعتداء.

المعنى:

تدور آيات القرآن حول العقيدة، و العبادة، و الشريعة، و الأخلاق، و الرئاسة الدينية و الدنيوية، و القضاء و الجهاد، و

تعرف الآيات الواردة في الشريعة بما فيها العبادة، تعرف بآيات الأحكام عند الفقهاء، و تبلغ حوالي خمسمائة آية، و منها قوله تعالى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ). و هذه الجملة على ايجازها عظيمة النفع، فإنها الأصل و الأساس لإجماع المذاهب على وجوب الوفاء بما يقع عليه التراضي بين اثنين، مع توافر الشروط التي اعتبرها الشرع من البلوغ و العقل في المتعاقدين

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧

و قابلية الشيء المعقود عليه للتملك، و عدم استلزامه تحليل الحرام، أو تحريم الحلال، و ما إلى ذلك مما جاء في كتب الفقه، و منها الجزء الثالث من فقه الإمام جعفر الصادق.

(أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ). الانعام هي الإبل و البقر و الغنم و المعز الأهلية و الوحشية، و تقع البهيمة على الانعام و غيرها من الحيوانات التي لا نطق لها، و على هذا تكون اضافة البهيمة الى الانعام من باب اضافة الشيء الى ما هو أخص منه. و بعد أن أحلّ اللّه أكل الانعام جاء هذا الاستثناء **(إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ)**.

و قد تلا علينا جل ثناؤه صنفين من الانعام: الأول ما أشار اليه بقوله: «**غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ**». و الثاني ما أشار اليه في الآية الثالثة «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ ...». و يأتي الكلام عن هذا الصنف قريبا.

و معنى **(غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ)** ان الانعام التي أحل اللّه لنا أكلها هي الانعام الأهلية، أو الوحشية التي لم نتصيدها حال الإحرام، أما المصطادة في هذه الحال، فأكلها حرام، لأن كل ما يصطاده المحرم فلا يجوز أكله، سواء أ كان من الانعام، أم من غيره، و يأتي التفصيل عند تفسير الآية ٩٧ و ما بعدها من هذه السورة.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ). و شعائره جل و عز هي أحكام دينه، و من أظهرها مناسك الحج و العمرة، قال تعالى: «ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ- ٣٢ الحج»، و معنى النهي عن تحليل أحكام دين اللّه ان لا نحرفها، و نتصرف فيها كما نشاء. **(وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ)** أي لا تحلوا القتال في الشهر الحرام، و المراد به الأشهر الأربعة: ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب، لأن الألف و اللام في الشهر للاستغراق. **(وَ لَا الْهَدْيَ)** و هو ما يهدى الى بيت اللّه من الإبل و البقر و الغنم، و المراد ان لا يتعرض أحد لها بغصب أو منع من بلوغها البيت الحرام. **(وَ لَا الْقَلائِدَ)** أي و لا ذوات القلائد فقد كانوا يقلدون الهدي بنعل أو حبل و ما اليه، ليعرف فلا يتعرض له أحد، و انما ذكر ذوات القلائد بعد الهدي، مع ان الهدي يقع عليها و على غيرها- للاهتمام بها، تماما كقوله تعالى: «حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى».

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨

(وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً). أي لا تقاتلوا أحدا قصد بيت اللّه، سواء أقصده للعبادة أم التجارة. **(وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا)**.

لأن الصيد يحرم في حال الإحرام، و في ارض الحرم مطلقا، فإذا لم يكن الإنسان محرما و لا في أرض الحرم فالصيد و أكل المصيد حلال، لزوال المانع .. و الأمر في قوله: «**فَاصْطادُوا**» للاباحة، لأنه ورد بعد النهي.

(وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا). في سنة ست للهجرة كان المشركون هم المسيطرين على مكة و البيت الحرام، و أراد النبي و الصحابة أن يزوروا البيت في هذه السنة فصدهم عنه المشركون، و

في حجة الوداع كانت السيطرة على مكة و البيت للمسلمين، فنزلت هذه الآية، و معناها لا ينبغي لكم أيها المسلمون أن يحملكم بغض المشركين لكم، أو بغضكم لهم على أن تمنعوهم عن البيت الحرام بعد أن أظهركم اللّه عليهم، لأنهم منعوكم من قبل. و قد كان هذا قبل أن تنزل الآية ٢٩ من سورة التوبة: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاٰ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا».

و تسأل: ألم يقل اللّه سبحانه: «فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ- البقرة، ١٩٤؟

الجواب: ان هذه الآية نزلت في القصاص، و المعاملة بالمثل في موارد خاصة، كالحرب و قطع الأعضاء، أي من قاتلكم فقاتلوه، و من قطع يد غيره تقطع يده، و ما الى ذلك .. أما من منع و صد عن عبادة اللّه و التجارة و الزراعة فلا يجوز أن يمنع هو عن ذلك، بل يجازى بعقوبة أخرى.

و الخلاصة ان جزاء المعتدي قد يكون بالمثل، و قد يكون بغيره، و في سائر الأحوال ينبغي أن يكون الجزاء انتصارا للحق، لا تشفيا و انتقاما.

الثورة و الثورة المضادة:

(وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ). من الألفاظ التي كثر تداولها اليوم على ألسنة المتكلمين، و أقلام الكتّاب لفظ الثورة و الثورة المضادة .. و يعنون بالثورة تعاون المخلصين و نضالهم ضد التخلف و الأوضاع

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩

الفاسدة، و يعنون بالثورة المضادة تكتل الرجعيين و الخائنين و تعاونهم على مقاومة كل محاولة لتغيير التقاليد الضارة الفاسدة.

و ظاهر الآية الكريمة يخوّل لنا ان نطبق قوله تعالى: «**وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ**» على الثورة المضادة لكل خير و تقدم.

[سورة المائدة (٥): آية ٣]

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مٰا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاّٰ مٰا ذَكَّيْتُمْ وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

الإعراب:

الا ما ذكيتم (ما) في محل نصب على الاستثناء المتصل مما تقدم ذكره من الحيوانات على أن يدرك حيا سوى ما لا يقبل التذكية كالخنزير. و المصدر من ان تستقسموا في محل رفع عطفا على الميتة، أي و حرّم عليكم أن تستقسموا.

و دينا حال من الإسلام. و غير حال من الضمير في اضطر.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠

المعنى:

كل المأكولات و المشروبات على الاباحة الا ما ورد النص بتحريمه خصوصا كالميتة و ما اليها، أو عموما كالأشياء الضارة، و منها الخبائث. قال تعالى:

«يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً- ١٦٨ البقرة». و قال الإمام جعفر الصادق (ع): كل شيء فيه حلال و حرام فهو لك حلال أبدا، حتى تعرف الحرام بعينه فتدعه.

و تقدم في الآية الأولى قوله تعالى: «إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ» و قد تلا علينا صنفين من المحرمات: الأول ما أشار اليه بقوله: «غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ» الخ و سبق تفسيره. الثاني ما ذكره في هذه الآية و هو عشرة أصناف.

الأول: الميتة، و هي كل حيوان أو طير مات من غير تذكية شرعية، و تختلف التذكية الشرعية باختلاف الحيوان، فتذكية السمك بإخراجه من الماء حيا، و تذكية الجراد بالاستيلاء عليه حيا أيضا، و تذكية الجنين بذكاة أمه، و تذكية المصيد تكون بالكلب المعلّم، أو بالسيف أو الرمح أو السهم أو آلة محددة الرأس، و تذكية الحيوان باستقباله القبلة و قطع أوداجه الأربعة مع ذكر اسم اللّه عليه. و التفصيل في كتب الفقه، و منها الجزء الرابع من فقه الإمام الصادق.

الثاني: الدم المسفوح، و المراد به الذي يخرج بقوة و دفع، و يتميز عن اللحم، لأن ما يختلط باللحم معفو عنه، و الدم الذي هو كاللحم حلال إذا كان كبدا عند جميع المذاهب، و حرام إذا كان طحالا عند الشيعة الإمامية خاصة.

الثالث: لحم الخنزير، و هو حرام بإجماع المسلمين.

الرابع: ما أهل لغير اللّه، و الإهلال رفع الصوت، يقال: استهل الصبي إذا صرخ عند الولادة، و المراد به هنا ما ذبح على غير ذكر اللّه. و قد كان المشركون يذبحون لأصنامهم، و يرفعون أصواتهم باسم اللات و العزى. و تقدم الكلام عن هذه الأصناف الأربعة عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١

الخامس: المنخنقة، و هي التي تموت اختناقا بيد أو حبل، أو يدخل رأسها في مضيق، و ما الى ذلك.

السادس: الموقوذة، و هي التي تضرب بعصا و نحوها، حتى تموت.

السابع: المتردية، و هي التي تتردى من مكان عال.

الثامن: النطيحة، و هي التي تنطحها أخرى فتموت.

التاسع: ما أكل السبع، أي ما تبقى من فريسة الحيوان المفترس.

ثم استثنى سبحانه من الأصناف الخمسة الأخيرة ما ندركه حيا، فانه يحل لنا بالذبح الشرعي، و هذا معنى قوله تعالى: **(إِلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ)**. و في الأخبار:

«ان أدنى ما تدرك به الذكاة أن تدركه و تتحرك اذنه أو ذنبه أو تطرف عينه».

العاشر: ما ذبح على النصب، قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل: «النصب جمع نصاب، و هي حجارة كان أهل الجاهلية يعظمونها، و يذبحون عليها، و ليست بالأصنام، لأن الأصنام مصورة، و النصب غير مصورة».

و تجدر الاشارة الى ان محرمات الطعام لا تنحصر بهذه الأصناف العشرة التي جاءت في الآية الكريمة، بل هناك محرمات أخرى، كالكلب و الحيوان المفترس و الطير الكاسر كالبازي و النسر و الحشرات و بعض أنواع السمك و محرمات الذبيحة، و ما اليها مما نصت عليه السنة النبوية، و أجمع عليه الفقهاء، و لا فرق بين ما جاء النص على تحريمه في الكتاب أو السنة: «وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا- ٧ الحشر». و غير بعيد أن يكون ذكر هذه

الأصناف بالخصوص لمناسبة قوله تعالى: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ». و بعد أن ذكر سبحانه الأصناف العشرة عطف عليها قوله:

وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ. أي و حرم عليكم الاستقسام بالأزلام، و هي جمع زلم بضم الزاي و فتحها، مع فتح اللام، و الزلم قطعة من الخشب على هيئة السهم.

و كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم أن يقدم على أمر يهمه أخذ ثلاثة من الأزلام، و كتب على واحد منها أمرني ربي، و على ثان نهاني ربي، و أهمل الثالث، ثم يغطيها بشيء، و يدخل يده و يخرج أحدها، فان كان أمرا فعل، و ان كان نهيا ترك، و ان كان مهملا أعاد، حتى يخرج الأمر، أو النهي.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢

(ذلِكُمْ فِسْقٌ). اشارة الى خصوص الاستقسام بالأزلام دلالة، و الى جميع المحرمات المذكورة حكما، و بهذا يتبين معنا ان اختلاف المفسرين حول ذلكم:

هل هي اشارة الى خصوص الأخير، أو الى الجميع؟ ان هذا الاختلاف لا جدوى منه، ما دام حكم الجميع واحدا، من حيث الفسق، أي الذنب العظيم.

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ). قال كثير من المفسرين: ان المراد باليوم في الآية اليوم الذي نزلت فيه من ذي الحجة في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة، و عليه يكون الألف و اللام في اليوم للعهد، و قال صاحب مجمع البيان: اليوم هنا بمعنى الآن، كما يقول القائل:

اليوم قد كبرت، أي الآن قد كبرت. و مهما يكن فان معنى الآية ان الكفار يئسوا من زوال الإسلام، أو تحريفه بعد أن تمكن في نفوس أتباعه، و أخذ طريقه في الانتشار يوما بعد يوم .. اذن، فلا تخافوا- أيها المسلمون- من الكافرين، و خافوا من اللّه وحده، و صدق اللّه العظيم في كل ما يقول:

«يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ- ٣٣ التوبة».

و من المفيد بهذه المناسبة أن نقطف جملا من كتاب «الإسلام في القرن العشرين» للعقاد، قال:

«ان العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبة، و حسب في ابان النشأة و الظهور، و لكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين .. و صمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال القوة و السطوة، و لا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون .. ان قوة صمود العقيدة الإسلامية في صدر الإسلام عجيبة، و لكن صمودها الآن أعجب، لأنها لا تملك الدفاع النافع و لا مال لديها و لا سلاح و لا علم و لا معرفة، بل لا تملك الدفاع، و لا اتفاق بين أهلها على الدفاع ..

ان قوة العقيدة الإسلامية قد سرت مسراها في أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول و سياستها، و عن عروش العواهل و تيجانها، و في افريقية اليوم مائة مليون مسلم، لا شأن في إسلامهم لدولة أو سياسة، و قريب من هذا العدد مسلمون

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣

في السومطرة و بلاد الجاوة، و قريب منه في الباكستان، و قد يكون في الصين و ما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين».

إكمال الدين و إتمام النعمة:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاٰمَ دِيناً).

اختلف الشيعة و أكثر السنة في تفسير هذه الآية، و نحن نعرض أقوال الطرفين كناقلين، لا مؤيدين، و لا مفندين، و نترك القارئ و عقله يستفتيه وحده.

قال السنة أو أكثرهم: المراد بالآية ان اللّه سبحانه أكمل للمسلمين دينهم بتغلبه و إظهاره على الأديان كلها رغم محاربة أهلها و مقاومتهم له و للمسلمين، و أتم نعمته عليهم بالنص على عقيدته و شريعته أصولا و فروعا، و أبان جميع ما يحتاجون اليه في أمر دينهم و دنياهم: (مٰا فَرَّطْنٰا فِي الْكِتٰابِ مِنْ شَيْءٍ).

و قال الشيعة: يصح تفسير الآية بهذا المعنى إذا لم تقترن بحادثة تفسرها، و تبين المراد منها، فإن كثيرا من الآيات تفسرها الحادثة التي اقترنت بزمن نزولها. من ذلك- على سبيل المثال- قوله تعالى مخاطبا نبيه الأكرم: «وَ تَخْشَى النّٰاسَ وَ اللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ- ٣٧ الأحزاب». فلو جردنا هذه الآية عن قصة زيد بن حارثة، و أخذنا بظاهرها لكان معنى الآية ان رسول اللّه (ص) يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق .. حاشا من اصطفاه اللّه لوحيه و رسالته.

ثم قال الشيعة: و هذه الآية اقترنت بحادثة خاصة تفسرها و تبين المراد منها، و استدلوا على ذلك بما يلي:

أولا: اتفق علماء السنة و الشيعة المفسرون منهم و المؤرخون على ان سورة المائدة بجميع آياتها مدنية، ما عدا هذه الآية: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** فإنها نزلت في مكة، و في السنة العاشرة للهجرة، و هي السنة التي حج فيها رسول اللّه (ص) حجة الوداع، لأنه انتقل الى جنان ربه في شهر ربيع الأول سنة احدى عشرة.

ثانيا: ان النبي بعد أن قضى مناسكه في هذه السنة توجه الى المدينة، و لما

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤

بلغ غدير خم- و هو مكان في الجحفة تتشعب منه طرق كثيرة- أمر مناديه أن ينادي بالصلاة، فاجتمع الناس قبل أن يتفرقوا، و يذهب كل في طريقه الى بلده، فخطبهم و قال فيما قال:

«ان اللّه مولاي، و أنا مولى المؤمنين، أنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه يقولها ثلاثا، و في رواية أربعا .. ثم قال: اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه. و أحبّ من أحبه، و أبغض من بغضه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله، و ادر الحق معه حيث دار. ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

و السنة لا ينكرون هذا الحديث بعد ان تجاوز حد التواتر «١» و سجله الكثير من أئمتهم و علمائهم، منهم الإمام ابن حنبل في مسنده، و النسائي في خصائصه، و الحاكم في مستدركه، و الخوارزمي في مناقبه، و ابن عبد ربه في استيعابه، و العسقلاني في اصابته، كما ذكره الترمذي و الذهبي و ابن حجر و غيرهم، و لكن الكثير منهم فسروا الولاية بالحب و المودة، و ان المراد من قول الرسول (ص):

من كنت مولاه- من أحبني فليحب عليا.

ورد الشيعة هذا التفسير بأن قول النبي: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه- يدل بصراحة و وضوح على ان نفس الولاية التي ثبتت لمحمد (ص) على المؤمنين هي ثابتة لعلي (ع)، دون زيادة أو نقصان، و هذه الولاية هي السلطة الدينية و الزمنية، حتى و لو كان للفظ الولاية ألف معنى و معنى.

و على هذا يكون معنى الآية ان اللّه سبحانه أكمل الدين في هذا اليوم بالنص على علي بالخلافة.

(١). نقل الشيعة هذا الحديث عن العديد من مصادر السنة، و وضع علماؤهم فيه كتبا خاصة، و آخرهم الشيخ الاميني من علماء النجف الأشرف في هذا العصر، فقد ألف كتابا أسماء الغدير في ١٢ مجلدا، تبلغ صفحاتها حوالي خمسة آلاف صفحة، ذكر فيه رواة الحديث، و هم ١٢٠ صحابيا، و ٨٤ تابعا، و ٣٦٠ إماما و حافظا للحديث، و فيهم الحنفي و الشافعي و غيرهما كل ذلك نقله عن كتب السنة و الكتاب معروض للبيع في مكتبات العراق و ايران و لبنان.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥

و تسأل: ان إكمال الدين بإظهاره على الأديان، و بيان أحكامه كاملة وافية كما يقول السنة- واضح لا يحتاج الى تفسير، أما إكمال الدين بالنص على خلافة علي فلا بد له من التفسير و الإيضاح، فبأي شيء يفسره الشيعة؟.

قال الشيعة في تفسير ذلك: ان الإكمال حقا لا يتم إلا بوجود السلطة التشريعية و التنفيذية معا، و الأولى وحدها ليست بشيء ما لم تدعمها الثانية، و قد كان التنفيذ بيد الرسول الأعظم (ص)، فظن اعداء الإسلام ان السلطة التنفيذية ستذهب بذهاب الرسول، و بذهابها يذهب الإسلام ... فأقام النبي عليا ليحفظ الشريعة من بعده، و يقيم الدين كما أقامه الرسول (ص)، و بهذا لم يبق للكفار أي أمل في ذهاب الإسلام أو ضعفه.

(فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). مر تفسيره مفصلا في ج ١ ص ٢٦٥ فقرة «المضطر و حكمه»، الآية ١٧٣ من سورة البقرة.

[سورة المائدة (٥): آية ٤]

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٤)

اللغة:

الجوارح جمع جارح من جرح بمعنى كسب، و منه قوله تعالى: «وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ» و المراد بالجوارح هنا ما يمكن الاصطياد به من الكلاب و الفهود و الطيور، لأنها كواسب لأهلها. و مكلبين أي معلمين الكلاب و نحوها الاصطياد،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦

و انما اطلق لفظ مكلبين على الجوارح المعلمة، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب، فاشتق منه هذا اللفظ لكثرته في جنسه .. هذا عند غير الشيعة، أما الشيعة فلا يجيزون الا صيد الكلب، و فيما يلي التفصيل.

الإعراب:

ما ذا يجوز أن تكون (ما) مبتدأ، و ذا خبر بمعنى الذي، و يجوز أن تكون (ما ذا) كلمة واحدة و جملة أحل خبر. و ما علمتم على حذف مضاف، أي و صيد الذي علمتم. و مكلبين حال من ضمير علمتم، لأنها بمعنى معلمي الكلاب.

المعنى:

(يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ). الطيب ضد الخبيث، و الخبيث ما نص الشارع على تحريمه بالخصوص كالميتة و لحم الخنزير، أو بالعموم، و هو ما فيه ضرر و فساد بجهة من الجهات. و قد ذكر سبحانه هذه

الجملة بلفظها أو معناها في ١٥ مكانا من كتابه العزيز.

وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ). و اتفقت كلمة المذاهب على ان صيد الكلب يحل أكله بالشروط الآتية، و اختلفت في صيد غيره كالفهد و الصقر و ما أشبه إذا كان معلما يفقه ما يفقهه الكلب، قال الشيعة: لا يحل. و قال غيرهم:

يحل. و استدل الشيعة بأن لفظ مكلبين خاص بصيد الكلب المعلم، و مهما يكن، فلا يحل صيد الجوارح إلا مع توافر الشروط التالية:

١- أن يكون الجارح معلما إذا أمره صاحبه يأتمر، و إذا زجره ينزجر.

و هذا هو معنى قوله تعالى: «**تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ**».

٢- ان يرسله صاحبه بقصد الصيد، فلو انطلق من تلقائه، و أتى بالصيد مقتولا فلا يحل.

٣- أن يكون الصائد مسلما عند الشيعة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧

٤- أن يسمي الصائد عند إرسال الجارح، فيقول: اذهب على اسم اللّه، و ما أشبه، و هذا معنى قوله تعالى: «**وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ**».

٥- أن يدرك الجارح الصيد حيا، و ان يسند الموت الى جرحه، فلو أدركه ميتا لم يحلّ، و كذا إذا أدركه حيا، و لكن مات بسبب آخر غير الجارح.

[سورة المائدة (٥): آية ٥]

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٥)

اللغة:

للاحصان معان أربعة: الإسلام و التزوج و الحرية و العفة، و هي المقصودة هنا. و السفاح الزنا، و المراد به هنا الجهر به، لأنّ قوله تعالى: «**وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ**» المراد به الزنا بالسر، و الخدن الصديق يقع على الذكر و الأنثى.

الاعراب:

و المحصنات معطوف على الطيبات، و إذا ظرف متضمن معنى الشرط متعلق بأحل. و محصنين حال من الواو في آتيتموهن. و غير مسافحين (غير) صفة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨

لمحصنين، و يجوز أن تكون حالا، و ان كان صاحب الحال نكرة، ما دام المعنى ظاهرا.

المعنى:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ). اختلف السنة و الشيعة في المعنى المراد بطعام أهل الكتاب، و هم اليهود و النصارى، فقال السنة: المراد به ذبائحهم، نقل هذا عنهم صاحب تفسير المنار، و هذه عبارته بالحرف: «فسر الجمهور الطعام هنا بالذبائح، لأن غيرها حلال بقاعدة أصل الحل».

و ذهب أكثر فقهاء الشيعة الى نجاسة أهل الكتاب، و حرموا طعامهم و شرابهم، حتى الخبز و الماء الذي باشروه، و فسروا الطعام في الآية بالحبوب.

أما نحن فنرى طهارة أهل الكتاب «١»، و قد صرحنا بذلك مع الدليل في الجزء الأول من فقه الإمام جعفر الصادق، و على هذا كثير من المراجع الكبار، منهم السيد الحكيم و السيد الخوئي الذي أسرّ برأيه لمن يثق به. أما قول من قال:

الكتابي متنجس لا نجس فهو تلاعب بالألفاظ، لأن الأشياء في الشريعة على قسمين: طاهر و نجس، و لا ثالث .. أجل قد تعرض النجاسة للطاهر، ثم تزول بالتطهير، و لو كانت لازمة له لكان نجسا، لا متنجسا.

أما تفسير الطعام بالحبوب خاصة فبعيد كل البعد عن فصاحة القرآن و بلاغته، فقد استعمل الطعام لصيد البحر، و لا حبوب في البحر، قال تعالى: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ- ٩٦ المائدة». و استعمله في الماء، و بين الماء و الحبوب ما بين السائل و الجامد، قال عز من قائل: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي- ٢٤٩ البقرة». و استعمله في شتى المأكولات: فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا- ٥٣ الأحزاب». و هل يجرؤ واحد على تفسيره بإذا أكلتم الشعير- مثلا- فانتشروا؟ .. و إذا تجرأ على مثل هذا التفسير فمن أي نوع

---

(١). و أخيرا أفتى بطهارتهم السيد الحكيم المرجع الكبير للطائفة الاسلامية الشيعية.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩

يكون؟ .. بل استعمل سبحانه الطعام في اللحم: «قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ- ١٤٥ الانعام».

و من أجل هذا نقول بأن ذبائح أهل الكتاب حلال، مع العلم بتوافر الشرائط من الاستقبال و التسمية و قطع الأوداج الأربعة، و هذا هو الفرق بين ذبيحة الكتابي، و ذبيحة المسلم، فذبيحة الأول تحرم الا إذا علمت بأنه استقبل و سمى و قطع الأوداج الأربعة مع استقرار الحياة في الحيوان قبل الذبح، و ذبيحة الثاني تحل الا إذا علمت بأنه أخل بما أوجبه الشرع. و صرحنا بذلك مع الدليل في الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق، و فيه روايات صحيحة عن أهل البيت (ع). و عمل بها الشهيد الثاني و الصدوق و ابن أبي عقيل و ابن الجنيد.

قال صاحب مجمع البيان عند تفسير هذه الآية: «عن أكثر المفسرين، و أكثر الفقهاء ان المراد بالطعام في الآية ذبائح أهل الكتاب، و به قال جماعة من أصحابنا» أي من علماء الشيعة الذين يعتد بأقوالهم.

(وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ). المراد بالاحصان في الألفاظ الثلاث العفة، و بالاجور المهور، و المسافحون هم الذين يرتكبون الزنا جهرا، و متخذو الأخدان يرتكبونه سرا، و قيّد إتيان الأجور بعدم الزنا المشار اليه بمحصنين غير مسافحين- للاشعار بأن ما يدفعه الرجل للمرأة من المال يجب أن يكون مهرا للنكاح الشرعي، لا أجرا للسفاح، و محصل المعنى ان اللّه قد أحل نكاح العفيفات المسلمات و الكتابيات، و على من ينكحهن أن يدفع لهن ما جرى عليه الاتفاق من المال مهرا شرعيا، لا بدلا عن الزنا.

و اتفق فقهاء المذاهب على أن المسلم لا يحل له أن يتزوج بمن لا تدين بشيء إطلاقا، و لا بمن تعبد الأوثان و النيران، و ما اليها، و اختلفوا في زواج الكتابية، أي النصرانية و اليهودية، فقال أصحاب المذاهب الأربعة السنية: يجوز، و استدلوا بهذه الآية، و اختلف فقهاء الشيعة بين مجيز و مانع و مفصل بين الزواج الدائم و المنقطع، فأجاز الثاني، و منع الأول.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠

و نحن مع القائلين بالجواز مطلقا، و مستندنا أولا: الأدلة الدالة على اباحة الزواج بوجه عام. ثانيا: قوله تعالى: «**وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ**».

ثالثا: الروايات الكثيرة عن أهل البيت (ع)، و ذكرها صاحب الوسائل و الجواهر، و وصفها هذا بالمستفيضة، أي بلغت حدا من الكثرة يقرب من التواتر، و نقلنا بعضها في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق.

و تسأل: و ما أنت صانع بقوله تعالى: وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ.

و قوله: وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ؟

الجواب: المشركات غير الكتابيات بدليل عطف المشركين على أهل الكتاب في الآية الاولى من سورة البينة: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ». أما قوله: وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ» فغير صريح في الزواج، لأن الإمساك بالعصم كما يكنى به عن الزواج يكنى به عن غير الزواج أيضا، قال صاحب المسالك: «ان الآية ليست صريحة في ارادة النكاح، و لا فيما هو أعم منه».

(وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ).

بعد أن ذكر سبحانه طرفا من أحكامه و حلاله و حرامه قال: من سمع و أطاع فهو المؤمن حقا، و عمله مقبول، و عليّ أجره و ثوابه، و من جحد أحكامي و شريعتي فهو الكافر الخاسر، فالمراد بالإيمان هنا نفس الأحكام التي يجب الايمان بها، من باب اطلاق المصدر على المفعول، كاطلاق الخلق على المخلوق، و الأكل على المأكول، أما الإحباط فقد تكلمنا عنه مفصلا عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٦.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٦ الى ٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١

اللغة:

المرافق جمع مرفق. و الكعبان عظمان ناشزان يفصلان بين الساق و القدم.

و الجنب ذو الجنابة، و يطلق على المذكر و المؤنث، و المفرد و المثنى و الجمع.

و الغائط المكان المنخفض، و المراد به هنا قضاء الحاجة من المخرجين. و الصعيد وجه الأرض.

الإعراب:

برءوسكم، قيل الباء زائدة، و قيل للإلصاق، و قيل للتبعيض، و يأتي التفصيل في فقرة المعنى. و ما يريد اللّه ليجعل عليكم من حرج مفعول يريد محذوف، و يجعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لفظة اللّه، و من زائدة، و حرج مفعول يجعل، و التقدير ما يريد اللّه ذلك لأن يجعل عليكم حرجا. و مثله يريد ليطهركم.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاٰةِ). أي إذا أردتم القيام الى الصلاة،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢

تماما كما تقول: إذا نمت فاقرأ سورة الفاتحة، و هذا من باب اطلاق السبب على المسبّب.

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ). لا خلاف فيه، سوى ان الشيعة الامامية قالوا:

يجب الابتداء من الأعلى، و لا يجوز النكس، و قال غيرهم: يجوز الغسل كيف اتفق، و الابتداء من الأعلى أفضل.

(وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرٰافِقِ). أيضا لا خلاف فيه إلا ان الشيعة أوجبوا الابتداء بالمرفق، و أبطلوا النكس، كما أوجبوا تقديم اليد اليمنى على اليسرى، و قال السنة: يغسلهما كيف اتفق .. أجل، تقديم اليمنى أفضل، و كذا الابتداء من الأصابع الى المرفق.

و تسأل: ان كلا من السنة و الشيعة قد خالفوا ظاهر الآية، لأن المرافق يجب أن تكون نهاية الغسل لمكان «الى»، مع ان السنة لا يوجبون ذلك، و الشيعة لا يجيزونه، فما هو التأويل؟

و أجاب كثيرون بأن «الى» هنا بمعنى مع مثل قوله تعالى: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ- ٥٢ هود»، أي مع قوتكم .. و الذي نراه في الجواب ان التحديد في الآية للعضو المغسول، و هو اليد، بصرف النظر عن كيفية الغسل من حيث الابتداء و الانتهاء، تماما كقولك: بعتك الأرض من هنا الى هناك، و قطفت ورد الحديقة من هنا الى هنا، و أنت تريد تحديد الكم و المقدار، لا بيان الكيف و الهيئة.

(وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ). قال الحنابلة: يجب مسح الرأس و الأذنين، و يجزي الغسل عن المسح بشرط إمرار اليد على الرأس. و قال المالكية: يجب مسح جميع الرأس دون الأذنين. و قال الحنفية: يجب مسح ربع الرأس، و يكفي إدخال الرأس في الماء، أو صبه عليه. و قال الشافعية: يجب مسح بعض الرأس و لو قل، و يكفي الغسل أو الرش. و قال الشيعة الامامية: يجب مسح جزء من مقدم الرأس، و يكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح، و لا يجوز الغسل و لا الرش .. و عليه يكون معنى الباء الإلصاق على القولين الأولين، و التبعيض على الأقوال الأخيرة الثلاثة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣

(وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ). ورد في الأرجل قراءتان: إحداهما النصب، و الأخرى الخفض. و قال السنة: يجب غسل الأرجل، لا مسحها، لأنها معطوفة على الأيدي، على القراءتين. أما على قراءة النصب فواضح، إذ الأيدي منصوبة لفظا و محلا. و أما على قراءة الجر فللجوار و الإتباع، أي الرؤوس مجرورة، و الأرجل مجاورة لها، فجرت الأرجل لعلاقة المجاورة، تماما كقول العرب:

«جحر ضب خرب» مع العلم بأن خرب يجب رفعه، لأنه صفة للحجر، لا للضب، و لكنه خفض لمجاورته للضب.

و قال الشيعة: يجب مسح الأرجل، لا غسلها، لأنها معطوفة على الرؤوس.

أما على قراءة الجر فواضح، إذ الرؤوس مجرورة بالباء. و أما على قراءة النصب فمعطوفة على محل الرؤوس، لأن كل مجرور لفظا منصوب محلا.

ثم قال الشيعة: ان العطف على الأيدي لا يجوز لأمرين:

الأول: انه خلاف الفصاحة، لوجود الفاصل بين الأيدي و الأرجل، و هو قوله: «وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ» و لو كان الأرجل معطوفة على الأيدي لقال:

«وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» و لم يفصل بين الأيدي و الأرجل بمسح الرأس.

الثاني: ان العطف على الأيدي يستدعي أن يكون لكل قراءة معنى مغاير للآخر، إذ يكون المعنى على قراءة النصب الغسل، و على قراءة الجر المسح ..

و هذا بخلاف العطف على الرؤوس فان المعنى يكون واحدا على القراءتين. بالاضافة الى أن الجر للجوار رديء لم يرد في كلام اللّه إطلاقا.

وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا). يجب الغسل من الجنابة لأمرين: الأول:

نزول المني في نوم أو يقظة. الثاني: إدخال رأس الإحليل في قبل أو دبر، و بالأولى إدخاله كاملا.

و لم يوجب السنة الغسل بكيفية خاصة، و انما أوجبوا أن يعم الماء جميع البدن كيف اتفق.

و قسّم الشيعة الإمامية غسل الجنابة الى نوعين: ترتيب و ارتماس، و الترتيب ان يصب المغتسل الماء على جسمه صبا، و في هذه الحال أوجبوا الابتداء بالرأس،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤

ثم بالجانب الأيمن من الجسم، ثم الأيسر، فلو أخل، و قدّم المؤخر، أو أخر المقدم يبطل الغسل. أما الارتماس فهو غمس تمام البدن تحت الماء دفعة واحدة، فلو خرج جزء منه عن الماء لم يكف.

(وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً). تقدم تفسيره في سورة النساء الآية ٤٣.

ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). الحرج الضيق و المشقة، و الضرر حرج و زيادة، و منه الأذى و المرض و ذهاب المال .. و الإسلام لم يشرع حكما يستدعي أي نحو من الضيق و المشقة، فضلا عن الضرر، فما أمر بشيء الا و فيه خير و صلاح، و ما نهى عن شيء الا و فيه شر و فساد، و إذا كان في الشيء الواحد جانبان: نفع و ضرر، ينظر: فان كان النفع أكبر فهو مطلوب، و ان كان الضرر أكبر فهو منهي عنه، فالعبرة دائما بالأكثر، و مع التساوي فالخيار في الفعل و الترك، قال تعالى:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ- ٢٤ الأنفال».

و قال: «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ- ١٨٥ البقرة».

(وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ). كل من دخل في دين أو حزب فقد قطع عهدا على نفسه أن يستجيب لمبادئه و تعاليمه، و يعمل بها عن رضى و طيب نفس .. و هذا هو الميثاق الذي واثقنا اللّه به نحن المسلمين حين ارتضينا الإسلام دينا، و من قام بهذا الميثاق و أداه كما أمر اللّه فقد و في مع اللّه، و من عصى فقد خان اللّه، و من أظهر معاني الوفاء للّه سبحانه الإخلاص لعباده. و الصدق في معاملتهم، و لا أعرف علامة على الصدق في الدين حقا و

واقعا غير الوفاء .. و أنصح كل انسان ان لا يأتمن أحدا لعلمه أو عبادته، أو لمنصبه و شهرته، بل يأتمنه و يثق به بعد اليقين بصدقه و وفائه.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨ الى ١٠]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ لِلَّهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ الْجَحِيمِ (١٠)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥

اللغة:

القسط العدل. و لا يجرمنكم، أي لا يبعثكم. و الشنآن البغض.

الاعراب:

شهداء حال من الواو في كونوا. هو أقرب مبتدأ و خبر، و ضمير هو يعود على المصدر المتصيد من اعدلوا. وعد اللّه (وعد) تحتاج الى مفعولين الأول الذين آمنوا، و الثاني جملة لهم مغفرة، و قيل: المفعول الثاني محذوف تقديره الجنة، و جملة لهم مغفرة مفسرة لهذا المفعول المحذوف.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ لِلَّهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ). للايمان الصحيح مظاهر تحس و تلمس، و قد حددها اللّه سبحانه، و أوضحها بشتى الأساليب في العديد من آياته، مرّ الكثير منها، و ما يأتي أكثر، و الآية التي نفسرها الآن تقول بلسان مبين: ان كنتم مؤمنين فقوموا للّه، و اشهدوا بالعدل، و معنى القيام له تعالى الصدق و الإخلاص في الأقوال و الأفعال، أما الشهادة بالعدل فليس المراد منها ان نشهد لأعدائنا و أضدادنا بما لهم من حق علينا أو على غيرنا ..

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦

كلا، و ان كان السياق يشعر بذلك، و انما المراد أن يعدل الإنسان في جميع سلوكه، دون استثناء.

فإن كان عالما زمنيا اتخذ من علمه وسيلة للقضاء على أسباب الضعف و التخلف، و توفير أسباب القوة و التقدم، و ان كان «دينيا» دعا الى كلمة اللّه، و هي أن يحسن الإنسان خلافة اللّه في أرضه، و يقاوم كل من ينحرف عن هذا السبيل، و ان كان جاهلا استجاب لأهل العلم و الدين، و وقف الى جانبهم مناصرا و مؤازرا، ما داموا مع الحق و العدل.

هذا هو العدل الذي أمر اللّه به في هذه الآية و غيرها، العدل الذي هو أمل الانسانية و هدفها، و الذي لا تستقيم بدونه حياة .. ان المجتمع قد يعيش من غير علم، اما ان يعيش بلا عدل في جهة من الجهات فمحال، حتى و لو كان جميع أفراده عباقرة و مخترعين .. ان العلم بلا عدل ضرره أكثر من نفعه، أمما العدل فكله نفع، و محال أن يكون فيه للضرر شائبة، و ان وجدت فهي وسيلة لدفع ما هو أعظم ضررا، و أشد خطرا.

(وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ). المراد بالقوم في الآية أعداء الخير و العدل الذين يقاومون كل محاولة لتحرير الانسانية من قيود الضعف و التخلف .. و قد أمرنا سبحانه بالمضي في اقامة العدل و العمل من أجل الحياة غير مهتمين و لا مكترثين بغيظ المنحرفين و دسائسهم، و بعبارة ثانية ينبغي أن نعمل بالمثل:

القافلة تسير، و الكلاب تنبح.

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ). في الآية ٢٥ من سورة البقرة بشر سبحانه المؤمنين العاملين بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، و في الآية ٥٧ من سورة آل عمران بشرهم بأنه تعالى يوفيهم أجورهم، و زاد في الآية ٥٦ من سورة النساء بأن لهم في الجنة أزواجا مطهرة، و يأتي هذا الوعد في بقية السور بأسلوب آخر .. و الهدف في الجميع واحد، و هو الحث و الترغيب في الايمان و العمل كلما دعت المناسبة.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ). بعد أن وعد المؤمنين العاملين بالنعيم توعد الكافرين بالجحيم على طريقته تعالى من تعقيب الترغيب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧

بالترهيب .. و في هذه الآية دلالة واضحة على ان من كفر باللّه فهو من أصحاب الجحيم، و ان لم يدعه الى الايمان نبي أو وصي نبي. ذلك ان آياته تعالى التي تقوم بها الحجة على وجوده لا تختص بما أنزله على رسله، فلقد أقام الدليل الكافي الوافي على وحدانيته و عظمته من الأنفس و السموات و الأرض، فمن يكفر بها تلزمه الحجة: «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ- ٨ الروم».

[سورة المائدة (٥): آية ١١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

الإعراب:

إذ ظرف متعلق بنعمة اللّه. و المصدر المنسبك من: أن يبسطوا، مجرور بالباء المحذوفة، و المجرور متعلق بهمّ.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ). يقال، بسط اليه لسانه إذا شتمه، و بسط اليه يده إذا بطش به، و المراد بالقوم هنا مشركو مكة الذين أرادوا القضاء على الإسلام في بدايته عن طريق البطش بأتباعه قتلا و تعذيبا و تشريدا، ثم إعلان

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨

الحرب و تجييش الجيوش، و لكن اللّه في النهاية نصر المسلمين على أعدائه و أعدائهم، و صاروا أعزاء بعد أن كانوا أذلاء، و حاكمين بعد أن كانوا محكومين، و لا نعمة أعظم من الحرية و النصر على العدو، و بعد أن ذكّر اللّه سبحانه المسلمين بهذه النعمة الجلى وجّه اليهم هذا الخطاب:

(وَ اتَّقُوا اللهَ وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) لا على قوتهم، أي انما منحتكم هذه القوة لتستعملوها في احقاق الحق، لا في احياء الباطل، و في انتشار الأمن و العدل، لا لاستغلال المستضعفين، و التآمر عليهم، و التحكم بهم، كما فعل بكم المشركون من قبل، و كما يفعل أكثر الناس، يطلبون العدالة، و هم ضعفاء، و يتنكرون لها، و هم أقوياء .. ان المؤمن حقا يخشى اللّه و يشكره، و هو قوي أكثر مما يخشاه و يشكره، و هو ضعيف، أو هو في الحالين سواء- على الأقل- أما من آمن بلسانه، دون قلبه فعلى العكس: «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ- ٦٥ العنكبوت».

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩

اللغة:

نقيب القوم من يبحث عن أحوالهم، و المراد به هنا من أسندت اليه أمور القوم و تدبير مصالحهم. و يطلق التعزير على التأديب، و على النصرة، و هو المراد هنا.

و أغرينا أي الصقنا، لأنه مأخوذ من الغراء الذي يلصق بالشيء.

الإعراب:

فبما نقضهم (ما) زائدة، و المجرور متعلق بلعناهم. و قاسية مفعول ثان لجعلنا. و من الذين قالوا متعلق بأخذنا.

المعنى:

تحدث سبحانه في كتابه العزيز عن الكفار و المشركين بعامة، و عن مشركي قريش بصورة خاصة لما لاقاه النبي (ص) منهم، و تحدث عن المنافقين الذين أظهروا الإسلام، و أبطنوا الكفر، و عن اليهود و النصارى، و لكنه تحدث عن اليهود أكثر من الجميع، لأنهم أكثر خلق اللّه عنادا للحق، و حقدا على الانسانية، و مر الكثير عنهم في سورة البقرة، و آل عمران، و النساء، و معظم هذه السورة، أي المائدة فيهم و في النصارى.

(وَ لَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً). ذكر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠

سبحانه انه بعث من بني إسرائيل اثني عشر نقيبا، و لم يبين: هل كان هؤلاء الاثنا عشر زعماء اسباطهم الذين يمثلون ١٢ فرعا من يعقوب، و هو إسرائيل، أو هم أنبياء أو أوصياء؟ لم يذكر اللّه شيئا من ذلك، و نحن نسكت عما سكت اللّه عنه .. اجل، ان الآية صريحة في انه قد كان للّه ميثاق مع بني إسرائيل، يتضمن أن يقوم بنو إسرائيل بأمور خمسة، و ان اللّه يثيبهم بأمرين إذا وفوا، و إذا نكثوا استحقوا منه تعالى الطرد و العذاب، أما الأمور التي التزموا بأدائها و الوفاء بها فهي:

١- اقامة الصلاة. **(لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ)**.

٢- إيتاء الزكاة. **(وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ)**.

٣- الايمان برسل اللّه. **(وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي)**.

٤- نصرة الرسل. **(وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ)**.

٥- بذل المال في سبيل اللّه. **(وَ أَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً)**. و يدل عطف القرض على الزكاة على انه كان الواجب في

أموالهم أمرين: الزكاة، و البذل في سبيل اللّه. و لقاء القيام بهذه الأمور الخمسة التي جاءت شرطا في الميثاق يثيبهم اللّه بأمرين وقعا جزاء لهذا الشرط، و هما:

١- العفو عن السيئات. (لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ).

٢- الجنة. (وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ).

هذا هو ميثاق اللّه مع بني إسرائيل شرطا و جزاء، و بعد ان بيّنه سبحانه خاطبهم بقوله: «فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ السَّبِيلِ». و من ضل الصراط المستقيم فعاقبته الخزي و الخذلان.

(فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ). انهم ينقضون كل عهد الا عدم نقض العهد و الميثاق، و هذه سمة لهم لا تفارقهم أبدا، كما ان لعنة اللّه عليهم لا تنفك عنهم أبدا .. للتلازم و التلاحم بين نقض العهد، و بين لعنة اللّه. (وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً). كل من لا يتقي الشر و المعاصي فميت قلبه. قال الإمام علي (ع):

من قل ورعه مات قلبه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١

و تسأل: كيف نسب سبحانه قسوة قلوبهم اليه؟ أليس معنى هذا انهم غير مسؤولين عن هذه القسوة، لأنها من اللّه، لا منهم؟.

الجواب: ان اللّه بيّن لهم طريق الخير، و أمرهم به، و بيّن طريق الشر، و نهاهم عنه، و أخذ منهم الميثاق على السمع و الطاعة، فأعطوه إياه، ثم خانوا و نكثوا، و أصروا على العصيان و التمرد، فتركهم و شأنهم، و لم يلجئهم إلى عمل الخير، إذ لا تكليف مع الإلجاء، و لأنه تعالى لم يلجئهم صح ان ينسب القسوة اليه، و من أراد زيادة في التوضيح فليرجع الى ما قلناه عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء، فقرة الإضلال من اللّه سلبي، لا ايجابي.

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ). تقدم تفسيره في سورة النساء الآية ٤٥.

(وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ). ذكّروا بالتوراة، فحرفوا منها ما يتنافى مع أهوائهم، و ابقوا ما يشتهون. و إذ نقضوا ميثاق اللّه، و حرّفوا كتابه الذي أنزله اليهم من السماء- فبالأولى أن ينقضوا ما يعطونه من مواثيق للعرب و غير العرب، و ان يحرفوا قرارات الأمم المتحدة و مجلس الأمن.

(وَ لٰا تَزٰالُ تَطَّلِعُ عَلىٰ خٰائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْهُمْ). لم يكتف يهود الجزيرة العربية آنذاك بإنكار نبوة محمد (ص)، حتى تآمروا عليه مع أعدائه، و بيتوا له المكر و الغدر، فخاطبه اللّه بقوله: (لٰا تَزٰالُ تَطَّلِعُ عَلىٰ خٰائِنَةٍ مِنْهُمْ). اي انك لاقيت- يا محمد- الكثير من اليهود، و ستلاقي أيضا الكثير منهم، و ان أحسنت اليهم، لأن المحسن و المسيء عندهم سواء (إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْهُمْ) و هم الذين أسلموا و صدقوا في إسلامهم كعبد اللّه بن سلام و من معه. و رغم ذلك كله فان اللّه أمر نبيه أن يقابل إساءتهم بالإحسان: (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

و تسأل: أبعد أن وصفهم سبحانه بأقبح الأوصاف، و ان الخير لا يرجى منهم بحال، أبعد هذا يأمر نبيه بالصفح و العفو عنهم؟ و هل يعرف اليهود معنى الصفح و العفو؟ و هل يجوز الصفح عن الأفاعي و العقارب؟

و أجيب عنه بأجوبة منها ان ضمير عنهم يعود على القليل منهم الذين أسلموا و أخلصوا. و منها ان هذه الآية منسوخة بآية السيف. و هذان الجوابان محتملان،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢

أما الأول فلأن الضمير بظاهره يعود على الأقرب، و أما الثاني فلوجود النسخ في القرآن.

و يجوز أن يكون الأمر بالصفح عنهم نزل بعد أن قوي الإسلام، و أصبح في حصن حصين لا يضره كيد اليهود و لا غيرهم من الكافرين.

(وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارىٰ أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ). بعد ان بيّن سبحانه حال اليهود من نقض الميثاق و التحريف بيّن حال النصارى و انهم و اليهود سواء من هذه الجهة .. و لكن جل ثناؤه ذكر في الآية السابقة نوع الميثاق الذي نقضه اليهود، و لم يذكر شيئا عن نوع الميثاق الذي أخذه على النصارى، و غير بعيد ان اللّه سبحانه أطلق الكلام بالنسبة الى النصارى لوضوح الميثاق الذي أخذه منهم، و هو التوحيد **(فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)**. و الذي ذكروا به هو الإنجيل الذي أنزله اللّه على عيسى (ع) و ينص صراحة على التوحيد، و على نبوة محمد (ص) باسم أحمد، فحرّفوه تماما كما حرّف اليهود التوراة.

و من أقوى الأدلة على تحريف الإنجيل ان رؤساء الكنيسة و علماء التاريخ في الأناجيل الأربعة التي اعتمدها النصارى في القرن الرابع «قد اختلفوا فيما بينهم فيمن كتب الأناجيل؟ و متى كتبت؟ و بأية لغة؟ و كيف فقدت نسخها الأصلية؟ و هذه الخلافات موجودة بالتفصيل في «دائرة المعارف الفرنسية الكبرى». ذكر هذا و كثيرا غيره صاحب تفسير المنار.

(فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ). و لا شيء يقال في تفسير هذه الجملة خير مما قاله الشيخ أبو زهرة في كتاب «محاضرات في النصرانية».

لذا ننقل عبارته بحروفها:

«لقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف و الشقاق و العداء في التاريخ القديم و الحديث مصداق ما قصه سبحانه في كتابه الصادق الكريم، فقد سال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض، ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله، سواء أ كان ذلك بسبب الخلافات الدينية، أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية، أو بسبب الخلافات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، و في خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات، و لم تخمد هذه الحروب و الجراحات، و هي ماضية الى يوم القيامة، كما قال أصدق القائلين».

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٥ الى ١٦]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)

الاعراب:

جملة يبين لكم حال من رسولنا. و سبل السلام بدل من رضوانه، و يجوز أن يكون مفعولا ثانيا ليهدي، لأن هدى تتعدى تارة الى المفعول الثاني بواسطة حرف الجر مثل هداه الى الخير، و تارة بلا واسطة مثل هداه الخير.

المعنى:

أمر اللّه سبحانه نبيه (ص) و المسلمين جميعا أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ثم ضرب لهم أمثلة من هذا

الجدال ليكونوا على بينة من معناه و مفهومه، من ذلك أن يقول المسلمون لأهل الكتاب: «آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ- ٤٦ العنكبوت»:

«قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ- ٦٣ آل عمران» ..

و هناك آيات تحصي على أهل الكتاب بعض آثامهم، و منها هذه الآية التي نفسرها، فقد ذكرتهم بتحريف التوراة و الإنجيل، و عنادهم لمحمد الذي جاءهم بالهدى و النور.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤

(يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ). المراد بالرسول محمد (ص)، فإنه بيّن لليهود و النصارى فيما بيّن بعض ما أخفوه من الكتاب الذي معهم، فالنصارى أخفوا التوحيد، و هو أساس الدين، و اليهود أخفوا من العقيدة خبر الحساب و العقاب يوم القيامة، و من الشريعة تحريم الربا، و رجم الزاني، كما أخفى اليهود و النصارى معا بعثة محمد: «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الإِنْجِيلِ- ١٥٦ الأعراف».

لقد أطلع اللّه سبحانه محمدا (ص) على كل ما أخفاه و حرّفه اليهود من التوراة، و النصارى من الإنجيل، ثم أخبرهم محمد (ص) بكثير مما كانوا يخفون، و سكت عن كثير مما يعلم من تحريفهم، و هذا معنى قوله تعالى:

«**يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ**». أي يسكت عنه.

و جاء هذا الإخبار من محمد (ص) دليلا قاطعا على نبوته، و معجزة من معجزات القرآن التي لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيها و يشك، لأن النبي (ص) كان أميا لم يقرأ كتابا، و لم يخبره أحد عما في كتب اليهود و النصارى.

و تسأل: لما ذا أخبرهم النبي بالبعض فقط، دون الجميع؟

الجواب: ان الغاية هي اعلامهم بأن الرسول عالم بما يخفون، و هذه الغاية تحصل بالأخبار عن البعض، كما تحصل بالأخبار عن الكل .. هذا، الى انهم إذا علموا بأنه (ص) عالم ببعض ما أخفوه فقد علموا بأنه عالم بالكل.

الإسلام و أنصار السلام:

(قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ). قيل: النور محمد، و الكتاب القرآن. و قيل: هما وصفان للإسلام .. و لا اختلاف بين القولين الا في التعبير، فان محمدا و الإسلام و كتاب اللّه معان متلازمة متشابكة، لا ينفك بعضها عن بعض.

(يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ). أي من رغب في مرضاة اللّه وحده، و طلب الحق لوجه الحق فانه يجد في الإسلام بغيته و مرامه، لأن فيه ثلاث فوائد:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥

١- **(سُبُلَ السَّلامِ)**. و ليس المراد بالسلام خصوص السلام الذي ينشده و ينادي به أنصار السلام من طلب الأمن على الأرواح و الأموال للشعوب، و انما المراد به السلام الكامل الشامل لجميع الشعوب، و الأفراد، و سلام البيت و الأسرة من التربية الفاسدة، و سلام العقل من الجهل و الايمان بالخرافات و الأساطير، و سلام النفس من الطمع و الحقد و الكذب و المكر.

٢- **(وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ)**. أي يخرجهم اللّه بأمره تعالى من ظلمات التعبد للأصنام الى نور

التوحيد الذي يحررهم من كل قيد إلا التعبد للّه الواحد القهار.

٣- **(وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِراٰطٍ مُسْتَقِيمٍ)**. و الصراط المستقيم عند اللّه هو السبيل الذي يجعل الحياة، هذه الحياة، متعة و هناء لا عذابا و شقاء.

و بعد، فهل عند أنصار السلام و غيرهم من الذين ينادون بتنمية الانتاج، و توفير العيش للجميع، هل عند هؤلاء و غير هؤلاء منهج أفضل و أجدى مما عند الإسلام؟. و هل يحبون عباد اللّه أكثر من حب اللّه لعباده، أو انّهم أعلم منه بما يصلح خلقه و يفسده؟ و بالتالي، هل في عقيدة الإسلام، و شريعة الإسلام، و أخلاق الإسلام، أو في حكم واحد من أحكام الإسلام ما يتنافى مع زيادة الانتاج و توزيعه بالحق و العدل؟. ان القرآن أول الدعاة الى حياة أفضل، قال سبحانه في الآية ٩ من الاسراء: «إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ».

قال المفسرون: أي للحالة الأفضل.

و مهما شككت، فاني على علم اليقين ان ما من أحد يدرس الإسلام دراسة صحيحة، أي بكفاءة و تجرد، إلا آمن به و أذعن له، من حيث يريد، أو لا يريد.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٧ الى ١٩]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصٰارىٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مٰا جٰاءَنٰا مِنْ بَشِيرٍ وَ لٰا نَذِيرٍ فَقَدْ جٰاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

الاعراب:

جميعا حال من المسيح و امه و من في الأرض. و على فترة متعلق بمحذوف حالا من الضمير في يبين. و المصدر المنسبك من أن تقولوا مجرور باضافة مفعول له محذوف، و التقدير مخافة قولكم ما جاءنا من بشير.

المعنى:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ). قد نفهم ان أحكام الشرائع الوضعية تتغير بتغير الأزمان، أما ان تتغير اصول العقيدة الدينية بتغير الظروف و الأوقات فبعيد عن فهم كل عاقل .. و لكن هذا ما حدث بالفعل للعقيدة المسيحية، فقد ابتدأت هذه العقيدة بالتوحيد الخالص في عيسى (ع)، و بقيت على التوحيد أمدا غير قصير فرق من المسيحيين، منها فرقة ابيون، و فرقة بولس الشمشاطي، و فرقة أريوس، و قد نص القرآن صراحة على ان

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧

عيسى (ع) أتى بعقيدة التوحيد:

«وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ. قٰالَ سُبْحٰانَكَ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ. إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِي وَ لٰا أَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُيُوبِ. مٰا قُلْتُ لَهُمْ

إِلاَّ مٰا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» (١١٥ المائدة).

و ظلت عقيدة التوحيد عند كثير من المسيحيين، و لم تعلن عقيدة التثليث مدعومة بالقوة الى سنة ٣٢٥ م حيث أصدر مجمع نيقية قرارا بإثبات ألوهية المسيح، و تكفير من يقول: انه انسان، و حرق جميع الكتب التي تصفه بغير الألوهية، و نفذ قسطنطين امبراطور الرومان هذا القرار، و أصبح المسيح إلها عندهم بعد أن كان بشرا، و صدق عليهم قول الفيلسوف الصيني (لين يوتانغ):

ان الاغريق جعلوا آلهتهم مثل الرجال، أما المسيحيون فقد جعلوا الرجال مثل الآلهة «١».

و بهذا يتبين معنا ان الاعتقاد بألوهية عيسى (ع) كان قبل نزول القرآن بحوالى ثلاثة قرون- اذن- يكون المعنى المراد من قوله تعالى: **(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ)** المعنى الظاهر من اللفظ، و لا داعي للتأويل بالحلول و الاتحاد، كما فعل كثير من المفسرين القدامى زاعمين ان أكثر النصارى لا يقولون بربوبية عيسى، بل يقولون: ان اللّه حل به، أو اتحد معه، و عليه فلا تعدد .. و قال صاحب تفسير المنار: «ان أمثال الزمخشري و البيضاوي و الرازي لا يعتد بما يعرفون عن النصارى، لأنهم لم يقرءوا كتبهم، و لم يناظروهم فيها». و صدق صاحب المنار، فان من يرجع الى كتبهم يجدها صريحة في التثليث، و نقل الشيخ أبو زهرة الكثير منها في كتاب «محاضرات في النصرانية»

---

(١). المجامع عند النصارى تنقسم الى ثلاثة اقسام: مجامع مسكونية، اي تجمع رحال الكنيسة في جميع أنحاء المعمورة، و هذه حكمها لا يرد، و مجامع ملية، اي تختص بملة دون ملة، و مجامع اقليمية، اي خاصة باقليم دون إقليم .. و تجدر الاشارة الى ان أبا حنيفة يقول: ليس للّه احكام واقعية، و ان حكمه ما يراه المجتهد بالذات، اي ان حكم اللّه واقعا ما حكم به الفرد فضلا عن الجماعة و المجامع. [.....]

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨

و عقد في هذا الكتاب فصلا خاصا بعنوان «النصرانية كما هي عند النصارى و في كتبهم»، و مما جاء فيه ان القس بوطر ألّف رسالة أسماها «الأصول و الفروع» قال فيها: «ان في اللاهوت ثلاثة أقانيم، و لكل منهم عمل خاص في البشر».

و تقدم الكلام عن الأقانيم الثلاثة عند تفسير الآية ٥٠ من النساء.

الاشاعرة و النصارى:

و تسأل: ان النصارى يؤمنون بالتثليث و الوحدانية في آن واحد، لأنهم يقولون «بسم الأب و الابن و الروح القدس إلها واحدا»، فكيف يمكن الجمع بين الوحدانية و التثليث، كيف يكون الواحد ثلاثة، و الثلاثة واحدا؟

و أجاب المسيحيون أنفسهم عن ذلك بأن العقيدة فوق العقل، و هم يربون صغارهم على ذلك، و يقولون لهم: إذا لم تفهموا هذه الحقيقة الآن فإنكم سوف تفهمونها يوم القيامة.

و بهذه المناسبة نشير الى أن الأشاعرة من المسلمين قالوا: ان اللّه قد أراد الكفر به من العبد، و مع ذلك يعاقبه عليه .. فإذا كان قول النصارى: الثلاثة واحد غير معقول فان قول الأشاعرة: اللّه يفعل الشيء ثم يعاقب عبده عليه غير معقول أيضا.

أما المسلمون فيؤمنون ايمانا جازما بأن كل ما يقره العقل يقره الدين، و ما يرفضه العقل يرفضه الدين، و يروون عن

نبيهم انه قال: أصل ديني العقل ..

و ان رجلا سأله عن معنى البر و الإثم؟ فقال له: استفت قلبك، البر ما اطمأنت اليه النفس، و اطمأن اليه القلب، و الإثم ما حاك في النفس، و تردد في الصدر، و ان أفتاك الناس و أفتوك.

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً). هذه الآية من أقوى الردود على المسيحيين، و أصدق الأدلة على عدم ألوهية المسيح، لأن اللّه سبحانه إذا ملك القدرة على هلاك المسيح فلا يكون المسيح، و الحال هذه، إلها، و ان لم يملك اللّه القدرة على هلاكه فلا يكون اللّه إلها، و المفروض انه إله، فيكون قادرا على هلاك المسيح.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩

و رب قائل يقول: ان هذه الآية لا تصلح ردا على النصارى فضلا عن انها من أصدق الأدلة، لأنها دعوى مجردة عن الدليل .. فللنصارى أن يقولوا:

ان اللّه لا يقدر على هلاك المسيح، و لا المسيح يقدر على هلاك اللّه، لأن كلا منهما إله؟.

الجواب: ان المسيحيين متفقون قولا واحدا على أن اليهود قد صلبوا المسيح و آذوه و أماتوه و قبروه تحت الأرض، و على ذلك نصت أناجيلهم، منها ما جاء في إنجيل متى إصحاح ٢٧ رقم ٥٠: «و صرخ أيضا يسوع بصوت عظيم و أسلم الروح». و ما جاء في إنجيل لوقا إصحاح ٢٣ رقم ٤٦: «و نادى يسوع بصوت عظيم قائلا يا أبت في يدك استودع روحي و لما قال هذا أسلم الروح». و ما جاء في إنجيل يوحنا إصحاح ١٩ رقم ٣٣ و ٣٤ «و اما اليسوع فلما انتهوا اليه و رأوه قد مات لم يكسروا ساقيه، و لكن واحدا من الجند فتح جنبه بحربة، فخرج للوقت دم و ماء» أي خرج من جنب المسيح بعد موته .. و إذا كان اليهود قد أهلكوا المسيح فبالأولى أن يقدر اللّه على هلاكه و هلاك أمه.

(وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ). ان قولهم هذا تماما كقولهم الذي حكاه اللّه عنهم في الآية ١١١ من سورة البقرة: «وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى». و تجد تفسير هذه الآية في ج ١ من هذا التفسير ص ١٧٧ و ١٧٨ .. و تجدر الاشارة الى عقيدة الإسلام التي تقول: لا فضل لإنسان على انسان إلا بالتقوى، و ان النطق بكلمة الإسلام من حيث هو ليس بشيء إلا مع العمل الصالح.

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ). و تسأل: ان هذا لا يصلح جوابا لليهود و النصارى عن زعمهم بأنهم أبناء اللّه و أحباؤه، لأن لهم أن يقولوا: ان اللّه لا يعذبنا في الآخرة، و إذا لم يكن لديهم دليل محسوس على عدم عذابهم في الآخرة فلا دليل محسوس أيضا على عذابهم في ذلك اليوم؟.

الجواب: ان المراد بالعذاب ما يعم عذاب الدنيا و عذاب الآخرة .. و اللّه سبحانه قد عذب اليهود في الدنيا على يد الفراعنة، و بختنصر و الرومان و غيرهم.

(انظر ج ١ من هذا التفسير ص ٩١). أما عذاب النصارى فهو أدهى و أمر،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠

لأنه في الدنيا كان بمحاربة بعضهم بعضا، و تنكيل بعضهم ببعض .. و بديهة ان الأب لا يعذب أبناءه، و المحب لا يعذب أحباءه.

أما الدليل على عذابهم في الآخرة فقد أشار اليه سبحانه بقوله: **(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ)** لا تمتازون عن غيركم في شيء .. كل

الناس من آدم، و آدم من تراب كما قال رسول اللّه (ص). **(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ)** ممن يراه أهلا لمغفرته **(وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ)** ممن يراه مستحقا لعذابه، و ليس لأحد أن يفرض عليه الغفران، أو يمنعه من العذاب.

(وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما). لأنه خالق الكون، و من كان كذلك فهو غني عن الأبناء و الأحباء. **(وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)**. و هناك يعلم اليهود و النصارى انهم أبغض عباد اللّه للّه، و أكثرهم عذابا على افترائهم الكذب بأنهم أبناء اللّه و أحباؤه.

(يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ). أي بعد انقطاع الوحي أمدا من الزمن، و احتياج الناس الى الأنبياء و المرشدين، قال الإمام علي (ع): «بعثه و الناس ضلّال في حيرة، و خابطون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء، و استزلتهم الكبرياء، و استخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى من زلزال في الأمر، و بلاء من الجهل، فبالغ (ص) في النصيحة، و مضى على الطريقة، و دعا الى الحكمة و الموعظة الحسنة».

(أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ) و لم يترك اللّه لكم حجة و لا معذرة، و هذه الآية بمعنى الآية ١٦٥ من سورة النساء:

«رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» و مر تفسيرها. **(وَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**. يقدر على نصرة محمد (ص)، و إعلاء كلمة الإسلام، و ان جحده اليهود و النصارى.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (٢٠) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (٢١) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (٢٢) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِما ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما داموا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (٢٤)

قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٢٥) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٢٦)

اللغة:

الجبار للمبالغة. و يستعمل في إصلاح الأمور، يقال: جبر كسره إذا أصلحه.

و جبر الفقير إذا أغنيه، و أيضا يستعمل في ذم الإنسان المتكبر المتعاظم و هذا هو المراد هنا. و إذا وصف ذو الجلال به فالمراد به العالي الذي لا ينال، حتى العقول تعجز عن ادراك كنهه و حقيقته، و من ذلك قول العرب: نخلة جبارة، إذا طالت و علت و قصرت الأيدي عن تناولها. و التيه الحيرة. و الأسى الحزن له أو عليه.

الاعراب:

فتنقلبوا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لوقوع الفعل في جواب النهي. و ما داموا (ما) مصدرية ظرفية، و المصدر المنسبك بدل بعض من أبدا. و ها هنا.

(ها) للتنبيه، و هنا ظرف متعلق بقاعدون. و أربعين سنة ظرف متعلق بمحرمة.

و جملة يتيهون حال من الضمير في عليهم.

المعنى:

هذه الآيات حلقة من قصة بني إسرائيل التي ذكرها سبحانه متفرقة في العديد من سور القرآن، و كرر بعض حلقاتها مرات، و هي- كما ترى- ظاهرة الدلالة، واضحة المعنى:

(وَ إِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ). ذكرهم موسى (ع) بنعم اللّه عليهم تمهيدا لما سيأمرهم به من الجهاد، وعدّ من هذه النعم ثلاثا: الأولى ان اللّه جعل فيهم أنبياء. الثانية: انه جعلهم ملوكا، أي مستقلين يحكمون أنفسهم بأنفسهم، و لا نعمة أعظم من الحرية. الثالثة: انه عاملهم بما لم يعامل به أحدا من الناس، فأهلك عدوهم من غير جهاد و قتال، و أنزل عليهم المن و السلوى بلا حرث و لا حصاد، و أخرج لهم المياه العذبة من الحجر بلا حفر و تنقيب، و أظل فوقهم الغمام بلا بناء و عناء.

و بهذه النعم الثلاث نجد تفسير الآية ٤٧ من سورة البقرة: «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم و اني فضلتكم على العالمين». فالتفضيل على أهل زمانهم كان بإرسال الأنبياء منهم، و باستقلالهم، و انزال المن و السلوى عليهم، و ما اليه. و بتعبير ثان ان التفضيل لم يكن بالأخلاق و المناقب، بل بكيفية المعاملة معهم.

(يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ- أي وعد- **اللهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ)**.

بعد أن ذكرهم موسى بنعم اللّه عليهم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣

أمرهم بغزو فلسطين، و كان فيها الحيثيون و الكنعانيون، و أمرهم بالصبر و الثبات في القتال، و كان اللّه قد وعدهم السكنى بها في ذلك العهد. فقول موسى: «كتب اللّه لكم» اشارة الى هذا الوعد، و ليس معناه ان فلسطين ملك طلق لهم، كما يزعم اليهود.

و لكن قوم موسى قالوا له جبنا و ضعفا: **(يا مُوسىٰ إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ)**. فهم يريدون نصرا رخيصا و مريحا، لا يكلفهم قتيلا و لا جريحا، تماما كإغراق عدوهم فرعون ... و لكن رجلين صالحين منهم قاما فيهم مرشدين يحثانهم على السمع و الطاعة للّه و لرسوله، و اليهما أشار سبحانه بقوله:

(قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِما- أي بالايمان- **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)**.

أي اغزوا القوم في عقر دارهم، فيذلوا و ينكسروا، على أن تكونوا متوكلين حقا على اللّه، كما هو شأن المؤمنين المخلصين. و لكنهم عادوا الى جبلتهم من العناد و التمرد و القحة و الصلافة.

و **(قالُوا يا مُوسىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما داموا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ)**. أ رأيت الى هذه الجرأة على اللّه و رسوله؟ .. الى هذه الوقاحة و الصلافة: «اذهب أنت و ربك» .. انه ربهم إذا خدم مصالحهم الشخصية، و لم يكلفهم بما يزعجهم، و قتل أعداءهم .. و هم (قاعدون) سالمون آمنون، أما إذا انزعج خاطرهم بأدنى

تكليف فهو رب موسى، و ليس بربهم .. و معنى هذا في واقعه ان أهواءهم و شهواتهم وحدها هي ربهم و إلههم الذي يستحق منهم العبادة و التقديس بحمده.

و الحق ان هذه الظاهرة لا تخص اليهود وحدهم، بل تشمل كل من عبد اللّه على حرف .. و ما أكثرهم في المسلمين و النصارى.

(قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَ أَخِي). هذا التوجه من موسى الى ربه يشعر بالشكوى من غربته بين قومه بعد الجهد الجهيد، و العناء الطويل من أجلهم .. **(إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَ أَخِي)** و لا ملك و لا أمر لمن لا يطاع:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤

(فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ). لم يجد موسى بدا من الطلب اليه تعالى ان يفصل و يباعد بينه و بين قومه بعد نكولهم عن عهد اللّه و ميثاقه.

(قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ). هذا هو جزاؤهم: التيه في صحراء سيناء الجرداء، يسيرون فيها لا يهتدون الى طريق الخروج، و لا يدرون أين المصير .. و هكذا يضربون في مجاهلها أربعين عاما، حتى يفنى كبراؤهم، و ينشأ بعدهم جيل جديد.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٢٧ الى ٣١]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)

اللغة:

القربان مصدر كالشكران و الكفران، و المراد به هنا اسم المفعول، أي الشيء

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥

الذي يتقرب به الى اللّه من الذبائح و غيرها، فهو مثل الخلق حيث أريد به المخلوق. و البسط المد ضد القبض. و باء بوءا، أي رجع رجوعا. فطوعت له نفسه، أي زينت له نفسه. و السوأة ما يسوء ظهوره. و الويل حلول الشر، و الويلة تستعمل في الفضيحة، و هذا المعنى هو المراد هنا، فكأنه قال: وا فضيحتاه.

الإعراب:

إذ قربا قربانا، أي قرب كل واحد منهما قربانا، مثل قوله تعالى:

فاجلدوهم ثمانين جلدة، أي اجلدوا كل واحد منهم. و كيف حال من الضمير في يواري. و جملة يواري مفعول ثان ليريه. يا ويلتا ليس النداء هنا للآدميين بل للويل نفسه، أي يا ويل احضر هذا وقتك. و كذا وا عجباه، أي أيها العجب هذا وقتك.

المعنى:

لقد حاك القصاص، و كثير من المفسرين الأساطير من قصة ابني آدم هذين ..

و لا مصدر إلا الاسرائيليات. و نحن نلخص ما دل عليه ظاهر الآيات بما يلي:

لقد كان المتنازعان ابني آدم من صلبه مباشرة، كما هو الظاهر، و لكن اللّه سبحانه لم يصرح باسمهما، و قال المفسرون و المؤرخون: ان اسم القاتل قابيل، و اسم المقتول هابيل .. و سبب النزاع و الشقاق ان كلا منهما قرب قربانا للّه سبحانه، فتقبله جل ثناؤه من هابيل، و لم يتقبل من قابيل .. و لم تذكر الآيات نوع القربان، و لا كيفية التقبل من ذاك، و الرفض من هذا.

فثارت حفيظة قابيل، و هدد أخاه بالقتل. فقال له هابيل: انت الجاني على نفسك، و لا لوم عليّ، لأن اللّه تعالى يتقبل من المتقين، و لست منهم، و ان أردت قتلي فلا أقابلك بالمثل، و كفاك جرما إن فعلت أن ترجع بإثم قتلي، و اثمك الذي كان السبب في عدم قبول قربانك.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦

و لكن هذه الكلمات لم تترك أثرا في نفس قابيل، بل على العكس زادت من نقمته، و نفّذ الخطة عامدا، و بعد أن صار أخوه جثة هامدة لم يعرف كيف يواريها، فبعث اللّه غرابا، فحفر برجليه و منقاره حفرة، فلما رآها القاتل زالت حيرته و اهتدى الى دفن أخيه من عمل الغراب .. و لكنه عض يده ندامة بعد أن أدرك فداحة الخطب، كما أدرك انه دون الغراب معرفة و تصرفا.

هذا هو موجز القصة، كما دلت عليها الآيات .. و بهذه المناسبة نشير الى خلاف معروف بين علماء الأخلاق منذ القديم، و هو، هل الإنسان شرير بالطبع، أو خيّر بالطبع؟. و حاول كثير من المفسرين أن يستدلوا بهذه القصة على انه شرير بالطبع.

و الصحيح ان في كل انسان استعدادا للخير و الشر بفطرته، حتى خير الأخيار، و شر الأشرار، و الفرق ان في بعض الأفراد مناعة من عقل رصين، أو دين متين يكبح نزواتهم الى الشر، و يندفع البعض الآخر مع شهواته لضعف في دينه، أو عقله.

[سورة المائدة (٥): آية ٣٢]

مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا النّٰاسَ جَمِيعاً وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

اللغة:

من أجل ذلك، أي بسبب ذلك. و الإسراف التجاوز عن حد الاعتدال.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧

الإعراب:

من أجل ذلك متعلق بكتبنا. و انه (الهاء) ضمير الشأن، و المصدر المنسبك من ان و ما بعدها مفعول كتبنا. و من شرطية. و بغير متعلق بمحذوف حالا من الضمير في قتل. و بعد ظرف متعلق بمسرفون.

المعنى:

(مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ). لقد كشفت قصة ولدي آدم ان في الناس نوعين: معتديا و معتدى عليه .. و

لحماية هذا من ذاك، و صيانة الحياة و نظامها جعل اللّه لكل معتد عقوبة يستحقها، و اعتبر قتل الأبرياء جريمة الجرائم كلها، فقوله تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ) اشارة الى جريمة القتل من حيث هي، و ليس اشارة الى قصة قابيل مع أخيه هابيل، و ان كانت هي السبب الباعث على التشريع، تماما كما تشرع السلطة قانونا عاما بسبب حادثة خاصة.

و تسأل: ان عقوبة القتل تعم بني إسرائيل و غيرهم، فما هو القصد من تخصيصهم بالذكر؟

الجواب: أجل، ان هذه العقوبة و غيرها عامة لهم و لغيرهم، و لكن اللّه سبحانه خص اليهود بالذكر لأنهم أجرأ خلق اللّه على قتل عباده، و اراقة دمائهم، و بذلك تشهد توراتهم التي أباحت لهم قتل النساء و الأطفال، و يشهد عليهم قتلهم الأنبياء في تاريخهم القديم، و سيرتهم في فلسطين في تاريخهم الحديث.

(أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ). أي أو غير فساد في الأرض عطفا على نفس، لا على غير، و المعنى يجوز شرعا قتل من قتل غيره عدوانا، و أيضا يجوز قتل من سعى في الأرض فسادا جزاء وفاقا، و صيانة لحياة الناس و أمنهم.

أما من يقتل نفسا بريئة مسالمة (فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً). اختلف المفسرون و غير المفسرين في الوجه المبرر لتشبيه القتل الافرادي بالقتل الجماعي، و احياء الفرد باحياء الناس جميعا ..

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨

فمن قائل: انه مبالغة في الردع عن جريمة القتل، و الحث على إنقاذ النفس و تخليصها من المهلكات، كالغرق و الحرق، و ما اليهما من اغاثة الملهوف. و من قائل: انه بيان لحقيقة القاتل و المحسن، بأن من أقدم على قتل واحد يقدم على قتل الناس جميعا، تماما كما يقولون: «من يسرق البيضة يسرق الجمل» «١» و ان من أحسن الى واحد من الناس يحسن للجميع، ما دام الدافع له حب الخير و الإحسان. و قال آخرون: انه بيان للطبيعة النوعية في الإنسان، و انها تتمثل في البعض و الكل على السواء، لا تزيد بكثرة الأفراد، و لا تنقص بقلتهم.

و الذي نفهمه من الآية ان الفرد في نظر الإسلام هو غاية بنفسه، لا وسيلة الى غيره، و انه ظاهرة انسانية، له ما لها من الحرمة و الكرامة، و ان العدوان عليه عدوان على الانسانية التي تتمثل به و بالناس جميعا، و ان الإحسان اليه احسان الى الناس جميعا.

و تسأل: ان هذا تضخيم خيالي لذات الفرد، و تضحية بالجماعة من أجله، مع ان العكس هو الحق و العدل؟

الجواب: ليس المراد بمصلحة الفرد المصلحة التي تطغى على مصلحة الجماعة، و تتنافى معها، و لا المراد بالفرد الذي يحاول العيش على حساب غيره من الناس ..

ان هذا لا يعد إنسانا بالمعنى الصحيح، بل هو أعدى أعداء الانسانية في نظر الإسلام، و الى هذا يومئ قوله تعالى: (أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ). و انما المراد بالفرد الذي يستمد مصلحته من مصلحة الجماعة، و يرى حياته بحياتها، و كرامته بكرامتها. كما ان المراد بمصلحة الجماعة مصلحة جميع أفرادها، لأن الجماعة ليست مجموعة أصفار، و انما هي مجموعة أفراد .. فأية جماعة يوجد فيها ضعيف واحد يخاف على حق من حقوقه فهي ضعيفة في كيانها، فاسدة في أوضاعها، تماما كالجسم إذا فسد بعض أعضائه، أو البيت إذا انهدم ركن من أركانه.

و على هذا تكون مصلحة الفرد و الجماعة متكاملتين، يملأ بعضهما بعضا، و لا تنفك إحداهما عن الأخرى.

(١). رأيت هذا بالحرف في بعض الأحاديث المروية عن النبي (ص).

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩

(وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ). أي ان رسل اللّه قد بلغوا اليهود حكم اللّه سبحانه، و قالوا لهم بوحي منه: من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا .. و لكن الكثير من اليهود لم يكترثوا بهذا التحذير، و مضوا مسرفين في سفك الدماء و انتهاك الحرمات .. و قوله تعالى: (بَعْدَ ذلِكَ) اشارة الى انهم فعلوا ما فعلوا بعد إقامة الحجة عليهم، و انقطاع كل عذر يمكن أن يتذرعوا به .. و هذا هو موقف القرآن من كل جاحد يحتج عليه بمنطق الحق، و يدعوه اليه بالحكمة، حتى إذا أصر على جحوده كان إصراره عنادا للحق بالذات، لا لشخصية الداعي.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

اللغة:

تقطيع الأيدي و الأرجل من خلاف معناه إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى، و العكس بالعكس، و الخزي الذل و الفضيحة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠

الإعراب:

جزاء مبتدأ. و فسادا مصدر وضع موضع الحال من الواو في يسعون، أي يسعون في الأرض مفسدين. و المصدر المنسبك من أن يقتلوا خبر جزاء. و من خلاف متعلق بمحذوف حال من أيديهم و أرجلهم. و ذلك مبتدأ أول، و خزي مبتدأ ثان، و خبره لهم، و المبتدأ الثاني مع خبره خبر المبتدأ الأول، و في الدنيا متعلق بمحذوف صفة لخزي. و إلا الذين في محل نصب على الاستثناء المتصل من واو يحاربون.

المعنى:

(إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً) المراد بمحاربة اللّه و رسوله ان الاعتداء على الناس اعتداء على اللّه و الرسول، و من أجل هذا كانت عقوبته حدا من حدود اللّه. و المراد بالفساد في الأرض هنا قطع الطريق، و تلتقي في هذه الجريمة عدة جرائم: إخافة الآمنين و التمرد على الحكم، و المجاهرة بالإجرام، و إراقة الدماء، و نهب الأموال، و قد يكون فيها هتك الأعراض. و من أجل ذلك جعل اللّه جزاء قطاع الطريق ما أشار اليه بقوله: (أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ). المراد بالمفسد هنا كل من جرد السلاح لاخافة الناس بالضرب أو القتل أو السلب أو

الاهانة أو الاعتداء على الأعراض، مسلما كان أو غير مسلم، فعل ذلك في بر أو بحر، في ليل أو نهار، في مصر أو غير مصر، تسلح بسيف أو مسدس أو عصا أو حجارة، فالعبرة باخافة الناس على أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، و نصت الآية على أربع عقوبات:

١- القتل، و جاء بصيغة المبالغة اشارة الى ان القتل حتم لا بد منه، و لو ان قاطع الطريق قتل نفسا، و عفا عنه ولي المقتول فلا يعفى عنه، قيل للإمام

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥١

أبي جعفر الصادق (ع): أ رأيت لو أراد أولياء المقتول أن يأخذوا الدية، و يدعوه، ألهم ذلك؟ قال: لا، عليه القتل.

٢- الصلب، و المبالغة فيه كالمبالغة في القتل، أما كيفيته فما هو معروف عند الناس.

٣- قطع الأيدي و الأرجل من خلاف، أي إذا قطعت اليد اليمنى قطعت الرجل اليسرى، و المبالغة فيه أظهر من المبالغة في القتل و الصلب لتكرار القطع.

٤- النفي إلى بلد ناء عن بلده يحس فيه بالغربة و التشريد، و قال أبو حنيفة:

المراد بالنفي السجن ..

و علق صاحب المنار على هذا بقوله: «و هو أغرب الأقوال».

و اختلفت المذاهب الاسلامية في كيفية تنفيذ هذه العقوبات الأربع: هل تنفذ على سبيل التخيير أو التعيين لكل حسب جرمه، و مقدار إفساده؟.

قال الشيعة الإمامية: ان (أو) تدل بظاهرها على التخيير، و عليه يترك الأمر لاجتهاد الحاكم في تنفيذ ما تدرأ به المفسدة، و تقوم به المصلحة من القتل أو الصلب أو القطع أو النفي. و قريب من هذا قول المالكية.

و قال الشافعية: ان هذه العقوبات تختلف باختلاف الجنايات، فمن اقتصر على القتل قتل، و من قتل و أخذ المال قتل و صلب بعد القتل ثلاثة أيام، و من أخذ المال فقط قطع من خلاف، و من أخاف السبيل، دون أن يقتل أو يأخذ المال نفي.

و قال الحنفية: ان أخذ المال و قتل فللحاكم الخيار، ان شاء قطع من خلاف و ان شاء قتل و لم يصلب، و ان شاء جمع بين القتل و الصلب، و صفة الصلب عنده أن يصلب حيا، و يبعج بطنه برمح إلى أن يموت، و لا يصلب أكثر من ثلاثة أيام.

(إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

إذا تاب قاطع الطريق من تلقائه، و قبل القبض عليه سقطت عنه العقوبة، لأن الحكمة من العقوبة أن يرتدع المجرم عن الفساد، فان ارتدع من نفسه لم يبق لها من موجب، و هذا أصدق مثال على انسانية الشريعة الإسلامية و عظمتها.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٢

و تجدر الإشارة إلى أن التوبة قبل الظفر بالجاني تسقط عنه العقوبة الأدبية، أما الحقوق المادية للناس فيطالب بها، فإن سلب مالا فعليه ارجاعه أو إرجاع بدله من المثل أو القيمة إذا كان قد تلف، و ان قتل، فلأولياء المقتول أن يقتلوه به إن شاءوا.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٣٥ الى ٣٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي

الأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٧)

اللغة:

الوسيلة الوصلة و القربة، تقول توسلت اليه، أي تقربت اليه.

الإعراب:

ما في الأرض اسم أن. و لهم خبرها، و المصدر المنسبك من أن و ما بعدها فاعل لفعل محذوف، أي لو ثبت ان لهم، و «لو و جوابها» خبر إن الذين.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٣

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ان تقوى اللّه، و ابتغاء الوسيلة اليه، و الجهاد في سبيله، كل هذه تعبر عن معنى واحد، أو عن معان متلازمة متشابكة، لأن تقوى اللّه اتقاء سخطه، و ابتغاء الوسيلة اليه طلب مرضاته، و الجهاد في سبيله يشمل الأمرين ..

و أفضل ما يتوسل به المتوسلون الى اللّه حب الناس، و العمل من أجلهم، و قرأت كلمة لكاتب كبير تقول: «محال أن يعرف حقيقة الناس من لا يحب الناس».

و نزيد عليها: و محال أن يحب اللّه من لا يحب الناس.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً، وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ). يضحي الإنسان بجميع ما يملك للخلاص من أسقامه و آلامه في حياته هذه، فكيف بنار جهنم. **(ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ)**.

انما يقبل الفدية من يفتقر اليها، و للّه ملك السموات و الأرض. **(يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ)**. و هذا نص قاطع على أن من جحد الخالق، أو عبد سواه، فهو مخلد في النار. **(وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها)**. و في الآية ٢٠ من سورة السجدة: كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ». و هناك جرائم لا تقل إثما و عذابا عن الكفر باللّه، كسلب الشعوب أقواتها و مقومات حياتها، و قتل النفس، لأنها أبت إلا أن تعيش حرة كريمة.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللهِ وَ اللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٤

الاعراب:

و السارق و السارقة مبتدأ، و الخبر فاقطعوا، و جاز دخول الفاء على الخبر لأن الألف و اللام في السارق و السارقة بمعنى اسم الموصول، فكأنه قال، من سرق فاقطعوا. و عن سيبويه ان الخبر محذوف. و الظاهر من أيديهما ان السارق تقطع يداه الاثنتان، لأن أيديهما جمع، و الجمع يصدق على الثلاثة و ما فوق، و لو كان المقصود قطع الواحدة لقال يديهما، و لكن هذا الظاهر متروك بالسنة النبوية و الإجماع على قطع الواحدة، كما ان عموم السارق و السارقة يقتضي قطع كل سارق و سارقة، و لكن هذا العموم متروك كما يتضح مما يأتي. و جزاء مفعول من أجله لإقطعوا. و نكالا بدل من جزاء.

المعنى:

(وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ). المراد بالنكال هنا العقوبة الدنيوية .. و مهما اختلفت الشرائع السماوية و الأرضية في تحديد الجريمة، و نوع العقوبة، و شروط تنفيذها فإنها تتفق على أن الهدف منها ردع المجرم عن الاجرام حفظا للأمن و صيانة للمصالح، قال الإمام علي (ع):

«السلطان وزعة اللّه في أرضه». و لا يلتفت إلى قول بعض الفقهاء: ان الهدف من العقوبة مجرد سقوط العذاب عن المجرم في الآخرة .. أجل ان اللّه أعدل و أرحم من أن يجمع بين عقوبتين على جرم واحد. و لقطع يد السارق شروط:

١- أن يكون المسروق في حرز، و يخرجه السارق منه، فمن سرق سيارة- مثلا- من كاراج مقفل يحد، و يرجع السيارة إلى أهلها، و من سرقها من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٥

الطريق، أو من كاراج غير مقفل فلا يحد، بل يعزر بما يراه الحاكم، و يرجع المسروق إلى صاحبه. و لا خلاف في ذلك.

٢- اتفقوا على أنه لا قطع إلا في ربع دينار أو أكثر. و قال أبو حنيفة:

بل في دينار.

٣- أن يكون السارق بالغا، لحديث: «رفع القلم عن الصبي، حتى يحتلم، و عن المجنون، حتى يفيق، و عن النائم، حتى يستيقظ». و قال المالكية: لا فرق بين الصغير و الكبير.

٤- أن يكون السارق عاقلا، لحديث «رفع القلم».

٥- اتفقوا على ان الوالد لا يقطع إذا سرق من مال ولده، لحديث:

«أنت و مالك لأبيك» و قالت المذاهب الأربعة، و بعض فقهاء الشيعة: الأم مثل الأب. و قال الحنفية و الشافعية و الحنابلة: لا يقطع أحد الزوجين بسرقة مال الآخر. و قال المالكية: لا يقطع إذا سرق من بيت يسكنان فيه معا، و إلا قطع. و قال: الشيعة: يقطع إطلاقا إلا إذا سرقت الزوجة لنفقتها و نفقة أولادها.

٦- أن لا تكون السرقة في عام المجاعة، فإذا سرق الجائع مأكولا، حيث لا وسيلة لسد حاجته إلا السرقة فلا حد عليه.

أما كيفية القطع فقد اتفقت المذاهب الأربعة على ان الكف اليمنى تقطع من المفصل. و قال الإمامية: تقطع أصابعه الأربع من الكف اليمنى، و تترك الراحة و الإبهام. و هناك مسائل كثيرة تتصل بهذا البحث ندعها لكتب الفقه، و منها الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق.

(فَمَنْ تَابَ - من السارقين - **مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**. قال السنة: توبة السارق لا تسقط عنه الحد. و قال الشيعة الإمامية: إذا تاب السارق من تلقاء نفسه، و قبل أن تثبت السرقة عليه عند الحاكم فلا حد عليه. و وافقهم على ذلك صاحب تفسير المنار، قال: «و إذا قيست السرقة على الحرابة- أي قطع

الطريق- فالقول بسقوط الحد ظاهر، إن تاب السارق قبل رفع أمره إلى الحاكم».

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٦

و اتفقوا على ان التوبة لا تسقط الحق الشخصي للمسروق منه، و لا بد من اعادة المال الى صاحبه عينا ان كان قائما، أو بدله ان كان تالفا.

(أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ).

هذا خطاب لكل من يسمع القرآن، لا للنبي وحده، و فيه بيان ان اللّه سبحانه هو الذي خلق الكون و الإنسان، و انه لا يفعل إلا ما فيه خير و صلاح لعباده، فإذا عذب من يشاء من الجناة فإنما يفعل ذلك تربية له، و تأمينا للناس من شره، و إذا غفر و رحم من يشاء من عباده التائبين فإنما يفعل ذلك ترغيبا له في إصلاح نفسه.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٤١ الى ٤٣]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٧

اللغة:

كل من يقبل الكذب يقال له سماع للكذب. و المراد بالسحت المال الحرام.

الإعراب:

من الذين قالوا متعلق بمحذوف حال من واو يسارعون. سماعون مبتدأ خبره من الذين هادوا، و اللام في **(لِلْكَذِبِ)** زائدة، و الكذب مفعول سماعون.

و سماعون الثانية تأكيد للأولى، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي هم سماعون. و اللام في (القوم) ليست زائدة، بل متعلقة بسماعون الثانية، مثل استمعت له.

و شيئا مفعول مطلق، أي فلن تملك له من اللّه أي نوع من الملك. و كيف حال من فاعل يحكمونك. و عندهم التوراة مبتدأ و خبر. و كذلك فيها حكم اللّه.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ). هذا خطاب من اللّه لرسوله (ص)، يهون عليه أمر المنافقين و اليهود، لأن العاقبة ستكون عليهم لا لهم .. و هذه الجملة تختص بالمنافقين، لأن الإيمان بالأفواه، دون القلوب حقيقتهم و هويتهم.

و النهي عن الحزن نهي عن لوازمه، و عدم ترتب الأثر عليه، لأن الإنسان لا اختيار له فيه، و أي عاقل يختار الحزن

لنفسه؟ و لكن تبقى السيطرة معه للعقل و الدين، قال الرسول الأعظم (ص): تدمع العين، و يحزن القلب،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٨

و لا نقول ما يسخط الرب. و بعد أن ذكر سبحانه المنافقين أشار إلى قوم من اليهود بقوله:

(وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ). عاد الحديث عن اليهود، و في هذه الآيات أخبار اعتمدها المفسرون، و تتلخص بأن التوراة كانت تنص على وجوب رجم الزاني .. و صادف في عهد الرسول (ص) ان زنى رجل و امرأة من أشرافهم، فكره قوم من اليهود رجمهما، و أرسلوا وفدا منهم إلى رسول اللّه ليسألوه عن حكم الزنا، و قالوا للوفد: ان افتى بغير الرجم فاقبلوا، و ان افتى بالرجم فارفضوا .. فجاءوا الرسول، فأفتاهم بالرجم، فرفضوا زاعمين ان التوراة ليس فيها رجم، و لما حاجّ الرسول بعض علمائهم اعترف بأن حكم التوراة هو الرجم، تماما كما أفتى الرسول، و ان اليهود خصوا حكم الرجم بالضعفاء، و جعلوا الجلد مكان الرجم إذا زنى الشرفاء.

فالمراد بقوله: **(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ)** ان اليهود يقبلون الكذب من المنافقين، و من بعضهم البعض. و المراد من القوم في قوله: **لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ)** أولئك الذين أرسلوا الوفد ليسألوا النبي (ص) و لم يأتوه بأنفسهم.

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ). حيث وضعوا الجلد مكان الرجم.

و تقدمت هذه الجملة بالمعنى في سورة البقرة الآية ٧٥: «يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ». و أيضا تقدمت بحروفها في الآية ٤٥ من سورة النساء.

(يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا). أي قال الذين أرسلوا الوفد للوفد: ان أفتى محمد (ص) بغير الرجم فاقبلوا، و إن أفتى بالرجم فارفضوا.

(وَ مَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً). اختلف المفسرون في المراد من الفتنة .. قال الأشاعرة، أي السنة: المراد من الفتنة الكفر، و يكون المعنى ان أي عبد جعله اللّه كافرا و ضالا فلن يقدر أحد أن يدفع عنه الكفر و الضلال .. و إنما ذهب الأشاعرة إلى هذا التفسير، و في مقدمتهم الرازي لأنهم يجيزون على اللّه أن يريد الكفر من عبده، و أن يفعله فيه، ثم يعذبه عليه.

و قال الشيعة و المعتزلة: المراد من الفتنة في هذه الآية العذاب، و يكون المعنى

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٩

ان من يرد اللّه عذابه فلن يقدر أحد أن يدفع العذاب عنه .. و إنما قالوا ذلك لأنهم لا يجيزون على اللّه أن يفعل الشيء، ثم يعاقب غيره عليه.

و الذي نراه في تفسير هذه الآية ان اللّه سبحانه نهى اليهود عن الكذب و التحريف، و المكر و الخداع، و توعدهم بالعذاب إن خالفوا و تمردوا. و لكنهم أصروا على العناد، و لم يكترثوا بالنهي، و لا بالوعيد .. فتركهم اللّه و شأنهم و لم يردعهم بالقسر و القهر عن الفتنة، لأنه تعالى يعامل الناس- فيما يعود إلى أفعالهم- معاملة المرشد الناصح، لا معاملة القاهر الغالب.

و قد أكد سبحانه ذلك بقوله: **(أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)**.

أي لم يرد أن يلجئهم إلجاء إلى تطهير القلوب و تزكية النفوس، بل جعل لهم الخيار في ذلك، و بهذا الاعتبار صحت نسبة الفتنة اليه تعالى .. و قد أوضحنا ذلك عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء، فقرة «الإضلال من اللّه سلبي لا

إيجابي».

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ). كرر سبحانه (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ) مبالغة في الذم و القدح، و الردع و الزجر، و المراد بالسحت المال الحرام، كالربا و ما اليه .. و أشد جرما من الربا الأموال التي يقبضها العملاء من الدول الاستعمارية لتبقى شعوبهم متخلفة بائسة تتسول الرغيف ممن ينهب أقواتها و ثرواتها.

(فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). هذا بيان لوظيفة الحاكم المسلم إذا تحاكم لديه خصمان من غير المسلمين .. و قد اتفق الفقهاء على انه إذا كان الخصمان من غير أهل الذمة فللحاكم الخيار، إن شاء حاكمهما، و إن شاء رفض، حسبما يرجحه من المصلحة .. و اختلفوا فيما إذا كان الخصمان من أهل الذمة، فقال صاحب المنار- من السنة-: يجب على الحاكم أن يحاكمهما.

و قال فقهاء الشيعة: بل هو مخير ان شاء حاكم، و ان شاء رفض.

و إذا حاكم يجب عليه أن يفصل بينهما بحكم الإسلام، لا بأحكام دينهم، لقوله تعالى: (وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ).

و إذا كان أحد المتخاصمين مسلما، و الآخر غير مسلم وجب على الحاكم قبول الدعوى و الحكم بما أنزل اللّه باتفاق المسلمين.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٠

(وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ).

تحاكم اليهود في أمر الزاني عند النبي (ص)، و لما حكم بينهم تولوا عنه و رفضوا حكمه بعد أن اختاروه حكما .. و ما كان أغناهم عن الحالين؟. فالأولى بهم أن لا يحكمّوه منذ البداية، أما أن يرضوا به حكما، ثم يرفضوا حكمه فغريب .. هذا مع أنهم يعلمون علم اليقين بأنه (ص) حكم بحكم اللّه الموجود في التوراة .. فقوله تعالى: (بَعْدِ ذلِكَ) إشارة إلى التحكيم، و إلى حكم النبي بحكم اللّه. و لفظ ذلك يشار به الى المفرد و المثنى و الجمع.

(وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ). أي لا غرابة في أن يتولوا عن حكم النبي بعد أن رضوا به حكما، و بعد ان حكم بحكم اللّه، لأنهم لا يؤمنون باللّه و لا بالتوراة إيمانا صادقا، و إنما يؤمنون بأهوائهم و رغباتهم .. و كل من لا يرضى بالحق و حكمه فما هو من الايمان الحق في شيء يهوديا كان أو مسلما. قال تعالى:

«فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً- ٦٤ النساء».

[سورة المائدة (٥): آية ٤٤]

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (٤٤)

اللغة:

ربانيون جمع رباني نسبة إلى الرب، أي يرضي الرب بأقواله و أفعاله.

و الأحبار جمع حبر بفتح الحاء، و هو العالم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦١

الإعراب:

فيها هدى و نور مبتدأ و خبر. و الربانيون و الأحبار فاعل لفعل محذوف دل عليه الموجود، أي و يحكم الربانيون و الأحبار بما استحفظوا.

المعنى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ). كل كتاب أنزله اللّه على نبي من أنبيائه فهو نور يهدي إلى الحق و الخير، و التوراة كتاب اللّه أنزله على موسى (ع) فهو هدى و نور .. أما توراة اليوم فليست من اللّه في شيء، لأنها أبعد ما تكون عن الهدى و النور، و الحق و الخير .. إن تعاليمها تقوم على التفرقة العنصرية، فتجعل اليهود شعب اللّه المختار، يباح لهم غزو الشعوب الأخرى. و قتل رجالها، و ذبح نسائها و أطفالها، و نهب أموالها، و احتلال ديارها. (أنظر فقرة ١٣ و ١٤ من اصحاح ٢٠ سفر التثنية- نقلا عن الأسفار المقدسة لعلي عبد الواحد وافي).

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا). أي ان الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى كداود و سليمان و زكريا و يحيى كانوا يرشدون اليهود إلى حكم التوراة التي هي هدى و نور، فيحلون لهم حلالها، و يحرمون لهم حرامها. و قوله تعالى:

(النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا) معناه ان أنبياء اللّه أسلموا أنفسهم للّه، و حكموا لليهود بحكم اللّه، لا بمشيئتهم، و لا باجتهاداتهم أو أهوائهم، كما فعل اليهود في عهد محمد (ص) و أرادوا منه أن يحكم في الزاني بما يشتهون.

(وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ). أي و كذلك علماء اليهود و قضاتهم المؤمنون المخلصون كانوا يحكمون بما عرفوا و حفظوا من كتاب اللّه. **(وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ)** الضمير في (كانوا) يعود على الربانيين و الأحبار، و في (عليه) يعود على اليهود، و المعنى ان أولئك الربانيين و الأحبار كانوا يعملون بكتاب اللّه، و لا يحيدون عنه، و ليس من شك ان من قدّس قولا و التزم العمل به فقد شهد له بالفعل قبل القول انه حق و عدل.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٢

(فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً). من عرف حكم اللّه لا يخالفه إلا لأحد أمرين: إما خوفا على منصبه من الزوال، و إما طمعا في المال، و قد أشار سبحانه إلى الأول بقوله: **(فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ)**.

و إلى الثاني بقوله: **وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً)**. و المعنى يا أحبار اليهود اعملوا بما تعلمون إنه الحق، و لا تخشوا فيه لومة لائم، و لا تحرّفوه طمعا في الرشوة .. و إذا كان هذا الخطاب موجها بظاهره للأحبار الذين حرفوا حكم الزاني من الرجم إلى الجلد فإنه في واقعه عام لكل من يحاول التحريف و التزييف خوفا أو طمعا.

و أبلغ قول يفسر هذه الآية كلمة قالها علي أمير المؤمنين (ع) في وصف أولياء اللّه: «بهم قام الكتاب، و به قاموا، لا يرون مرجوا فوق ما يرجون، و لا مخوفا فوق ما يخافون» أي لا يرجون إلا اللّه، و لا يخافون إلا منه.

(وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ). و قال تعالى في الآية التالية ٤٥: (فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ). و في

الآية ٤٧ (فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ).

و عند تفسير هذه الآية، أي ٤٧ نبين الوجه في تعدد الوصف بالكفر و الظلم و الفسق، لموصوف واحد.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَ قَفَّيْنا عَلىٰ آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٤٧)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٣

الاعراب:

النفس اسم ان، و بالنفس متعلق بمحذوف خبرها، و العين و ما بعدها عطف على النفس. و الجروح قصاص، أي و ان الجروح قصاص. و مصدقا الأولى حال من عيسى. و فيه هدى مبتدأ و خبر، و الجملة حال من الإنجيل. و مصدقا الثانية عطف على الجملة الحالية، لأنها حال مثلها.

المعنى:

(وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ). هذه الآية من آيات الأحكام، و موضوعها القصاص، و في الفقه الاسلامي باب خاص به، و هذا الحكم، أي النفس بالنفس الخ من الأحكام التي نزلت في التوراة، و لم تنسخه الشريعة الاسلامية.

و سبق الكلام عن القصاص عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٧٤.

(فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ). ضمير (به) يعود على حق القصاص، و (فهو) يعود على التصدق، أي المصدر المتصيد من (تصدّق) و ضمير (له) يعود على المتصدّق، و المعنى ان المجني عليه إذا عفا عن الجاني فإن اللّه سبحانه يجعل هذا العفو كفارة لذنوب العافي.

(وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ). يأتي الكلام عنه في الآية التالية.

(وَ قَفَّيْنا عَلىٰ آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ). الضمير في آثارهم يعود على النبيين، أي و بعثنا عيسى بعد النبيين الذين كانوا يحكمون

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٤

بالتوراة، و صدق هو التوراة بأقواله و أعماله، و نقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال:

«ما جئت لأنقض الناموس- أي شريعة التوراة- و انما جئت لأتمم». أي لأزيد عليها من الأحكام و المواعظ.

(وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ). شأن كل كتاب إلهي، و كل نبي من أنبياء اللّه، و الإنجيل الذي وصفه اللّه بالهدى و النور هو الإنجيل الذي نطق بالتوحيد، و نفى التثليث، و أقر بنبوة محمد (ص) **(وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ)** التي تأمر بالعدل و الإحسان، و لا تبيح القتل و السلب.

(وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ). و تسأل: ان اللّه سبحانه وصف الإنجيل الذي أنزله على عيسى بالهدى و النور، ثم

وصفه ثانية بالهدى و الموعظة للمتقين فما هو الوجه لتكرار وصفه بالهدى في آية واحدة؟.

الجواب: إن الهدى الأول جاء وصفا لطبيعة الإنجيل من حيث هو بقطع النظر عن العمل به، و الهدى الثاني جاء وصفا له من حيث العمل به، أي ان هذا الذي في الإنجيل إنما ينتفع به و يتعظ بمواعظه المتقون، فهو تماما كقولك: إنما ينتفع بالنور ذوو الأبصار، قال الإمام علي (ع): «ربّ عالم قتله جهله و علمه معه لا ينفعه». لأنه لم يعمل بعلمه، و نكرر القول: إن المراد بالإنجيل في الآية الإنجيل الذي ينزه اللّه عن الولد و الصاحبة، و ينفي الربوبية عن عيسى (ع) و يبشر بنبوة محمد (ص).

(وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمٰا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ). أهل الإنجيل النصارى، و أهل التوراة اليهود، و أهل القرآن المسلمون، و قد أمر اللّه سبحانه كل من يدين بدين، و يؤمن بكتاب من كتب اللّه سبحانه أن يعمل به، و يلزم نفسه بأحكامه، و من خالف فهو مفتر كذاب، يهوديا كان أو نصرانيا أو مسلما. و لا ميزة لطائفة دون طائفة، و إنما خص أهل الإنجيل بالذكر لأن الحديث عنهم.

بين الكفر و الفسق و الظلم:

قال سبحانه في الآية المتقدمة ٤٤: «وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ». و قال في الآية ٤٥: **«وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ»**.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٥

و قال في الآية ٤٧؟ **«وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ»**. ثلاثة أوصاف تواردت على موصوف واحد، و قد اختلف المفسرون في التوجيه و التأويل، و نضرب صفحا عن أقوالهم تجنبا للاطالة، أما رأينا فنبديه فيما يلي:

ان الدين عقيدة و شريعة، و العقيدة من صفات القلب، و لها أصول، و هي الايمان باللّه و صفاته، و كتبه و رسله و ملائكته و اليوم الآخر، و الشريعة أحكام عملية تتعلق بالأقوال و الأفعال، و إذا أطلق لفظ الكفر مجردا عن القرينة، كما لو قيل: فلان كافر فهم منه انه يجحد أصول العقيدة كلا أو بعضا .. و إذا أطلق لفظ الفسق فهم منه انه مقر بالدين أصولا و فروعا، و لكنه متهاون، و تارك العمل بالفروع كلا أو بعضا.

هذا، إذا أطلق كل من اللفظين، دون أن يضاف إلى شيء، أما إذا أضيف الفسق إلى العقيدة كقولنا: فلان فاسق العقيدة فيكون المراد بالفسق الكفر، و قد جاء هذا الاستعمال في القرآن، قال تعالى: «وَ لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ وَ مٰا يَكْفُرُ بِهٰا إِلاَّ الْفٰاسِقُونَ- ٩٩ البقرة». و إذا أضيف الكفر الى العمل، لا الى العقيدة فالمراد منه الفسق، قال تعالى: «وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطٰاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ- ٩٧ آل عمران».

فقد وصف سبحانه تارك الحج بالكفر، مع انه مؤمن بجميع الأصول، فيتعين ان المراد بالكفر الفسق.

أما لفظ الظلم فيجوز إطلاقه على الكفر و على الفسق، لأن كلا من الكافر و الفاسق قد ظلم نفسه، حيث حملها من العذاب ما لا تطيق، قال تعالى:

«وَ الْكٰافِرُونَ هُمُ الظّٰالِمُونَ ٢٥٤- البقرة». و قال: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ- ١٤٠ البقرة». و كتم الشهادة بوجه العموم لا يوجب الكفر باتفاق المسلمين.

و بهذا يتبين معنا ان الكفر و الفسق و الظلم ألفاظ كثيرا ما تتوارد في القرآن على معنى واحد، و عليه يصح أن يوصف بها

من لم يحكم بما أنزل اللّه، و القصد التغليظ على من لم يحكم بالحق، سواء أحكم بالباطل، أو استنكف عن الحكم سلبا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٦

و إيجابا، و نفس الشيء يقال فيمن يحكم عليه بحكم اللّه فيستنكف عن تنفيذه و الإذعان له.

و بهذه المناسبة نشير إلى أن الفقهاء اتفقوا على ان من جحد حكما شرعيا ثبت بإجماع المسلمين كوجوب الصلاة و حرمة الزنا فهو كافر، و من خالفه مقرا به فهو فاسق.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (٤٩) أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

اللغة:

المهيمن على الشيء القائم على شئونه. و الشرعة و الشريعة لمعنى واحد، و هي

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٧

الطريق الى الماء، أو مورد الماء ثم استعملت فيما شرعه اللّه لعباده من الأحكام العملية، لأن كلا من الماء و أحكامه تعالى سبب للحياة. و المنهاج الطريق الواضح.

و الابتلاء الاختبار. و ان يفتنوك، أي يميلوا بك عن الحق.

الاعراب:

بالحق متعلق بمحذوف حال من الكتاب. و مصدقا حال. و ليبلوكم منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك مجرور باللام متعلق بمحذوف، و التقدير فرقكم ليبلوكم. و المصدر المنسبك من أن أحكم مبتدأ، و خبره محذوف، و التقدير الحكم بالحق لازم. و المصدر المنسبك من أن يفتنوك، مفعول لأجله، على حذف مضاف أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. و حكما تمييز.

المعنى:

(وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ).

المراد بالكتاب الأول القرآن، لأن الخطاب موجه لمحمد (ص)، و المراد بالكتاب الثاني جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية، و منها التوراة و الإنجيل ..

بعد أن ذكر سبحانه التوراة و الإنجيل و موسى و عيسى (ع) عقب بذكر القرآن و محمد (ص)، و وصف القرآن بوصفين: الأول: انه يصدّق كل كتاب نزل على نبي من الأنبياء. الثاني: انه مهيمن على ما سبقه من الكتب السماوية، و معنى هيمنة القرآن على التوراة و الإنجيل انه يشهد لهما بالحق و الصدق، و يخبر عن الأصول و الأحكام المحرفة فيهما ليميز الناس الأصيل من الدخيل الذي نسبه رؤساء الأديان الى اللّه كذبا و افتراء.

(فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ - أي بين اليهود - **بِما أَنْزَلَ اللهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)**. و بديهة أن النبي (ص) لا

يحكم إلا بالحق، و لا يتساهل فيه كبيرا كان أو صغيرا، و محال أن يتبع هوى مخلوق .. كيف و أقواله و أفعاله الميزان الذي يقاس به الحق و العدل؟ .. و لو افترض أن مخادعا حاول أن يخدع الرسول

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٨

بمظهره و ريائه، و أوشك الرسول أن يخدع به باعتباره بشرا فإن اللّه سبحانه يرعاه بعنايته، و يعلمه بالواقع قبل أن تبدر منه أية بادرة يريدها منه المخادع المحتال: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً- ٧٤ الاسراء».

و تسأل: ما دام الأمر كذلك، فلما ذا خاطب اللّه نبيه المعصوم بهذا الخطاب؟

الجواب: أولا بيّنا فيما تقدم ان الخطاب إذا صدر من الأعلى لا يلحظ فيه حال المخاطب، مهما كانت منزلته، و إنما يعتبر ذلك إذا صدر الخطاب من المساوي أو الأدنى.

ثانيا: إن اللّه سبحانه يعلم ان علماء السوء من أمة محمد (ص) سيبررون الانحراف عن حكمه، بمعاذير شيطانية، فخاطب نبيه الأكرم بهذا الخطاب تحذيرا لهم من التلاعب بالدين مسايرة لأهواء الحاكمين و المترفين.

(لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً). المضاف اليه محذوف، أي لكل أمة.

و منكم خطاب لجميع الناس، أو للأمم الثلاث: اليهود و النصارى و المسلمين، و شرعة الشريعة، و هي الأحكام العملية التي يمتثلها الإنسان طاعة للّه، و ابتغاء مرضاته و ثوابه، و تجدر الإشارة إلى أن كلمة الشريعة أخص من كلمة الدين، لأن الدين يشمل الشريعة، و أصول العقيدة. و المنهاج السبيل الواضح، أي أن اللّه جعل لكل أمة شريعة واضحة لا التباس فيها و لا غموض.

و هذه الآية نص في أن شريعة اللّه لم تكن واحدة لكل الناس في كل العصور و أنها كانت فيما مضى مؤقتة بأمد محدود، و إن الأديان تتفق و تتحد في أصول العقيدة فقط، لا في الشريعة.

و تسأل: إذا كان الأمر كذلك، فلما ذا اختصت الشريعة الإسلامية بالدوام و الاستمرار من بين الشرائع؟

و لن يعرف الجواب عن هذا السؤال إلا من درس الشريعة الإسلامية، حيث يرى أنها تقوم على قواعد ثابتة محال أن تتغير بتغير الأزمان و الأحوال، لأنها تلائم الإنسان، من حيث هو إنسان، لا من حيث انه قديم أو حديث، من ذلك على سبيل المثال: لا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها .. كل إنسان بريء، حتى تثبت إدانته .. الصلح خير .. إقرار العقلاء على أنفسهم جائز .. الناس عند

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٦٩

شروطهم .. الحدود تدرأ بالشبهات .. لا ضرر و لا ضرار .. الضرورات تبيح المحظورات .. اليقين لا ينقضه إلا يقين مثله .. درأ المفسدة أولى من جلب المصلحة .. الضرر لا يزال بضرر مثله .. الغائب على حجته حتى يحضر، و ما إلى ذلك مما أفرد له الفقهاء المجلدات .. إن هذه المبادئ محال أن تتغير إلا إذا تغيرت طبيعة الإنسان.

(وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً). ميّز اللّه سبحانه الإنسان عن غيره من المخلوقات بأن جعل فيه استعدادا للجهل و العلم، و التخلف و التقدم، و لعمل الخير و الشر، ثم نهاه عن هذا، و أمره بذاك، و كان من نتيجة هذا الاستعداد و الأمر و النهي أن تفاوت الناس في استغلال هذا الاستعداد، و في طاعة اللّه و معصيته، و لو شاء اللّه أن لا يمنح الإنسان هذه الموهبة لفعل، و لو فعل لكان الناس جميعا في مستوى واحد، تماما كالحيوانات و الطيور و الحشرات، يتصرفون و لا يعرفون خيرا و لا شرا، و لا نجاحا و لا فشلا.

(وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مٰا آتٰاكُمْ). أي أن اللّه منحنا هذه الموهبة، و أمرنا و نهانا ليعاملنا معاملة السيد المختبر لعبيده أيهم أحسن عملا، مع العلم بأنه يعلم السرائر و الضمائر، و لكنه لا يثيب إلا بالعمل، و لا يعاقب إلا بعد الانذار و الاعذار.

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرٰاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).

أي إذا كان اللّه قد منح الإنسان هذه الموهبة، و شرّع الشرائع للأمم لتظهر الأفعال التي يستحق بها الإنسان الثواب فعلينا جميعا أن نسارع إلى عمل الخيرات لأنها المقصود الأول من الشرائع، و من يتخذ من اختلاف الشرائع وسيلة للشحناء و البغضاء فإن اللّه سبحانه يحاسبه غدا، و يجازيه بما يستحق.

(وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ). هذه الآية تكرار للآية التي قبلها بلا فاصل، و قال بعض المفسرين: تلك نزلت في تحاكم اليهود في الزنا، و هذه في تحاكمهم في القتل، و لا دليل على هذا التوجيه، و لا على غيره مما في كتب التفسير، و قد بينا في ج ١ ص ٩٦ ان القرآن الكريم يستعمل التكرار لأنه عامل قوي في تكوين الآراء و انتشارها.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٠

هذا، إلى أن ضمير أهوائهم يعود إلى اليهود، و من طريقة القرآن أن يكرر و يؤكد ما يتصل بهم أكثر من تأكيده و تكراره لأي شيء آخر، و إن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن اليهود شر الأمم على الإطلاق، و بذلك شهد تاريخهم القديم و الحديث، و ما من أحد رآهم أهلا لغير الشر إلا أهل الشر، و قد ظهرت هذه الحقيقة للرأي العام بأجلى معانيها بعد ٥ حزيران من سنة ١٩٦٧.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ). أي إن أعرضوا عن حكم اللّه فسيعود عليهم هذا الاعراض بالخزي و الوبال، و تسأل: لما ذا قال ببعض ذنوبهم، و لم يقل بذنوبهم، و هل معنى هذا ان اللّه يعذبهم على بعض الذنوب، و يعفو عن بعض؟

الجواب: ان قوله تعالى: «بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ» اشارة إلى إعراضهم عن الحكم الذي حكم به رسول اللّه (ص)، و المعنى: لا يرعك أيها الرسول إعراض اليهود عن حكمك، فإن اللّه سيعاقبهم على هذا الاعراض و التمرد.

(وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النّٰاسِ لَفٰاسِقُونَ). الفاسق من عصى اللّه في حكم واحد من أحكامه .. و على هذا فأكثر الناس، بل كل الناس، فاسقون إلا من ندر، و لكن كلمة كثير تستعمل في الأكثرية، و لا عكس. (أَ فَحُكْمَ الْجٰاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ).

و كل حكم يخالف حكم اللّه فهو حكم الجاهلية، سواء أ كان في عصر الجاهلية، أم بعده.

(وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ). و ليس من شك ان كل حكم فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو حكم اللّه، سواء أورد فيه نص خاص من الكتاب و السنة، أم لم يرد، و كل ما فيه ضرر للناس بجهة من الجهات فمحال أن يرضى اللّه به، حتى الحق الإلهي يسقط إذا تولد منه الضرر .. و كفى دليلا على أن كل حكم ينتفع الناس به فهو حكم اللّه، كفى دليلا على هذه الحقيقة الآية ٢٣ من سورة الأنفال: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ» لأن معناها ان كل دعوة إلى الحياة فهي دعوة للّه و لرسول اللّه (ص).

و اختلف المفسرون في معنى اللام في قوله تعالى: (لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) فقال

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧١

بعضهم: انها بمعنى عند مثل كتبته لخمس خلون من شهر كذا، أي عند خمس. و قال آخر: هي للبيان. و الصحيح انها

للاختصاص مثل الجنة للمتقين، لأن المؤمنين الموقنين هم وحدهم الذين يحكمون و يعملون بحكم اللّه.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٥١ الى ٥٣]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسٰارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشىٰ أَنْ تُصِيبَنٰا دٰائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلىٰ مٰا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِينَ (٥٢) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خٰاسِرِينَ (٥٣)

اللغة:

الدائرة ما أحاط بالشيء، و المراد بها هنا ما يدور به الزمان من المصائب، يقال دارت عليه الدوائر، أي نزلت عليه النوائب و الدواهي. و الفتح القضاء و الفصل، و المراد به هنا النصر.

الاعراب:

بعضهم أولياء بعض مبتدأ و خبر، و الجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٢

و في قلوبهم مرض مبتدأ و خبر، و الجملة صلة الذين. و (فترى) ان كانت بصرية فإنما تحتاج الى مفعول واحد، و هو الذين، و عليه تكون جملة يسارعون حال، و إن كانت قلبية فتحتاج إلى مفعولين، و عليه تكون جملة يسارعون مفعولا ثانيا. و جهد مفعول مطلق لأقسموا لأنه مضاف إلى الأيمان، و الأيمان بمعنى القسم، فيكون مثل قعدت جلوسا، و جلست قعودا.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ). يتسع الإسلام لجميع الأديان و الأجناس، لا فرق عنده بين الأسود و الأبيض، و لا العربي و العجمي، و لا بين المسلم و غير المسلم من حيث المساواة أمام العدالة و القانون .. فلكل إنسان كائنا من كان الحق في أن يعيش بحرية و أمان على نفسه و ماله، و لا سلطان لأحد عليه ما كفّ أذاه عن غيره، فإن تعدّى و أفسد أقيم عليه الحد .. فإذا أساء المسلم إلى غيره وجب علينا نحن المسلمين أن نمقته و نبرأ منه، و على العدالة أن تردعه و تعاقبه، و إذا كفّ اليهودي أو النصراني أذاه بسطنا له يد البر و الإحسان، و لو أنكر نبوة محمد و القرآن، قال تعالى: «لاٰ يَنْهٰاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقٰاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمٰا يَنْهٰاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قٰاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ وَ ظٰاهَرُوا عَلىٰ إِخْرٰاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ- ٩ الممتحنة».

و إذا عطفنا هذه الآية التي رغّب اللّه بها المسلمين في البر و الإحسان إلى جميع الطوائف و أهل الأديان الذين لم ينصبوا العداء للمسلمين، إذا عطفنا هذه الآية على الآية التي نفسرها، و جمعناهما في كلام واحد يكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء إذا نصبوا العداء لكم، و كانوا حربا عليكم، أما إذا كانوا وادعين مسالمين فعليكم أن تحسنوا العشرة معهم، و تعيشوا جميعا متعارفين متآلفين .. بل و لكم أن تبروهم و تقسطوا اليهم، لأن اللّه يحب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٣

العدل و الإحسان إلى جميع خلقه، من آمن أو كفر بشرط واحد: و هو أن لا يسيء إلى أحد، لأن الناس، كل الناس عيال

اللّه، و أحبهم اليه أنفعهم لعياله .. فالمبرر عنده تعالى لحسن العشرة مع أي إنسان، هو كف الإساءة و الأذى، أما من جحد و كفر فعليه كفره. و تقدم الكلام مفصلا عن موالاة المؤمن للكافر بشتى أقسامها و أحكامها عند تفسير الآية ٣٠ من سورة آل عمران.

و بهذه المناسبة نشير إلى أن كرهنا لليهود نحن المسلمين لا سبب له إلا انهم قاتلونا في عقر ديارنا، و أخرجوا منها نساءنا و أطفالنا، كما ان السبب الأول و الأخير لكرهنا و عدائنا للولايات المتحدة و انكلترا، و من اليهما من دول الاستعمار التي ساندت إسرائيل هو أن هذه الدول ظاهرت إسرائيل على إخراج أهل فلسطين من ديارهم .. و مرة ثانية نعيد خطاب اللّه لنا و قوله عز من قائل: «إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

البتول و اليهود و النصارى:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ). أجمع المفسرون على ان المراد بعض اليهود أنصار بعض، و بعض النصارى أنصار بعض، و ليس المراد ان كل طائفة توالي الأخرى، لأن ما بين الطائفتين من العداء أكثر مما بين النصارى و المسلمين، فإن اليهود يرمون مريم بالفاحشة، و المسلمون يقدسونها و يبرءونها من كل عيب.

و ليس من شك ان المفسرين قد استوحوا هذا المعنى من العصر الذي عاشوا فيه، حيث لا شركات بترول عالمية، و لا مؤسسات احتكارية نهمة إلى التوسع و السيطرة على ثروات الشعوب و مقدراتها .. أما اليوم و بعد أن قامت هذه الشركات و المؤسسات فقد رأى أصحابها المسيحيون في اليهود خير وسيلة يعتمدون عليها لتدعيم احتكاراتهم و أطماعهم، و من أجل هذا أقاموا دولة إسرائيل في فلسطين و حرصوا على تعزيزها و حمايتها، و رسموا لها خطط العدوان و التوسع، و تعهدوا بالوقوف إلى جانبها في الأمم المتحدة و مجلس الأمن .. و تعلقت هي بأذيالهم،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٤

و دارت في فلكهم، و نفذت خطط الاستعمار، و امتثلت أوامر العدوان بعد أن استبان لها ان حياتها رهن بالسمع و الطاعة لأوامر الاستعمار، و تنفيذ خططه، و إلا تخلى عنها، و ولت إلى غير رجعة .. و إذا عقد المستعمرون و أذنابهم الآمال على مخالب إسرائيل فإنا نعتمد على اللّه، و على حقنا المشروع، و استعادة إيجابيتنا استعدادا للمعركة الحاسمة لاسترداد الحق السليب.

(وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). أي ان من يتولى اليهود و النصارى الذين نصبوا العداء للإسلام و المسلمين فهو بحكمهم يحاسب حسابهم، و يعاقب عقابهم، لأن من رضي عن قوم فهو منهم، و هذه الآية دليل قاطع على ان عملاء الاستعمار الذين يقومون بدور الحارس لمصالحه هم أشد جرما، و أكثر خطرا من المستعمرين أنفسهم، أو مثلهم- على الأقل- لأنهم الركيزة الأولى لاستغلالهم و عدوانهم.

(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ). يظهر من سياق الآية انها قضية في واقعة، و حكاية عن حادثة خاصة تتلخص بأن بعض المنافقين المشار اليهم بقوله: **(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)** كانوا يوالون اليهود الذين يضمرون العداء للإسلام و المسلمين، و يخطبون ودهم، و إذا عوتبوا على ذلك قالوا: ما يدرينا أن تدور الأيام و يضعف الإسلام، و تصير القوة و الشوكة لليهود و المشركين على المسلمين، فإذا لم نحتط من الآن لأنفسنا و نتخذ لنا يدا عندهم خسرنا كل شيء و دارت علينا دائرة السوء، و هذا هو المعنى الظاهر من قوله تعالى: **(يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ)** ..

و هكذا الانتهازيون يتذبذبون بين جميع الفئات، حتى إذا كان الغلب لفئة على فئة قالوا لمن غلب: ألم نكن معكم؟ .. و بكلمة ان المنافقين مع الجميع بألسنتهم، و في واقعهم لا يستجيبون إلا لأهوائهم:

«وَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ- ٥٦ التوبة»، أي يخافون على أنفسهم و مصالحهم.

و تسأل: لما ذا قال يسارعون فيهم، و لم يقل يسارعون اليهم؟.

الجواب: ان فيهم أبلغ في التأكيد و الثبات، لأن الداخل في الشيء يتمكن منه أكثر من المسارع اليه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٥

(فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ). المراد بالفتح انتصار المسلمين على اليهود و المشركين، و المراد بأمر من عنده اظهار حال المنافقين، و إذلالهم و خزيهم، و المعنى ان المنافقين أحكموا الخطة لأنفسهم عند أعداء الإسلام ظنا منهم ان الدائرة ستدور مع الكفار على المسلمين، و لما انعكس الأمر، و دارت الدائرة مع المسلمين على أعدائهم ندم المنافقون، و لكن حيث لا ينفع الندم.

(وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ). لما أظهر اللّه المسلمين على أعدائهم لم يستطع المنافقون أن يخفوا ما في أنفسهم من الحسرة و اللوعة، و ظهر أثرها في فلتات ألسنتهم، و صفحات وجوههم .. فتعجب المؤمنون من حال المنافقين حين تكشفت حقيقتهم، و قال بعضهم لبعض: أ هؤلاء الذين كانوا يحلفون بالأمس أغلظ الإيمان مجتهدين في توكيدها انهم منا و معنا؟.

ما أجرأهم على الكذب و الرياء. **(حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ)**. قال الرازي و صاحب المنار: يحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام اللّه، و يحتمل أن تكون من كلام المؤمنين.

و يلاحظ بأن احتمال كونها من كلام اللّه غير وارد على الإطلاق، لأن سياق الآية يدل على أنها من كلام المؤمنين، و ليست إخبارا مستأنفا من اللّه سبحانه، و المعنى ان المؤمنين بعد أن تعجبوا من حال المنافقين و ألاعيبهم قالوا: لقد بطلت أعمال المنافقين التي كانوا يتظاهرون بها أمامنا كالصوم و الصلاة، و ما اليهما، و لم ينلهم من الثواب شيء **(فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ)**. خسروا الدنيا، لأنهم خذلوا و خسروا الآخرة لما أعد لهم من العذاب الأليم.

[سورة المائدة (٥): آية ٥٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٦

اللغة:

الذّل بكسر الذال ضد الصعوبة، و المراد به هنا التواضع و اللين، و بضم الذال ضد العز، أي الهوان.

الاعراب:

جملة يحبهم صفة لقوم. و أذلة صفة ثانية. و أعزة صفة ثالثة. و جملة يجاهدون صفة رابعة.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ). الارتداد هو الكفر بعد الإسلام. و ذكرنا المرتد و تقسيمه إلى مرتد

عن ملة و فطرة، و حكم كل منهما عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٥. و النهي عن الارتداد بعد النهي عن موالاة أعداء الدين يشعر بأن هذه الموالاة قد تؤدي إلى الارتداد عن الإسلام. و في الحديث: «لو ان راعيا رعى إلى جنب الحمى لم يثبت غنمه أن يقع في وسطه».

و قال أهل السير و التاريخ: ان ثلاثة ارتدوا، و ادعوا النبوة على عهد رسول اللّه (ص) بعد أن آمنوا به. الأول الأسود العنسي، تنبأ في اليمن، و أخرج عمال رسول اللّه (ص) منها، و لكنه قتل قبل وفاة النبي (ص) بيوم واحد. الثاني مسيلمة الكذاب ادعى النبوة، و كتب إلى محمد (ص): «من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٧

مسيلمة رسول اللّه إلى محمد رسول اللّه، أما بعد فإني شريك معك في الأمر، و الأرض بيننا مناصفة». و قتل في عهد أبي بكر. الثالث طلحة بن خويلد، ادعى النبوة، ثم عاد و أسلم.

أما سجاح فقد ادعت النبوة في خلافة أبي بكر، و تزوجها مسيلمة. و قال أبو العلاء المعري في هذا الزواج:

أمست سجاح و والاها مسيلمة كذابة في بني الدنيا و كذاب

و تسأل: ان بعض الشيوخ لا تتوافر فيهم شروط المجتهد الذي عناه الإمام (ع) بقوله: «صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، مطيعا لأمر مولاه» و مع ذلك يدعي النيابة عن المعصوم في الفتيا و القضاء، و ان الراد عليه راد على اللّه، فهل حكم هذا، تماما، كحكم مسيلمة الكذاب، لأن كلا منهما يفتري على اللّه كذبا؟.

الجواب: يكون بحكم مسيلمة الكذاب بشرطين: الأول أن يدعي النيابة عن المعصوم، و هو يعلم بأنه مفتر كذاب، و انه ليس أهلا لهذه الدعوى.

الشرط الثاني: أن لا يرى الاجتهاد و العدالة من الشروط الأساسية للنيابة عن المعصوم. مع علمه بأنهما واجبان بحكم البديهة الدينية .. و هذا الفرض بعيد جدا فإن من يدعي النيابة عن المعصوم يرى نفسه من أهل العدالة و الاجتهاد، حتى و لو لم يكن مطيعا لمولاه، و مخالفا لهواه.

و ليس من شك ان هذا يفترق عن مسيلمة الكذاب، من حيث الارتداد، و لكنه يلتقي معه من حيث الكذب و الغرور .. و بديهة ان العلم و الغرور ضدان لا يجتمعان، تماما كالكذب و العدالة، لأن الغرور يبعد صاحبه عن واقعه، و يفصله عن نفسه، و ينتقل به الى عالم الأوهام و الأحلام، و من كان هذا شأنه فلا يهتدي إلى صواب.

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ). اختلف المفسرون فيمن هو المقصود بلفظ القوم. و نقل الرازي في ذلك ستة أقوال .. و اللّه سبحانه لم يعينهم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٨

بأسمائهم، بل أشار اليهم بأوصافهم، و على هذا فكل من تنطبق عليه الأوصاف الخمسة المذكورة في الآية فهو

المقصود، و هي:

١- يحبهم و يحبونه، و حب اللّه لعبده أن يرفع من شأنه غدا، و ينعم عليه بالجنان و الرضوان، أما حب العبد للّه فإنه لا ينفك أبدا عن حبه لعباد اللّه، تماما كما لا ينفك حب الحق عن حب العاملين به، و كراهية الباطل عن كراهية أهله.

٢- أذلة على المؤمنين، لأن التواضع للمؤمن المخلص تقديس و تكريم للإيمان و الإخلاص، لا للأفراد و الأشخاص، قال تعالى يخاطب نبيه العظيم: «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ- ٢١٥ الشعراء» .. و بديهة انهم لم يستحقوا هذه الكرامة إلا بالإيمان و الإخلاص للّه و لرسوله.

٣- أعزة على الكافرين، لأن الاستعلاء عليهم استعلاء للعقيدة و المبدأ، و نظير هذه الآية قوله تعالى: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ- ٢٩ الفتح».

و ترشدنا هذه الآية، و آية «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ» الى حقيقتين: الأولى كل من يتذلل للأغنياء و الأقوياء الطغاة، و يتعاظم على الفقراء المؤمنين فإنه ليس من الدين في شيء، و ان قام الليل، و صام النهار. الحقيقة الثانية ان قيم الأخلاق في الإسلام ليست مطلوبة لذاتها، و ان اللّه سبحانه قد أمر بها من أجل الإنسان، و لم يأمر الإنسان بها من أجلها .. و من هنا كان التواضع للمتكبرين ضعة، و للمتواضعين رفعة. قال الإمام علي (ع): ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند اللّه، و أحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على اللّه.

٤- يجاهدون في سبيل اللّه، و كل عمل يسد حاجة، أو يدفع ظلامة فهو جهاد في سبيل اللّه. و في الحديث: «إن النبي (ص) كان جالسا مع بعض أصحابه، فنظروا إلى شاب ذي جلد و قوة، فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه و جلده في سبيل اللّه. فقال: إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة و يغنيها عن الناس فهو في سبيل اللّه، و إن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم و يكفيهم فهو في سبيل اللّه، و إن كان يسعى تفاخرا و تكاثرا فهو في سبيل الشيطان.

٥- لا يخافون لومة لائم، لا يظهر الايمان على حقيقته إلا عند المحنة،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٧٩

فهي المحك الصحيح لايمان المؤمن .. ينكر المنكر إرضاء لربه و ضميره، أما ما يصيبه من وراء ذلك فيهون و يزدري. هذا هو شعار المخلصين: لا يخافون في الحق لومة لائم. أو كما قال نبي الرحمة: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي». و لا مصدر لهذه المشاكل التي يعانيها عالم اليوم من حرب فيتنام إلى حرب الشرق الأوسط، و من الحكومة العنصرية في روديسيا و جنوب افريقيا إلى مشكلة الملونين في الولايات المتحدة، لا مصدر لهذه المآسي و ما اليها إلا سكوت من سكت عن الحق في الصحف و الاذاعات و الأمم المتحدة و مجلس الأمن خوفا من ملوك الذهب الأسود و حماتهم المأجورين.

و بالتالي، فإن قوله تعالى: «**وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**» يرسم صورة حية للمتدين، و للأهداف التي يجب أن ينطلق اليها، و يضحي من أجلها .. بقي هذا السؤال البسيط: هل يسوغ بعد هذا للقائل أن يقول: إن الدين مغيبات، و صلاة أموات!.

(ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ). و قد رأينا بالحس و الوجدان ان اللّه سبحانه لا يشاء أن يمنح فضله إلا لمن سار وفق الأسباب و السنن التي أقام بها جلت حكمته نظام الكون بأسره .. و لو أراد منا أن نمشي بلا رجلين، و نعمل بلا يدين، و نبصر بلا عينين لكان في غنى عن خلق شيء منها: «وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً- ٢ الفرقان».

مشكلة الأخلاق:

قال (نيتشه) فيلسوف الإنسان الأعلى: لا واقع لقيم الأخلاق، فالحرية و العدالة و المساواة مجرد ألفاظ صنعها الضعفاء ليحدّوا بها من سيطرة الأقوياء.

و قال ماركس فيلسوف الثورة ضد الإنسان الأعلى: العكس هو الصحيح، فالزهد و الصبر و الوداعة ألفاظ صنعها الأقوياء ليسيطروا بها على الضعفاء.

و معنى هذا عند الاثنين ان ألفاظ القيم لا مصدر لها إلا الهوى و المصلحة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٠

الذاتية، و ما دام الهوى لا يتفق مع الإنسانية و المثل العليا فتكون ألفاظ القيم دجلا و نفاقا.

و نحن نؤمن بأن مصدر القيم هي المصلحة، و لكنها المصلحة المنبثقة من طبيعة الإنسان بما هو إنسان، لا بما هو طبقة من الطبقات، و فئة من الفئات، و ليس من شك أن هذه المصلحة تتفق مع الإنسانية و المثل العليا، بل هي هي، و لذا سميت قيما إنسانية، لا طبقية. و عليه يكون لها واقع ثابت بثبوت الإنسان نفسه ..

و لا ينفي هذا استغلال من يستغلها، و تحريف من يحرّفها حسب أهوائه و مصلحته، و إلا لم يصح تقسيم الناس إلى محق و مبطل يحرّف الكلم عن مواضعه، و إلى مخلص و منافق يتستر بشعار الصالحين .. هذا، إلى أنه ليس في تاريخ الإنسان مجتمع واحد قال للفرد: افعل ما شئت، فإنك غير مسؤول عن شيء قتلت أو سرقت.

أجل، هناك مذاهب شتى لتحديد القيم الأخلاقية لا يتسع المقام لذكرها ..

و الذي يهمنا أن نحددها كما هي في نظر الإسلام، و قد انطلقت أقلام الغيورين تحدد القيم الاسلامية بأنها تهدف إلى تكوين الفرد الصالح في المجتمع الصالح ..

و هذا التحديد يحتاج إلى تحديد، لأن القارئ لا يفهم منه شيئا واضحا يلتزمه عند التطبيق و الممارسة، و تجنبا لهذا المحذور نمهد أولا بذكر بعض الأمثلة، ثم نستخرج من دلالتها التحديد الواضح الذي يمكن ممارسته في الحياة اليومية.

أمر الإسلام بالصدق و الوفاء و البذل و التواضع و الصبر و العفو، و ما إلى ذلك، و لكن قيد وجوبها بحد لا يصح تجاوزه بحال، و هو أن لا يؤدي الالتزام بها إلى عكس الغرض المطلوب منها، فالصدق واجب، ما دام في مصلحة الإنسان، فإذا تولد منه ضرر كإخبار العدو بالأسرار العسكرية، أو نقل الكلام بقصد الفتنة كان محرما، و الكذب محرم إلا في حرب عدو الدين و الوطن، و في الصلح بين اثنين، و في صيانة نفس بريئة، و مال محرم، و الوفاء باليمين واجب، ما دام الحالف لا يجد خيرا من يمينه، و إلا تركها لحديث: «إذا وجدت خيرا من يمينك فدعها». و بذل المال في سبيل اللّه حسن إلا إذا احتاج اليه صاحبه، و الصبر راجح إلا على الظلم و العوز، و العفو فضيلة إلا إذا كان سببا للفوضى و نشر الجرائم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨١

و بهذا يتبين ان قيم الأخلاق في الإسلام تقاس بمدى ما تحققه للإنسان من جلب مصلحة، أو دفع مفسدة، و معنى هذا انها وجدت من أجل الإنسان، و لم يوجد هو من أجلها، كي يجب عليه التعبد بها على كل حال. فالقيم الأخلاقية- إذن- هي التي تحصر تصرفات الإنسان في إطار مصلحته و مصلحة الجماعة، أو عدم الإضرار به أو بغيره على الأقل.

و تسأل: ما هو الضابط لتمييز النافع من الضار؟.

و نجيب باختصار ان الضابط هو الاحساس و الشعور العام بأن هذا ضار، و ذاك نافع، و متى انتهى الأمر إلى هذا

الاحساس و الشعور ينقطع الكلام، و لا يبقى مجال للسؤال و الجواب لأن الشعور العام هو البديهة بالذات.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاٰةَ وَ هُمْ راٰكِعُونَ (٥٥) وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ (٥٦)

الاعراب:

الذين يقيمون الصلاة صفة للذين آمنوا، لأنها بمعنى (المصلون). و جملة و هم راكعون حال من واو يؤتون الزكاة.

المعنى:

بعد أن نهى سبحانه عن اتخاذ أعداء الدين أولياء بيّن من الذي يجب اتخاذه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٢

وليا، فقال: **(إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ)** و لا يختلف اثنان في المراد بولاية اللّه و الرسول و انها التصرف في شئون المسلمين، و ليس مجرد المحبة و النصرة، قال تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ- ٦ الأحزاب»، و الولاية في هذه الآية تفسير و بيان للولاية في الآية التي نحن بصددها.

(وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاٰةَ وَ هُمْ راٰكِعُونَ). أي ان الولاية التي للّه و الرسول ثابتة أيضا لمن جمع بين الزكاة و الركوع، و نقل الطبري عن مجاهد و عتبة بن أبي حكيم و أبي جعفر ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب، و في كتاب غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري- من السنة- ما نصه بالحرف: «الآية نازلة في علي باتفاق أكثر المفسرين». و في تفسير الرازي ما نصه بالحرف أيضا:

«روي عن أبي ذر رضوان اللّه عليه انه قال: صليت مع رسول اللّه (ص) يوما صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يعطه أحد، و علي كان راكعا، فأومأ اليه بخنصره اليمنى، و كان فيها خاتم، فأقبل السائل، حتى أخذ الخاتم بمرأى النبي (ص)، فقال: اللهم ان أخي موسى سألك فقال: رب اشرح لي صدري إلى قوله: و أشركه في أمري، فأنزلت قرآنا ناطقا سنشد عضدك بأخيك و نجعل لكما سلطانا، اللهم و أنا محمد نبيك و صفيك فاشرح لي صدري و يسر لي أمري و اجعل لي وزيرا من أهلي عليا أشدد به ظهري. قال أبو ذر: فو اللّه ما أتم النبي (ص) هذه الكلمة، حتى نزل جبريل، فقال: يا محمد اقرأ انما وليكم اللّه و رسوله .. الى آخر الآية».

و لكن الرازي فسر الولاية هنا بمعنى الناصر، لا بمعنى المتصرف، و قال الشيعة: إن لفظ الجلالة و الرسول و من جمع بين الزكاة و الركوع جاء في آية واحدة، و ولاية اللّه و الرسول معناها التصرف فيجب أيضا أن يكون هذا المعنى بالذات مرادا من ولاية من جمع بين الوصفين، و إلا لزم أن يكون لفظ الولاية مستعملا في معنيين مختلفين في آن واحد، و هو غير جائز.

(وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ). هذه الآية نص صريح لا يقبل التأويل بحال على أن المعنى المراد من ولاية اللّه و الرسول

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٣

و المؤمنين واحد لا اختلاف فيه، و ان من حافظ على هذه الولاية، و لم يفرق بين اللّه و رسوله و من جمع بين الزكاة و الركوع فهو من حزب اللّه الغالب بمنطق الحق و حجته.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٥٧ الى ٥٩]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيٰاءَ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَ إِذٰا نٰادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاٰةِ اتَّخَذُوهٰا هُزُواً وَ لَعِباً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاّٰ أَنْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فٰاسِقُونَ (٥٩)

الاعراب:

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ متعلق بمحذوف حال من واو **اتَّخَذُوا**. و الكفار قرئ بالجر عطفا على **(مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ)** و بالنصب عطفا على **(لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ)**. و المصدر المنسبك من **(أَنْ آمَنّٰا)** مفعول تنقمون، أي تنقمون إيماننا.

و المصدر المنسبك من **أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فٰاسِقُونَ** معطوف على **(مٰا)** أي آمنا بما أنزل إلينا و بفسق أكثركم.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيٰاءَ).

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٤

مرة ثانية نهى سبحانه عن اتخاذ أعداء اللّه أولياء، و لكنه بيّن هنا سبب النهي، و هو أنهم يتخذون من دين الإسلام، و صلاة المسلمين مادة للهزء و اللعب، شأن السفيه العاجز عن مجابهة الحجة بمثلها، و لا يليق بالعاقل أن يوالي السفهاء، بخاصة الذين يهزءون من دينه و أشرف مقدساته ..

و أيضا زاد سبحانه في هذه الآية انه عطف الكفار على أهل الكتاب، و هو من باب عطف العام على الخاص، و القرآن يعطف العام على الخاص كهذه الآية، و الخاص على العام كقوله: «حٰافِظُوا عَلَى الصَّلَوٰاتِ وَ الصَّلاٰةِ الْوُسْطىٰ- ٢٣٨ البقرة». و يعطف النظير على نظيره كقوله: «فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ- ١٧٥ النساء».

(وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). فيه إشعار بأن من يوالي و يؤاخي من يهزأ بالدين فهو أبعد الناس عن الإيمان، لأن شبيه الشيء منجذب اليه.

(وَ إِذٰا نٰادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاٰةِ اتَّخَذُوهٰا هُزُواً وَ لَعِباً). تدعو كنائس النصارى أتباعها إلى الصلاة بضرب الناقوس، و تدعو بيع اليهود أتباعها إلى الصلاة بالنفخ بالبوق، أما المسلمون فيدعون إلى الصلاة بصوت المؤذن ينادي بالاستجابة إلى اللّه وحده لا شريك له، و إلى العمل الصالح الفالح: اللّه أكبر .. لا إله إلا اللّه .. حي على الفلاح .. حي على خير العمل .. و كان بعض أهل الكتاب، و ما زالوا يسخرون من هذا الأذان، و هذه الدعوة .. و الأولى أن يسخروا من نواقيسهم و أبواقهم .. على أن المعتدلين من النصارى يستحسنون الأذان، و يفضلونه على ضرب الأجراس، قال صاحب المنار:

«سمعنا من بعض النصارى المعتدلين في بلدنا- أي لبنان- كلمات الثناء على الأذان و تفضيله على الأجراس .. و قد كان جماعة من نصارى طرابلس يصطافون في بلدنا (القلمون)، فكان النساء و الرجال يقفون في النوافذ لاستماع صوت المؤذن، و كان ندي الصوت .. و كان بعض صبيانهم يحفظون الأذان، و يقلدون المؤذن تقليد استحسان، فتغضب والدته و تنهاه، أما والده فكان يضحك و يسر لأذان ولده، لأنه كان على حرية وسعة صدر».

(ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَعْقِلُونَ). قال المفسرون بما فيهم الرازي و صاحب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٥

المنار: ان المراد من قوله تعالى (لا يَعْقِلُونَ) انهم لا يدركون حقيقة الإسلام، و لو أدركوا حقيقته لم يتخذوه هزوا.

أما نحن فنرى انهم قد عقلوا الإسلام، و أدركوا أهدافه، و أن الذين حاربوه إنما حاربوه لأنهم أدركوا خطره على منافعهم و امتيازاتهم .. فلقد أدركوا ان الإسلام ثورة على الظلم و الاستغلال، و على الفقر و التخلف، و على تقسيم الناس إلى سيد و مسود، و انه لا فضل لمخلوق على غيره إلا بخدمة الناس، و العمل لصالحهم و منافعهم .. هذا هو ذنب الإسلام عندهم، و من أجله حاربوه بجميع ما يملكون من وسائل، حتى الهزء و السخرية.

و تتجلى دعوة الإسلام هذه بأكمل معانيها في نداء المؤذن: اللّه أكبر ..

لا إله إلا اللّه .. فإن معنى اللّه أكبر انه لا كبير و لا عظيم إلا هو وحده لا شريك له، و معنى لا إله إلا اللّه: ان المال و الجاه و الأنساب ليست آلهة تعبد، و لا قوة يخضع لها، و إنما الخضوع للحق وحده، و الناس فيه سواء، و ان ما من أحد على وجه الأرض له أن يمس حرية إنسان كائنا من كان .. و كفى بهذا ذنبا للإسلام عند ألد أعداء الإنسان، و من أجل عداوتهم هذه، لا من أجل جهلهم بحقيقة الإسلام وصفهم العليم الحكيم بأنهم قوم لا يعقلون.

(قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ).

أجل، انهم لا يرضون إلا عمن يؤمن بهم و بامتيازهم و استغلالهم .. ان هذا في مقاييسهم قدس الأقداس، و ان كفر باللّه، و جميع الأنبياء و المرسلين .. أما من يكفر بظلمهم و طغيانهم فإنه عندهم شر الأولين و الآخرين، و ان كان ولي الأولياء .. و لا شيء أصدق في الدلالة على ذلك من أنهم يتهمون الوطنيين الأحرار منهم، و يرمونهم بالمروق من الدين، لا لشيء إلا لأنهم يستنكرون السياسة الاستعمارية، و التفرقة العنصرية .. و مع هذه التهمة الظالمة يزعمون أنهم حماة الدين، و حراسه من الإلحاد و الملحدين.

و تسأل: ان قولك هذا هو الواقع الذي نراه و نشاهده، و لكنه لا يصلح تفسيرا للآية، لأن الظاهر منها انهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون يؤمنون باللّه و القرآن و التوراة و الإنجيل؟.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٦

الجواب: ان ظاهر الآية يدل صراحة على أن اللّه سبحانه أمر نبيّه الكريم أن يقول لهم: هل لنا من ذنب يستوجب منكم هذا العداء إلا أننا على حق، و أنتم على باطل، تماما كما يقول- الوطني المخلص لخصمه العميل الخائن- هل تنقم مني إلا أني وطني، و انك عميل؟.

و ليس من شك ان هذا المعنى يتفق مع تفسيرنا للآية، بل هو أظهر مصاديقها و أفرادها. و قد تنبه إلى ذلك صاحب مجمع البيان، حيث جاء في تفسيره:

«معنى الآية هل تكرهون منا إلا إيماننا و فسقكم، أي انما كرهتم إيماننا و أنتم تعلمون انّا على حق، و انكم أقمتم على دينكم لمحبتكم الرياسة، و كسبكم بها الأموال- ثم قال- و معنى فاسقون خارجون عن أمر اللّه طلبا للرئاسة».

[سورة المائدة (٥): الآيات ٦٠ الى ٦٣]

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْ

لا يَنْهاهُمُ الرَّبّانِيُّونَ وَ الأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٧

اللغة:

المثوبة من ثاب اليه إذا رجع، و المراد بها هنا الجزاء و الثواب. و الطاغوت من الطغيان. و السحت الدنيء المحرم. و الفرق بين الإثم و العدوان ان الإثم هو الجرم، و قد يكون مع التعدي على الغير، و قد لا يكون معه تعد على أحد، أما العدوان فهو الاعتداء على الغير، و الصنع العمل مع الاشعار بالجودة، يقال:

صنع اللّه لفلان إذا أحسن اليه.

الاعراب:

مثوبة تمييز من شر. و من لعنه (من) في محل جر بدلا من شر، أي هل أنبئكم بمن لعنه اللّه، و يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف، أي هو من لعنه اللّه. و عبد الطاغوت (عبد) فعل ماض معطوف على من لعنه اللّه، و التقدير هل أنبئكم بشر الناس من لعنه اللّه، و من عبد الطاغوت. و جملة و قد دخلوا حال من الواو في قالوا. و جملة و هم قد خرجوا حال ثانية. و السحت مفعول لأكلهم. و لو لا أداة تحضيض، و تختص بالمضارع مثل لو لا تستغفرون. أو ما في معناه نحو لو لا اخرتني.

المعنى:

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّهِ). ذلك إشارة إلى حال المنتقمين، و المثوبة تستعمل في الجزاء بالخير، و العقوبة في الجزاء بالشر، و قد وضعت المثوبة هنا موضع العقوبة من باب تحيتهم السباب، و المعنى قل يا محمد لأعداء الدين و الحق الذين يستهزءون من الإسلام و الأذان، قل لهم: إن كان الإيمان باللّه و كتبه شرا يوجب النقمة فأنا أخبركم بشرّ من هذا، إن كان هذا شرا .. و هو **(مَنْ لَعَنَهُ اللّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ)** و هذه الأوصاف كلها من أوصاف اليهود، حيث سجل اللّه عليهم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٨

لعنته و غضبه في أكثر من آية، و وصفهم بعبادة الجبت و الطاغوت، و قال لهم:

كونوا قردة خاسئين، و من هذه الآيات:

١- الآية ٤٦ من النساء: «كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ».

٢- الآية ٩٠ من البقرة: «فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ».

٣- الآية ٦٥ البقرة: «فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ». و ما قال اللّه لشيء كن إلا كان.

٤، الآية ٥١- النساء: «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ». و قيل المراد بالطاغوت الشيطان. و قيل: العجل. و الصحيح أن كل من أطاع عبدا في معصية اللّه فهو عبد له.

و قال الرازي: «احتج أصحابنا- أي الأشاعرة- بهذه الآية على ان الكفر بقضاء من اللّه، لأن التقدير و جعل اللّه منهم من عبد الطاغوت». و الصحيح ان عبد معطوف على لعنه اللّه، لا على جعل منهم القردة، و ان التقدير هل أنبئكم بشرّ الناس، أو بشرّ من ذلك من لعنه و من عبد الطاغوت، كما قلنا في فقرة (اللغة)، و عليه فلا يصح الاستدلال بهذه الآية على أن

الكفر من اللّه، لا من العبد.

(أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوٰاءِ السَّبِيلِ). أولئك إشارة إلى اليهود ظاهرا و تشمل كل من حاد عن الحق واقعا، و لا يجديه قول لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه .. إذ لا إيمان بلا تقوى.

(وَ إِذٰا جٰاؤُكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ). كان منافقو اليهود يدخلون على النبي (ص)، و يقولون له: نحن بك من المؤمنين، و هم كاذبون في أقوالهم، و قد عبر سبحانه عن نفاقهم هذا بأنهم دخلوا على النبي بالكفر، و خرجوا من عنده بالكفر .. و يشعر هذا التعبير بأنهم لو كانوا طلاب حق لخرجوا مؤمنين من عند الرسول بعد أن سمعوا و رأوا البينات و الدلائل.

(وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا كٰانُوا يَكْتُمُونَ) من الكفر و النفاق و يجازيهم عليه بما يستحقون.

(وَ تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسٰارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ). المسارعة مفاعلة و تومئ إلى التسابق و التنافس في الإثم و العدوان

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٨٩

و أكل السحت، أي الحرام، و هذه سمة لا تفارق اليهود، و من أجلها مقتهم الناس قديما و حديثا، إلا من يتخذ منهم أداة للشر، تماما كالسم القاتل ..

حتى في الولايات المتحدة و كر الصهاينة يوجد جماعة كثر يناهضون اليهود.

(لَوْ لاٰ يَنْهٰاهُمُ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ). هذا التوبيخ الذي دلت عليه لو لا و بئس موجه في الظاهر لرؤساء الأديان من أهل الكتاب .. و في الواقع موجه لكل من عرف الحق، و سكت عنه. ان العالم باللّه حقا المخلص له وحده يحتج على المظالم بشتى الوسائل، و إذا تيقن أن موته في هذه السبيل ينبه الغافلين، و يردع الظالمين أقدم عليه، و عبر عن احتجاجه بالاستشهاد، و تاريخ الشهداء جميعا هو تاريخ الاحتجاج على جرائم الظلم و العدوان.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٦٤ الى ٦٦]

وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنٰا بَيْنَهُمُ الْعَدٰاوَةَ وَ الْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ كُلَّمٰا أَوْقَدُوا نٰاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّٰهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسٰاداً وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتٰابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنٰا عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنٰاهُمْ جَنّٰاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقٰامُوا التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سٰاءَ مٰا يَعْمَلُونَ (٦٦)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٠

اللغة:

لليد معان، منها الجارحة، أي هذه اليد العادية التي أكتب بها هذه الكلمات، و منها النعمة، تقول لفلان عندي يد اشكرها، و منها القدرة، و منها الملك.

و تستعمل في البذل و الإمساك حسبما تنسب اليها، تقول بسط يده إذا أردت البذل، و تقول غلّ يده إذا أردت الإمساك.

و اقامة التوراة و الإنجيل العمل بما فيهما.

و مقتصدة، أي معتدلة.

الاعراب:

كيف في محل نصب على الحال، أي ينفق على أي حال يشاء. و كثيرا مفعول أول ليزيدن، و طغيانا مفعول ثان. و كلما نصبت على الظرف لأنها مضافة إلى ما المصدرية الظرفية. و فسادا مفعول لأجله ليسعون.

المعنى:

(وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ). هذه صورة من الصور العديدة التي يرسمها القرآن لليهود، و مثلها قولهم: «إن اللّه فقير و نحن أغنياء» .. و على قياسهم ينبغي أن يكونوا هم الآلهة، و اللّه جلت عظمته (...) و قد تجلت هذه الغطرسة و الوقاحة بأقبح معانيها في تحديهم للرأي العام العالمي باحتلال القدس سنة ١٩٦٧.

و في بعض الروايات ان الذي نطق بكلمة الكفر هذه رجل منهم، اسمه فنحاص .. و قد تكون الرواية صحيحة، و صحيح أيضا ان الواحد لا يعبّر عن رأي الطائفة و الجماعة، و ان بعض ضعاف المسلمين يقول هذا حين تحاصره المصائب، و لا يجد له مهربا .. هذا صحيح، و لكن من اطلع على سيرة اليهود يعلم انهم يقولون هذا بلسان الحال، و إن لم ينطقوا به بلسان المقال .. إنهم يريدون من اللّه أن يهب الأرض و من عليها اليهم وحدهم، و إلا فهو بخيل مغلول

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩١

اليد **(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا)**. و بما فعلوا من المسارعة إلى الإثم و العدوان و أكلهم المال الحرام.

الصهاينة تواطئوا مع النازيين:

قال صاحب تفسير المنار: **(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)** هو دعاء من اللّه عليهم بالبخل و ما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئا إلا إذا درّ عليه ربحا.

و قد كان الربح الوحيد عندهم هو المال، و من أجله يحل كل محرم، أما اليوم فلا ربح أفضل من قتل عربي، حتى و لو كان طفلا، و الشعار الديني المقدس لهيئاتهم (الخيرية) «ادفع دولارا تقتل عربيا» مسلما أو نصرانيا ..

بل إنهم يسخون بأرواحهم رجالا و نساء و أطفالا ليخرجوا الفلسطينيين من ديارهم و يحلّوا محلهم .. و أغرب ما قرأت ان زعماء الصهاينة، و منهم وايزمان و موسى شاريت و دافيد بن غوريون تواطئوا مع النازية و زعماء الجستابو على ذبح اليهود و التنكيل بهم لهدفين: الأول دفع اليهود للهجرة إلى فلسطين. الثاني اصطناع المبررات لقيام دولة إسرائيل.

(عن كتاب اطلاق الحمامة ٥ يونيو للمؤلفين:

بيليايف و كوبستيشنكو و بريماكوف. ترجمة ماهر عسل).

و إذا تواطأ اليهود مع أعدى أعدائهم، و ضحوا بمئات الألوف منهم من أجل دولة إسرائيل فهل يكثر منهم القول: ان اللّه فقير و نحن أغنياء، و أن يده مغلولة عن البذل و العطاء؟ و أية غرابة في قولهم: نحن حمامة السلام، و العرب دعاة الحرب و الدمار بعد أن قالوا: ان اللّه فقير و نحن أغنياء؟. و إذا كانت يد اللّه مغلولة لأنه لم يهبهم الأرض و من عليها فبالأولى أن يكون العرب طغاة معتدين، لأنهم لم يعتذروا لليهود عن التقصير، و عدم عرفان الجميل .. و ليس قولي هذا كلاما شعريا، أو إحساسا عاطفيا .. ألم يلح اليهود على اعتراف العرب بإسرائيل؟. و أي معنى لهذا الاعتراف في هذا الظرف بالذات إلا الاعتذار و طلب العفو؟.

(بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ). المراد باليد هنا عين المراد بيمينه في الآية ٦٧ من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٢

الزمر: «وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» أي بقدرته، و قال يداه بالتثنية لا بالإفراد لأنها أبلغ شكلا، و أقوى محتوى (يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ) بإيجاد السبب الموجب:

«هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ- ١٥ الملك».

أجل، قد لا تسعف الظروف أحيانا، و يخيب المسعى. و قوله: «و إليه النشور» تهديد و وعيد لمن يطلب العيش على حساب غيره.

(وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً). المراد بالكثير الرؤساء و المترفون الذين خافوا على مناصبهم من دعوة الحق، و زادتهم هذه الدعوة حقدا على صاحبها محمد (ص) لأنه كشف عن عوراتهم و سيئاتهم التي منها تحريف كلام اللّه عن مواضعه، و أكلهم المال الحرام، و عدم التناهي عن المنكر .. و من شأن الدعي الصلف أن يزداد عتوا و فسادا إذا نبه الى عيوبه و مآثمه.

(وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ). قال صاحب تفسير المنار:

لا نعرف في التفسير المأثور عن السلف إلا أن الضمير في قوله (بينهم) يرجع إلى اليهود و النصارى في قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ) .. و في تفاسير المتأخرين احتمال أن يكون الضمير لليهود وحدهم.

و نحن على رأي السلف أولا: لأنهم أعرف بما يراد من مفردات القرآن و الحديث من المتأخرين، لأنهم أقرب إلى عهد الرسالة و نزول القرآن. ثانيا:

لأن العداء بين اليهود و النصارى عداء ذاتي، فاليهود يعتقدون ان المسيح مشعوذ محتال و ابن سفاح- نعوذ باللّه- و النصارى يعتقدون أنه ابنه تعالى اللّه، بينما يعتقد المسلمون أنه نبي منزه عن الجهل و المعصية .. و محال أن يزول العداء بين اليهود و النصارى: ما دامت كل طائفة على عقيدتها، و قد حاول بابا روما عام ١٩٦٥ أن يقرب بين الطائفتين، و لكن اليهود ما زالوا مصرين على رأيهم بالسيد المسيح (ع) .. أجل، ان الأطماع المشتركة قربت، بل وحدت بين أرباب الشركات لكلتا الطائفتين، و لكن على أساس تجاري، لا على أساس ديني.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٣

اليهود و نار الحرب:

(كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ). إن كلمة الحرب وضعت أول ما وضعت للقتال، و استعملت في هذا المعنى قرونا طوالا، و بمرور الزمن تطورت، حتى أصبحت تدل الآن على ضد السلم و الأمن و الرخاء، فأي بلد يخشى على نفسه من احتلال دولة أقوى منه، أو ارتفعت أسعار المعيشة فيه لقتال في بلد من البلدان فهو في حالة حرب، و إن لم تسل الدماء على أرضه، لأنه قد تأثر بذاك القتال، و أفقده الكثير من أمنه و راحته.

و بعد هذه الإشارة نتساءل: هل المراد بالحرب في الآية خصوص القتال أو ما يشمل الأمن و الرخاء؟ ثم إذا كان المقصود هم اليهود كما قال المفسرون فبماذا يجاب عن حرب ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ التي أوقد اليهود نارها، و لم تخمد، حتى الآن؟

الجواب: أما كلمة الحرب في الآية فإن المراد منها خصوص القتال، لأن هذه الكلمة لم تحمل غير هذا المعنى يومذاك. أما حرب ٥ حزيران فنجيب عنها بما يلي:

١- اتفق المفسرون على أن المراد باليهود خصوص من كان يهم بالكيد لرسول اللّه و المسلمين، فقد جاء في كتب السيرة النبوية إن يهود المدينة تحالفوا مع المشركين ضد النبي و صحابته، و أن منهم من سعى لتحريض الروم عليهم، كما ان بعضهم كان يؤوي أعداءهم و يساعدهم.

٢- لو سلمنا- جدلا- ان المراد كل اليهود في كل عصر أخذا بظاهر العموم فان حادثة ٥ حزيران لم تكن حربا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، و إنما كانت اغتيالا و غدر جبان، فحتى ليلة الغدر كانت تؤكد إسرائيل و واشنطن انهما لم تبدءا بالهجوم، بل و بعد الغدر أذاعت إسرائيل ان العرب هم البادئون، ثم ظهرت الحقيقة .. على أن حرب ٥ حزيران لم تكن بين العرب و اليهود، و إنما كانت في واقعها بين العرب و الولايات المتحدة، فهي مهندس العدوان، و الآمر به، و مصدر السلاح و المال، و صانع الخديعة السياسية، و المحامي و الحارس، أما إسرائيل فقد مثلت دور الجندي المطيع.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٤

قال مؤلفو كتاب اطلاق الحمامة الذي أشرنا اليه منذ قريب: «نشرت الصحف الفرنسية و ألمانيا الغربية أن المخابرات الأمريكية سلمت إسرائيل قبل العدوان كل ما تجمع لديها من معلومات بالإضافة إلى الدوسية الخاصة بالشرق الأوسط لدى قيادة الحلف الأطلسي .. و ان الذي أصدر الأمر لاسرائيل بالهجوم على العرب باسم الرئيس جونسون هو مستشاره اليهودي الصهيوني «والت روستو» .. و كان الأميرال الأميركي يحمل في جيبه أمرا بتنفيذ الاستعداد للقتال في جميع الوحدات الخاضعة له .. أما عملية ليبرتي سفينة التجسس فقد كانت مدبرة بين الأميركيين و الاسرائيليين».

٣- ان نار الحرب التي أوقدتها واشنطن أو عميلتها إسرائيل قد أخمدها اللّه ما في ذلك ريب .. فلقد اعترف الذين أوقدوها أكثر من مرات، و أعلنوا بالصحف و الاذاعات انها لم تحقق الهدف المطلوب منها، و هو ضرب القيادة التحررية للعرب، و استسلامهم دون قيد و شرط، و بالتالي حل مشكلة إسرائيل من الناحية السياسية .. و في الوقت نفسه كانت حادثة ٥ حزيران امتحانا قاسيا للعرب، و تأكيدا لضرورة الإصلاح الجذري، و تنبيها لهم الى أصدقائهم و أعدائهم .. و لو لم يكن لتلك الحادثة من فائدة إلا افتضاح المتآمرين على بلادهم و أمتهم لكفى.

(و يسعون- أي اليهود- في الأرض فسادا). لأن أهدافهم الأثيمة محال أن تتحقق إلا بالتخريب و إثارة الفتن، و قد صرح المسئولون في إسرائيل ان بقاء دولتهم و حياتها رهن بالخلافات القائمة بين زعماء العرب .. فهل من مذكر؟

(وَ اللهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ). و من ثم تكون عاقبتهم إلى وبال، و إن طال الزمن.

(وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ). هذه دعوة من اللّه سبحانه لليهود و النصارى أن يتوبوا و يدخلوا في الإسلام، و إن استجابوا لدعوته صفح عن جميع ذنوبهم، و إن عظمت، لأن الإسلام يجبّ ما قبله، كما جاء في الحديث، و ان اتقوا بعد إسلامهم أدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

الرزق و فساد الأوضاع:

(وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ).

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٥

إقامة التوراة و الإنجيل العمل بهما، و المراد بما أنزل اليهم التعاليم التي كانوا يسمعونها من الأنبياء، و هي المعروفة عند

المسلمين بالأحاديث النبوية، و من فوقهم و من تحت أرجلهم كناية عن السعة في الرزق، تماما كما تقول: فلان غارق في النعم من قرنه إلى قدمه.

و في معنى هذه الآية آيات كثيرة، منها الآية ٩٥ من الاعراف: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ». و الآية ١٢ الرعد: «إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ». و الآية ٤١ الروم:

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ». و الآية ٣٠ الشورى:

«وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ». و ترشدنا هذه الآيات إلى أمرين:

١- ان ظهور الفساد، و منه الفقر و المرض و الجهل، إنما هو من حكم الأرض، لا من حكم السماء، و من أيدي الناس الذين أماتوا الحق، و أحيوا الباطل، لا من قضاء اللّه و قدره، و ان أية جماعة عرفوا الحق، و عملوا به عاشوا في سعادة و هناء.

٢- ان التعبير في الآيات الكريمة بقوم و بالناس يدل على ان الشقاء يستند إلى فساد الأوضاع، و ان مجرد صلاح فرد من الأفراد لا يجدي شيئا ما دام بين قوم فاسدين، بل يجر صلاحه عليه البلاء و الشقاء، قال تعالى: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً- ٢٥ الأنفال»، أي ان الآثار السيئة لمجتمع سيء تعم جميع أفراده الصالح و الطالح .. و ليس من شك ان الشعب الكسول الخانع الخاضع للعسف و الجور لا بد أن يعيش أفراده في الذل و الهوان.

و على هذا يكون المراد بالإيمان الموجب للرزق هو الإيمان باللّه مع العمل بجميع أحكامه و مبادئه، لا إقامة الصلاة فقط، بل و أداء الزكاة، و جهاد المستقلين و المحتكرين، و إقامة العدل في كل شيء، و ليس من شك ان العدل متى عم و ساد صلحت الأوضاع، و ذهب الفقر و الشقاء، و هذا ما يهدف اليه القرآن.

لقد كشف الإسلام عن الصلة الوثيقة بين فساد الأوضاع، و بين التخلف و آلام الانسانية بشتى أنواعها، و سبق إلى معرفة هذه الحقيقة كل عالم من علماء الاجتماع، و كل قائد من قادة الاشتراكية و الديمقراطية و غيرها .. و إذا كان لدى

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٦

هؤلاء شيء يذكر فعن الإسلام أخذوا، و منه اقتبسوا .. و لكن ما الحيلة فيمن ينفر من كل ما يمت إلى الدين بسبب، لا لشيء إلا لأن اسمه دين.

(مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ). الضمير في منهم يعود إلى أهل الكتاب المذكورين في الآية صراحة، و هم اليهود و النصارى، و المراد بالأمة الجماعة، و معنى مقتصدة معتدلة، و الذين أطلق اللّه عليهم وصف الاعتدال هم من اعتنق الإسلام من اليهود و النصارى بعد أن ظهرت لهم دلائل الحق، و بينات الصدق. و قد ذكر أهل التاريخ و السير أسماء كثيرة لمن أسلم من أهل الكتاب، أما الذين أصروا على الكفر بعد أن استبان لهم الحق فهم المقصودون بقوله تعالى: **(وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ)**.

[سورة المائدة (٥): آية ٦٧]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٦٧)

المعنى:

يدل ظاهر الآية على ان هناك أمرا هاما نزل على النبي (ص)، و قد أمره اللّه بتبليغه إلى الناس، فضاق النبي به ذرعا، لأنه

ثقيل على أنفسهم، فتريث يتحين الظروف و المناسبات تجنبا للاصطدام مع المنحرفين .. و لكن اللّه سبحانه حثه على التبليغ حالا، و دون أن يحسب حسابا لأي اعتبار، و اللّه سبحانه يتولى حمايته و عصمته من كل مكروه.

و تسأل إن قوله تعالى **(وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ)** لا يفيد شيئا يحسن السكوت عليه، حيث جعل جواب الشرط عين فعله، تماما مثل قول القائل:

إن لم تفعل فما فعلت، و إن لم تبلغ فما بلغت .. فما هو الوجه؟

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٧

الجواب: إن قوله تعالى: **(فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ)** يشعر بأن هذا الأمر الذي تريث النبي (ص) في تبليغه خوفا من الناس قد بلغ من الأهمية حدا يوازي تبليغه تبليغ الرسالة كلها، بحيث إذا ترك تبليغه فكأنما ترك تبليغ جميع الأحكام، تماما كما تقول لمن كان قد أحسن اليك: إذا لم تفعل هذا فما أنت بمحسن إليّ إطلاقا، و عليه يكون المعنى إن لم تبلغ هذا الأمر فكأنك لم تؤد شيئا من رسالتي، و جازيتك جزاء من كتم جميع أحكامها.

سؤال ثان: ما هو هذا الأمر الذي بلغ من العظمة هذا المبلغ، حتى أناط اللّه تبليغ الرسالة جميعا بتبليغه، و جعل الرسول يتوقف أو يتربث في تبليغه، و هو الحريص على أن يصدع بأمر اللّه مهما كانت النتائج؟

الجواب: بعد أن اتفق المفسرون الشيعة منهم و السنة على تفسير الآية بالمعنى الذي ذكرناه، بعد أن اتفقوا على هذا اختلفوا في تعيين هذا الأمر الذي تريث النبي (ص) في تبليغه، و الذي لم يذكره اللّه صراحة.

قال الشيعة: إن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب، و ان هذا الأمر الهام هو ولايته على الناس، و ان النبي (ص) تريث في التبليغ لا خوفا على نفسه، كلا، فلقد جابه صناديد قريش بما هو أعظم، فسفه أحلامهم، و سب آلهتهم، و عاب أمواتهم، و هم الأشداء الأقوياء، و أهل العصبية الجاهلية .. أقدم النبي على هذا، و لم يخش فيه لومة لائم يوم لا حول للإسلام و لا طول، فكيف يخشى من تبليغ حكم من الأحكام بعد أن أصبح في حصن حصين من جيش الإسلام و مناعته؟ و إنما خاف النبي (ص) إذا نص على علي بالخلافة أن يتهم بالمحاباة و التحيز لصهره و ابن عمه، و أن يتخذ المنافقون و الكافرون من هذا النص مادة للدعاية ضد النبي (ص) و التشكيك في نبوته و عصمته .. و بديهة ان مثل هذه الدعاية يتقبلها البسطاء و السذج.

هذا ملخص ما قاله الشيعة، و استدلوا عليه بأحاديث رواها السنة في ذلك، و نقل بعضها الرازي و صاحب تفسير المنار.

أما السنة فقد اختلفوا فيما بينهم، فمن قائل: إن النبي سكت عن بعض الأحكام التي تتعلق باليهود، و من قائل: إن الحكم الذي سكت النبي عنه يتصل

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٨

بقصة زيد و زينب بنت جحش، و قال جماعة من السنة ان الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب، لا في خلافته، و نقل هذا القول الرازي و صاحب تفسير المنار.

قال الرازي: «العاشر- أي القول العاشر-: نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب، و لما نزلت هذه الآية أخذ النبي بيد علي، و قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه» فلقيه عمر فقال:

هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة، و هو قول ابن عباس و البراء بن عازب و محمد بن علي».

صاحب المنار و أهل البيت:

و قال صاحب تفسير المنار: «أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فقد رواه أحمد في مسنده، و الترمذي، و النسائي، و الضياء في المختار، و ابن ماجة، و حسّنه بعضهم، و صححه الذهبي بهذا اللفظ، و وثّق سند من زاد فيه: اللهم وال من والاه و عاد من عاداه الخ»، و في رواية انه خطب الناس، فذكر أصول الدين، و وصى بأهل بيته، فقال: «إني قد تركت فيكم الثّقلين:

كتاب اللّه، و عترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، اللّه مولاي، و أنا ولي كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي و قال- الحديث- أي من كنت مولاه فعلي مولاه.

ثم أطال صاحب تفسير المنار الكلام، و قال فيما قال: المراد بالولاية في الحديث ولاية النصرة و المودة «١» .. و لكنه أتبع هذا التفسير بقوله: «إن مثل هذا الجدل فرق بين المسلمين، و أوقع بينهم العداوة و البغضاء، و ما دامت عصبية المذاهب غالبة على الجماهير فلا رجاء في تحريهم الحق في مسائل الخلاف». هذا صحيح يقره كل عاقل، و لو لا التعصب للباطل لم يقع الخلاف بين المسلمين،

---

(١). انظر تفسير الآية ٥٥ من هذه السورة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٩٩

و على افتراض حصوله فإنه لا يستمر هذا الأمد الطويل، و لم تؤلف عشرات الكتب في مسألة واحدة.

ثم قال صاحب تفسير المنار: «أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فنحن نهتدي به، و نوالي عليا المرتضى، و نوالي من والاهم، و نعادي من عاداهم، و نعد ذلك كموالاة رسول اللّه صلى اللّه عليه و على آله و سلم، و نؤمن بأن عترته (ص) لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله اللّه عليه، و أن الكتاب و العترة خليفتا الرسول، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير، فإذا أجمعوا على أمر قبلناه و اتبعناه، و إذا تنازعوا في أمر رددناه إلى اللّه و الرسول».

[سورة المائدة (٥): الآيات ٦٨ الى ٦٩]

قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ حَتّٰى تُقِيمُوا التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَ كُفْراً فَلاٰ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكٰافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا وَ الصّٰابِئُونَ وَ النَّصٰارىٰ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)

اقامة التوراة و الإنجيل الآية ٦٨- ٦٩:

الإعراب:

الصابئون مبتدأ و الخبر محذوف، أي و الصابئون كذلك، و مثله: «فاني و قيار بها لغريب» أي اني لغريب، و قيار كذلك، أو غريب، و النصارى عطف على الصابئين. من آمن باللّه بدل بعض من كل ما تقدم من الأصناف.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٠

المعنى:

(قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ من دين الحق، و لا تنفعكم هذه المظاهر الدينية (حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ إلخ .. تقدم تفسيره في الآية ٦٤ من هذه السورة).

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا) إلخ .. تقدم تفسيره في الآية ٦٢ من سورة البقرة ج ١ ص ١١٦ و ما بعدها.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧٠ الى ٧١]

لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧٠) وَ حَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (٧١)

اللغة:

المراد بالفتنة هنا العقوبة.

الإعراب:

لقد اللام واقعة في جواب القسم المحذوف، أي و اللّه لقد. و لا تكون تامة.

و فتنة فاعل، و المصدر المنسبك من أن و ما بعدها مفعول حسبوا، أي حسبوا عدم الفتنة. و كثير بدل من واو عموا و صموا.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠١

المعنى:

(لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ). سبق تفسير قوله تعالى في الآية ١٢ من هذه السورة: «وَ لَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً».

و الآية ١٣: «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم». و قال المفسرون: ان اللّه سبحانه كرر أخذ الميثاق من اليهود، و نقضهم إياه بقتلهم الأنبياء و تكذيبهم- كرر ذلك تأكيدا لعتوهم و شدة تمردهم .. و نضيف نحن إلى ذلك ان اللّه جل ثناؤه قد أراد أيضا من هذا التكرار- و هو أعلم بما أراد- أن يحذر ذراري المسلمين من ذراري اليهود، حيث سبق في علمه تعالى ان المسلمين سيفترقون إلى طوائف و ينقسمون إلى دويلات، و ان اليهود سيستغلون هذا الانقسام لإنشاء دولة لهم في قلب البلاد الإسلامية، و يكون منها ما كان.

(وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً) بينوا لهم طريق الحق و الهداية، و لكن (كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ). فهوى النفس وحده هو الآمر الناهي عند اليهود، و لا جزاء لمن خالفهم- و ان كان نبيا- إلا القتل ان قدروا عليه، أو التكذيب ان عجزوا عن القتل .. و هذا الوصف لا يختص باليهود، و ان كان الحديث عنهم، فكل من انخدع لهواه يفعل مثل ما فعلوا، يهوديا كان، أو مسلما، أو نصرانيا.

(وَ حَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ). المراد بالفتنة هنا شدائد الأمور، كتسلط الأقوياء عليهم بالقتل و التخريب و التشريد، أي ظن اليهود أنهم لا يغلبون أبدا لأنهم شعب اللّه المختار بزعمهم .. و قد اعتمدوا على هذا الزعم فيما مضى، أما اليوم فإنهم يعتمدون على القوى الاستعمارية، و العناصر الرجعية، و الشركات الاحتكارية، و على إثارة الفتن و الخلافات، و

نشر الفساد و الانحلال.

(فَعَمُوا وَ صَمُّوا). كل من كره شيئا عمي عن محاسنه، و قد كره اليهود كل شيء إلا ما تهوى أنفسهم، لذا تعاموا عن منهج الحق، و تصاموا عن صوت العدل، فسلط اللّه عليهم البابليين، فقتلوا رجالهم، و نهبوا أموالهم، و سبوا نساءهم و أطفالهم **(ثُمَّ تابَ اللهُ عَلَيْهِمْ)** بعد أن تابوا، لشدة ما أصابهم في أسر بختنصر من المذلة و المهانة **(ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ)**. أي أن اللّه سبحانه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٢

بعد أن أنجاهم من عذاب الأسر عاود كثير منهم الكرة إلى البغي و الفساد، قتلوا زكريا و يحيى، و كذبوا السيد المسيح (ع) و حاولوا قتله، و قالوا فيه و في أمه قولا عظيما، فسلط اللّه عليهم الفرس و الروم، و فعلوا بهم ما فعله بختنصر.

(وَ اللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ)/ ٧١ من سفك الدماء، و تزييف الحقائق، و تدبير المؤامرات و تنفيذ الخطط التي يضع تصميمها كل طاغ و باغ .. ان اللّه سبحانه يعلم ذلك منهم، و هو مجازيهم عليه بالخزي و الخذلان في الدنيا قبل الآخرة.

و هذا الوصف الذي حكاه اللّه عن اليهود ينطبق تماما على من يتظاهر بالإسلام، ثم يدور في فلك الذين يساندون إسرائيل، و يناصرونها على العرب و المسلمين.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧٢ الى ٧٥]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) ما الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)

اللغة:

الصديقة مبالغة في الصدق. و الافك الكذب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٣

الاعراب؟

ثالث خبر إن. و ثلاثة مجرور بالاضافة، و لا يجوز ثلاثة بالنصب على انه مفعول لثالث، كما يجوز لك أن تقول: ضارب زيدا على أن يكون زيد مفعولا لضارب، لا يجوز ذلك في ثلاثة، إذ يصير المعنى الثالث جعل الثلاثة ثلاثة، و هذا باطل و غير مراد، لأن المعنى المراد واحد من ثلاثة، لا جاعل الثلاثة ثلاثة .. أجل، إذا قلت: رابع ثلاثة يجوز أن تجر ثلاثة بالاضافة، و أن تنصبها مفعولا لرابع على معنى جاعل الثلاثة أربعة. ما من إله (من) زائدة. و إله مبتدأ، و الخبر محذوف، أي ما إله موجود إلا اللّه. و لفظ الجلالة بدل من إله، أو من الضمير في موجود. ليمسن اللام واقعة في جواب قسم محذوف، و يمسن ساد مسد جواب القسم و جواب ان الشرطية. و منهم متعلق بمحذوف حالا من الذين. و جملة كانا يأكلان الطعام مستأنفة لا محل لها من الإعراب، و لا يصح أن تكون صفة للمسيح و أمه، لأن كلا منهما جاء في جملة مستقلة، و لو قال: المسيح و أمه مخلوقان كانا يأكلان لصح إعراب الجملة وصفا. و كيف نبين (كيف) مفعول مطلق

لنبين، لأن المعنى أي بيان نبين، و لا يجوز أن تكون كيف مفعولا لأنظر، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله.

و أنّى بمعنى كيف، و هي مفعول مطلق، و المعنى أي افك يؤفكون.

المعنى:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ). غالى اليهود في تحقير عيسى و أمه، و غالى النصارى في تعظيمهما، حتى ارتفعا بهما إلى مكان الآلهة، و الغلو في نظر الإسلام كفر بشتى صوره و أشكاله. قال الإمام علي (ع): «سيهلك فيّ صنفان: محبّ مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، و مبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، و خير الناس فيّ حالا النمط الأوسط فالزموه».

(وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ). المسيح من بني إسرائيل

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٤

و أنذر أول من أنذر قومه، فأمرهم بعبادة اللّه وحده معترفا بأنه ربه و ربهم، و منذرا من يشرك باللّه بأليم العذاب، و لكن النصارى أبوا إلا القول بربوبية عيسى (ع) و من جحد بها فقد جحد بخالق الكون في عقيدتهم.

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ). أنكر سبحانه على النصارى أولا تأليه السيد المسيح (ع)، ثم أنكر عليهم في هذه الآية جعلهم اللّه واحدا من ثلاثة، و قولهم: إن اللّه هو الأب و المسيح هو الابن، ثم حل الأب في الابن و اتحد به فكوّن روح القدس، و كل واحد من هؤلاء الثلاثة هو عين الآخر، و هو غيره. و تقدم الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة، و الآية ١٧٠ من سورة النساء.

(ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ). سئل الإمام علي (ع) عن التوحيد و العدل، فقال:

التوحيد ان لا تتوهمه، و العدل أن لا تتهمه. أي من توحيد اللّه ان لا تتصوره بوهمك، لأن كل موهوم محدود و اللّه لا يحد بوهم، و العدل ان لا تتهم اللّه بحكمته، و انه فعل ما لا ينبغي أن يفعل.

(وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ). و تسأل:

ان (منهم) في الآية تدل بظاهرها ان النصارى فيهم الكافر و المؤمن، مع العلم بأنهم جميعا يقولون بألوهية عيسى و اللّه سبحانه يقول: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)؟

و أجاب المفسرون بأن (منهم) أخرجت من تاب و أسلم، و أبقت من أصر على الكفر .. و يلاحظ بأن من أسلم لا يعد منهم، و الصحيح ان النصارى ظلوا على عقيدة التوحيد، و الإيمان بنبوة عيسى أمدا غير قصير، ثم انقسموا إلى طائفتين: إحداهما تؤمن بالتوحيد، و الأخرى تقول بالتعدد .. و على طول الأمد اتفقت كلمة الجميع على التثليث، و على هذا فلفظ (منهم) اخرج الطائفة البائدة التي كانت تؤمن بنبوة عيسى، لا بألوهيته. و تقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة.

(أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). ما أوضح هذا الكلام.

و رغم هذا الوضوح أبى بعض المفسرين إلا أن يفسره و يقول: «هنا فعل

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٥

محذوف، و التقدير أفلا يسمعون ما قلنا فيتوبون» و هكذا يأتي الشيء جامدا باردا إذا كان في غير محله.

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ). كنوح و إبراهيم و موسى و غيرهم، و قد أظهر اللّه المعجزات على أيديهم كما أظهرها على يد عيسى، فالقول بربوبيته من دونهم ترجيح بلا مرجح (وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ). و بيّن اللّه معنى الصديقة بقوله: «وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ، وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ- ١٢ التحريم».

(كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ). كل من افتقر إلى شيء، أي شيء و لو إلى مكان أو زمان فهو مخلوق، لأن الافتقار وصف لازم له، و لا ينفك عنه بحال، و إلا كان خالقا غير مخلوق .. كما ان الغنى عن كل شيء وصف لازم للخالق، و محال أن ينفك عنه، و إلا كان مخلوقا .. و بديهة أن من يأكل الطعام فهو في أشد الحاجة اليه .. إذن، هو مخلوق و ليس بخالق .. و غريب أن تخفى هذه البديهة الواضحة على عاقل .. و لهذا المنطق و نصاعته عقّب سبحانه على موقفهم بقوله- مستنكرا- (انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ). و من هذه الآيات ان المسيح و أمه كانا يأكلان الطعام، فكيف يكونان إلهين؟.

(ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ). أي معرضين عن الحق مكذبين له تمردا و عنادا.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧٦ الى ٨١]

قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (٨٠)

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ ما اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (٨١)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٦

اللغة:

التناهي تفاعل، أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضا، و يستعمل في الكف عن الشيء، يقال تناهى عن كذا، أي كف عنه.

الاعراب:

غير الحق صفة لمفعول مطلق محذوف، أي لا تغلوا غلوا غير الحق. و من بني إسرائيل متعلق بمحذوف حالا من الذين كفروا. و بئس ما كانوا (بئس) فعل ماض بمعنى الذم، و (ما) اسم نكرة بمعنى شيء محل نصب على التمييز.

و فاعل بئس مستتر يفسره ما، أي الشيء شيئا فعلهم، و قد تصيدنا من يفعلون مصدرا جعلناه المخصوص بالذم. و هو مبتدأ و خبره بئس و ما بعدها، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي هو فعلهم.

المعنى:

(قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). يستعمل القرآن الكريم (ما) فيما لا يعقل، قال تعالى: «وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى». و فيمن يعقل: «فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ».

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٧

و فيهما معا: «لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ». و منه قوله تعالى في هذه الآية «ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً» فإن المراد من (ما) كل ما اتخذ معبودا من المخلوقات فيندرج فيه عيسى و مريم و الأصنام .. أجل، ان استعمال (ما) فيما

لا يعقل أكثر من استعمالها فيمن يعقل. على العكس من استعمال (من).

أما وجه الاحتجاج على النصارى بهذه الآية فلأن الإله المعبود هو الذي يملك لعباده ضرا و نفعا، أما العاجز فمحال أن يكون إلها .. و قد ذكرت الأناجيل ان عيسى الذي يدعون له الألوهية قد أهين و صلب و دفن بعد أن وضعوا اكليل الشوك على رأسه، و من لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا فبالأولى أن لا يملكهما لغيره .. و من كان هذا شأنه لا يعبده عاقل، قال ابراهيم (ع) لأبيه: «يٰا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مٰا لاٰ يَسْمَعُ وَ لاٰ يُبْصِرُ وَ لاٰ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً- ٤٢ مريم». و كان لاعرابي صنم يقدسه و يعبده، و جاءه ذات يوم ليسجد له كعادته فرأى ثعلبا بالقرب منه، فظن ان الثعلب قصده ليتبرك به، و حين أراد السجود له رأى قذارة الثعلب على رأسه، فثاب اليه رشده، و أخذ يحطم الصنم، و يقول:

ارب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

(قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ)

. هذا الخطاب موجه بظاهره إلى أهل الكتاب، و في واقعه يشمل أهل الأديان جميعا .. و المظهر الأصيل المميز للإسلام انه يحصر النفع و الضر بيد اللّه وحده، و يضع الإنسان أمام خالقه دون وسائط روحية أو مادية: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً

- ١٢٢ النساء».

(وَ لاٰ تَتَّبِعُوا أَهْوٰاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰاءِ السَّبِيلِ). المراد بالقوم رؤساء الدين الذين يتاجرون به، و يحرّفونه كما يشتهون ..

و قد وصفهم جل ثناؤه بالضلال في أنفسهم أولا، و بإضلال أتباعهم ثانيا، ثم بيّن نوع الضلال و الإضلال بأنه انحراف عن قصد السبيل **(وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰاءِ السَّبِيلِ)**. و سواء السبيل هو الاعتدال و ترك الغلو في الدين .. و هذا هو الإسلام في واقعه، دين قويم، و صراط مستقيم، و كيلا يقول المسلمون في محمد (ص)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٨

ما قاله النصارى في المسيح (ع) أمر اللّه نبيه أن يقول للمؤمنين به: «قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَمَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صٰالِحاً وَ لاٰ يُشْرِكْ بِعِبٰادَةِ رَبِّهِ أَحَداً- ١١١ الكهف».

و دخل رجل على رسول اللّه، فارتجف من هيبته، فربت على كتفه في حنان و قال: «هوّن عليك، أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة».

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ لِسٰانِ دٰاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ).

قال المفسرون: نهى داود بني إسرائيل عن صيد الحيتان يوم السبت بوحي من اللّه، و لما عتوا عن أمره لعنهم، و دعا

عليهم، فصاروا قردة. أما عيسى فقد طلب منه خمسة آلاف رجل ان ينزل عليهم مائدة من السماء، فيأكلوا منها، و يؤمنوا به، و لما نزلت أكلوا و نكلوا، فقال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت.

و لا شيء في الآية يومئ إلى هذه التفاصيل، و المعنى الظاهر ان داود و عيسى لعنا من كفر من بني إسرائيل **(ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ)**. و سكت اللّه سبحانه عن نوع العصيان و الاعتداء، و لم يسكت عنه جهلا و لا نسيانا، و نحن نسكت عما سكت اللّه عنه، و في الوقت نفسه نؤمن بأن لعنة اللّه و نقمته تصيب كل من عصى و اعتدى، سواء أ كان إسرائيليا، أو هاشميا.

(كٰانُوا لاٰ يَتَنٰاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ). تشعر هذه الآية بأن عمل المنكر لم يكن عملا فرديا في المجتمع اليهودي، و إنما كان عمل الجماعة كلها، و ان المنكر قد تفشى بينهم، حتى صار عادة من عاداتهم المألوفة التي اصطلح عليها الكبير و الصغير، و لذا لم يوجد فيهم من يستنكر المنكر، و ينهى عنه.

و عن صحيح مسلم و البخاري ان رسول اللّه قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا يا رسول اللّه: اليهود و النصارى؟ قال: فمن؟» القذة إحدى ريش السهم.

(تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا). ضمير منهم يعود إلى اليهود، و المراد بالذين كفروا- هنا- مشركو العرب، و كان كثير من اليهود يقفون مع المشركين ضد النبي (ص)، و يحرضونهم عليه، بل كانوا أشد منهم عداوة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٠٩

له، مع ان النبي (ص) يؤمن باللّه، و بنبوة موسى (ع)، و ما أنزل اليه من ربه، و المشركون يعبدون الأوثان، و لا يؤمنون بموسى، و لا بكتاب من كتب اللّه، فكان الأولى باليهود، و هذه هي الحال، أن يقفوا مع المؤمنين ضد الوثنيين، لا مع الوثنيين ضد المؤمنين.

و لكن اليهود كانوا و ما زالوا يعملون على أساس الربح و التجارة، لا على أساس الدين، كان يهود المدينة يسيطرون على التجارة الداخلية، و مشركو العرب يسيطرون على التجارة الخارجية، فعمل النبي على تحرير الناس من السيطرتين، فالتقت مصلحة اليهود مع مصلحة المشركين فتكاتفوا معهم و تضامنوا ضد المؤمنين، تماما كما التقت اليوم مصلحة اليهود مع مصالح أرباب الشركات الاستثمارية من المسيحيين ضد الشعوب و المستعفين .. و سبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥١ من هذه السورة.

(لَبِئْسَ مٰا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذٰابِ هُمْ خٰالِدُونَ).

هذه نتيجة فسادهم و اعتدائهم، سخطه و عذابه، و كل امرئ مجزي بما أسلف، و قادم على ما قدم، مسلما كان أو مشركا.

(وَ لَوْ كٰانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ النَّبِيِّ- موسى- وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مٰا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيٰاءَ). ذكر سبحانه في الآية السابقة أن اليهود، أو الكثير منهم كانوا يتولون المشركين، و يؤلبونهم على المسلمين، مع ان المسلمين أقرب اليهم دينا من المشركين. ثم بيّن سبحانه في هذه الآية ان أولئك اليهود لم يؤمنوا باللّه، و لا بموسى، و لا بما أنزل في التوراة كما يدعون، و لو صدقوا في دعواهم ما اتخذوا المشركين أولياء من دون المؤمنين، لأن ذلك محرم في شريعة التوراة، **وَ لٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ)**. أي ان المسألة عندهم ليست مسألة دين و عقيدة، و إنما هي مسألة مصلحة و منفعة، كما قدمنا.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١١

الجزء السّابع

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٣ الى ٨٦]

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثابَهُمُ اللهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذٰلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولٰئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

اللغة:

الفرق بين القسيس و الراهب ان القسيس من أهل العلم بدين النصارى و كتبهم.

و الراهب المنقطع في دير أو صومعة للعبادة، مع الزهد بالزواج و الولد و سائر ملذات الدنيا.

الإعراب:

عداوة تمييز، و مثلها مودة. و اليهود مفعول ثان لتجدن. و جملة تفيض حال من أعينهم، و لا يصح أن تكون مفعولا ثانيا لترى، لأن ترى هنا من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١٤

رؤية العين لا تعمل إلا في مفعول واحد. و ما لنا مبتدأ و خبر. و جملة لا نؤمن حال من ضمير الخبر المحذوف الذي تعلق (لنا) به. و ما جاءنا (ما) في محل جر عطفا على لفظ الجلالة. و المصدر المنسبك من أن يدخلنا مجرور بفي محذوفة، أي في أن يدخلنا، و المجرور متعلق بنطمع.

المعنى:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا). أي إن اليهود و المشركين أشد الناس عداوة للمسلمين .. و كثيرا ما يستشهد بهذه الآية على أن دين النصارى أقرب إلى الإسلام من دين اليهود .. و هذا خطأ إن أريد دين اليهود و النصارى قبل التحريف، لأن الدين عند اللّه و أنبيائه واحد من حيث العقيدة و أصولها، و ان أريد دينهما بعد التحريف فهما فيه سواء: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ- ١٩ آل عمران».

و الصحيح ان عداوة اليهود و المشركين تتصل اتصالا وثيقا بالتصادم بين طبيعة الدعوة الإسلامية، و طبيعة النظام الذي كان سائدا في جزيرة العرب أول البعثة .. كان هذا النظام يقوم على أساس التسابق لاقتناء المال و العبيد عن طريق السلب و النهب، و الربا و الغش، و ما إليه من أسباب القهر و المكر، و قد انعكست طبيعة هذا النظام على الكبار من مشركي مكة الذين كانوا يسيطرون على التجارة الخارجية، كما انعكست على زعماء اليهود في المدينة الذين كانوا

يسيطرون على الصناعة و التجارة الداخلية.

و انطلقت دعوة محمد (ص) تنادي بالعدل، و ترفض الظلم و الاستغلال بشتى صوره و أشكاله، و تصدت للمستغلين من اليهود و المشركين بالذات، و على هذا الصعيد التقت مصلحة الطرفين، و تحالفوا على ما بينهما من التباعد في الدين و العقيدة، تحالفوا و تكاتفوا يدا واحدة على حرب محمد (ص) العدو المشترك ..

و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا).

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١٥

و بتعبير أوضح ان عداوة اليهود و المشركين للمسلمين كانت بدافع دنيوي، لا بدافع ديني، و لكن تستر اليهود باسم الدين رياء و نفاقا، تماما كما يفعل اليوم أصحاب الكسب غير المشروع .. هذا، إلى أن كلا من اليهود و المشركين يشتركون في العصبية الجنسية، و الحمية القومية .. و لكن مشركي العرب كانوا على جاهليتهم أرق قلبا، و أكرم يدا، و أكثر حرية في الفكر، و من هنا آمن أكثرهم برسول اللّه (ص)، و ما آمن به من اليهود إلا قليل.

من هم أقرب مودة للمسلمين؟

(وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى). يتخذ البعض من هذه الآية و ما بعدها مادة للتمويه بأن القرآن الكريم يرجح أحد المعسكرين المتطاحنين- في أيامنا هذه- على المعسكر الآخر .. و هذا ما يدعونا إلى أن نشرح هذه الآيات الأربع، و نوضحها بما لا يترك مجالا لاستغلال الانتهازيين و المنحرفين.

ان من تأمل هذه الآيات لا يعتريه أدنى ريب بأنها متكاملة يتمم بعضها بعضا، و انه لا يصح بحال أن تفسر واحدة منها مستقلة عن أخواتها، و انها صريحة واضحة في ان اللّه سبحانه لم يفاضل بين النصارى على وجه العموم، و بين غيرهم من الطوائف في البعد أو القرب من المسلمين، و إنما أراد سبحانه فئة خاصة من النصارى بدليل انه تعالى لم يقف عند القول: (ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) بل عقبه بقوله:

(وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ). و معنى هذا ان من النصارى من عرفوا الإسلام، و دخلوا فيه طوعا، و عن قناعة و إيمان، و التاريخ يثبت ذلك، كما شهد التاريخ أيضا بالأحقاد الصليبية على الإسلام و المسلمين، و بإبادتهم من الأندلس، و بفظائع الايطاليين في طرابلس الغرب، و الفرنسيين في الجزائر و تونس و المغرب و سورية، و بفظائع الانكليز في مصر و العراق و السودان و غيرها ..

و اليوم تتحالف الولايات المتحدة مع اليهود على إبادة شعب فلسطين، و تسلح هؤلاء

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١٦

القراصنة بأحدث الأسلحة فيعتدون، ثم يزعمون انهم المعتدى عليهم فتدعم الولايات المتحدة هذا الزعم، و تذب عنه بحماس في مجلس الأمن و هيئة الأمم، و يهاجم اليهود و يبطشون، ثم يدعون انهم معرضون للبطش و الهجوم، و تقول الولايات المتحدة: نعم هذا هو الصدق و العدل .. فهل بعد هذا، و كثير غير هذا يقال: ان النصارى، كل النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين؟. ان مثل هذا لا يفوه به إلا جاهل أو مضلل، ثم ما ذا يصنع هذا المضلل بقوله تعالى:

(وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ). ان الحق الذي جاءهم و آمنوا به هو الذي بشر به عيسى:

«وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ- ٦ الصف». و يؤكد هذا، و ينفي عنه كل ريب قوله تعالى بلا فاصل: **(فَأَثابَهُمُ اللهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ)**. فشهادة اللّه لهذه الفئة من النصارى بالإحسان و جزاؤها بالجنان- دليل قاطع على إسلامها، و انها هي وحدها المقصودة بوصف الإحسان و الثواب عليه.

أما النصارى الذين أنكروا الحق بعد أن عرفوه، أو أعرضوا عنه، دون أن ينظروا إلى دلائله و بيناته، أما هؤلاء فقد هددهم اللّه سبحانه و توعدهم بقوله:

(وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ). و تسأل: ان قوله:

(وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا) الخ يشمل كل من كفر و كذّب فما هو وجه التخصيص بالنصارى؟.

الجواب: ان سياق الكلام يدل على ان اللّه سبحانه بعد أن وعد من آمن من النصارى بالجنة توعد من أصر على الكفر منهم بالنار، و أطلق اللفظ ليشمل التهديد كل من خالف الحق و عانده، و هذا لا يتنافى مع ما قلناه.

و الخلاصة ان هذه الآيات صريحة في ان المقصود منها فئة خاصة من النصارى و هم الذين عرفوا الحق، و آسوا به، و ان اللّه سبحانه قد أدخلهم الجنة بسبب إيمانهم و صالح أعمالهم، و إذا افترضنا- جدلا- ان قوله تعالى: **(وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً)** الخ) يشمل كل من قالوا إنا نصارى، إذا افترضنا هذا فيجب أن نصرف الآية عن ظاهرها، و نخصصها بمن آمن منهم لأمرين:

الأول: إن اللّه سبحانه ذكر في العديد من آياته أن النصارى جعلوا للّه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١٧

شركاء، و كتموا اسم محمد (ص) عن علم، و اتخذوا أحبارهم و رهبانهم آلهة من دون اللّه، ثم نهى جل ثناؤه عن اتخاذ اليهود و النصارى أولياء، و قال:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء». و إذا عطفنا هذه الآية و ما اليها على قوله: **(وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً)** يكون المعنى ان النصارى «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ» كما جاء في الآية ٦٧ من سورة المائدة.

الثاني: إن أهل التفاسير قالوا: إن الآيات التي نحن بصددها نزلت في النجاشي ملك الحبشة، و كان نصرانيا، لأن النبي (ص) لما رأى ما حل بأصحابه من أذى المشركين في بدء الدعوة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، و قال لهم: إن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد، فذهبوا اليه، و كان من بينهم جعفر بن أبي طالب، فوجدوا عند النجاشي الأمان، و حسن الجوار، و كان ذلك في السنة الخامسة من مبعث الرسول (ص).

و قد تواترت الأخبار ان النجاشي و بطانته من رجال الدين و الدنيا أسلموا على يد جعفر بن أبي طالب بعد أن تلا عليهم آيات من الذكر الحكيم، و ذكر محاسن الإسلام. و ان أعينهم فاضت من الدمع عند ما سمعوا آيات اللّه.

و بعد، فإن من يستشهد بقوله تعالى: **(وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً)** على أن النصرانية و النصارى بوجه عام أقرب من غيرهم إلى الإسلام و المسلمين، و يسكت عن الآيات المتممة لهذه الآية، ان من يفعل هذا فهو جاهل بكتاب اللّه، أو مراء يتزلف إلى النصارى على حساب الإسلام و القرآن، أو خائن يسمم أفكار السذج من المسلمين ليصدقوا مزاعم أعداء الدين الذين يناصرون إسرائيل و يباركون عدوانها على العرب و المسلمين.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٧ الى ٨٨]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ حَلاٰلاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١٨

الإعراب:

حلالا حال من (ما)، أو صفة لمفعول مطلق محذوف، أي رزقا حلالا.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ). قالوا: إن هذه الآية نزلت في قوم من الصحابة غلب عليهم الخوف من اللّه، فحرموا على أنفسهم النساء و طيبات الطعام و اللباس، و انقطعوا إلى قيام الليل، و صيام النهار.

فدعاهم رسول اللّه (ص) و تلا عليهم الآية، و قال: أما أنا فأقوم و أنام، و أصوم و أفطر، و آتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. و قوله تعالى:

(وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) يشعر بأن تحريم الحلال، تماما كتحليل الحرام، كل منهما ظلم و اعتداء.

(وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ حَلاٰلاً طَيِّباً). تقدم تفسيره في الآية ١٦٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٨.

[سورة المائدة (٥): آية ٨٩]

لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ فَكَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَةِ مَسٰاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مٰا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ ثَلاٰثَةِ أَيّٰامٍ ذٰلِكَ كَفّٰارَةُ أَيْمٰانِكُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمٰانَكُمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١١٩

اللغة:

اللغو في اللغة ما لا يعتد به، و لغو اليمين الحلف من غير قصد، كما لو سبق اللسان بقول: لا و اللّه، و بلى و اللّه. و عقد الإيمان قصدها. و الكفارة من الكفر بفتح الكاف، و هو الستر و التغطية، ثم استعملت الكفارة في الأعمال التي تكفّر الذنوب، أي تغطيها و تخفيها. و المراد بالطعام الأوسط الأغلب من المأكول.

الإعراب:

الضمير في كفارته يعود إلى (ما) في قوله **(بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ)**. و كذلك (الكاف) بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف، أي يبين اللّه لكم تبيانا مثل ذلك، و ذلك مجرور بالاضافة.

المعنى:

(لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ). يمين اللغو هي ان ينطلق اللسان بها من غير قصد، مثل قولك: لا و اللّه. لمن سألك: هل رأيت فلانا؟. أو قولك:

بلى و اللّه. لمن قال لك: لا تريد كذا و كيت .. و هذه لا عقاب عليها، و لا كفارة لها ان خالفت الواقع لقوله تعالى: **(لاٰ**

يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ).

و لازم ذلك ان قائلها لا يعد كاذبا فيها، و ليس لأحد أن يقول: حلفت باللّه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٠

كاذبا إذا تبين العكس. و بكلمة ان هذه لا يترتب عليها شيء من آثار اليمين لأنها ليست منها في شيء إلا في الصورة، و مع ذلك فإن الأولى تركها مع التنبيه و عدم الغفلة.

(وَ لٰكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ). أي ان اليمين الشرعية التي يجب الوفاء بها، و يؤاخذ الحالف على حنثها هي التي يحلفها البالغ العاقل عن قصد و تصميم، و ارادة و اختيار.

و اتفقوا على ان اليمين تتم و تنعقد إذا كان الحلف باللّه، أو باسم من أسمائه الحسنى، كالخالق و الرازق. و قال الشيعة الإمامية و أبو حنيفة: لا تنعقد اليمين بالمصحف و النبي و الكعبة، و ما اليها، لحديث: «من كان منكم حالفا فليحلف باللّه أو ليذر». و قال الشافعي و مالك و ابن حنبل: تنعقد بالمصحف. و تفرّد ابن حنبل بأنها تنعقد بالنبي أيضا.

(فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ). إذا حلف و حنث، أي فعل ما حلف على تركه، أو ترك ما حلف على فعله، إذا كان كذلك وجبت عليه الكفارة مخيرا بين خصال ثلاث:

الأولى: أن يطعم عشرة مساكين وجبة واحدة لكل واحد بالجمع بينهم، أو التفريق، على أن تكون الوجبة من الطعام الغالب الذي يأكله هو و أهله، و يجوز أن يعطي المسكين مدا من الطعام بدلا من الوجبة، و المراد بالمسكين الفقير الذي تحل له الزكاة، و المد أكثر من ٨٠٠ غرام بقليل.

الثانية: أن يكسو عشرة مساكين، و يجزي كل ما يسمى كسوة في العرف، لأن الشرع ورد بها مطلقا، فتحمل على المعنى المعروف من غير فرق بين الجديد و العتيق، ما لم يكن الثوب باليا أو ممزقا.

الثالثة: أن يعتق عبدا، و لا عبيد اليوم.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ). أي فإن عجز عن الخصال الثلاث المتقدمة صام ثلاثة أيام، و إن عجز عن الصوم استغفر اللّه و رجا عفوه. **(ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ).** ذلك إشارة إلى الطعام و الكسوة و العتق و الصوم بعد العجز

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢١

عن الخصال الثلاث، و بديهة إنما تجب على النحو المتقدم إذا حلف و حنث.

(وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ) من الابتذال، فإن لليمين باللّه حرمتها و عظمتها، قال تعالى: «وَ لا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ- ٢٢٤ البقرة». و في الحديث:

«إن نبي اللّه موسى أمر أن لا يحلفوا باللّه كاذبين، و أنا آمركم أن لا تحلفوا باللّه كاذبين و لا صادقين.

(كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). قال الرازي: «المعنى ظاهر». أجل، و لكن اللّه سبحانه أراد أن ينبهنا إلى نعمة المعرفة بأحكامه، كيلا تصدر عن غيرها.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ

(٩١) وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا عَلىٰ رَسُولِنَا الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ (٩٢)

اللغة:

الميسر القمار. و الأنصاب الأصنام. و الأزلام قطع من الخشب على هيئة السهام كان أهل الجاهلية يستقسمون بها، و تقدم شرحها في الآية ٣ من هذه السورة.

و الرجس الشيء المستقذر.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٢

الإعراب:

من عمل الشيطان متعلق بمحذوف صفة لرجس. و في الخمر و الميسر متعلق بيوقع. و فهل أنتم منتهون أمر من صيغة الاستفهام، و هو أبلغ من الأمر بصيغة أفعل.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصٰابُ وَ الْأَزْلاٰمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ). تكلمنا مفصلا عن تحريم الخمر و القمار عند تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٨. و عن الأنصاب و الأزلام عند تفسير الآية ٣ من هذه السورة: «وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ». و نسب سبحانه شرب الخمر، و لعب القمار، و عبادة الأصنام، و الاستقسام بالأزلام، نسب هذه إلى الشيطان لأنه يحبذها و يغري بها. **(فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).**

ضمير اجتنبوه يعود إلى الرجس، و هو أمر بالاجتناب، و الأمر يدل على الوجوب، بخاصة عند بيان السبب، و قد بيّن هنا ان سبب وجوب الاجتناب هو الفلاح ..

و لو لم يكن من دليل على تحريم الخمرة إلا مساواتها مع عبادة الأصنام لكفى.

فكيف إذا عطفنا عليها الآية ٢١٩ من سورة البقرة، و الآية ٣٢ من الاعراف، و الأحاديث المتواترة، و إجماع المسلمين من عهد الرسول (ص) إلى اليوم، و إلى آخر يوم.

(إِنَّمٰا يُرِيدُ الشَّيْطٰانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدٰاوَةَ وَ الْبَغْضٰاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ عَنِ الصَّلاٰةِ). بعد أن أكد سبحانه تحريم الخمر و الميسر، و قرنهما بعبادة الأصنام، و جعلهما رجسا من عدو الإنسان، و بيّن ان اجتنابهما سبيل إلى الفلاح- بعد هذا أشار جل ثناؤه الى أن فيهما مفسدتين: إحداهما اجتماعية، و هي قطع الصلات، و إيقاع العداوة و البغضاء بين الناس. و ثانيهما دينية، و هي الصد عن ذكر اللّه و عبادته، ثم طلب سبحانه الانتهاء عن الخمر و الميسر بأبلغ تعبير: **(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ).** و الإسلام يحرص كل الحرص على أن يصل

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٣

الإنسان بخالقه و بمجتمعه، و أن يكون عند اللّه و الناس في مكان الرضا و التكريم.

(وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ) في ترك الخمر و الميسر و غيرهما من المحرمات **(وَ احْذَرُوا)** ما يصيبكم من عذاب اللّه إذا خالفتم أمره و أمر رسوله. قال الإمام علي (ع): انصح الناس لنفسه أطوعهم لربه، و أغشهم لنفسه أعصاهم لربه. **(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا عَلىٰ رَسُولِنَا الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ).** و قد أداه كاملا، و أقام الحجة على الناس، و خرج عن عهدة التبليغ، و من خالف فهو وحده المسئول.

[سورة المائدة (٥): آية ٩٣]

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

المعنى:

اتفق المفسرون على انه لما نزل تحريم الخمر قال بعض الصحابة لرسول اللّه (ص): كيف بإخواننا الذين ماتوا و قد شربوها؟ فنزلت هذه الآية، و هي تدل بمجموعها على أن من شرب الخمرة قبل بيان حكمها فلا بأس عليه إذا كان من المؤمنين المتقين، و من هنا اتفق الفقهاء على ان كل شيء مطلق، حتى يرد فيه نهي.

و بعد أن اتفق المفسرون على أن هذا المعنى هو المقصود من الآية، اختلفوا في السبب الموجب لتكرار التقوى ثلاث مرات، حيث ذكرت أولا مع الايمان و العمل الصالح، و ثانيا مع الايمان فقط، و ثالثا مع الإحسان .. و نقل الرازي

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٤

في ذلك خمسة أقوال. و قال صاحب مجمع البيان: المراد بالاتقاء الأول اتقاء شرب الخمر بعد تحريمها، و بالاتقاء الثاني الدوام على ذلك، و بالاتقاء الثالث اتقاء جميع المعاصي مع ضم الإحسان. و قال بعض المفسرين الجدد: لم تسترح نفسي لشيء من التفاسير، و لم يفتح اللّه عليّ بشيء.

و الذي نحتمله، و اللّه أعلم، ان الغرض من هذا التكرار أن يبين اللّه سبحانه ان المتقي حقا هو من اتقى اللّه في جميع أطواره و حالاته، شابا و كهلا و شيخا، و في السراء و الضراء، و ان من مات على ذلك فهو في أمن و أمان.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٤ الى ٩٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَ اللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٥

اللغة:

الابتلاء الاختبار. و الغيب ما غاب عن الحواس الخمس. و الحرم جمع حرام للذكر و الأنثى، تقول: رجل حرام، و امرأة حرام بمعنى محرم و محرمة.

و النعم الإبل و البقر و الضأن. و العدل بفتح العين المساوي للشيء قيمة من غير جنسه، و بكسرها المساوي له مثلا، أي من جنسه. و الوبال الثقيل المكروه، و منه طعام و بيل و ماء و بيل. و البحر الماء الكثير بحرا كان أو نهرا أو غديرا أو بئرا أو بركة. و السيارة جماعة المسافرين.

الإعراب:

ليعلم منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك مجرور بها و متعلق بيبلوكم. و بالغيب في موضع الحال من

فاعل يخافه، أي يخاف اللّه حال غيابه عن الناس. و أنتم حرم الجملة حال من واو لا تقتلوا. و فجزاء مبتدأ، و خبره محذوف، أي فعليه جزاء. و مثل صفة لجزاء. و هديا حال من الضمير في (به). و بالغ صفة لهدي. و كفارة عطف على جزاء. و طعام بدل من كفارة. و صياما تمييز من عدل ذلك. و المصدر المنسبك من أن يذوق مجرور باللام، و متعلق بصيام. و متاعا مفعول لأجله لأحلّ لكم.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنٰالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمٰاحُكُمْ).

المراد بشيء من الصيد نوع منه، و هو صيد البر فقط، و قوله: تناله أيديكم و رماحكم كناية عن صيده بلا مشقة، و المعنى إن اللّه سبحانه حرّم صيد البر في الحرم، و حال الإحرام، و هو سهل التناول، تماما كما حرم على بني إسرائيل صيد الحيتان يوم السبت، و هي بمرأى منهم **(لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخٰافُهُ بِالْغَيْبِ)** أي إن اللّه ابتلاكم بتحريم الصيد في هذه الحال ليميز بين من يخافه و يطيعه في السر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٦

كما يطيعه في العلانية، و بين من يتظاهر بطاعته و الخوف منه أمام الناس، و يعصيه في الخفاء **(فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذٰابٌ أَلِيمٌ)** أي من خالف أمر اللّه بالصيد بعد هذا البيان و إقامة الحجة- استحق عذاب اللّه و عقابه.

معنى الاختبار من اللّه:

و تسأل: إن اللّه لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء، فما هو الوجه لقوله تعالى: **لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ**. و قوله: **لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخٰافُهُ**؟

الجواب: إن اللّه سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه ما لم يكن يعلم .. كلا، فانه أعلم به من نفسه، و إنما يمتحنه لأمور:

«منها»: أن يترجم العبد ما هو كامن في نفسه إلى عمل ملموس، حيث اقتضت حكمته جل ثناؤه أن لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم، و لا على ما هو كامن في نفوسهم من القوى و الغرائز، و إنما يحاسبهم على ما يقع منهم من أعمال .. إن الغرائز النفسية من حيث هي لا تستدعي حسابا و لا عقابا، ما دامت كامنة في باطن الإنسان، و لا يظهر لها أثر يرى بالعين، أو يسمع بالأذن. قال الإمام علي (ع): يقول اللّه: «و اعلموا أنما أموالكم و أولادكم فتنة». و معنى ذلك إنه يختبرهم بالأموال و الأولاد ليتبين الساخط لرزقه و الراضي بقسمه، و إن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، و لكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب و العقاب.

و «منها»: أن يتميز الخبيث من الطيب، و تظهر حقيقته أمام الناس، فيعاملونه بما يستحق: «وَ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكٰافِرِينَ ١٤٠ آل عمران». و كثيرا ما يقع هذا في حياة الناس- مثلا- أنت تعلم ان زيدا من أهل العلم و المعرفة، و صادف وجوده بين قوم لا يعرفون منه ما تعرف، و أردت أن يعلموا مكانه من الوعي و العلم، فتسأله بمحضر منهم ليتكلم و يعرف ..

أو تعلم انه سخيف جاهل، و هم يظنون انه عالم حكيم، فتمثل نفس الدور لتظهر لهم سخفه و جهله.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٧

و «منها»: إن كثيرا من الناس يجهلون حقيقة أنفسهم، و يقولون: لو سمحت لنا الظروف لكنا كذا و كيت، فيمنحهم اللّه الاستطاعة ليلقي الحجة عليهم، و يعرفهم بحقيقتهم و واقعهم: «وَ مِنْهُمْ مَنْ عٰاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتٰانٰا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ

لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ- ٧٧ التوبة».

و طلب بنو إسرائيل من موسى (ع) أن يجعل لهم يوما للراحة و العبادة، فجعل اللّه لهم يوم السبت، و أخذ عليهم العهد أن لا يفعلوا فيه شيئا، كما طلبوا .. و لكن ساق اليهم الحيتان في هذا اليوم، حتى إذا ذهب السبت اختفت الحيتان، فاحتال بنو إسرائيل لصيدها و نقضوا العهد.

و على الوجه الأول، أي ظهور الأفعال التي بها يستحق الثواب و العقاب، على هذا يحمل قوله تعالى: ليبلونكم اللّه .. و قوله: ليعلم اللّه من يخافه .. و قوله:

و ليعلم اللّه الذين آمنوا، و نحو هذه من الآيات.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ). اتفق الفقهاء على ان الصيد في الحرم لا يجوز للمحل و لا للمحرم على السواء، أما خارج الحرم فيجوز للمحل، دون المحرم، و لو ذبح المحرم الصيد يصير ميتة، و يحرم أكله على جميع الناس.

و جاء في كتاب فقه السنة للسيد سابق: ان حد الحرم المكي من جهة الشمال مكان يدعى «التنعيم» و بينه و بين مكة ٦ كيلومترات. و من الجنوب «أرضاه» و بينها و بين مكة ١٢ كيلومترا. و من جهة الشرق «الجعرانة» و بينها و بين مكة ١٥ كيلومترا.

(وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً). إذا قتل المحرم أو المحل في الحرم شيئا من الصيد البري، و كان للمقتول مثل من الأنعام الأهلية الثلاثة، و هي الإبل و البقر و الضان، ان كان الأمر كذلك تخير القاتل بين أن يذبح مثل المقتول و يتصدق به، و بين أن يقوّم المثل بدراهم يشتري بها طعاما، ثم يتصدق بالطعام على المساكين لكل مسكين مدان، أي ١٦٠٠ غرام

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٨

على التقريب، و قيل: مد، و بين أن يصوم يوما عن كل مدّين، أو عن كل مد على قول. و معنى قوله: «يحكم به ذوا عدل» أن يشهد اثنان من أهل العدالة بأن هذا الحيوان الأهلي هو مثل الحيوان الوحشي المقتول. و معنى «هديا بالغ الكعبة» ان يذبح المماثل في جوار الكعبة، و يفرق لحمه على المساكين.

و ان لم يوجد المماثل من النعم قوّم المماثل الأهلي من غير النعم، و اشترى بثمنه طعاما، و تصدق به، أو صام على التفصيل المتقدم.

(لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ) ان الصيد في الحرم، أو في حال الإحرام هتك لحرمات اللّه فعوقب الصائد عليه بالكفارة المذكورة، و معنى و بال أمره عاقبة فعله السيء **(عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ)** من الصيد قبل التحريم **(وَ مَنْ عادَ)** إلى الصيد **(فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ)** لإصراره على الذنب.

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ). الضمير في طعامه يعود إلى البحر، لأن فيه ما يؤكل غير الصيد، و يجوز أن يعود الى الصيد، و يكون المعنى ان اللّه سبحانه أحل صيده، و أحل أكله أيضا.

و المراد بالسيارة المسافرون غير المحرمين **(وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً)**. أي ان صيد البحر حلال مطلقا، أما صيد البر فهو حلال في غير الحرم، و غير حال الإحرام. قال الإمام جعفر الصادق (ع): لا تستحلن شيئا من الصيد- أي

البري- و أنت حرام، و لا أنت حلال في الحرم، و لا تدلن عليه محلا، و لا محرما، فيصطاده، و لا تشر اليه، فيستحل من أجلك، فان فيه فداء لمن تعمده. **(وَ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)**. أي اجتهدوا في طاعته و طلب مرضاته، ليجزيكم يوم الحشر بالإحسان إحسانا.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٧ الى ٩٩]

جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَ اللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (٩٩)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٢٩

اللغة:

القيام و القوام بمعنى واحد و فعله قام، و المراد به هنا تأدية العبادة و مناسك الحج. و الهدي ما يذبح في الحرم من الأنعام. و القلائد أي ذوات القلائد لأنهم كانوا يقلدون الهدي بما يدل عليه.

الإعراب:

البيت الحرام بدل من الكعبة. و قياما مفعول ثان لجعل. و ذلك مبتدأ، و المصدر المنسبك من لتعلموا متعلق بمحذوف خبر، و يجوز أن يكون ذلك مفعولا لفعل محذوف، أي فعلنا ذلك من أجل اعلامكم.

المعنى:

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ).

قياما للناس، أي محلا للعبادة و مناسك الحج، و الشهر الحرام جنس يشمل الأشهر الأربعة، و هي رجب و ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم، و قد حرم سبحانه القتال فيها و في حرمه إلا دفاعا عن النفس أو المال، قال تعالى: «وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ- ١٩٠ البقرة». و قال: «الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ- ١٩٣ البقرة».

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٠

و الهدي ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، و القلائد الهدي الذي وضعت في عنقه علامة تدل على انه للكعبة، كي لا يتعرض أحد له. و على هذا يكون عطف القلائد على الهدي من باب عطف الخاص على العام، و القصد من ذكر الهدي مع البيت الحرام و الأشهر الحرم ان الهدي يجب أن يكون آمنا هو و من يسوقه، لأنه قاصد الحرم الشريف، بل ان اللّه سبحانه قد أمّن الطيور و الحيوانات، حرمة ما دامت في حرمه إلا الحدأة- نوع من الطير- و الغراب و الفأر و العقرب و الكلب العقور .. و كل مؤذ في رأينا.

(ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). بعد أن بيّن سبحانه حرمة الكعبة و الأشهر الحرم و الهدي أشار إلى أن الحكمة من هذا التشريع ان يعلم الناس ان اللّه يعلم تفاصيل الأمور في الأرض و السماء، و منها التي تصلح الناس في دينهم و دنياهم، و أية مصلحة أعظم من تأمين الإنسان على حياته و ماله، و لو في وقت من الأوقات، أو في زمن من الأزمان .. و قد رأينا الدول الكبرى المتطاحنة في هذا العصر تتفق فيما بينها

على أن تكون بعض البلاد منطقة محايدة، لا يجوز للدول المتنازعة أن تشركها في أحلافها العسكرية، و لا أن تتخذ من أرضها مقرا لقواعدها الحربية، و لا ممرا لجيوشها المقاتلة.

(اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). قرن سبحانه العذاب بالرحمة و المغفرة ليكون العبد خائفا من نقمته، راجيا لرحمته. لأنه إذا خاف ابتعد عن المعصية، و إذا رجا اجتهد في الطاعة. قال الرازي- و نعم ما قال-:

«ذكر سبحانه أنه شديد العقاب، ثم عقب بوصف الرحمة و المغفرة، و هذا تنبيه على دقيقة، و هي ان ابتداء الخلق و الإيجاد كان لأجل الرحمة، و الظاهر ان الختم لا يكون الا على الرحمة» .. هذا هو الصحيح.

(ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ) و لا يطلب منه أكثر من ذلك، حيث لا عذر بعد البلاغ لمن أهمل و فرط، أما الحساب و العقاب فعلى اللّه وحده: «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ- ٤١ الرعد». **(وَ اللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ)** من الأقوال و الأفعال **(وَ ما تَكْتُمُونَ)**. هذا تهديد لمن يسكت عن الحق، و بالأولى لمن يتاجر به مستترا باسم الدين و الوطنية.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣١

[سورة المائدة (٥): آية ١٠٠]

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

كثرة الخبيث

المعنى:

هذه الآية ترادف قوله تعالى: «لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ- ٢٠ الحشر». و كثرة الخبيث ما يملكه من جاه و مال. و العاقل لا يستوي لديه الخبيث و الطيب، و ان كثر ماله، و اتسع جاهه، لأن الجاه و المال لا يجعلان الخبيث طيبا، و لا الفقر و خمول الذكر يجعلان الطيب خبيثا.

و الرجل الخبيث في مقياس الدين من عصى أحكام اللّه في كتابه و سنة نبيه، و الخبيث في عرف الناس من يخافون من شره، و لا يأمنونه على أمر من أمورهم، و لا يصدقونه في قول أو فعل .. و بديهة ان من كانت هذه صفاته فهو خبيث عند اللّه أيضا، قال رسول اللّه: أشرف الايمان أن يأمنك الناس. أما الطيّب فعلى عكس الخبيث في جميع أوصافه.

هل الرزق صدفة أو قدر؟

و تسأل: إذا كان الخبيث مغضوبا عليه عند اللّه، و الطيب مرضيا لديه تعالى، فلما ذا ينجح الخبيث في هذه الحياة، و ينعم بالجاه و الثراء، و يرسب الطيب، و لا يكاد يتحقق له مطلب، حتى قال من قال: «هذا الذي ترك الأوهام حائرة»؟

الجواب: إن للحياة سننا و قوانين نجري عليها، و لا تتخطاها بحال، لأن تصور الفوضى في الكون يرفضه الحس و المشاهدة .. و هذه السنن و القوانين من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٢

صنع اللّه تعالى، لأنه هو خالق الطبيعة و ما فيها. و بديهة ان قوانين الطبيعة تأبى أن تمطر السماء مالا و صحة و علما، و إنما تأتي هذه و أمثالها من طرقها و أسبابها الطبيعية .. فالعلم من التعلم، و الصحة من الغذاء و الوقاية، و المال من العمل، فمن تعلم علم، و من اتقى أسباب الداء سلم، و من انتحر مات، و من زرع حصد، سواء أ كان طيبا أم خبيثا، مؤمنا أم كافرا، فالطيبة أو الايمان لا ينبت قمحا، و لا يشفي داء، و لا يجعل الجاهل عالما .. كل هذه و ما أشبه تجري على سنن

الطبيعة، و سنن الطبيعة تجري على مشيئة اللّه، ما في ذلك ريب، لأنه هو الذي جعل التعلم سببا للعلم، و الوقاية سببا من أسباب الصحة، و الزراعة سببا للحصاد .. انه خالق كل شيء، و اليه ينتهي كل شيء.

أجل، ان لكسب المال سبلا و أبوابا كثيرة، و قد أحل اللّه بعضا، و حرم بعضا، أحل اللّه سبحانه التجارة و الزراعة و الصناعة، و حرّم الربا و الغش و الرشوة و السلب و النهب و الاحتكار و الاتجار بالمبادئ فمن يكسب المال من حله ينسب كسبه اليه، لأنه قد جد و اجتهد في طلبه، و أيضا ينسب إلى اللّه، لأنه هو الذي أوجد هذه الأسباب، و أباحها لكل راغب طيبا كان أو خبيثا، أما من يكسب المال من غير حله كالربا و السلب فان كسبه ينسب إلى كاسبه، و إلى الأوضاع التي مهدت له، و لا ينسب إلى اللّه، لأنه تعالى قد حرّم هذه السبل على الطيب و الخبيث.

و تقول: هذا صحيح، و لكنه لا يجيب عن السؤال، و لا يحل المشكلة ..

فلقد رأينا كلا من الطيب و الخبيث يسلك الطريق المشروع للرزق، و يطلبه من السبيل الذي أحله اللّه، و أمر به، و مع ذلك يتسع الرزق على الخبيث، و يضيق على الطيب، و ربما بذل هذا من الجهد أضعاف ما بذله ذاك، بل قد يأتي الرزق للخبيث من حيث لا يتوقعه، و لا يؤهله له استعداده و جهاده .. و يمتنع عن الطيب من حيث يتوقعه، و يؤهله له جهاده و استعداده.

الجواب: إن بعض الناس يلجئون في تفسير ذلك إلى الصدفة أو الحظ، و إن دل هذا على شيء فإنما يدل على عجزهم عن التفسير الصحيح، و إلا لم يلجئوا إلى ما يخبط خبط عشواء، و يرمي عن غير قصد و تصميم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٣

لذلك نعفي نحن الحظ و الصدفة من كل المسئوليات و التبعات .. و نؤمن إيمانا قاطعا بأن هناك إرادة عليا قد تدخلت لأسباب نجهلها، لأن العلم فيها و في أمثالها لا يزال في مراحل طفولته، و جهل العلم بها لا يعني انها غير موجودة .. و الذي يؤكد إيماننا هذا قوله تعالى: «وَ اللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ- ٧١ النحل». و قوله: «اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ- ٢٧ الرعد». و جاءت هذه الآية بنصها الحرفي أحيانا في سورة الإسراء رقم ٣٠. و في القصص ٨٢. و في العنكبوت ٦٢. و في الروم ٣٧. و في سبأ ٣٦ و ٣٩. و في الزمر ٥٢. و في الشورى ١٢.

و لكن ليس معنى يبسط الرزق، و يفضل في الرزق، انه تعالى يمطر من السماء مالا على من يشاء .. كلا، بل يبسط الرزق من طريقه المعروف المألوف، و يقدر أيضا عن هذا الطريق، فيمهده و يوسعه على بعض، و يجعله عسيرا ضيقا على البعض الآخر .. و لكن لا علاقة بين الضيق في الرزق، و بين الخبث و معصية اللّه، فلقد كان الرسول الأعظم (ص) يربط على بطنه حجر المجاعة، و قال موسى: «ربي إني لما أنزلت إليّ من خير فقير» .. و أيضا لا علاقة بين السعة في الرزق، و بين الطيبة و طاعة اللّه، فقد نادى فرعون في قومه: أليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون، أم- أي بل- أنا خير من هذا الذي هو مهين- يشير إلى موسى- و لا يكاد يبين، فلولا ألقي عليه اسورة من ذهب- ٥٣ الزخرف.

و على هذا، فمن قال أو يقول: إن اللّه أغنى فلانا لأنه طيب فانه يتكلم بمنطق فرعون، و يزن بميزان الشيطان .. لقد شاءت حكمته جل ثناؤه أن يثيب على الحسنة، و يعاقب على السيئة في الدار الباقية، لا في هذه الدار الفانية، إن هذه دار أعمال، و تلك لنقاش الحساب عليها .. هذا، إلى أن كثرة الخبيث قد تكون و بالا عليه، و سببا لشدة عذابه و عقابه: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ- ٣ الحجر». «يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ- ١٢

محمد».

و الخلاصة ان الرزق يستند الى أمرين: السعي و ارادة اللّه معا، فمن ترك

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٤

السعي عاش كلا على الناس، و من سعى رزقه اللّه من سعيه ان شاء كثيرا، و ان شاء قليلا، و تكمن هذه الحقيقة في فطرة الإنسان، و يمارسها تلقائيا، و دون أن يلتفت اليها .. فالتاجر يسأل اللّه سبحانه أن يرزقه برواج بضاعته و اقبال الناس عليها، و الفلاح يسأله أن ينزل الغيث على زرعه، و لا يسأله أن ينبت له الزرع بلا غيث، و ها أنا أدعو اللّه لولدي بالتوفيق في دراسته و النجاح في امتحانه، و لا أدعوه أن يلهم الجامعة لتقدم له الشهادة بلا دراسة و امتحان ..

و في الأمثال «من سعى رعى» و ربما خاب المسعى و طاش السهم .. و مع ذلك ينبغي إحكام التخطيط، و مضاعفة الجهد، لأن مضاعفة الجهد، و إتقان العمل، و الصبر على المشاق سبب لمشيئة النجاح منه جل وعلا.

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّٰهُ عَنْهٰا وَ اللّٰهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ (١٠٢)

الإعراب:

قال أبو البقاء: الأصل في أشياء عند الخليل و سيبويه شيئاء بهمزتين بينهما ألف، و هي فعلاء من لفظ شيء، و همزتها الثانية للتأنيث، و هي مفردة في اللفظ، و معناها الجمع، مثل قصباء و طرفاء، و لأجل همزة التأنيث منعت من الصرف، ثم ان الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة قدمت، فجعلت قبل الشين كراهية وجود همزتين بينهما ألف، فصارت أشياء.

و نحن لا نؤمن بالتعليلات النحوية و الصرفية، و لا نقلد أهل التفسير فيما يقولون ..

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٥

و لكن قد يرغب بعض القراء في معرفة ما قاله النحاة في أشياء، فروينا له ما روي عنهم .. و الصحيح عندنا ان أشياء ممنوعة من الصرف لأنها وردت كذلك في كتاب اللّه و على لسان العرب .. و من المفيد أن نشير الى أن كلمة شيء تطلق على المذكر و المؤنث، و انها تجمع أيضا على أشاوى و أشايا و أشياوات.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ). ان قوله تعالى: **(لاٰ تَسْئَلُوا)** يومئ الى أن بعض الصحابة كانوا يلحفون في الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها، و ربما أدى الجواب عنها الى ما يسوء السائلين.

و في رواية: ان رجلا قال للنبي (ص): من أبي؟ قال له: أبوك فلان.

فقال آخر: يا رسول اللّه أبن أبي؟. قال: في النار. فنزلت الآية. و في رواية ثانية: ان النبي قال: كتب اللّه عليكم الحج، فحجوا، فقالوا: أفي كل عام يا رسول اللّه؟ فسكت. فأعادوا السؤال، فقال: لا. و لو قلت:

نعم لوجبت. فنزلت الآية. و هذه الرواية أرجح من تلك لقوله تعالى:

(وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ). أي لا تتكلفوا السؤال عن أشياء الا بعد أن ينزل فيها القرآن، فمتى ابتدأكم، و اقتضى الأمر الشرح و التوضيح سألتم النبي (ص) فيبدي لكم ما سألتم عنه. و بهذا يتضح ترجيح رواية السؤال عن الحج في سبب النزول على رواية السؤال عن آباء الصحابة و سلفهم، لأن القرآن يبتدأ النزول بالعقيدة و

الشريعة، و لا يبتدئ بآباء الصحابة و سلفهم.

و في الحديث: «ان اللّه حدد حدودا فلا تعتدوها، و فرض لكم فرائض فلا تضيعوها، و حرم أشياء فلا تنتهكوها، و ترك أشياء في غير نسيان، و لكن رحمة منه بكم فاقبلوها، و لا تبحثوا عنها».

(عَفَا اللهُ عَنْهَا). أي عن مسائلكم السابقة، فلا تعودوا إلى مثلها. و قيل:

عفا اللّه عنها، أي أمسك و كف عن ذكر الأشياء التي سألتم عنها، فكفوا أنتم، و لا تتكلفوا السؤال عنها، و كل من التفسيرين محتمل، لا يأباه ظاهر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٦

اللفظ. **(وَ اللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)** يصفح عن المخطئ إذا رجع عن خطأه.

(قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ). بعد أن نهاهم سبحانه عن السؤال عن أشياء هم في غنى عنها ضرب لهم مثلا بمن كان قبلهم، سألوا و شددوا على أنفسهم بالسؤال، و لما بيّن اللّه لهم كرهوا و تمردوا فاستحقوا العذاب، و لو تركوا السؤال لكان خيرا لهم .. و قد أطال المفسرون الكلام في بيان المراد من القوم الذين سألوا ثم أصبحوا كافرين بسبب السؤال، و لكن الآية أبهمت و لم تبين .. و مع ذلك لنا أن نقول: إن القوم الذين سألوا و كفروا هم بنو إسرائيل لقوله تعالى حكاية عنهم: فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً- ١٥٢ النساء».

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٣ الى ١٠٥]

ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

الاعراب:

من بحيرة (من) زائدة، و بحيرة مفعول جعل التي هي بمعنى شرع.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٧

و حسبنا مبتدأ، و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي كافينا، و الخبر **(ما وَجَدْنا)**.

و **عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ (عَلَيْكُمْ)** اسم فعل بمعنى احفظوا، و أنفسكم مفعول.

المعنى:

(ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ). البحيرة بفتح الباء الناقة المشقوقة الأذن، و كان أهل الجاهلية يفعلون بها ذلك إذا أنتجت عشرة أبطن، و قيل: خمسة، و يدعونها لا ينتفع بها أحد. و السائبة الناقة ينذرونها للآلهة، و يتركونها ترعى حيث تشاء، لا قيد لها، و لا راعي عليها، تماما كالبحيرة. و الوصيلة الشاة تلد ذكرا و أنثى معا، و قد كان من عادتهم إذا ولدت ذكرا يجعلونه للآلهة، و إذا ولدت أنثى فهي لهم، و إذا ولدتهما معا لم يذبحوا الذكر، و يقولون: وصلت أخاها. و الحامي الفحل يولد منه عشرة أبطن فيدعونه لا يمنع من ماء و لا مرعى، و يقولون: حمى ظهره.

و قد بيّن سبحانه أن ذلك ليس من دينه في شيء، و ان الفحل و الناقة و الشاة يفعلون بها ما يفعلون تبقى على الحل، كما

كانت من قبل، و لا تحرم بهذه الأباطيل و الأساطير.

(وَ لٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ). كان أهل الجاهلية يعترفون بوجود الخالق بدليل انهم نسبوا اليه تحريم الحامي و السائبة و البحيرة و الوصيلة، و مع ذلك فقد نعتهم اللّه بالكفر، لأنهم نسبوا اليه التحريم كذبا و افتراء. و عليه فكل من نسب إلى اللّه ما لا دليل عليه من كتابه أو سنة نبيه فهو كافر، شريطة أن يتعمد النسبة مع علمه بعدم الدليل، و يسمى هذا بلسان أهل الشرع بدعة، و في الحديث: «كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة في النار». و الحق ان هذا الافتراض بعيد الوقوع، و من الذي ينسب إلى اللّه حكما من الأحكام، مع علمه بعدم الدليل عليه؟ .. أجل، قد يظن الشيء دليلا، و ما هو بدليل.

(وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلىٰ مٰا أَنْزَلَ اللهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قٰالُوا حَسْبُنٰا مٰا وَجَدْنٰا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٨

عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ). قال الرازي:

«المعنى معلوم، و هو رد على أصحاب التقليد». و تكلمنا مفصلا عن التقليد عند تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٩.

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). ذكر الرازي ثمانية أوجه لتفسير هذه الآية، و كتب بعض المفسرين الجدد ٣٣ صفحة عند تفسيرها .. و الذي دعا هذين، و غيرهما من المفسرين إلى التطويل و التأويل هو ان الأمر بالمعروف واجب، و ظاهر الآية يدل على عدم وجوبه، و ان على المرء أن يهتم بنفسه لنفسه، أما غيرها من الأنفس فصاحبها وحده هو المسئول عنها، و لا يجب على أحد ردعه و لا إرشاده.

و الصحيح في تفسير الآية ان على المرء أن يأمر بالمعروف، فان نفع أمره فذاك هو المطلوب، و إلا فقد أدى الآمر ما عليه، و لا يضره ضلال من ضل، و المسئول بعد الآمر هو الضال، و ليس الآمر .. و هذا التفسير يؤكد وجوب الأمر بالمعروف و لا ينفيه.

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٦ الى ١٠٨]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهٰادَةُ بَيْنِكُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنٰانِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرٰانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصٰابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ الصَّلاٰةِ فَيُقْسِمٰانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاٰ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ وَ لاٰ نَكْتُمُ شَهٰادَةَ اللهِ إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقّٰا إِثْماً فَآخَرٰانِ يَقُومٰانِ مَقٰامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيٰانِ فَيُقْسِمٰانِ بِاللهِ لَشَهٰادَتُنٰا أَحَقُّ مِنْ شَهٰادَتِهِمٰا وَ مَا اعْتَدَيْنٰا إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِينَ (١٠٧) ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهٰادَةِ عَلىٰ وَجْهِهٰا أَوْ يَخٰافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمٰانٌ بَعْدَ أَيْمٰانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ (١٠٨)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٣٩

اللغة:

ضربتم في الأرض سافرتم. و تحبسونهما تمنعونهما من الهرب. و ارتبتم شككتم في صدقهما. و عثر على الشيء اطلع

عليه.

الإعراب:

شهادة مبتدأ، و خبره اثنان على حذف مضاف، أي شهادة بينكم شهادة اثنين. و ذوا عدل صفة لاثنين. و منكم متعلق بمحذوف صفة للعدلين. و لا نشتري به الضمير في (به) يعود الى القسم باللّه، و جملة لا نشتري جواب يقسمان باللّه. و جواب ان ارتبتم محذوف، و التقدير ان ارتبتم فاحبسوهما. و لو كان ذا قربى اسم كان محذوف، و جواب لو محذوف، و التقدير و لو كان المشهود له ذا قربى لم نشتر به ثمنا. فآخران خبر لمبتدأ محذوف، أي فشاهدان آخران، أو فاعل لفعل محذوف، أي فليشهد آخران. و الأوليان تثنية الأولى بمعنى الأحق أي الأحقان بالميت، و هما أي الأوليان فاعل استحق، و قيل: خبر لمبتدأ محذوف، أي هما الأوليان. و المصدر المنسبك من أن يأتوا مجرور بإلى محذوفة متعلق بأدنى. و على وجهها متعلق بمحذوف حالا من الشهادة.

المعنى:

هذه الآيات الثلاث من آيات الأحكام، و تدخل في باب الوصية و الشهادة،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٠

و فيها الأحكام التالية:

١- **(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ)**. يريد جلت عظمته ان من أحس بدنو أجله، و أراد أن يوصي بما أحب استحضر عدلين من المسلمين، و أشهدهما على وصيته .. و تجدر الاشارة إلى أن الوصية مستحبة، و لا تجب إلا على من كان عليه حقوق للّه أو للناس، و ظهرت له دلائل الموت، و خاف ضياعها من بعده.

٢- **(أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ)**. قال الشيعة الإمامية و الحنابلة:

إذا أوصى رجل مسلم في السفر، و لم يكن أحد من المسلمين عنده فله أن يشهد اثنين من أهل الكتاب، على أن يستحلفا بعد الصلاة بين جمع من الناس إنهما ما خانا، و لا كتما، و لا اشتريا بشهادتهما و لا بقسمهما ثمنا قليلا، و عندها تقبل شهادتهما كما تقبل من المسلمين، و تجب عليهما اليمين مع الشك في صدقهما، أما الأمين فلا يمين عليه. لقوله تعالى: **(إِنِ ارْتَبْتُمْ)**.

هذا ما أفتى به الإمامية و الحنابلة معتمدين على هذه الآية، و قال أبو حنيفة و مالك و الشافعي: لا تقبل شهادة غير المسلم على المسلم بحال، و أولوا الآية بمعنى آخر، و قال المالكية و الشافعية: لا تقبل شهادة غير المسلمين إطلاقا، و لو كانت من بعضهم على بعض. (المغني باب الشهادات).

٣- **(فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُما اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ ما اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ)**. جاء في صحاح الشيعة و السنة ان هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر خرجوا في سفر للتجارة، أحدهم مسلم و الآخران من النصارى، و في الطريق تمرض المسلم، و أحس بدنو أجله، فكتب وصيته و ذكر فيها كل ما يحمل معه، و دسها في بعض متاعه، دون أن يعلم صاحباه بذلك، ثم

أوصى اليهما أن يدفعا متاعه الى أهله، و لما مات أخذا شيئا منه، و دفعا الباقي الى أهله.

و لما عثر أهله على وصيته رأوا فيها ذكر الشيء الذي أخذاه، فسألوهما

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤١

فأنكرا، و قالا ما دفعه إلينا دفعناه إليكم، و حلفا على ذلك .. و بعد حين رأى أهل الميت ذاك الشيء مع ثالث، فقالوا: من أين لك هذا؟ قال: اشتريته من فلان و فلان، أي من المتهمين، فترافعوا الى النبي (ص) .. و قيل: ان المتهمين حين فوجئا بذلك قالا: اشتريناه منه. فنزل قوله تعالى: **فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا** الخ. و المعنى فان ظهرت أمارات تستدعي الريبة بالمتهمين فالواجب حينئذ أن يقوم رجلان من ورثة الميت، و يحلفا بالله انهما أصدق من المتهمين، و أن يقولا في اليمين: و ما اعتدينا انّا إذا لمن الظالمين، و بعد الحلف يحكم على المتهمين.

و تسأل: لقد طال كلام المفسرين و تضارب حول قوله تعالى: «**مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيانِ**» حتى نقل عن بعض القدامى انه قال: هذه أشكل جملة في كتاب الله من حيث التركيب، فما هو القول الصحيح في تفسيرها؟

الجواب: ان الذي أوقع المفسرين في الارتباك هو ان ضمير (عليهم) إلى من يعود؟ و الذي نراه انه يعود الى ورثة الميت، لأن ما كان مستحقا عليه من الديون و نحوها يصير بعد موته مستحقا على ورثته، و عليه يكون المعنى يحلف اثنان من الذين وجب عليهم ما كان واجبا على مورثهم، و السياق يؤكد هذا، لأن الآخرين اللذين يقومان مقام المتهمين في اليمين لا بد أن يكونا من ورثة الميت باتفاق المفسرين و لا يجوز أن يكونا من غيرهم بحال، اذن، يتعين أن يكون ضمير (عليهم) عائدا اليهم بالذات.

(ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ).

ذلك إشارة إلى الحكم السابق، و قوله: **(أَدْنى أَنْ يَأْتُوا ..** الخ) بيان لعلة الحكم، أي ان القصد مما شرعناه أن لا يحرّف الشهود شهادتهم، و يحلفوا اليمين الكاذبة، أو يمتنعوا عن اليمين بالمرة خوفا أن ترد- بعد الحلف- على الورثة.

و تسأل: إن الله سبحانه حين بيّن الحكم ثنّى، و قال: شهادتهما .. و يقسمان.

و حين أشار إلى علة الحكم جمع، و قال: أن يأتوا بالشهادة، فما هو الوجه؟

الجواب: إن الشهود أربعة، اثنان يشهدان ابتداء، و اثنان يقومان مقامهما إذا ظهر الإثم على الشاهدين الأولين .. هذا، إلى أن المفروض في علة الحكم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٢

أن تكون عامة تشمل المورد المذكور و غيره.

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٩ الى ١١١]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَ الأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (١١١)

اللغة:

روح القدس جبريل. و الأكمه من ولد أعمى، و يطلق أيضا على من عمي بعد الولادة. و الحواريون جمع حواري، و هو من أخلص في المودة.

الاعراب:

يوم يجمع (يوم) منصوب بفعل محذوف، أي اتقوا يوم يجمع. و ما ذا كلمة واحدة بمعنى أي شيء، و هي هنا مجرورة بحرف جر محذوف، أي بأي شيء أجبتم؟ و إذ قال بدل من يوم يجمع. و يجوز أن يكون على ألف عيسى

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٣

فتحة إذا أعرب ابن مريم صفة له، و يجوز أن يكون عليها ضمة إذا أعرب ابن بدلا من عيسى، لا وصفا. و في المهد متعلق بمحذوف حالا من ضمير تكلم، و كهلا عطف على الحال المحذوف، أي كائنا في المهد و كهلا. و إن آمنوا (ان) للتفسير بمعنى أي.

المعنى:

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ). قال الرازي: «إن عادة اللّه تعالى جارية في كتابه الكريم انه إذا ذكر أنواعا من الأحكام أتبعها إما بالإلهيات و إما بشرح أحوال الأنبياء، و إما بشرح أحوال القيامة، ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم .. و لما ذكر هنا أحكاما من الشريعة اتبعها أولا بوصف أحوال القيامة، ثم أحوال عيسى».

و المشهد الذي ذكره هنا سبحانه مشهد رهيب، يحشر فيه الخلائق للحساب و المحاكمة قبل صدور الحكم بالعفو أو الادانة .. انه تعالى يجمع رسله الذين كان قد فرقهم و وزعهم في محافظاته و أقاليمه و قراه .. و بديهة ان قراه تعالى و أقاليمه غير قرانا و أقاليمنا .. انها الأمم و الأجناس و الأقوام، ثم يجابه كل أمة و كل قوم برسولهم و يقول له: ما ذا قال لك هؤلاء؟ .. يريد بهذا السؤال أن يلقي الحجة على عباده، و يمهد للحكم و حيثياته. و يجيب الأنبياء في هذا المشهد: **(لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)** و من علم الغيوب فلا تخفى عليه الظواهر.

و تسأل: إن الأنبياء يعلمون من جحد رسالتهم، و حاربهم من أجلها في حياتهم، فما هو الوجه لقولهم: لا علم لنا؟.

الجواب: ليس المراد من قولهم هذا نفي العلم إطلاقا، بل المراد ان علمهم ليس بشيء في جانب علمه تعالى، لأنهم يعلمون من أمتهم ما أظهروا و هو يعلم ما أظهروا و أضمروا.

(إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ). بعد أن استجوب سبحانه أنبياءه بكلمة موجزة **(ما ذا أُجِبْتُمْ)** خص عيسى (ع) من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٤

بينهم بخطاب مطول و مفصل يذكره فيه بنعمته عليه و على والدته **(إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ)** و هو جبريل **(تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ)** تنزيها لأمك من كل شبهة **(وَ كَهْلاً)** أي ان كلامه في المهد كان مثل كلامه، و هو كهل **(وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ)** قيل المراد به الخط لأن الكتاب مأخوذ من الكتابة **(وَ الْحِكْمَةَ)** الشريعة **(وَ التَّوْراةَ وَ الإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَ الأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي)**. مر تفسير نظيره في الآية ٤٩ من سورة آل عمران. و كرر سبحانه بإذني أربع مرات للتأكيد على ان الخلق و الأحياء و الإبراء من اللّه، لا من سواه، و انما أظهر سبحانه هذه الأفعال على يد عيسى (ع) لتكون دليلا على صدقه و نبوته.

عيسى و نبوة الأطفال:

قد يظن أو يموه ان عيسى (ع) نبي صغير .. لأنه تكلم في المهد، أي في حجر أمه، و هذا جهل أو تدليس .. لأن عيسى إنما تكلم في المهد تبرئة لأمه من قول الآثمين، لا لأنه رسول من المرسلين .. و إذا كان اللّه قد أسقط التكليف الخفيف عن الصبيان فهل يكلفهم بالأحمال و الأثقال؟ .. «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً- ٥ المزمل». و من يسمع له و يطيع، و هو في المهد؟. و هل تقوم الحجة للّه على عباده بطفل رضيع؟ و أين التعاليم التي بلّغها للناس عن اللّه، و هو يلتقم ثدي أمه؟.

إن الأناجيل المعتبرة عند النصارى تنص على ان عيسى بعث في سن الثلاثين، فقد جاء في إنجيل لوقا الفصل الثالث رقم ٢٣ ما نصه بالحرف: «و لما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة». و في شروح على الأناجيل المقدسة المطبوعة مع الأناجيل الأربعة في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٣٨ ص ٥١٩ ما نصبه بالحرف:

«ذكر الانجيليّ ان عمر المسيح كان ثلاثين سنة لما ابتدأ حياته العلنية و البشارة بملكوت اللّه». و في بعض كتب المسلمين ما يؤيد ذلك.

و غريبة الغرائب أن تقول أناجيل النصارى: إن دعوة عيسى (ع) ابتدأت

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٥

في سن الثلاثين، ثم يقول انتهازي محترف متزلفا إلى وجوه النصارى، يقول هذا المتزلف: «ان عيسى (ع) نبيء طفلا صغيرا، على العكس من محمد (ص) الذي بعث بعد الأربعين «١» و يستدل على افترائه هذا بأن عيسى تكلم في المهد بنص القرآن ... متجاهلا أنه إنما تكلم تبرئة لأمه الصديقة الطاهرة، لا ليبلغ رسالة اللّه إلى عباده، و هو متعلق بالثدي.

(وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ). جاء في خطبة من خطب نهج البلاغة: «كان عيسى يتوسد الحجر و يلبس الخشن، و يأكل الجشب، و كان أدامه الجوع، و سراجه بالليل القمر، و ظلاله في الشتاء مشارق الأرض و مغاربها، و فاكهته و ريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، و لم تكن له زوجة تفتنه، و لا ولد يحزنه، و لا مال يلفته، و لا طمع يذله، دابته رجلاه، و خادمه يداه».

و مع هذا لم يسلم من اليهود، فحاولوا قتله، و وصفوه بالكذب و السحر، و ألصقوا بأمه العار، لا لشيء إلا لأنه نطق بالحق، و دعاهم اليه، و أمرهم به .. و لا يختص هذا باليهود، فإن كثيرا من الناس ينصبون العداء لمن يرشدهم إلى الخير، و يتمنى لهم الهداية.

(وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوٰارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قٰالُوا آمَنّٰا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنٰا مُسْلِمُونَ). يطلق الوحي على معان، منها الإلهام، كما في قوله تعالى:

«وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً- ٦٨ النحل». و قوله:

«وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذٰا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ- ٧ القصص».

و هذا المعنى هو المراد بقوله: (أوحيت الى الحواريين).

و تسأل: لما ذا ذكر اللّه سبحانه عيسى بنعمه عليه من دون الأنبياء، مع ان فضله و نعمه عليهم لا يبلغها الإحصاء؟

الجواب: ان اللّه سبحانه أجمل الخطاب مع الرسل، و فصله مع عيسى لأن

(١). أراد هذا المتزلف أن يفضل عيسى على محمد بطرف خفي .. و لكن للذين شاهدوا محمدا عرفوا من هو؟.

انظر فقرة بين حورايي محمد و حواريي عيسى عند تفسير الآية التالية ١١٣.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٦

أتباعه غالوا فيه، أما اتباع غيره فلم يدّعوا الالوهية لنبيهم، فجاء التفصيل لاقامة الحجة على الغلاة.

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٢ الى ١١٥]

إِذْ قٰالَ الْحَوٰارِيُّونَ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنٰا مٰائِدَةً مِنَ السَّمٰاءِ قٰالَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قٰالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهٰا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنٰا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنٰا وَ نَكُونَ عَلَيْهٰا مِنَ الشّٰاهِدِينَ (١١٣) قٰالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللّٰهُمَّ رَبَّنٰا أَنْزِلْ عَلَيْنٰا مٰائِدَةً مِنَ السَّمٰاءِ تَكُونُ لَنٰا عِيداً لِأَوَّلِنٰا وَ آخِرِنٰا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنٰا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّٰازِقِينَ (١١٤) قٰالَ اللّٰهُ إِنِّي مُنَزِّلُهٰا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذٰاباً لاٰ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعٰالَمِينَ (١١٥)

الإعراب:

إذ قال (إذ) ظرف متعلق بفعل محذوف، أي أذكر إذ قال. و المصدر المنسبك من أن ينزل مفعول يستطيع. و ان صدقتنا (ان) مخففة من الثقيلة، و اسمها محذوف، أي انه. و لنا عيد (لنا) متعلق بمحذوف حال. وعيدا خبر تكون، و الجملة في محل نصب صفة لمائدة. لأولنا بدل من لنا. و أعذبه الضمير يعود إلى من يكفر. و عذابا مفعول مطلق بمعنى التعذيب. و لا أعذبه على حذف حرف الجر، أي لا أعذب به أحدا، و عليه يكون الضمير عائدا إلى العذاب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٧

المعنى:

لقد كثر الكلام حول المائدة و طلابها: هل كانوا مؤمنين أو مشككين؟

و هل نزلت المائدة بالفعل، أو انها لم تنزل، لأن الحواريين عدلوا عن طلبها بعد أن هددهم اللّه بقوله: «فمن كفر منكم فاني معذبه عذابا لا أعذبه أحدا».

و مع افتراض نزولها فعلى أية حال نزلت؟ و ما هي أصنافها و ألوانها؟ ثم هل مسخوا بعدها قردة و خنازير، لأن بعضهم سرق منها؟ .. إلى غير ذلك من القول على اللّه من غير علم.

و نقف نحن في حديثنا عن هذه الآيات الأربع عند مدلول كلماتها و ما يتصل به.

الآية الأولى: (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا اللّه إن كنتم مؤمنين). و تومئ هذه الآية إلى أن الحواريين ما كانوا مؤمنين بعيسى عند ما طلبوا منه هذه المائدة، لأنهم في غنى عنها مع التصديق و التسليم، و الذي يؤكد ذلك قولهم: (هل يستطيع ربك) فانه يشعر بالتشكيك في قدرة اللّه .. مع ان الآية السابقة قد شهدت لهم بالايمان (و إذ أوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بي و برسولي قالوا آمنا) .. هذا، إلى أن لفظ الحواريين يدل بنفسه على إيمانهم بعيسى و إخلاصهم له، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟

و أجاب كثير من المفسرين بأن سؤالهم هذا لا يتنافى مع إيمانهم، لأن القصد منه الايمان عن طريق الحس و العيان بعد

الايمان عن طريق العقل و البرهان، و بكلمة القصد تقوية الايمان و تثبيته، تماما كما قال ابراهيم الخليل (ع): «و لكن ليطمئن قلبي» .. و قد أفصح الحواريون عن هذا القصد بدلالة قوله في الآية الثانية: «و تطمئن قلوبنا» جوابا على قول عيسى لهم: «اتقوا اللّه إن كنتم مؤمنين». أما قولهم: «هل يستطيع ربك» فمعناه هل يستجيب ربك إن سألته أن ينزل علينا مائدة السماء.

الآية الثانية: (قالوا نريد أن نأكل منها و تطمئن قلوبنا و نعلم ان قد صدقتنا و نكون عليها من الشاهدين). يريدون أن يأكلوا ليؤمنوا و يعلموا، أو يريدون أن يأكلوا ليقوى و يرسخ الايمان في قلوبهم، و العلم في عقولهم، كما قدمنا، ثم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٨

يخبروا من لم يحضر المائدة من قومهم، فيؤمن الجاحد، و يطمئن المؤمن- و إن لم يأكل.

بين حواري محمد و حواري عيسى:

كان لمحمد (ص) حواريون، كما كان لعيسى (ع)، و لأي نبي من الأنبياء، و لكن صحابة محمد ما سألوه أن يطعمهم من جوع بآياته و معجزاته كما فعل أصحاب عيسى الذين قالوا له: نريد أن نأكل منها، و لا أن يؤمنهم من خوف كما فعل أصحاب موسى، بل قالوا له في بعض معاركه بلسان المقداد بن الأسود:

«امض يا رسول اللّه لما أرادك اللّه، فنحن معك، و لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت و ربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون، و لكن نقول:

اذهب أنت و ربك فقاتلا انّا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه».

و كانوا يتساقطون شهداء بين يديه، و هم يقولون: فزنا و رب الكعبة، و روى عنهم التاريخ في ذلك ما يشبه الأساطير. قاتل عمارة بن يزيد يوم أحد، حتى أثخنته الجراح، و لما أيقن بالموت رمى برأسه على قدمي رسول اللّه، و لم يرفعه، حتى فارق الحياة سعيدا بهذه الخاتمة.

و سقط سعد بن الربيع شهيدا في أحد، فقال لأحد أصحابه: قل لرسول اللّه يقول لك سعد بن الربيع: جزاك عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، و ابلغ قومك عني السلام، و قل لهم: ان ابن الربيع يقول لكم: انه لا عذر لكم عند اللّه إن خلص إلى نبيكم، و منكم عين تطرف.

و كان عمرو بن الجموح أعرج، و أراد الخروج مع النبي إلى حرب أحد، فحاول أولاده أن يمنعوه من الخروج، فاشتكى لرسول اللّه، و قال: اني أرجو أن أعرج الليلة إلى الجنة، فأذن رسول اللّه له، و قتل هو و أولاده الأربعة، و شقيق زوجته، فجاءت أرملته بعد المعركة، و حملت زوجها و أخاها و أولادها الأربعة على جمل، و ذهبت بهم إلى المدينة، فقابلتها النساء يسألنها عن الأخبار.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٤٩

قالت: أما رسول اللّه فبخير، و كل مصيبة بعده تهون. فسألنها: و ما هذه الجثث؟ قالت: هؤلاء أولادي و زوجي و أخي أكرمهم اللّه بالشهادة، و أحملهم لأدفنهم.

هذه أمثلة نقدمها للدلالة على مدى الفرق بين حواريي محمد، و حواريي غيره من الأنبياء. و لا نبالغ إذا ما قلنا: ان ما من نبي على الإطلاق ظفر بما ظفر محمد رسول اللّه (ص) من أصحاب صدقوا ما عاهدوه عليه. أما السر فيكمن في

شخصيته، و عظمة رسالته.

الآية الثالثة: (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا و آخرنا و آية منك و ارزقنا و أنت خير الرازقين). لما رأى عيسى منهم الإصرار، و علم انهم لا يقصدون العنت و التعجيز دعا اللّه سبحانه بدعاء العبد الخاضع المتضرع لسيده، مناديا: يا ربنا .. و منك .. و انت .. الخ دفعا لكل شبهة و تكذيبا لكل زاعم ان لعيسى فيها يدا، و انها من صنعه، لا من صنع الواحد الأحد .. و المراد بالآية المعجزة، و بالعيد الفرحة و السرور.

الآية الرابعة: (قال اللّه اني منزلها عليكم فمن كفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين). استجاب سبحانه لتضرع عيسى ليزداد أصحابه ثقة به، و إيمانا بنبوته، و تلزمهم الحجة إذا خالفوا، و يستحقوا أشد العقاب الذي لا يعاقب اللّه به أحدا ممن جحد و كفر، لأنهم هم الذين اقترحوا المائدة، و طلبوها بالذات، و من استجيب الى طلبه تقوم عليه الحجة و تنقطع منه كل معذرة إذا خالف و نكص.

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٦ الى ١١٨]

وَ إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥٠

اللغة:

تستعمل النفس في معان، منها ما به حياة الإنسان و الحيوان، و هي التي عناها اللّه بقوله: «كل نفس ذائقة الموت». و منها ذات الشيء، مثل هذا هو نفسه. و منها الغيب، تقول: انا أعلم نفس فلان، أي غيبه، و هذا هو المقصود من النفس في الآية، أي تعلم ما أخفيه في نفسي، و لا أعلم ما تخفيه من علومك.

الإعراب:

اتخذوني تتعدى الى مفعولين، لأنها بمعنى صيروني، و المفعول الأول الياء، و الثاني إلهين، و أمي مفعول معه. و من دون اللّه متعلق بمحذوف صفة لإلهين.

و قال صاحب مجمع البيان: من زائدة هنا. و هذا اشتباه لأن من تزاد بعد النفي، و لا نفي هنا. و المصدر المنسبك من ان أقول اسم يكون، ولي متعلق بمحذوف خبرا ليكون. و بحق الباء زائدة و حق خبر ليس، و اسمها ضمير مستتر يعود الى ما. و المصدر المنسبك من ان اعبدوا اللّه بدل من ضمير (به). و لا يجوز أن تكون (ان) هنا مفسرة لأن حروف القول قد صرح بها. و أنت ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥١

المعنى:

(و إذ قال اللّه يا عيسى ابن مريم أ أنت قلت للناس اتخذوني و أمي إلهين من دون اللّه). ان اللّه سبحانه لم يقصد بهذا

السؤال عيسى بالذات، لأنه يعلم ما قال عيسى للناس، و إنما قصد به اقامة الحجة على من ادعى لعيسى و أمه هذه الدعوى الكافرة (قال سبحانك) أنت منزه عن الشريك (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) لأنه نبي، و النبي معصوم عن الزلل، و قد بعث لمحاربة الشرك، و الدعوة إلى التوحيد، فكيف يدعي الألوهية لنفسه، و يدعو الناس لعبادته.

(إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ). استشهد على براءته من شركهم بعلم اللّه، و كفى به شاهدا.

(ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا اللّه ربي و ربكم و كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم). جاء في إنجيل متى الفصل الرابع ما نصه بالحرف:

«حينئذ خرج يسوع الى البرية من الروح ليجرب من إبليس، فصام أربعين يوما و أربعين ليلة، و أخيرا جاع فدنا اليه المجرب- أي إبليس- قائلا ان كنت ابن الرب فمر أن تصير هذه الحجارة خبزا، فأجاب قائلا مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم اللّه، حينئذ أخذه إبليس الى المدينة المقدسة و أقامه على جناح الهيكل و قال له: ان كنت ابن اللّه فألق بنفسك إلى أسفل لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك فتحملك على أيديها لئلا تصدم بحجر رجلك فقال له يسوع: مكتوب أيضا لا تجرّب الرب إلهك، فأخذه إبليس أيضا الى جبل عال جدا و أراه جميع ممالك العالم و مجدها، و قال له: أعطيك هذه كلها ان خررت ساجدا لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان».

هل يصوم الإله؟ و لمن يصوم؟ و هل يجوع، و هو الرزاق؟ و كيف يجربه إبليس، و هو علاّم الغيوب؟ و كيف استطاع حمله ينتقل به من جبل الى جبل و هو خالقه، و خالق الكون بكامله؟.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥٢

(إن تعذبهم فإنهم عبادك و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم). جاء في بعض التفاسير ان قول عيسى (ع) للّه جل و عز: (ان تعذبهم فإنهم عبادك) يومئ إلى أن عيسى طلب لهم من اللّه المغفرة بتأدب و رجاء، لأن قوله: فإنهم عبادك، يتضمن هذا الطلب، تماما كما تقول لمن أراد القسوة على ولده: انه ولدك. أي ارفق به .. و لكن بعض المتزمتين أبى إلا أن يتمحل و يقول: «ان المعنى ان تغفر لهم بالتوبة».

و نجيب هذا القائل بأن المغفرة مع التوبة لا تحتاج إلى شفاعة و وساطة، لأن اللّه قد كتبها على نفسه لكل تائب .. ثم أي مانع يمنع عيسى و محمدا أن يطلبا من اللّه الرحمة و المغفرة لعباده، فقد طلبها ابراهيم من قبل لمن عصاه: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ- ٣٦ ابراهيم». هذا، إلى أن العفو عن المسيء حسن على كل حال: «أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ- ٣٢ الزخرف».

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٩ الى ١٢٠]

قالَ اللّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

الاعراب:

هذا مبتدأ، و يوم خبر، و الجملة مفعول قال، و جملة ينفع مجرورة باضافة يوم، و يجوز نصب يوم على انه ظرف متعلق بمحذوف، و المحذوف خبر هذا، و التقدير هذا واقع يوم ينفع.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥٣

المعنى:

(قال اللّه هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا). بعد أن حكى عن عيسى انه قال لقومه: (اعبدوا اللّه ربي و ربكم)، بعد هذا عقب بالثناء على الصادقين بوجه العموم، و ان من صدق في هذه الحياة ينتفع بصدقه في الحياة الثانية، و يجازى بجنات تجري من تحتها الأنهار، و في هذا التعقيب شهادة منه تعالى بصدق عيسى في أقواله و أفعاله، و انه أدى رسالة ربه على وجهها الأكمل، و ان من كفر و أشرك فعليه وحده تقع التبعة و المسئولية.

(رضي اللّه عنهم و رضوا عنه ذلك الفوز العظيم). و رضى اللّه عن عبده جنات و نعيم، و مقام كريم، و رضى العبد عن ربه أن يفرح بما آتاه اللّه من فضله. قال الرازي: «في رضى اللّه أسرار عجيبة تخرس الأقلام عن مثلها، جعلنا اللّه من أهلها». و لن يكون أحد من أهلها إلا بعد أن يدفع الثمن، و الثمن أن يكون شعار المشتري «لا إله إلا اللّه» في كل شيء، أي أن لا يغضبه في شيء، حتى و لو قرض بالمقاريض، و نشر بالمناشير، تماما كما قال سيد الكونين: إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، و كما قال سبطه الحسين الشهيد: رضى اللّه رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، و يوفينا أجور الصابرين.

(للّه ملك السموات و الأرض و ما فيهن و هو على كل شيء قدير. و من كانت له هذه المقدرة، و هذا الملك أعطى من يرضى عنه بغير حساب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥٥

سورة الأنعام

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥٧

سورة الأنعام ١٦٥ آية مكية، ما عدا بضع آيات.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواٰتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماٰتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَ هُوَ اللهُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُونَ (٣)

اللغة:

للعدل معان شتى، تختلف باختلاف الموارد، تقول: عدل القاضي في حكمه، أي لم يظلم المحكوم عليه، و عدلت الشيء فاعتدل، أي قومته فاستقام، و عدلت عنه، أي أعرضت، و عدلت به غيره، أي جعلته مساويا له، و هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: **(بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)**. و الأجل الوقت المضروب.

و قضاء الأجل انتهاؤه، و المرية و الامتراء الشك.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥٨

الإعراب:

خلقكم من طين على حذف مضاف، أي خلق أصلكم، و أجل مبتدأ، و مسمى صفة له. و عنده متعلق بمحذوف خبرا للمبتدإ. و هو مبتدأ أول، و اللّه مبتدأ ثان، و جملة يعلم خبر المبتدأ الثاني، و الجملة منه و من خبره خبر المبتدأ الأول. و في السموات و الأرض متعلق بيعلم.

المعنى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ). هذه الآيات الثلاث من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته و عظمته، و تشير الآية الأولى الى خلق السموات و الأرض، و الظلمات و النور، و الثانية الى خلق الإنسان و بعثه بعد الموت، و الثالثة إلى علم اللّه و احاطته بكل شيء.

و معنى الحمد الثناء، و قوله تعالى: الحمد للّه يريد به التعليم، أي قولوا يا عبادي الحمد للّه، و الثناء على اللّه حسن على كل حال، حتى عند الضراء، لأنه أهل للتقديس و التعظيم .. فان أصابتك مصيبة، و قلت عندها: الحمد للّه فإنك تعبر بذلك عن صبرك على الشدائد، و إيمانك القوي الراسخ الذي لا يزعزعه شيء، و يتأكد حسن الحمد و رجحانه عند السراء و دفع البلاء، لأنه شكر للّه على ما أسبغ و أنعم.

و وصف اللّه سبحانه نفسه بخالق السموات و الأرض و الظلمات و النور لينبه العقول إلى أنه لا شريك له في الخلق و الألوهية، فيكون هو وحده الجدير بالحمد و الإخلاص له في العبودية **(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)**. و محل التعجب و الغرابة ان هذا الكون العجيب بأرضه و سمائه، و هذه البينات الواضحة، و الدلائل القاطعة لم تخترق ذاك الظلام الكثيف على عقل المشرك و قلبه الذي أعماه عن الحق، و صور له ان للّه مساويا في استحقاق الحمد و العبادة.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ). أي خلق أصلكم، و هو آدم، و آدم من تراب و ماء، أو خلق مادة كل فرد من البشر من طين، لأنه من لحم و دم،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٥٩

و هما من النبات و لحم الحيوان المتولد من النبات، و النبات من الطين **(ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ)**. للقضاء معان، منها الحكم و الأمر: وَ قَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ أي أمر .. و منها الإخبار و الإنهاء: وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أي انهينا. و منها الحتم الذي لا مفر منه: وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ و هذا المعنى هو المراد هنا.

و اللّه سبحانه قضى لكل فرد من عباده أجلين: أحدهما ينتهي بموته، و بعده يعرف كم عاش. و ثانيهما لإعادته و بعثه بعد الموت، و علم هذا عند اللّه وحده، و لا يطلع عليه أحدا من خلقه، كما دلت على ذلك كلمة عنده. **ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**. أي تشكّون، و المعنى: أبعد ان قامت الدلالة على قدرة اللّه في الخلق الكبير، و هو الكون، و في الخلق الصغير، و هو خلق الإنسان و موته و بعثه، أبعد هذا تشكون في وجود اللّه و وحدانيته و عظمته! .. و خير تفسير لهذه الجملة قول علي أمير المؤمنين (ع): عجبت لمن شك في اللّه، و هو يرى خلق اللّه، و عجبت لمن نسي الموت، و هو يرى الموت، و عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى، و هو يرى النشأة الأولى.

وَ هُوَ اللهُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ فِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُونَ. ذكر سبحانه في الآية الأولى انه خالق السموات و الأرض، و النتيجة الحتمية لهذا انه موجود في السموات و الأرض، و معنى وجوده فيهما وجود آثاره، و ذكر في الآية الثانية انه خالق الإنسان و مميته و معيده، و اللازم القهري لذلك انه يحيط علما بسره و جهره، و ما يكسبه من إيمان و كفر، و إخلاص و نفاق، و أقوال و أفعال تعود عليه بالخير أو الشر.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤ الى ٦]

وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبٰاءُ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٥) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّٰاهُمْ فِي الأَرْضِ مٰا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّمٰاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرٰاراً وَ جَعَلْنَا الأَنْهٰارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٠

اللغة:

جاء في تفسير الرازي: قال بعضهم: القرن ستون سنة. و قال آخرون:

سبعون. و قال قوم: ثمانون. و الأقرب انه غير مقدر بزمان معين لا يقع فيه زيادة و لا نقصان، بل المراد أهل كل عصر فإذا انقضى منهم الأكثر قيل:

انقضى القرن، و الدليل قول الرسول الأعظم (ص): خير القرون قرني.

و التمكين في الشيء جعله متمكنا من التصرف فيه. و أرسلنا السماء، أي المطر بالنظر إلى انه ينزل من السماء، و المدرار الغزير.

الاعراب:

من آية من زائدة، و آية فاعل. و من آيات متعلق بمحذوف صفة لآية.

و كم استفهام في موضع نصب بأهلكنا. و من قبلهم بيان لها. و جملة مكنّاهم في محل جر صفة لقرن الذي معناه الجماعة. و مدرار حال من السماء.

المعنى:

أصول العقيدة ثلاثة: التوحيد و النبوة و البعث، و الآيات الثلاث السابقة تعرضت للتوحيد و دلائله، و تعرضت هذه الآيات إلى النبوة، و حال المكذبين بها.

وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ. المراد بالآية هنا الحجة القاطعة على وجود اللّه و وحدانيته، و على البعث و نبوة محمد، و المعنى

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦١

ان الكافرين يرفضون دليل الحق، و يعرضون عنه، دون أن ينظروا اليه ..

و لو كانوا من طلاب الحقيقة لنظروا إلى الدليل و تدبروه بإمعان، و عملوا بموئداه، أما الرفض و الاعراض قبل النظر و الدرس فعناد و مكابرة.

لا دكتاتورية في الأرض و لا في السماء:

اختلف المفسرون في تعيين المراد من الآية التي أعرض عنها، و استهزأ بها المكذبون: هل هي القرآن، أو غيره من معجزات رسول اللّه (ص)، أو ان المراد بالآية جميع ما أتى به من المعجزات؟. و تنبهت، و أنا أتابع هذا الاختلاف، إلى أن الآية التي نفسرها، و ما جاء في القرآن من أمثالها تتضمن معنى أجل مما اهتم المفسرون بشرحه، انها تتضمن الدلالة على ان الإسلام يقوم على حرية العقل و الرأي، و انه لا يحق لأحد، كائنا من كان، أن يطلب من غيره التسليم و الإذعان لأقواله تسليما أعمى و من غير دليل، حتى خالق الكون جلت كلمته لا يفرض على عباده الإيمان به و بكتبه و رسله فرضا و من غير دليل، انه تعالى يقيم الحجة على ما يقوله و يدعو اليه، و يطلب من كل عاقل أن ينظر فيها و يتدبرها بإمعان، شأنه في ذلك، تعالى اللّه علوا عظيما، شأن كل عالم منصف و ان بعد القياس و التشبيه بين الخالق و المخلوق.

قال تعالى: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ- ٨ الروم. و قال: أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ- ٦ ق. و قال: كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ- ٢٤ يونس.

ان هذه الآيات و ما اليها تدل دلالة قاطعة على انه تعالى يقيم الدلائل و البينات على دعوة الحق، و يدعو الى تدبرها و النظر فيها، فإذا أعرض من لا يؤمن إلا بما يريد فهو وحده المسئول عن جحوده و إنكاره.

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ.

قد يتجاهل الإنسان الحق غير مكترث به، لا يؤمن به، و لكن لا يؤيده و لا يحاربه، كما هو شأن اللامبالي، و قد يقف منه موقف المكذب، و هذا مكابر،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٢

ان كذب عن علم بالحق، و ان كذب و استهزأ فهو محارب للحق، و الأول أخف جرما من الثاني، لأنه أشبه بمن يمتنع عن الاقتراع، و الثاني أخف ذنبا من الثالث، لأنه ضم صوته إلى صوت المكذبين، أما الثالث فقد كذّب و أبدى نشاطا ضد الحق، و هذا الثالث هو المقصود بالتهديد و الوعيد، و أنه سيلاقي جزاء عناده و استهزائه.

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ. كان عرب الجاهلية يعرفون الكثير عن قوم عاد و ثمود و لوط و غيرهم، و كانوا يمرون في رحلاتهم بآثارهم، فيشاهدونها و يتحدثون عنهم و عنها، و يعرفون ان اللّه سبحانه أهلكهم، لأنهم كذبوا بالحق الذي جاء به أنبياؤهم من عند اللّه.

و هذه الآية تحض الذين كذّبوا محمدا (ص) ان يعتبروا بهلاك الأجيال الغابرة، و قد كان لهم من أسباب الملك و القوة و السلطان ما لم يكن للمخاطبين من عرب الجاهلية.

وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً. أي المطر الغزير ينشئ الخصب في حياتهم و يفيض عليهم الأرزاق **وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ** كناية عن الرخاء و كثرة الانتاج **فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ** و لم يغن عنهم المال و السلطان **وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ** و العاقل من اتعظ بغيره قبل أن يتعظ الغير به.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧ الى ١١]

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (٨) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (٩) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٣

اللغة:

القرطاس (مثلث القاف) الورق الذي يكتب فيه. و اللبس الستر و التغطية.

و حاق به، أي أحاط به.

الاعراب:

لو لا أداة طلب بمعنى هلا. و ما يلبسون ما بمعنى الذي و هي مفعول لبسنا. و كيف خبر مقدم لكان، و عاقبة اسمها، و لم تؤنث كان لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي.

المعنى:

وَ لَوْ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ كِتٰاباً فِي قِرْطٰاسٍ. أقام النبي (ص) بمكة ثلاث عشرة سنة منذ نزول الوحي عليه إلى أن هاجر إلى المدينة، و كان يدعو أهلها طوال هذه المدة إلى التوحيد و العدل، و ينهاهم عن الشرك و الجور، و كان أسلوبه في الدعوة الحكمة و الموعظة الحسنة، فاستجاب له أقلهم، و امتنع أكثرهم، و لم يكتفوا بالامتناع، بل تألبوا عليه، و جعلوا يؤذونه بأيديهم تارة، و بألسنتهم أخرى، و كان يصبر على أذاهم، و يحرص على إيمانهم، و لكن اللّه سبحانه قال له: وَ مٰا أَكْثَرُ النّٰاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ- ١٠٣ يوسف. و قال:

وَ لَوْ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ كِتٰاباً فِي قِرْطٰاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ. أي لو نزلنا عليك يا محمد الكتاب جملة واحدة في

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٤

صحيفة واحدة، فرأوه و لمسوه و شاهدوه عيانا لطعنوا فيه، و قالوا: انه سحر.

و هذا النموذج من الناس موجود في كل جيل، بل في عصرنا الذي نعيش فيه فئة كبيرة لا تكتفي بإنكار الملموس المحسوس، حتى تسمي هذه الأشياء بأضدادها فتعبر عن الذئب بالحمل، و عن الأفعى بحمامة السلام، فهذه الولايات المتحدة تقوم بعملية حرب الابادة في فيتنام، و تقول: أنا أبني و أعمل للحياة .. و تلك إسرائيل تعتدي، و تقول: أنا المعتدى عليه ..

وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ. لو لا بمعنى هلا، و الضمير في عليه يعود إلى محمد (ص) و في قالوا إلى مشركي قريش، فقد سألوا النبي (ص) أن يبعث اللّه معه ملكا يشهد بما يدعيه، و يكون له عونا على تنفيذ رسالته، و نظير هذه الآية قوله تعالى: وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً- ٧ الفرقان.

وَ لَوْ أَنْزَلْنٰا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لاٰ يُنْظَرُونَ. أي لو أن اللّه أنزل اليهم ملكا لماتوا، و لا يؤخرون طرفة عين. و تسأل: و أية ملازمة بين إنزال الملك اليهم، و بين هلاكهم عاجلا؟

و أجاب بعض المفسرين بأن الناس إذا شاهدوا الملك تزهق أرواحهم من هول ما يشهدون .. و لا يعتمد هذا القول على أساس.

و قال آخرون: لقد سبق في حكمة اللّه أن يهلك كل من يخالف الملك ..

و هذا أسوأ من سابقه، لأن اللّه سبحانه لم يهلك الذين يخالفونه في هذه الحياة، و ليس الملك بأعظم شأنا منه تعالى علوا كبيرا.

و الصحيح في الجواب ان وجه الملازمة سر لم يظهره اللّه لعباده، و لا يدرّك هذا السر بالعقل، فيجب السكوت عما سكت اللّه عنه.

وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً. لو أرسل اللّه إلى الناس ملكا فلا يخلو: اما أن يبقى على صورته، و اما أن يتمثل في صورة البشر .. و محال أن يبقى على صورته، و في الوقت نفسه يكون رسولا إلى الناس، لأن طبيعة الملائكة غير طبيعة الإنسان، و تبليغ الرسالة يستدعي المعاشرة و المؤانسة، و هي لا تحصل مع تباين الخلق و الطباع .. هذا، إلى أن الملائكة لم يخلقوا للحياة على هذا الكوكب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٥

و لو تمثل الملك على صورة البشر لقالوا له نريد ملكا رسولا، و لا نريده بشرا .. إذن، فالملك بصورته لا يمكن أن يبلغ الرسالة، و بصورة البشر لا يؤمن به مشركو مكة، فتبقى مشكلتهم من غير حل .. و تجدر الإشارة إلى أن هذه الآية صريحة الدلالة على ان اللّه سبحانه قد جادل المكذبين بالأسلوب و المنطق الذي يستعمله أهل المعقول لافحام خصومهم.

(وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ). أي لو جعل اللّه الملك في صورة البشر لظن الناس أنه بشر في حقيقته، و عليه يكون اللّه جل ثناؤه قد موّه في أفعاله، تماما كما يموّه الناس بعضهم على بعض ..

(وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ). أي هوّن عليك يا محمد ما تلقى من استخفاف قومك، فإن الاستخفاف بالأنبياء و المصلحين ليس وليد الساعة، بل كان موجودا منذ القديم، و اللّه سبحانه قد عاقب المستهزئين بأنبيائهم، و سيحل بمن استهزأ بك ما حل بمن كان قبلهم، و فعل فعلهم .. و هكذا كان، فإن اللّه سبحانه قد أهلك من سخر بمحمد (ص)، و امتنّ اللّه عليه بهلاكهم، حيث خاطبه بقوله:

«إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ- ٩٥ الحجر.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. تقدم تفسيره في الآية ١٣٧ من آل عمران.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢ الى ١٦]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَ غَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٦

اللغة:

كتب على نفسه، أي أوجب عليها إيجابا. و فاطر السموات مبدعها على غير مثال سابق.

الإعراب:

لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ لِمَنْ متعلق بمحذوف خبر مقدم و ما مبتدأ مؤخر، و الجملة مفعول لقُلْ. و لِلَّهِ متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف، أي قل هو كائن للّه. الَّذِينَ خَسِرُوا مبتدأ، و فَهُمْ مبتدأ ثان، و لا يُؤْمِنُونَ خبر للمبتدإ، و هو و خبره خبر المبتدأ الأول. أَ غَيْرَ اللهِ غَيْرَ مفعول أول لاتخذ، و وَلِيًّا مفعول ثان. و فاطر صفة للّه.

المعنى:

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ. أمر اللّه نبيه الأكرم أن يسأل مشركي العرب: من يملك السموات و الأرض؟. ثم أمره أن يجيب عنهم بأن اللّه وحده هو مالك الملك، و جاز أن يكون هو السائل و المجيب لأن كلا من المسئول و السائل متفقان على الجواب .. فان مشركي العرب كانوا يؤمنون بأن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٧

اللّه خالق الكون و مالكه: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ- ٦١ العنكبوت.

و تسأل: ما دام الأمر كذلك فأي جدوى من السؤال؟.

الجواب: ان القصد من السؤال و جوابه استدراج الخصم إلى الاعتراف بإمكان النشر و الحشر، و اقامة الحجة عليه، لأن اللّه سبحانه إذا كان هو خالق الكون و مالكه فهو- إذن- قادر على التصرف فيه فناء و إعادة.

كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ. و أعاد سبحانه هذه الجملة في الآية ٥٤ من هذه السورة. قال المفسرون: أوجب اللّه على نفسه الرحمة إيجاب فضل و كرم ..

و نحن نؤمن بأن اللّه ذو فضل و كرم، و في الوقت نفسه نؤمن بأن رحمته نتيجة حتمية لغناه في ذاته عن كل شيء، و افتقار كل شيء اليه تعالى، لأن المخلوق مفتقر بطبعه الى عناية الخالق و رحمته افتقار المعلول الى علته، و المسبب الى سببه ..

فرحمة اللّه بعباده لا تنفك عن ذاته و كماله، و على هذا يكون معنى كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ان رحمته حتم لذاته القدسية، تماما كالقدرة و العلم.

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ. و هذا الجمع حتم أيضا، و لذا وصفه جل ثناؤه بقوله: لا رَيْبَ فِيهِ. لأن فيه يقتص للمظلوم من الظالم، و يجازى المسيء على السيئة بمثلها، و المحسن على الحسنة بأضعاف مضاعفة من أمثالها، و لو لا هذا اليوم لذهب الحق هدرا، و كان الأقدر هو صاحب الأمر و النهي، و ليس خالق الكون و مالكه.

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. قال الزمخشري: لقد اختار الكافرون الخسران، فهم لذلك غير مؤمنين. و الزمخشري من أهل الاعتزال القائلين: الإنسان مخير، لا مسير. و قال الرازي: إن اللّه هو الذي قضى بخسرانهم، و لهذا امتنعوا عن الايمان. و الرازي من الأشاعرة القائلين: الإنسان مسير، لا مخير. و قال آخرون: امتنع الكفار عن الايمان تقليدا لآبائهم.

و في تصورنا ان الآية تشير إلى حقيقة الإنسان، و انها تتكون من نفسه و جسمه، و ان كلا منهما جزء متمم للآخر، و ان الإنسان لا يحيا حياة صحيحة إلا إذا عمل لهما معا، و ان من عمل للروح دون المادة، أو للمادة دون الروح فقد خسر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٨

كيانه من الأساس، و من خسر كيانه لا يكون من الايمان في شيء.

وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. أي انه تعالى هو المالك لكل شيء. و تسأل: لقد دل على هذا المعنى قوله تعالى في الآية المتقدمة:

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ فما هو الوجه لهذا التكرار؟

و أجاب المفسرون بأن الآية الأولى استقصت الخلق من حيث الزمان، و الثانية من حيث المكان، و هما ظرفان لكل موجود ماديا كان، أو معنويا، فحصل العموم و الشمول بالآيتين جميعا، و عقّب سبحانه بصفتي السمع و العلم تأكيدا لهذه الاحاطة.

و تقدم أكثر من مرة ان التكرار في القرآن غير عزيز، و لكن المفسرين يحاولون أن يأتوا بشيء، و إن لم تدع الحاجة اليه.

قُلْ أَ غَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا؟ و كيف استعين بغيره، و هو فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ. و من دونه لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ. لأن محمدا (ص) هو الداعي الأول إلى الإسلام، فيكون هو المسلم الأول من أمته، و الا كان من الذين يأمرون و لا يأتمرون .. حاشا من اصطفاه اللّه لرسالته. وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. و محال أن يكون منهم، و إنما صح هذا النهي لأنه موجه من الأعلى إلى من هو دونه، كما قلنا أكثر من مرة.

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. المعصية من النبي محال لمكان العصمة، و لكن فرض المحال ليس بمحال .. و الغرض تقرير أو تأكيد مبدأ المساواة بين الناس جميعا أمام اللّه، و انه خلق تعالى الجنة لمن أطاعه و لو كان عبدا حبشيا، و النار لمن عصاه و لو كان سيدا قرشيا .. و يأتي الخوف من اللّه سبحانه على قدر العلم بعظمته: إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ- ٢٨ فاطر و بالأولى الأنبياء.

مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ. كل من يخاف الهول الأكبر يرى النجاة منه رحمة كبرى، و فوزا لا شيء أعظم منه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٦٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٧ الى ١٩]

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)

الإعراب:

فلا كاشف كاشِفَ اسم لا، و له خبر، و التقدير لا كاشف موجود له، وَ هُوَ بدل من الضمير في موجود. و فَوْقَ عِبادِهِ متعلق بمحذوف حالا من الْقاهِرُ، أي هو القاهر مستعليا فوق عباده، و يجوز أن يكون خبرا ثانيا. و شَهادَةً تمييز.

وَ مَنْ بَلَغَ في محل نصب عطفا على مفعول لِأُنْذِرَكُمْ. و إِنَّما ان كفوفة عن العمل بما، و هو مبتدأ، و إله خبر، و واحد صفة لإله.

المعنى:

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ. تدل هذه الآية على ان الضر كالفقر و المرض و نحوهما من صنع اللّه،

لا من صنع الناس، و كذا كشفهما و الخلاص منهما، اذن، لما ذا السعي و العمل؟.

الجواب: أولا ان السعي واجب عقلا و نقلا، أما العقل فلأن الحياة لا تتم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٠

إلا بالعمل، و اما النقل فقد تجاوز حد التواتر، من ذلك قوله تعالى: فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ- ١٠ الجمعة. و قوله: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ- ١٥ الملك. و في الحديث: سافروا تغنموا .. تداووا فان الذي أنزل الداء أنزل الدواء.

و عليه، فمن قصر في السعي، و مسه الضر فهو المسئول، و من سعى من غير تقصير و مسه الضر تقع المسئولية على مجتمعه الفاسد في أوضاعه و أحكامه، و إن كان المجتمع الذي يعيش فيه صالحا فقد تضرر بقضاء اللّه و قدره.

ثانيا: إن اللّه سبحانه لا يريد الضرر لأحد من عباده، كيف؟ و هو القائل: وَ مَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ- ٢٩ ق. و القائل: وَ اللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ- ٢٠٧ البقرة. و في الحديث: إن اللّه أرحم بعباده من الوالدة بولدها. و على هذا يكون المراد بالضر في الآية ما يجازى به العبد على عمله، أو امتحانا لمصلحته و ما إلى ذلك مما لا يتنافى مع عدل اللّه و رحمته. و تكلمنا عن الرزق مفصلا عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة، فقرة هل الرزق صدفة أو قدر؟

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أي لا رادّ لخيره و فضله، قال الرازي: ذكر اللّه في الخير انه على كل شيء قدير، و في الضر انه لا كاشف له إلا هو، ذكر ذلك للدلالة على ان إرادة اللّه لإيصال الخيرات غالبة على إرادته لإيصال المضار.

وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ. و القاهر يشير إلى قدرة اللّه و الخبير إلى علمه. و قهر اللّه عباده بإيجادهم دون إرادة منهم، و قهرهم أيضا بالموت و الفناء، قال ابن العربي في الفتوحات المكية: إن اللّه سبحانه قهر عباده لأنهم نازعوه و خاصموه في مخالفتهم لأحكامه، و من خاصم اللّه فهو مقهور و مغلوب لا محالة.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً. جاء في بعض الروايات: ان مشركي مكة قالوا للنبي (ص): إن اليهود و النصارى لا يشهدون لك بالنبوة، فأرنا من يشهد لك بها، فأنزل سبحانه **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً**. أي سلهم يا محمد من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧١

هو الذي تعلو شهادته كل شهادة، ثم أمره تعالى بالجواب عنهم **قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ**. و لا جواب في الواقع غير هذا الجواب باعتراف الخصوم، و هو ان الشاهد بيننا هو اللّه.

وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ. القرآن هو الشهادة من اللّه على نبوة محمد، و هو يتحداهم جميعا أن يأتوا بسورة من مثله و يدعوا من شاءوا، و قد حاولوا و عجزوا، و هذا العجز أكبر شهادة على صدق النبي في رسالته. و قوله: **لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ** معناه ان اللّه سبحانه أوحى إليّ القرآن لأنذركم به يا أهل مكة، و أنذر به كل من بلغه إلى يوم يبعثون .. قال بعض الصحابة: من بلغه القرآن فكأنه رأى رسول اللّه (ص)، و تدل هذه الآية على أن من لم تبلغه دعوة محمد (ص) فهو معذور في ترك الإسلام. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١١٥ من آل عمران، فقرة حكم تارك الإسلام.

أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ. الاستفهام هنا للإنكار و الاستبعاد و المعنى كيف تجعلون مع اللّه إلها آخر بعد وضوح الأدلة على وحدانيته جل و عز، ثم أمر اللّه نبيه أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون: **قُلْ لَا أَشْهَدُ**. ثم أمره بأمر

آخر: قُلْ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ بعبادة الأصنام و غيرها.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٠ الى ٢٤]

الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ (٢١) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكٰاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا وَ اللّٰهِ رَبِّنٰا مٰا كُنّٰا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٢

الإعراب:

و **يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ** مفعول به لفعل محذوف، أي اذكر يوم نحشرهم.

و **جَمِيعاً** حال من ضمير **نَحْشُرُهُمْ**. و **أَيْنَ** خبر مقدم، و **شُرَكٰاؤُكُمُ** مبتدأ مؤخر.

و **الَّذِينَ** بدل من **شُرَكٰاؤُكُمُ**. و تزعمون تحتاج إلى مفعولين، و هما محذوفان، أي تزعمونهم شركاء، و دل على الحذف سياق الكلام. و المصدر المنسبك من **أَنْ قٰالُوا** خبر **لَمْ تَكُنْ**. و **كَيْفَ** مفعول **كَذَبُوا**. و جملة **كَذَبُوا** مفعول انظر.

المعنى:

الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمُ. الذين آتاهم اللّه الكتاب هم اليهود و النصارى، و ضمير يعرفونه عائد إلى محمد (ص)، و الآية تجابه علماء أهل الكتاب بأنهم يعرفون خاتم الأنبياء حق المعرفة، تماما كما يعرفون أبناءهم، و لكنهم يكتمون ما يعرفون و قد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، منها قوله تعالى: الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ- ١٤٦ البقرة. و قوله: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرٰاةِ وَ الْإِنْجِيلِ- ١٥٧ الاعراف.

أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِي إِسْرٰائِيلَ- ١٩٧ الشعراء. و مر الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة، و ١٦٤ من النساء.

فقرة هل الأنبياء كلهم شرقيون؟.

و ليس من الضروري ليعرف أهل الكتاب صدق محمد (ص) أن يجدوا اسمه مكتوبا عندهم في التوراة و الإنجيل .. فكل من درس الإسلام دراسة جادة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٣

و فاحصة يؤمن ايمانا لا يشوبه ريب بأنه الحق و الصدق، و انهما جوهر الإسلام ور كيزته و هدفه من كلمة لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ التي تعني المساواة بين الناس الى تقييم الإنسان على أساس العمل و الإخلاص، لا على أساس المال و الجاه و النسب، و من التكافل الاجتماعي و مسؤولية كل راع عن رعيته الى دعوة الأمن و السلام، و التقدم و الرخاء، الى ما لا نهاية.

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ مر تفسيره قريبا في الآية ١٢ من هذه السورة. **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً**. المراد بالظلم هنا الكفر، لأن كل من افترى الكذب على اللّه فهو كافر .. لا فرق إطلاقا بين من جعل له شريكا، و من حرف حكما من أحكامه عن عمد و علم، و من ادعى النيابة عن المعصوم، أو الشفاعة للخلق عند الحق، و هو

يعلم انه مفتر كذاب- كل هؤلاء كفرة فجرة اجماعا و كتابا و سنة. **أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**.

أشارت الجملة الأولى من الآية الى من يختلق ما لا وجود له، كمن جعل للّه شريكا أو ولدا. و تشير هذه الجملة الى من ينكر الموجود، كمن يجحده من الأساس، و حكم الاثنين واحد، كل منهما ظالم، و ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع.

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ. المؤمنون باللّه على نوعين: منهم من يؤمن بألوهيته و توحيده، و يسمون الموحدين، و منهم من يؤمن بألوهيته و ألوهية غيره، و هؤلاء أفسدوا ايمانهم بهذه الضميمة، و صاروا و الجاحدين سواء، لأن جعل المثيل للّه معناه في الواقع انكار اللّه من رأس، إذ المفروض ان اللّه سبحانه لا شبيه له و لا مثيل:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ- ١١ الشورى.

و سيواجه اللّه المشركين بهذا السؤال: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون، و تستعينون بهم كما تستعينون باللّه، سيواجههم بهذا السؤال على سبيل التوبيخ و التقريع، لا على سبيل الحقيقة.

و تسأل: لما ذا قال تعالى: أين شركاؤكم، و لم يقل أين شركائي، مع العلم بأن الكافرين أضافوا الشركاء اليه، لا اليهم؟.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٤

الجواب: إن الاضافة تصح لأدنى مناسبة، و المشركون هم الذين ابتدعوا الشرك الذي لا عين له و لا أثر في حقيقة الأمر و الواقع.

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَ اللهِ رَبِّنٰا مٰا كُنَّا مُشْرِكِينَ. المراد بالفتنة هنا شركهم و افتتانهم بالأوثان، و المعنى كانت عاقبة الشرك الذي ابتدعوه هي يمينهم الفاجرة انهم ما كانوا مشركين.

و تسأل: إن قوله تعالى حكاية عنهم: **وَ اللهِ رَبِّنٰا مٰا كُنَّا مُشْرِكِينَ** يتنافى مع قوله: وَ لاٰ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً- ٤٢ النساء. هذا، إلى أن المعروف ان الإنسان لا يستطيع الكذب يوم القيامة.

الجواب: إن في القيامة العديد من المواقف، يستطيع الإنسان في بعضها الإنكار، حيث لم يشهد عليه في هذا الموقف يداه و رجلاه بما كان يعمل، و على هذا الموقف يحمل قوله تعالى: **وَ اللهِ رَبِّنٰا مٰا كُنَّا مُشْرِكِينَ**. و في بعض المواقف يعترف بما كان منه، حيث لا مجال للإنكار، و عليه يحمل قوله:

وَ لاٰ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً.

أما القول: إن الإنسان يعجز عن الكذب إطلاقا يوم القيامة فتكذبه الآية ١٨ من سورة المجادلة: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمٰا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلىٰ شَيْءٍ أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ الْكٰاذِبُونَ.

سؤال ثان يتفرع من الجواب عن السؤال الأول، و هو إذا قدر الإنسان غدا على الكذب، بل و القسم عليه باللّه أيضا، تماما كما هو شأنه في هذه الحياة، إذا كان الأمر كذلك فما هو الوجه لتسمية الآخرة بدار الصدق، و تسمية دارنا هذه بدار الكذب؟.

الجواب: المراد بهذه التفرقة بين الدارين ان الكذب في هذه الدار قد يدفع عن صاحبه ضرا، أو يجلب له نفعا، أما في الدار الآخرة فلا يغنيه عن الصدق شيء .. و بكلمة ان العجز عن الكذب شيء، و القدرة عليه مع عدم جدواه شيء آخر.

انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ. الخطاب موجه للنبي (ص)، و المراد به العموم، و هو تعجب من انكارهم الشرك، و

قد ماتوا عليه .. و كل من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٥

أنكر ما هو فيه، أو ادعى ما ليس فيه عامدا متعمدا فقد كذب على نفسه و على اللّه و الناس. **وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ**. و ضل عنهم عطف على كذبوا، و المعنى انظر يا محمد كيف غاب عن المشركين ما كانوا يرجون نصرته و شفاعته.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (٢٦)

اللغة:

الأكنة جمع واحدها كنان، و هو الغطاء. و الوقر بفتح الواو ثقل السمع.

و الأساطير جمع واحدها اسطارة و اسطورة، أي الشيء المسطور في الكتب و لا دليل على صحته، و نأى عنه بعد و أعرض.

الاعراب:

المصدر المنسبك من أن يفقهوه مفعول لأجله لجعلنا، أي كراهية ان يفقهوه.

و إذا شرط متضمن معنى الظرف، و هو متعلق بيقول. و جملة يجادلونك حال من الواو في جاءوك. و ان هذا ان نافية بمعنى ما، و مثلها ان يهلكون.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٦

المعنى:

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً. خاطب اللّه نبيه بهذه الآية بعد ما أمره أن يقول للمعاندين ما تقوم به الحجة عليهم، و بعد أن تحدث عن أحوالهم يوم القيامة، و المعنى ان فريقا من هؤلاء الجاحدين يستمعون إلى النبي، و هو يتلو القرآن، و لكنهم لا ينتفعون به و لا بغيره من الدلائل و البينات، لأنهم صمموا منذ البداية على العناد و المكابرة، حتى أعمى هذا التصميم عقولهم عن رؤية الحق، و أصم آذانهم عن سماعه.

و تسأل: ان الآية بظاهرها ان اللّه هو الذي أعمى قلوبهم، و أصم آذانهم، و عليه فلا يستحقون ذما و لا عقابا، لأنهم مسيرون غير مخيرين؟.

الجواب: بما ان قلوب المعاندين لم تفقه القرآن، و تنتفع به، و آذانهم لم تستمع اليه سماع فهم و تدبر صح القول مجازا: ان على قلوبهم أغلفة، و في آذانهم صمم، و بما ان اللّه سبحانه هو الذي خلق القلوب و الآذان صحت نسبة الصمم و الأغلفة اليه مجازا أيضا، أما بحسب الأمر و الواقع فالمشركون هم المسئولون، لأنهم عاندوا الحق عن تصميم و ارادة .. و تقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٥٣.

و تجدر الإشارة إلى أن هذه الآية تدل بوضوح على ان الإسلام لا يقيس الشيء بما هو في ذاته، بل بما هو في نتائجه و

آثاره، فالسمع و البصر منفذان للعقل، و العقل مخطط للعمل، فإذا لم يتحقق العمل يكون وجود الحواس و عدمها سواء ظاهرة كانت أو غير ظاهرة. و بكلمة ليس في الإسلام داخلي و خارجي، و لا براني و جوّاني، فالكل وسيلة إلى منفعة الناس في تدبير معاشهم، و حل مشاكلهم.

قال الإمام علي (ع): يدعي بزعمه انه يرجو اللّه، كذب و العظيم، ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله، فكل من رجا عرف رجاؤه في عمله.

وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها. كشف محمد (ص) عن حقيقة المزيفين من أصحاب الجاه و المال، فاضطربوا و أحسوا بالخطر على مصالحهم، فلجئوا إلى الأكذوبة الكبرى، و قالوا عن آيات اللّه: أساطير الأولين، و هم على يقين ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، و لكنهم كانوا يلتمسون أوجه الشبهات و المغالطات،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٧

ليصرفوا الناس عن أضاليلهم و أباطيلهم، تماما كما يفعل اليوم أرباب الأنظمة الفاسدة، و القوانين الجائرة.

وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ. ضميرهم يعود إلى الذين عاندوا الحق حرصا على مصالحهم، و ضمير عنه يعود إلى النبي (ص) .. نهى المزيفون عن اتباع محمد (ص) و أعرضوا عنه، بل حاولوا إثارة النقمة عليه، و جمعوا الجيوش لحربه، لا لشيء إلا لأنه كشف عن أسوائهم و وبائهم. **وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ**. أرادوا الكيد للإسلام و نبيه، فدارت دائرة السوء على رؤوسهم، حيث هلك بعضهم يوم بدر، و استسلم آخرون أذلاء صاغرين يوم الفتح .. و هذا مصير كل من لج و تمادى في الغي و العناد.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٧ الى ٣٣]

وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٢٨) وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (٣١)

وَ ما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٣٢)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٨

اللغة:

وقفوا على النار الفعل مبني للمجهول، و المراد به هنا العرض، أي عرضوا على النار، و قيل: يجوز أوقف، و لكنه نادر. و الساعة الزمن القصير، و المراد بها هنا يوم القيامة لسرعة الحساب فيه. و بغتة فجأة. و الحسرة الندامة. و التفريط التقصير. و الوزر لغة الحمل الثقيل: و دينا الإثم و الذنب.

الاعراب:

و لو ترى جواب لو محذوف، تقديره لشاهدت أمرا عظيما. و لا نكذب منصوب بأن مضمرة بعد الواو، و مثله و نكون، و المصدر المنسبك معطوف على مصدر متصيد من نرد، و التقدير يا ليت لنا الرد و عدم التكذيب و كوننا من المؤمنين. ان

هي إلا حياتنا الدنيا ان نافية، و هي مبتدأ، و حياتنا خبر، و الدنيا صفة للحياة، لأنها بمعنى الأولى أو الدنيّة أو القريبة. و بغتة مصدر في موضع الحال من الساعة، أي باغتة. و ساء فعل ذم و الفاعل مستتر، و ما تمييز بمعنى شيء، و المخصوص بالذم محذوف، و التقدير ساء الشيء شيئا و زرهم.

المعنى:

وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ. عاد سبحانه إلى الحديث عن أحوال المكذبين يوم القيامة، و انهم حين يرون ما أعد لهم من العذاب، و ما أعد للمؤمنين من الثواب يقولون: **يا لَيْتَنا نُرَدُّ** إلى الدنيا **وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**. أي نتوب و نعمل صالحا .. و لكن الحسرات و العبرات لا تغني شيئا إلا إذا كانت خوفا من اللّه و عذابه قبل أن يقع، أما بعد الوقوع فهي بكاء على الأموات و لهفة على ما فات.

بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ. لا ينجو غدا من عذاب اللّه إلا من كان واضحا صريحا في هذه الحياة، تنسجم أقواله مع أفعاله، و هما معا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٧٩

انعكاس عن ذاته و واقعه، حتى كأن الجميع شيء واحد عند اللّه و الناس، أما الغامض المبهم الذي يعرف الخالق منه ما لا يعرفه المخلوق من الرياء و النفاق، أما هذا فسوف يبدو له جزاء ريائه و نفاقه، و تذهب نفسه حسرات على إساءته، و يتمنى الخلاص بالرد إلى الدنيا، و لكن هيهات. **وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ** في قولهم: يا ليتنا نرد و لا نكذب بآيات ربنا و نكون من المؤمنين .. و لقد قرأنا عن عشرات المجرمين انهم تابوا و هم في غياهب السجن، حتى إذا خرجوا عادوا إلى اجرامهم. و آثامهم، وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً- ٦٦ الإسراء.

وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. أي لو ردوا الى حياتهم الأولى لقالوا ما قالوه من قبل: لا بعث و لا حساب و لا جزاء.

و تسأل: كيف ينكرون، و قد شاهدوا الهول الأكبر، و عرضوا عليه، و توسلوا للخلاص منه، و قطعوا عهدا على أنفسهم ان لا يعودوا الى ما كانوا عليه.

الجواب: انهم يعرفون جيدا ان الحساب و العذاب واقع لا محالة، و لكنهم يعرفون أيضا أنهم لو أعلنوا الحق و خضعوا له لفاتتهم المغانم و المكاسب، قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا- ١٤ النمل.

وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ بعد أن كذبوا بلقائه **قالَ أَ لَيْسَ هٰذا بِالْحَقِّ**؟. قلنا في تفسير الآية الرابعة من هذه السورة: ان اللّه يدعو الى الايمان بالحق، مع إقامة الدليل عليه، فإن جحده جاحد لزمته الحجة، و هذه الآية تؤكد ذلك، و تذكر بالدلائل و البينات التي أنكروها و كذبوا بها **قالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنا**. الآن، و قد فات ما فات، و لم يبق إلا الجزاء العادل، و العذاب لمن كفر و أنكر **قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**. هذا جزاء كل من آثر العاجلة على الآجلة، و كتم الحق لهوى في نفسه.

و تسأل: ان قوله تعالى للكافرين: أليس هذا بالحق، و قوله: ذوقوا العذاب لا يتفق مع الآية ١٧٤ من سورة البقرة: وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ؟.

الجواب: المراد ان اللّه لا يكلمهم بما يسرهم، بل بما يسوءهم، كما في

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٠

هذه الآية، و كما في الآية ١٠٩ من المؤمنين: قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللهِ و فاز من آمن به **حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها**. قال الإمام (ع): ثمرة التفريط الندامة، و ثمرة الحزم السلامة **وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ**.

الأوزار الذنوب و الآثام، و حملها على الظهر كناية عن ملازمتها لأصحابها، يقال ركبه الشيطان، أي لا يفارقه، و المعنى ان المكذبين بالحق هم أسوأ الناس حالا في الآخرة، قال بعض المفسرين الجدد:

بل الدواب أحسن حالا، فهي تحمل أوزارا من الأثقال، و لكن هؤلاء يحملون أوزارا من الآثام، و الدواب تحط عنها أوزارها، فتذهب و تستريح، و هؤلاء يذهبون بأوزارهم الى جهنم مشيعين بالتأثيم.

وَ ما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ. تقدم نظيره في الآية ١٨٥ من آل عمران ج ٢ ص ٢٢٤.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٣٣ الى ٣٧]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (٣٥) إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨١

اللغة:

النبأ الخبر ذو الشأن العظيم. و النفق حفرة نافذة لها مدخل و مخرج. و السلّم الدرج مأخوذ من السلامة.

الاعراب:

قد نعلم مضارع بمعنى الماضي، أي قد علمنا. و حتى بمعنى إلى، و ان مضمرة بعدها، و المصدر المنسبك مجرور بها، متعلق بصبروا. و فاعل جاءك محذوف، و التقدير جاءك نبأ من نبأ المرسلين. و جواب **إِنْ كانَ كَبُرَ** فان استطعت. و جواب **فَإِنِ اسْتَطَعْتَ** محذوف أي فافعل. و الموتى الواو للاستئناف و الموتى مبتدأ و خبره جملة يبعثهم. و من ربه متعلق بمحذوف صفة لآية.

المعنى:

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ. الخطاب للنبي (ص)، و قد للتحقيق، و نعلم بمعنى علمنا، و ضمير يقولون راجع إلى الذين كذبوا النبي (ص)، أما الذي يقولون، بل قالوه بالفعل فهو ما أشار اليه سبحانه في الآية ١٤ من الدخان:

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ. و الآية ٢ من يونس: قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ إلى غير ذلك من الآيات.

فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ. كل من حارب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٢

محقا، لأنه على حق فقد حارب الحق بالذات، و كل من استخف برسول، لأنه يحمل رسالة المرسل فقد استخف بمن أرسله، لا بشخص الرسول .. و كان مشركو مكة يسمون محمدا (ص) الصادق الأمين قبل الرسالة، و لما جاءهم برسالة اللّه، و أقام عليهم الحجة تصدوا لحربه، و قالوا: ساحر مجنون .. فتكذيبهم له، و الحال هذه، تكذيب لرسالة اللّه و آياته، و لا شيء أدل على ذلك من قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ- ١٠ الفتح.

وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا. يقول سبحانه لنبيه: ان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك، و أوذوا في سبيل رسالته، فصبروا على الإيذاء، حتى أتاهم النصر، فاصبر أنت كما صبروا، و اللّه ينصرك كما نصرهم ..

هذا هو المحور الذي تدور عليه الحياة، صراع بين الخير و الشر، و الحق و الباطل، و محال أن يناصر الحق مناصر، و لا يلقى الأذى من أعداء الحق ..

و أيضا لا ينتصر الحق إلا إذا وجد أنصارا يصبرون على الجهاد في سبيله، و يدفعون ثمنه من أنفسهم و أهلهم و أموالهم، سنة اللّه، و لن تجد لسنة اللّه تبديلا، و هذا هو معنى قوله تعالى: **وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ**.

و لا أعرف عصرا بلغ فيه المبطلون من القوة كهذا العصر الذي نعيش فيه، فقد أقاموا في كل بقعة قواعد للحرب، و أوكارا للتخريب، و تسلحوا بأشد الأسلحة فتكا، و أكثرها دمارا، و سيطروا على مقدرات الشعوب المستضعفة، و البنوك و المصارف، و الصحف و المطابع، و دور النشر و التوزيع إلا ما ندر، حتى وجد المخلص الأمين نفسه معزولا منبوذا لا يستطيع أن ينشر مقالا حرا، أو يذيع من وسائل الاذاعة كلمة حق، أما الخائن فأين اتجه يجد الترحيب و الإكبار.

وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ. أي لقد قصصنا عليك من قبل ما لاقى الأنبياء من أقوامهم، و كيف صبروا على التكذيب و الأذى، و ان النصر في

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٣

النهاية كان لهم على المكذبين، و هذه السنة تجري عليك، تماما كما جرت عليهم ..

و لا مبدل لكلمات اللّه.

وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ. هذه الآية نظير قوله تعالى مخاطبا نبيه الأكرم:

فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ- ٨ فاطر، كل منهما تصور الحرقة و الألم الذي كان الرسول الأعظم يعانيه من اعراض المشركين عن دعوته، و كل منهما يهدف الى التخفيف و التسرية عنه صلى اللّه عليه و آله ..

لاقى النبي من قومه ما يذهب بحلم الحليم، فصبر و احتسب، و لم يدع عليهم، بل دعا لهم، و قال: اللهم اغفر لقومي، انهم لا يعلمون و مع ذلك كان يتألم و يتوجع لكفرهم، فخاطبه اللّه بهذه الآية ليخفف عنه، و ييأس منهم، و يصرف النظر عنهم، ثم ينتظر قليلا ليرى كيف تكون عاقبة المكذبين.

وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدىٰ. قال الرازي: يدل هذا على انه تعالى لا يريد الايمان من الكافر، بل يريد إبقاءه على الكفر.

و يلاحظ بأن هذا هو الظلم بعينه، و اللّه سبحانه ليس بظلام للعبيد، و الصحيح في معنى هذه الجملة ان اللّه سبحانه لا يريد أن يلجئ أحدا الى الايمان به، بل يدع الخيار له بعد أن يقيم الحجة عليه بالدلائل و البينات، و لو أراد الايمان من

عباده بإرادة كُنْ فَيَكُونُ ما كفر واحد منهم، و لكن شاءت حكمته تعالى أن يتدخل في شئون الناس كآمر و ناصح، لا كخالق و قاهر. و سبق التفصيل و التوضيح عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة، فقرة التكوين و التشريع ح ١ ص ٧٢.

فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ. و كيف يكون الرسول الأعظم من الجاهلين، و أخلاقه أخلاق القرآن؟. و إنما ساغ هذا الخطاب لأشرف الخلق، لأنه من خالق الخلق، لا من النظير و المثيل **إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**. هذه الآية نظير قوله تعالى: إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ- ٨٠ النّمل، و المعنى ان الذين تحرص على هداهم يا محمد لا يسمعون

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٤

منك سماع فهم و تدبر، لأن حب الدنيا جعلهم كالموتى .. و الموتى لا ينبغي أن يخاطبوا بشيء، بل يتركوا و شأنهم إلى يوم القيامة، حيث يرون العذاب الذي لا يجدون عنه مهربا.

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ. و تسأل: كيف قالوا هذا، مع ان اللّه قد أنزل على محمد (ص) العديد من الآيات و البينات؟.

الجواب: ان المراد بالآية هنا المعجزة التي اقترحوها، و جعلوها شرطا لإيمانهم بمحمد (ص)، و لم يريدوا آية تقنع طالب الحق لوجه الحق، و لو أرادوها لكانوا في غنى عن قولهم: لو لا نزل عليه آية **قُلْ إِنَّ اللهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً** من النوع الذي اقترحوه، و لكنه تعالى لا ينزلها تلبية للشهوات و الأهواء، و انما ينزل الآيات على ما تقتضيه حكمته جل و علا **وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ان اللّه ينزل الآية حسب حكمته، لا حسب أهواء الناس.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

وَ ما مِنْ دابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

اللغة:

الدابة كل ما يدب على الأرض من انسان و حيوان و حشرة. و الأمم واحدها أمة، و هي كل جماعة ذات خصائص واحدة، و التفريط التقصير.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٥

الاعراب:

و **ما مِنْ دابَّةٍ مِنْ** زائدة، و **دابَّةٍ** مبتدأ، و الخبر **أُمَمٌ**، و **أَمْثالُكُمْ** صفة لـ**أُمَمٌ**. **مِنْ شَيْءٍ مِنْ** زائدة و **شَيْءٍ** مفعول مطلق لـ **فَرَّطْنا**، لأنها واقعة موقع المصدر، و هو التفريط. و **الَّذِينَ كَذَّبُوا** مبتدأ، و **صُمٌّ** خبر مبتدأ محذوف، و مثله **وَ بُكْمٌ**، و التقدير بعضهم صم، و بعضهم بكم، و الجملة خبر الذين. **فِي الظُّلُماتِ** متعلق بمحذوف خبرا ثانيا.

المعنى:

وَ ما مِنْ دابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ. بيّن سبحانه في هذه الآية ان بيننا و بين الدواب و الطيور نوعا من الشبه، و لكنه لم يصرح بهذا النوع: هل تشبهنا الدواب و الطيور في أنها مخلوقة للّه، أو في إيمانها به، و تسبيحها بحمده، أو في أنها أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، كما تعرف الأسر و القبائل، أو في تدبير معاشها، و

تصريف الأمور وفقا لمصالحها؟

و على أية حال، فقد تفرغ كثير من العلماء لدرس طبائع الحيوانات و الحشرات و الطيور، و غرائزها و أعمالها، و وقفوا على أسرار غريبة تشهد بوجود مدبر حكيم، نذكر منها على سبيل المثال ان الفيلة تعقد المحاكم للمخالفات التي تقع من بعضها، و تصدر المحكمة حكمها على الفيل المذنب بالنفي عن الجماعة ليعيش وحيدا في عزلته.

و الغراب إذا أحس بالخطر على الغربان أنذرها بصوت خاص، أما في حال المرح فإنه يخرج صوتا قريبا من القهقهة.

و تسأل: ما هي الفائدة في قوله تعالى: **يَطِيرُ بِجَنٰاحَيْهِ** مع ان كلمة طائر بذاتها تدل على ذلك؟

الجواب: لا فائدة- فيما نعلم- سوى فصاحة الكلام.

مٰا فَرَّطْنٰا فِي الْكِتٰابِ مِنْ شَيْءٍ. قيل: المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ المشتمل على ما كان و يكون، و قول ثان: انه كناية عن علم اللّه بنوايا الإنسان

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٦

و أقواله و أفعاله، و ثالث: انه القرآن، و ان اللّه سبحانه بيّن فيه كل ما يجب بيانه للناس من أصول الدين و فروعه، و ما يتعلق بهما، و اخترنا هذا القول في ج ١ ص ٣٨ فقرة القرآن و العلم الحديث.

ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ. ظاهر الكلام يدل على ان اللّه يحشر الدواب و الطيور يوم القيامة، تماما كما يحشر الناس، و كذلك الآية ٥ من التكوير:

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. و قال كثير من العلماء بذلك استنادا الى ظاهر الآيتين، و إلى حديث: «ان اللّه يقتص غدا للجماء من القرناء».

و نحن مع ابن عباس الذي قال: المراد بحشر البهائم موتها، كما ورد في حديث: «من مات فقد قامت قيامته» لأن الحساب و العقاب إنما يكون بعد التكليف، و مخالفته، و لا تكليف إلا مع العقل، و لا عقل للدواب و الطيور فلا تكليف، و بالتالي فلا حشر للحساب، و لو حوسب الدواب لحوسب الأطفال بطريق أولى.

أما حديث «يقتص للجماء» فهو كناية عن عدل اللّه تعالى، و انه لا يغادر كبيرة و لا صغيرة إلا أحصاها .. و إذا كان اللّه يعاقب القرناء إذا نطحت الجماء فبالأولى أن يحرم علينا ذبح الحيوان .. أما قول من قال: ان اللّه يعوض غدا الحيوان عن آلامه فهو قول على اللّه بغير علم.

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمٰاتِ. أي انهم كالصم، لأنهم لا يستمعون إلى دعوة الحق، و هم كالبكم، لأنهم لا ينطقون بما عرفوا من الحق، و هم في ظلمات التقليد، و ظلمات الشرك و الكفر و الفسق و الآثام. **مَنْ يَشَأِ اللّٰهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ**. تقدم الكلام عن الضلال و الهداية عند تفسير الآية ٢٦ من البقرة، فقرة «الهدى و الضلال» ج ١ ص ٧٠، و الآية ٨٨ من النساء فقرة «الإضلال من اللّه سلبي لا إيجابي».

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٠ الى ٤٥]

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُ اللّٰهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السّٰاعَةُ أَ غَيْرَ اللّٰهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيّٰاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مٰا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شٰاءَ وَ تَنْسَوْنَ مٰا تُشْرِكُونَ (٤١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنٰاهُمْ بِالْبَأْسٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْ لٰا إِذْ جٰاءَهُمْ بَأْسُنٰا تَضَرَّعُوا وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ أَبْوٰابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّٰى إِذٰا فَرِحُوا بِمٰا أُوتُوا أَخَذْنٰاهُمْ بَغْتَةً فَإِذٰا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٥)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٧

اللغة:

البأساء من البؤس، و هو المشقة. و البأس الشدة، و المراد به هنا العذاب.

و الضراء من الضر ضد النفع. و مبلسون جمع مبلس، و هو المتحسر الآيس.

و دابر القوم آخرهم.

الإعراب:

أ رأيتكم الصيغة للاستفهام، و المعنى اخبروني، و الكاف حرف خطاب لا محل لها من الإعراب، و مثلها أ رأيتك و أ رأيتكما و أ رأيتكن. و غير مفعول تدعون.

و كذلك إياه. و إذ ظرف منصوب بتضرعوا. و بغتة حال من فاعل أخذناهم على معنى مباغتين، و يجوز من المفعول على معنى مبغوتين. فإذا هم مبلسون إذا للمفاجأة، و هم مبتدأ و مبلسون خبر.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٨

المعنى:

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. أمر اللّه سبحانه رسوله الكريم أن يقول للمشركين: اخبروني ان أتاكم عذاب اللّه كالذي نزل بالذين كذبوا رسلهم، أو جاءكم الموت بسكراته و القيامة بأهوالها، أ تدعون في هذه الحال ما كنتم تعبدون من الأصنام و الأوثان التي زعمتم انها تكشف عنكم الخزي و العذاب؟ و القصد من مجموع هذه الآية ان الكافرين يتبرءون غدا مما أشركوا، و يلجئون إلى اللّه بعد أن يتبين لهم انه لا حول و لا قوة إلا به وحده لا شريك له.

اللّه و الفطرة:

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ. بعد أن سألهم: أغير اللّه تدعون يوم الهول الأكبر قرر الجواب بقوله: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ و هذا هو الجواب الذي تؤمن به و تجيب دنيا و آخرة فطرة اللّه التي فطر الناس عليها .. و ليس معنى فطرة اللّه ان الإنسان يدرك الخالق تلقائيا و من غير دليل. كلا، و إلا لم يكفر أحد باللّه، و إنما معنى هذه الفطرة ان اللّه أودع في الإنسان غريزة الاستعداد لتفهم الدلائل الدالة على وجوده، و هذا الاستعداد لا يفارق الإنسان بحال، و من كفر فإنما يكفر مقصرا و متهاونا بالاعراض عن النظر في الدلائل و البينات، فاستحق العذاب لهذا الإهمال، إذ لا فرق أبدا في نظر العقل بين من ترك العمل بعلمه متعمدا، و بين من ترك الحق و اتبع الباطل جهلا بهما، مع قدرته على معرفتهما و التمييز بين الهدى و الضلال، و لكنه ترك تهاونا و استخفافا. أجل قد يحتجب هذا الاستعداد، و هذا الإدراك الفطري وراء ستار من التقليد و التربية و الشهوات، تماما كما تحتجب الشمس وراء السحاب، فيخيّل للجاهل المحجوب انه كافر باللّه لعدم الدليل، و الدليل كامن في ذاته و فطرته التي فطره اللّه عليها. و يوم القيامة تزول الحجب الطارئة، و تظهر الحقيقة واضحة للعيان، و لا يبقى مجال للشك و الإنكار.

فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ. ضمير اليه يعود الى الكشف، و هو

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٨٩

مصدر متصيد من يكشف، و المعنى انهم يدعون اللّه الى كشف العذاب عنهم:

اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ- ١٢ الدخان، و اللّه سبحانه يكشف عنهم ان شاء، و ان لم يشأ لم يكشف وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ أي انكم أيها المشركون تتركون يوم القيامة دعوة الأصنام التي كنتم تعبدونها في الدنيا، و تدعون اللّه وحده، حيث يظهر كل شيء على حقيقته.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ.

ان اللّه سبحانه لا يعاقب عباده إلا بعد أن يرسل اليهم رسولا يرشدهم الى طريق الهداية، فإن لم يهتدوا منحهم الفرصة ليراجعوا أنفسهم، و امتحنهم بالبلاء ليتضرعوا و يتوبوا، و لكنهم أصروا على المعصية، كما قال تعالى في الآية التالية:

فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. يقول جل ثناؤه: انهم لم يتضرعوا حين جاءهم بأسنا في الدنيا، و لم يتذللوا للّه، و ينزلوا عن عنادهم، بل أصروا على الكفر، و كان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من ضلال و فساد.

و تدل هذه الآية على ان اللّه سبحانه يقبل كل من لجأ اليه، حتى و لو كان التجاؤه لضغط الشدائد و النوازل .. و هذا هو شأن الكريم و العظيم، لا يرد سائلا و لا يخيب أملا، مهما كانت دوافعه.

فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ. أنذرهم أولا بالقول على لسان الأنبياء و ثانيا بالفعل، حيث امتحنهم بالبلاء و الضراء، و لما أصروا على الكفر و العناد فتح عليهم أبواب الرزق و الرخاء لالقاء الحجة و الاستدراج بالنعم بعد الامتحان بالنقم، و لما فرحوا بالرخاء، و ازدادوا بطرا و كبرا، و لم يأوبوا إلى رشد أخذهم اللّه بالعذاب، من حيث لا يحتسبون، فتحسروا على التفريط، و آيسوا من النجاة.

و الخلاصة ان اللّه سبحانه عاملهم بالضراء تارة، و بالسراء أخرى حبا بهدايتهم تماما كما يفعل الوالد الشفوق بولده طلبا لصلاحه .. و لكنهم لم يشكروا الرخاء، و لم يتعظوا بالبلاء، فاستأصلهم عن آخرهم، و لم يبق منهم واحدا، ليعتبر بهم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٠

من يأتي من بعدهم فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على انعامه على المؤمنين، و نصرهم على أهل الكفر و الفساد.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٦ الى ٤٩]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)

اللغة:

نصرّف الآيات نكررها على وجوه مختلفة. و يصدفون يعرضون.

الاعراب:

من مبتدأ، و إله خبر، و غير اللّه صفة لإله، و جملة يأتيكم صفة ثانية.

و الضمير في به يعود إلى معنى المأخوذ، و هو السمع و البصر. و كيف حال من ضمير نصرّف. و بغتة حال من ضمير أتاكم. و مبشرين و منذرين حال من المرسلين. و بما كانوا ما مصدرية و المصدر المنسبك مجرور بالباء متعلق بيمسهم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩١

المعنى:

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ. الإنسان بسمعه و بصره و قلبه، فلو زالت هذه عنه لم يكن شيئا مذكورا، و كان الحيوان خيرا منه .. و ليس من شك ان اللّه قادر على أخذها لأنه خالقها، و القصد من هذه الإشارة أن يذكر سبحانه الكافرين ان ما يتخذون من دونه آلهة و أولياء لا يدفعون عنهم ضرا، و لا يجلبون لهم نفعا: وَ إِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ- ١٢ الرعد.

انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ. أي أقمنا عليهم الحجة تلو الحجة بأساليب شتى، ليتعظوا و يعتبروا، و قطعنا لهم كل معذرة ليذعنوا و يؤمنوا، فما زادتهم الدلائل القاطعة إلا تماديا في الكفر و الغي و العناد.

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ.

مرة ثانية يعظهم اللّه و يهددهم بإتيان العذاب الذي لا يستطيعون له دفعا، سواء أجاءهم بغتة و من حيث لا يحتسبون، أو جهرة من حيث هم متأهبون له، مرة ثانية في هذه الآيات يعظهم اللّه و يهددهم ليتقوا العذاب قبل وقوعه، و يثوبوا إلى رشدهم، و لكن قست القلوب، فلم تمل لحق و لا هداية.

وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ. هذه هي وظيفة الرسول، يبشر الطائع، و ينذر العاصي، و هذه الوظيفة على بساطة تحديدها، و وضوح مفهومها هي من أشق الوظائف، و أكثرها صعوبة، لأنها تمس حياة الطغاة مباشرة، و تعارضهم في مصالحهم و منافعهم. و تنتهي وظيفة الرسول بثواب من آمن و عمل صالحا، و عقاب من كفر و كذّب بآيات اللّه **فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ.** لأن المجرم هو الذي يخاف و يحزن، أما البريء فهو في أمان و اطمئنان. **وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ.**

الفسق أعم من الكفر، فكل كافر فاسق، و لا عكس، و المراد بالفسق هنا الكفر بدليل قوله تعالى: **كَذَّبُوا بِآياتِنا.**

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٠ الى ٥٥]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللهُ

عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشّاكِرِينَ (٥٣) وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)

وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)

اللغة:

الغداة و الغدوة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. و العشي من المغرب إلى العشاء. و فتنا ابتلينا. و السلام من أسماء اللّه تعالى، و سلام عليكم تحية بالدعاء لمن تحييه أن يسلم من كل سوء، و يأمن من كل أذى. و الجهالة السفه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٣

الإعراب:

جملة يريدون حال من الواو في يدعون. و من شيء من زائدة، و شيء مبتدأ، و عليك خبر، و من حسابهم حال من شيء، و مثله: و ما من حسابك عليهم من شيء. و فتطردهم منصوب بأن مضمرة لأنه جواب للنفي، و هو ما عليك. و فتكون مثله لأنه جواب للنهي، و هو لا تطرد. سلام عليكم مبتدأ و خبر، و الجملة مفعول القول. و المصدر المنسبك من انه من عمل بدل من الرحمة، أي كتب انه من عمل. و كذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمصدر محذوف، أي نفصل الآيات تفصيلا مثل ذلك.

المعنى:

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ. طلب المشركون من النبي (ص) أن يخبرهم بالغيب و يفجر الينابيع، و يأتي بالملائكة، و يرقى إلى السماء، و يسقطها عليهم، و ما إلى ذلك مما لا يمت إلى موضوع الرسالة بصلة، فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية، و أمره النبي أن يقول لهم: انه ليس بإله، و لا ملك، و إنما هو بشر يوحى اليه و كفى.

و بتعبير ثان ان للإله صفات تخصه، و منها انه قادر على كل شيء، عالم بكل شيء، و أيضا للملك صفات تخصه، و منها انه يرقى إلى السماء، و لا يأكل الطعام، و لا يمشي في الأسواق، أما الرسول فهو بشر كسائر الناس، و إنما يمتاز عنهم بنزول الوحي عليه من ربه، مبشرا من استجاب له بحسن الثواب، و منذرا من أعرض بسوء العقاب، و ليس من موضوع الرسالة و اختصاصها أن يتنبأ بالغيب، و يأتي بالخوارق، فالخلط بين صفات اللّه و صفات ملائكته و رسله جهل و عمى.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ. أي فرق بعيد بين الجاهل الضال الذي لا يفرق بين صفات اللّه و صفات الرسول، و بين من يعرف ان الرسول بشر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٤

يجري عليه ما يجري على غيره من الناس إلا انه يوحى اليه **أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ** في ان الرسول ليس إلها و لا ملكا، و انه بشير و نذير، فتنتصفوا من أنفسكم، و تؤمنوا بلا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه؟.

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ. الضمير في يعود إلى القرآن الذي تقدمت اليه الإشارة في قوله تعالى: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ**.

و اختلف المفسرون في المراد من قوله: **الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ**:

هل هم المؤمنون، أو الكافرون بالنظر إلى أن بعضهم كان يتأثر من تخويف النبي و إنذاره، كما جاء في تفسير الرازي.

و في رأينا ان النبي (ص) بعد أن أنذر الناس بما تقوم به الحجة عليهم أمره اللّه سبحانه في هذه الآية أن يستمر و يتابع إنذار المؤمنين بالقرآن ليزدادوا إيمانا و علما بالدين و أحكامه، و أيضا أن ينذر به غير المؤمنين ممن ترجى هدايته بمتابعة الانذار و تكراره.

لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. أي حين تنذرهم يا محمد يستمعون اليك، و ينتفعون بانذارك لهم، و يدركون انه لا ولي ينصرهم من دون اللّه، و لا شفيع يشفع عنده إلا باذنه.

وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ. الغداة و العشي كناية عن مداومة ذكرهم للّه و عبادتهم له، كما تقول: الحمد للّه بكرة و أصيلا، و وجه اللّه كناية عن اللّه، لأنه تعالى ليس كمثله شيء، و ضمير حسابهم و عليهم و تطردهم يعود الى المؤمنين الذين يدعون ربهم، و معنى ما عليك من حسابهم ان حسابهم و حساب غيرهم لا يدخل في موضوع النبوة، و لا هو من شئونها، و انما حسابهم على اللّه وحده، تماما كحسابك أنت يا محمد، لا فرق بينك و بينهم من هذه الحيثية.

ان المسلم يؤمن إيمانا قاطعا بأن محمدا (ص) أشرف الخلق على الإطلاق، و في الوقت نفسه يؤمن بأن عظمة محمد لا تخول له أن يحاسب أحدا، أو يعاقبه أو يثيبه، ان الحساب و الجزاء للّه و من اللّه وحده لا شريك له، و بهذه الفضيلة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٥

امتاز الإسلام عن جميع الأديان، بنفي السبيل للإنسان على انسان كائنا من كان و بها نعتز نحن المسلمين و نفاخر الاشتراكيين و الشيوعيين و القوميين و الديمقراطيين، و جميع أهل الأديان و المذاهب.

و ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان المترفين من قريش مروا برسول اللّه (ص)، و عنده عمار بن ياسر و خباب و بلال و غيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ أ لهؤلاء نكون تبعا، فنحّهم عنك، حتى نخلوا بك، ثم إذا انصرفنا فأعدهم إلى مجلسك ان شئت .. و قيل ان النبي (ص) أراد أن يجيبهم إلى ما طلبوا فنزلت الآية.

و ظاهر اللفظ لا يأبى ذلك، بخاصة قوله: **(فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)** لهم حيث انهم أولى بمجلسك و الاستفادة منك، و بتعبير ثان ان النبي أراد أن يقرب الأغنياء ليستفيدوا منه، فقال له الجليل: الفقراء أولى بالاستفادة، فإن تركت هذا الأولى ظلمت الفقراء المؤمنين من حيث الاستفادة.

و تسأل: الا يتنافى ترك الأولى و الأرجح مع العصمة؟.

الجواب: ان ترك الأولى جائز، و ليس محرما، حتى يتنافى مع العصمة ..

هذا، إلى أن النبي لم يحاول طرد الفقراء استنكافا من فقرهم، بل حرصا و طمعا في اسلام الرؤوس، فنبه سبحانه النبي الى أن الإسلام غني عن هؤلاء المتكبرين الطغاة، و ان لهم يوما يستسلمون فيه أذلاء صاغرين، كما حدث بالفعل.

(وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا). معنى الفتنة هنا الاختبار، و اختبار اللّه لعبده أن يظهره للملإ على حقيقته عن طريق أفعاله و أعماله، كما بينا ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٩٤ من سورة المائدة، فقرة: معنى الاختبار من اللّه. و اللام في ليقولوا للعاقبة، أي اختبرنا الأغنياء بالفقراء، ليشكروا اللّه على نعمته عليهم، فآل أمرهم الى التكبر و الاستعلاء، قال الإمام علي (ع):

«لا تعتبروا الرضا و السخط بالمال و الولد جهلا بمواقع الفتنة و الاختبار في مواضع الغنى و الاقتدار، و قد قال سبحانه: أ

يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ- ٥٦ المؤمنون. فان اللّه سبحانه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٦

يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم. و لقد دخل موسى بن عمران و معه أخوه هارون (ع) على فرعون، و عليهما مدارع الصوف، و بأيديهما العصي، فشرطا إن أسلم بقاء ملكه و دوام عزه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز و بقاء الملك، و هما بما ترون من حال الفقر و الذل؟. فهلا القي عليهما اسارة من ذهب؟.- إلى قوله-: و لكن اللّه سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، و ضعفة فيما ترى الأعين من حالهم.

السلام عليكم و رحمة اللّه:

وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

قال رسول اللّه (ص): أدبني ربي فأحسن تأديبي. و أي أدب كأدب خالق السموات و الأرض؟. و أية نفس ينمو و يثمر فيها الأدب الإلهي كنفس محمد؟.

لقد أدب سبحانه هذه النفس الطيبة الزاكية، ليؤهلها لرسالته، رسالة الرحمة للعالمين التي بها و بصاحبها تمت مكارم الأخلاق .. أدّب اللّه محمدا في العديد من آياته، و منها هذه الآية، و هي تعلّم رسول اللّه و خير خلق اللّه كيف يسلك و يعامل الضعفاء و المساكين .. فكان يلقاهم بالبشاشة و الترحاب، و يقول: سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة، و يحبس نفسه معهم، ما داموا في مجلسه، حتى يكونوا هم الذين ينصرفون.

و إذا كان النبي مقصود اللّه بهذا التأديب فنحن مقصودون بالتأسي و الاقتداء به، فلا نكرم أحدا لمال أو جاه أو جنس و لون، و إنما نكرم و نحترم للدين و الخلق الكريم، قال بعض المفسرين الجدد: كانت الحياة البشرية قبل محمد (ص) في الحضيض، فرفعها محمد إلى القمة، و تراجعت الآن عن القمة السامقة، و انحدرت في نيويورك و واشنطن و شيكاغو، حيث العصبيات النتنة، عصبيات الجنس و اللون.

أجل، لا جنس و لا لون، و لا جاه و لا ثراء، لا فضل في الإسلام إلا بالتقوى، و في هذا المبدأ الإسلامي الإلهي يكمن السر لتواضع المراجع الكبار من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٧

علماء المسلمين .. يصل اليهم الصغير و الكبير على السواء، دون بواب و حجاب، و يخاطبهم على سجيته بما شاء، و دون تكلف و تحفظ .. أما البابا و من اليه من رؤساء الأديان فلا يحلم بمجالسته و مخاطبته إلا وزير و كبير، على أن يحدّد له من قبل وقت المقابلة و أمدها.

و عودا إلى قوله تعالى: **وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.**

السلام عليكم و رحمة اللّه، هذه هي تحية الإسلام، دعاء بالنجاة لمن تحييه من كل سوء، و العيش بأمان و اطمئنان، و برحمة اللّه و رضوانه، إذ لا نجاة و لا أمان مع غضبه جل وعلا، أما إذا عطفت بركات اللّه على رحمته فقد دعوت لصاحبك بالرزق الواسع، و العطاء الجزيل .. و أين مرحبا و صباح الخير و نهارك سعيد من هذه التحية الإلهية الإسلامية؟!.

و سبق قوله تعالى: كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ في الآية ١٢ من هذه السورة، و قلنا في تفسيرها: ان رحمته تعالى لا تنفك عن ذاته القدسية، تماما كقدرته و علمه.

أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

المراد بالجهالة هنا السفاهة، أما التوبة فقد عقدنا لها فصلا خاصا بعنوان التوبة و الفطرة عند تفسير الآية ١٨ من سورة النساء **فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** هذا هو الرب الذي نعبده، يغفر لمن أناب، و يرحم العباد، و كل من رحم الناس و عمل لصالحهم فقد عبد اللّه في عمله، و ان جحده بلسانه، و كل من اعتدى على حق من حقوقهم فقد كفر باللّه- عمليا- و إن هلل و كبّر.

وَ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ. ذكر سبحانه في كتابه صفات الصالحين، و أيضا ذكر صفات المجرمين، ليظهر كل فئة بسماتها ..

هذا، إلى أن معرفة إحدى الفئتين تستدعي معرفة الأخرى، تماما كالهداية و الضلالة.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لاٰ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مٰا عِنْدِي مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفٰاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ اللهُ أَعْلَمُ بِالظّٰالِمِينَ (٥٨)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٨

اللغة:

القصص تتبع الأثر، أو ذكر الخبر، و هذا المعنى هو المراد هنا. و الفصل القضاء و الحكم.

الاعراب:

إذا، معناها الجزاء، أي ان اتبعت أهواءكم فقد ضللت. و ضمير به يعود إلى ربي. و كذبتم به يجوز أن تكون الواو للاستئناف، و يجوز للحال على إضمار قد قبل كذبتم، لأن المقرون بالواو لا يكون حالا إلا مع قد ظاهرة أو مضمرة.

المعنى:

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. في الآية السابقة أشار سبحانه إلى سبيل المجرمين، و في هذه بيّن هذا السبيل، و انه عبادة غير اللّه **قُلْ لاٰ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ.** لأن دعوتهم لا مصدر لها إلا الهوى و الضلال، فكيف يتبعها الرسول الأعظم؟. **قُلْ إِنِّي عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ.** أي اني أعبد اللّه عن علم، و أنتم كفرتم به، و عبدتم الأصنام عن جهل، و في أي منطق يكون العالم تابعا للجاهل، و المبطل قائدا للمحق.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ١٩٩

مٰا عِنْدِي مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ. لما دعاهم رسول اللّه إلى الايمان قالوا له:

فَأَمْطِرْ عَلَيْنٰا حِجٰارَةً مِنَ السَّمٰاءِ أَوِ ائْتِنٰا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ فأمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: **مٰا عِنْدِي مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ** بل هو عند اللّه ينزله في الوقت الذي يريد، و لا قدرة لي على تقديمه أو تأخيره **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** في تنزيل العذاب و تقديمه و تأخيره، و في كل شيء **يَقُصُّ الْحَقَّ** أي يقول الحق **وَ هُوَ خَيْرُ الْفٰاصِلِينَ** لا يظلم أحدا في فصله و قضائه.

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من العذاب **لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ** باهلاك من ظلم منكم غضبا للّه تعالى **وَ اللهُ أَعْلَمُ بِالظّٰالِمِينَ** يعجل أو يؤجل العذاب على ما تقتضيه حكمته.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٩ الى ٦٢]

وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (٦٢)

اللغة:

مفاتح جمع مفتح بفتح الميم، و هو المخزن، و بكسرها المفتاح الذي تفتح

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٠

به الأقفال، و مفاتيح جمع مفتاح. و جرحتم أي كسبتم من جوارح الإنسان، و هي أعضاؤه التي يكسب بها الأعمال. و الأجل المسمى الأمد المعلوم. و المراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون على الإنسان أعماله.

الاعراب:

جملة لا يعلمها إلا هو حال من مفاتح. و من ورقة من زائدة و ورقة فاعل تسقط. إلا في كتاب مبين لا يجوز أن يكون استثناء من و ما تسقط من ورقة إلا يعلمها، إذ يصير المعنى انه تعالى يعلم كل شيء إلا الموجود في كتاب مبين فإنه لا يعلمه، تماما كما تقول: لا شيء إلا أنا عالم به إلا ما في الصندوق، و عليه يتعين ان يتعلق في كتاب مبين بخبر محذوف لمبتدأ محذوف، تقديره إلا هو موجود في كتاب مبين. بالنهار الباء بمعنى في. و مولاهم صفة للّه. و الحق صفة ثانية.

المعنى:

وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ. مفاتح الغيب خزائنه، و المعنى ان اللّه يعلم الكون و ما حدث و يحدث فيه كليا كان أو جزئيا، ماديا كان أو معنويا، و لا يتقيد علمه تعالى بزمان أو مكان أو بحال دون حال، لأن علمه. ذاتي لا كسبي، و ليس لذاته زمان و مكان، و لا هي تتغير بتغير الأحداث و الأحوال. و في الحديث: ان مفاتح الغيب خمس: إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ- ٣٤ لقمان.

و قال الفيلسوف الملا صدرا: إن جميع الأشياء الكلية و الجزئية فائضة عنه، و هو مبدأ لكل موجود عقليا كان أو حسيا، ذهنيا كان أو عينيا، و فيضانها عنه لا ينفك عن انكشافها لديه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠١

و قال العلامة الحلي المتكلم: كل موجود سوى اللّه فهو ممكن مستند اليه، فيكون عالما به، سواء أ كان جزئيا أم كليا، و سواء أ كان موجودا قائما بذاته أم عرضا قائما بغيره، و سواء أ كان في الأعيان أم في الأذهان، لأن وجود الصورة في الذهن من الممكنات أيضا، فيستند اليه، و سواء أ كانت الصورة الذهنية صورة أمر وجودي، أم عدمي ممكن أم ممتنع، فلا يعزب عن علمه شيء من الممكنات و لا من الممتنعات.

وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ. الوفاة و الموت بمعنى واحد في مفهوم العرف، و هو عدم الحياة، و تستعمل كل من

الكلمتين في النوم مجازا، لأن الحواس تتعطل عن أعمالها بسببه، و منه قوله تعالى: اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى- ٤٢ الزمر، أي ان اللّه يقطع صلة الأرواح بالأبدان ظاهرا و واقعا حين الموت، و يمسكها عنده، و يقطع هذه الصلة ظاهرا لا واقعا حين النوم، و عند اليقظة ترجع الصلة كما كانت و تبقى إلى الوقت المضروب للموت الحقيقي .. فالنائم ميت وحي في آن واحد، و المراد بالوفاة في الآية الموت المجازي، قال الإمام علي (ع): تخرج الروح عند النوم، و يبقى شعاعها في الجسد، و بذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح بأسرع من لحظة.

وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ. يريد ما كسبت جوارحكم من أعمال **ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ**. ضمير فيه يعود إلى النهار، و معنى يبعثكم يوقظكم من النوم.

و قال المفسرون: إن هذا الكلام دليل على صحة البعث و القيامة، لأن النوم يشبه الموت، و اليقظة تشبه الحياة بعده. **ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** من خير و شر في ليلكم و نهاركم.

و الخلاصة ان كل إنسان يموت بانتهاء أجله المكتوب، ثم يبعثه اللّه بعد الموت، تماما كما يوقظه من النوم، ثم يجزي يوم البعث كل نفس بما كسبت، و هم لا يظلمون.

و إذا قال قائل: لما ذا خصت الآية النوم بالليل، و العمل بالنهار، مع ان الإنسان قد ينام نهارا، و يعمل ليلا؟ قلنا له: إن الآية وردت مورد الغالب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٢

وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ. و كفاهم قهرا ان يأتوا إلى هذه الحياة مسيرين و يتركوها مكرهين .. قال الإمام علي (ع): لا شيء إلا الواحد القهار الذي اليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، و بغير امتناع منها كان فناؤها.

وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً. و هؤلاء الحفظة من الملائكة، قال تعالى: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ- ١٣ الانفطار. و نحن نؤمن بذلك، لأن الوحي أخبر عنه، و العقل لا يأباه، و لم يرد في كلام اللّه، و لا في كلام الرسول بيان لصفة الكاتب و الكتابة، و العقل لا يلزم بالبحث و السؤال عنهما، فندعهما لعلم اللّه تعالى. أما من شبّه الملائكة الكاتبين برجال البوليس السري، كما في تفسير المنار و المراغي، أما هذا التشبيه فهو من قياس الغيب على الشهادة، و السماء على الأرض، مع وجود الفارق البعيد.

حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ. و تجد تفسيره في قوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ- ١١ السجدة، و هذا أيضا من الغيب الجائز عقلا، الثابت وحيا، تماما كالحفظة الكاتبين.

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ليقضي فيهم بحكمه **أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ** يحاسب و يحكم و ينفذ في أقصر أمد، لأن الحق جلي، و الحكم مبرم، و الجزاء معد، و كل شيء يتم بمجرد الارادة.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٣ الى ٦٧]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٣

اللغة:

المراد بالظلمات هنا الشدائد و الأهوال، يقال لليوم الذي فيه شدة يوم مظلم.

و لبس عليه الأمر إذا لم يبينه، و خلط بعضه ببعض. و الشيع الفرق، و كل فرقة شيعة على حدة. و الفقه فهم الشيء بدليله. و المستقر مكان استقرار الشيء أو زمانه.

الاعراب:

جملة تدعونه حال من مفعول ينجيكم. و تضرعا مصدر في موضع الحال، أي متضرعين. و من فوقكم متعلق بمحذوف صفة لعذاب. و شيعا حال من مفعول يلبسكم. و كيف مفعول نصرف. و بوكيل الباء زائدة، و وكيل خبر ليس، و عليكم متعلق بوكيل. و لكل خبر مقدم، و مستقر مبتدأ مؤخر.

المعنى:

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً. ظلمات البر و البحر كناية عما يلاقيه الإنسان من الشدائد و الآلام في حله و ترحاله برا و بحرا، و نعطف عليهما جوا بعد أن صرنا في عصر الفضاء، و هو أكثر خطرا من البر و البحر، و المعنى: سل أيها الرسول المشركين و الجاحدين، سلهم: لمن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٤

يلجئون في ساعة العسرة، و يتضرعون في سرهم و علانيتهم، هل يلجئون الى اللّه، أو إلى من يعبدون من دونه؟.

و قلنا عند تفسير الآية ٤١ من هذه السورة: ان الفطرة تدرك خالقها تلقائيا، و لكن حجاب التقليد و الأهواء يمنع شعاعها عن العيان، و عند الشدائد يتقشع هذا الحجاب، و ينطق الإنسان بفطرته النقية الصافية. و لا أحد ينجو من هذه الشدائد كائنا من كان، حتى المعافى يخشى الغوائل، و يخاف من سوء العاقبة إذا كان عاقلا، قال الإمام علي (ع): ما المبتلى الذي اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء.

لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. أي انهم يخلصون للّه وحده عند الشدة و الخوف، و يقطعون العهود على أنفسهم أن يوحدوا اللّه و يشكروه إذا أنجاهم من ظلمات البر و البحر، فإذا انتقلوا إلى الأمن و الرفاهية أشركوا و بغوا، و قد أثبت العلم ان ضعف الشخصية و الارادة يتكيف مع الظروف، تماما كالماء يتلون بلون الإناء.

قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ فكان عليكم أن تعظموا نعمة اللّه و تشكروها **ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ** و لكنكم بعد أن أنعم عليكم بالنجاة بدلتم نعمة اللّه كفرا و شركا.

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ كالصواعق و الطوفان **أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** كالخسوف و الزلازل **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً** أي يخلطكم أو يجعلكم أحزابا متطاحنة لا تقوم لكم معها قائمة، أو يجعل الواحد منكم في حرب و خصام مع نفسه يرضى مساء عما غضب عليه صباحا، و بالعكس، فتضطرب حاله، و لا يستقيم له أمر **وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**. أي يقتل بعضكم بعضا **انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**. ان اللّه سبحانه يقيم للناس الحجج و الدلائل الواضحة على الحق من الحس و العقل و الوجدان، و يضرب الأمثال من هذه بشتى الأساليب، ليعرفوا الحق فيتبعوه، و الباطل فيجتنبوه، و من خالف قامت عليه الحجة، و استحق العذاب.

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ. الخطاب للنبي (ص)، و ضمير به يعود

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٥

إلى القرآن الناطق بالدلائل و البينات، و بعذاب من كذّب بها **(قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)**. بل بشير و نذير يبلغ ما أرسل به، و يترك أمر الحساب و العقاب للّه وحده.

(لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ). يجوز أن يكون المستقر موضع استقرار الشيء، أو وقت استقراره، و المعنى ان لكل خبر يخبره اللّه زمانا أو مكانا بقع فيه من غير خلف **(وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ)** أوان وقوعه، و فيه تهديد و وعيد على تكذيب الحق.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٨ الى ٧٠]

وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

اللغة:

خاض في الماء دخل فيه، و خاض في الحديث استرسل في قول الباطل.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٦

و الذكرى تستعمل في التذكر، و هو المراد من **بَعْدَ الذِّكْرى** و تستعمل في التذكير، و هو المراد من **وَ لكِنْ ذِكْرى**. و البسل الحبس و المنع، يقال شجاع باسل، أي يمنع نفسه و يحبسها عن خصمه، و ان تبسل نفس، أي تحبس و ترتهن بما كسبت. و ان تعدل العدل بمعنى الفداء. و الحميم الشديد الحرارة.

الاعراب:

الضمير في غيره يعود إلى معنى الآيات، و هو القرآن. و من شيء من زائدة، و شيء مبتدأ و خبره على الذين، و من حسابهم متعلق بمحذوف حالا من شيء، و التقدير شيء كائنا من حسابهم، و ضمير حسابهم يعود إلى الخائضين الذين دل عليهم يخوضوا، و ذكرى مفعول مطلق، أي ذكروا تذكيرا.

و دينهم مفعول أول لاتخذوا، و لعبا مفعول ثان. و الدنيا صفة الحياة. و تسبك ان و تبسل بمصدر مفعولا من أجله لذكر به. و ولي اسم ليس، و لها خبرها، و من دون اللّه في موضع الحال من ولي. و كل عدل مفعول مطلق، لأن كلا تعطى ما تضاف اليه. و أولئك الذين أبسلوا مبتدأ و خبر، و جملة لهم شراب حال من الواو في أبسلوا.

المعنى:

وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. مر تفسيره في الآية ١٣٩ من سورة النساء.

وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. الخطاب للنبي ظاهرا، و المقصود غيره واقعا، لأن النبي معصوم عن المعصية و الخطأ و النسيان، و الا لم يكن قوله و فعله و تقريره حجة بالغة، و دليلا قاطعا، لا يقبل الجدال و النقاش.

وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٧

أي ليس على المؤمنين المتقين شيء من تبعة الكافرين الذين يخوضون في آيات اللّه و لكن يذكّرونهم و ينهونهم لعلهم يجتنبون الخوض في آياته تعالى.

أما الآية التالية ففيها أمور:

١- وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا و ذر الأمر موجه ظاهرا للنبي، و واقعا له و لمن تبعه من المؤمنين، أمرهم اللّه سبحانه أن يتركوا معاشرة الذين اتخذوا دينهم لعبا و لهوا، و لم يأمرهم بإهمالهم و عدم إنذارهم، لأن قوله تعالى: وَ ذَكِّرْ بِهِ أمر بالإنذار.

و كل من انتسب الى دين من الأديان، و لم يحترم و يقدس جميع مبادئه و أحكامه فقد اتخذ دينه لعبا و لهوا، فمن تكسّب بالدين، أو وصف حكما من أحكامه بما يدعو إلى الهزء و السخرية فهو من المعنيين بقوله تعالى: اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً. و ليس من شك ان من لا يدين بدين خير ممن ينتسب الى دين يهزأ بأحكامه و مبادئه، لأن هذا في واقعه قد اتخذ اللعب و اللهو بالدين دينا له.

٢- وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ. بعد أن أمر سبحانه النبي و المؤمنين أن لا يعاشروا الذين اتخذوا دينهم لعبا، أمرهم أن يذكّروا بالقرآن أولئك الذين يخوضون في آيات اللّه، و يتلاعبون بالدين كيلا يؤخذوا بما كسبت أيديهم من الجرائم و الآثام في يوم لا يجدون فيه فيه ناصرا ينصرهم من دون اللّه، و لا شفيعا يشفع لهم عند اللّه وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها. العدل هنا الفدية، و المعنى انه كما لا يجد الكافر وليا و لا شفيعا يوم القيامة كذلك لا تقبل منه الفدية بالغة ما بلغت، قال الرازي: إذا تصور الإنسان كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يرعد إذا أقدم على معاصي اللّه.

٣- أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ. أولئك اشارة إلى الذين اتخذوا دينهم لعبا، و أبسلوا بما كسبوا، أي صاروا مرتهنين بأعمالهم، أما قوله: لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ فهو بيان للعقاب على كفرهم و عصيانهم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧١ الى ٧٣]

قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا وَ نُرَدُّ عَلىٰ أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدىٰ وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٧١) وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

اللغة:

الأعقاب جمع عقب، و هو مؤخر الرجل، و تقول العرب فيمن عجز بعد قدرة: نكص أو ارتد على عقبيه. و الحيران التائه الذي لا يدري ما يصنع؟.

و الصور في اللغة القرن، و قد ثقب الناس قرون الوعول و غيرها، و جعلوا منها أبواقا ينفخون فيها.

الإعراب:

كالذي الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف، أي نرد ردا مثل رد الذي استهوته. و حيران حال من ضمير استهوته. و له أصحاب مبتدأ و خبر، و الجملة صفة لحيران. و لنسلم اللام بمعنى كي، و ان مضمرة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٠٩

بعدها، و المصدر المنسبك مجرور بها متعلق بأمرنا، و التقدير أمرنا بذلك للإسلام.

و ان أقيموا الصلاة عطف على لنسلم. و يوم يقول يوم منصوب بمعنى **قَوْلُهُ الْحَقُّ**. و فاعل كن فيكون ضمير مستتر يعود على الشيء المحذوف، أي يقول للشيء كن فيكون. و عالم الغيب خبر مبتدأ محذوف، أي هو عالم الغيب، و يجوز أن يكون صفة للذي خلق السموات و الأرض.

المعنى:

قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا دعا الرسول الأعظم (ص) المشركين الى عبادة اللّه، فدعوه بدورهم الى عبادة أصنامهم، و قيل: اقترحوا عليه أن يعبد معهم آلهتهم، و يعبدوا معه ربه لقاء عبادته لأصنامهم، و مهما كان، فإن اللّه سبحانه أمره في هذه الآية ان يقول لهم مستنكرا: كيف نترك عبادة اللّه النافع الضار الى عبادة ما لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا؟. **وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللهُ**. الرد على الأعقاب كلمة تقال لمن يرجع القهقرى، و لا أحد أكثر تأخرا، و رجوعا إلى الوراء ممن أعرض عن الحق الى الباطل، و عن التوحيد الى الشرك.

كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا. هذا مثال ضربه سبحانه لمن أعرض عن التوحيد الى الشرك أو الإلحاد، و يتلخص بأن مثل هذا كمثل رجل كان مع قافلة تسير على طريق الأمن و السلامة فتركها، و هام على وجهه في الفلوات ضالا، لا يهتدي إلى شيء، تماما كالذي يتخبطه الشيطان من المس، فأشفق رفاقه عليه، و نادوه: هلم إلينا ..

هذا هو طريق النجاة، و لكنه لم يستجب لذهوله و حيرته، فكانت نهايته الوبال و الهلاك.

قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى. هذا التركيب البياني يفيد ان هدى اللّه لا يتطرق اليه الشك، كما يفيد حصر الهداية باللّه وحده في كل شيء، في العقيدة و التشريع و الأخلاق و الأوضاع .. و أية عقيدة أو فكرة، أو أي عمل لا يلتقي مع هدى اللّه فهو جهالة و ضلالة **وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ**. هذا من باب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٠

ذكر الخاص بعد العام، لأن هدى اللّه يدخل فيه كل ما أمر اللّه به، و نهى عنه، و القصد من ذكر الإسلام بالخصوص التنبيه الى عظمته **وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ**. إذ لا هداية، بل و لا اسلام إلا بها، فإنها عمود الدين، ان قبلت قبل ما سواها، و ان ردت رد ما سواها، و اتقوه: الضمير يعود إلى رب العالمين، و أمر سبحانه بالتقوى بعد الأمر بالصلاة، لأنه لا صلاة و لا إيمان صحيحا بلا تقوى، فعبادة اللّه حقا هي السير على منهاجه، و طاعته في جميع أحكامه، لا في بعض دون بعض.

وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. قال تعالى: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ- ٢١ ق، سائق يسوقها إلى محشرها، و شاهد يشهد عليها بما أعدت لهذا اليوم.

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ. الحق هنا إشارة إلى أن للكون قوانين تحكمه، و سننا يسير عليها

باطراد، تحول دون الفوضى التي لا يستقيم معها شيء على الإطلاق .. و في هذا دلالة بالغة على وجود من يدبر الأمر، و يجزي كل نفس بما كسبت.

وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ. في الكلام حذف و تقديم و تأخير، و أصله هكذا: و قوله الحق يوم يقول للشيء كن فيكون، و معناه ان قول اللّه واقع لا محالة، و يظهر ذلك جليا واضحا للعيان يوم يقول للشيء كن فيكون، سواء أقال هذا القول يوم بدأ الخلق، أم يوم يعيده، و بكلمة: ان قول اللّه عين فعله في إيجاد الشيء من لا شيء، و في إعادته إلى ما كان عليه بعد انحلاله و تفرق أجزائه **وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ**. و النفخ في الصور كناية عن بعث من في القبور، و معنى ملكه لهذا البعث انه هو الذي يعيد الموتى إلى الحياة.

مع أهل التصوف:

عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ. الغيب هو الشيء الخفي المستور، كالملائكة و البعث و ما يضمره الإنسان في نفسه، و الشهادة ما كان ظاهرا كالأرض و السماء، و ما

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١١

يفعله الإنسان علانية، و هذا التقسيم صحيح بالنسبة إلى الإنسان، أما بالنسبة اليه تعالى فلا غيب عنه، لا في الأرض و لا في السماء.

أجل، ان أهل التصوف يدعون لأنفسهم الكشف عن الغيب، قال ابن العربي في الفتوحات المكية، الباب الثاني و ثلاثمائة: إن لأهل اللّه أعينا يبصرون بها، و آذانا يسمعون بها، و قلوبا يعقلون بها، و ألسنة يتكلمون بها غير هذه الأعين و الآذان و القلوب و الألسنة فبتلك الأعين يشهدون، و بتلك الآذان يسمعون، و بتلك القلوب يعقلون، و بتلك الألسن يتكلمون، فكلامهم مصيب .. **وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** وحده لا شريك له في تدبير الخلائق على مقتضى حكمته، و في العلم بالخفايا و الأسرار .. فليتق اللّه من يزعم ان له قلبين و لسانين و أربعة أعين و مثلها من الآذان.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٤ الى ٧٩]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٢

اللغة:

ملكوت اللّه سلطانه و عظمته. و جنه الليل ستره. و الأفول غياب الشيء بعد ظهوره. و بزوغ الشيء ابتداء طلوعه. و فطر السموات و الأرض أخرجهما الى الوجود على غير مثال سابق. و الحنيف المائل عن الضلال.

الإعراب:

و إذ قال ابراهيم، أي اذكر إذ قال. و آزر بدل من أبيه، و هو ممنوع من الصرف لوزن الفعل و العجمة أو العلمية. و كذلك

الكاف بمعنى مثل في محل نصب مفعولا مطلقا لنري ابراهيم، أي نري ابراهيم مثل ما رأى أباه و قومه.

و ليكون الواو للاستئناف، و يكون منصوبة بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك مجرور باللام، و متعلق بفعل محذوف، و التقدير و لجعله من الموقنين أريناه. و بازغا حال من القمر، و لا يصح أن يكون مفعولا ثانيا لرأى، لأن الرؤية هنا بصرية، و ليست قلبية، و مثله بازعة.

المعنى:

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. ظاهر الآية يدل صراحة على ان آزر أب حقيقي لإبراهيم الخليل (ع) و انه كان مشركا يعبد الأصنام، و ان ابراهيم نهاه عن الشرك و دعاه إلى التوحيد .. هذا هو مدلول الآية الذي يتبادر إلى فهم العالم و الجاهل على السواء، من غير شرح و تفسير، و مع هذا فقد أطال المفسرون الكلام و اختلفوا: هل آزر أب حقيقي لإبراهيم، أو أب مجازي؟ و هذا الاختلاف يتفرع عن اختلاف آخر هو: هل جميع آباء محمد (ص) و أجداده يجب أن يكونوا موحدين، و لا يجوز أن يكون فيهم مشرك واحد، أو يجوز أن يكون فيهم المشرك و الموحد؟ و بعض العلماء ألفوا رسائل خاصة في ذلك.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٣

قال الشيعة: جميع آباء محمد و أجداده موحدون لحديث: ما زلت انتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات، حتى أخرجني اللّه إلى عالمكم هذا.

و قالوا: الأب الحقيقي لإبراهيم اسمه تارح، و ان آزر أخو أبيه، أو جده لأمه، و أطلق عليه لفظ الأب مجازا «١». و قال الألوسي في تفسيره: و على هذا جم غفير من السنة، أي انهم يقولون بمقالة الشيعة.

و لكن صاحب تفسير المنار و الرازي قالا: ان السنة لا يوافقون الشيعة على رأيهم هذا، و يجيزون أن يكون في أجداد النبي مشرك أو ملحد .. و ظاهر القرآن مع السنة، بخاصة قوله: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً- ٤٢ مريم.

و على أية حال، فلا جدوى من هذا النزاع، و بسط الكلام فيه تكثير له من غير طائل، لأنه لا يمت إلى عقيدة الإسلام بصلة، فإن المطلوب من المسلم الإيمان بنبوة محمد (ص) و عصمته، و أنه سيد الأنبياء و خاتمهم، أما الإيمان بأن جميع آبائه و أجداده موحدون، و انه آزر عم ابراهيم لا أبوه، أما هذا فليس من عقيدة الإسلام في شيء.

وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ. المراد بكذلك ان اللّه سبحانه كما كشف لإبراهيم عن ضلال قومه في عبادتهم الأصنام فقد كشف له أيضا عن عجائب السموات و الأرض ليستدل ببديع نظامهما و غريب صنعهما على وجود اللّه و وحدانيته و عظمته **وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** فيؤمن عن حجة و دليل، و تدل هذه الآية على أمرين:

الأول: ان عقيدة الإسلام تقوم على حرية الرأي و العقل، لأن اللّه سبحانه ما أوجب الإيمان به إلا بعد أن أقام الدليل عليه، و دعاهم الى النظر فيه.

الثاني: ان الدليل الذي أقامه على وجوده ميسور و سهل على جميع الافهام

---

(١). لقد تواتر ان عبد المطلب جد النبي (ص) حلف إذا رزق عشرة بنين أن يضحي بواحد منهم، و ان السهم خرج على عبد اللّه أبي محمد

(ص)، و هذا يتنافى مع القول: ان جميع أجداد النبي كانوا على دين ابراهيم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٤

لا يحتاج الى جهد، و لا إلى علم و فلسفة، فيكفي أن ينظر الإنسان إلى عجائب الكون و النظام الذي يحكمه ليهتدي إلى خالقه و صانعه المبدع.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي. كان قوم ابراهيم يعبدون الكواكب من دون اللّه، فأراد أن يستدرجهم إلى الحق، و يلفتهم الى منطق العقل و الفطرة برفق و لين، فانتظر حتى جن عليه الليل، و ستر الأرض بظلامه، و رأى كوكبا مما يعبدون، فقال محاكاة لزعمهم: هذا ربي. فاطمأنوا اليه، و لما أفل الكوكب و غاب تحت الأفق أيقظ عقولهم، و لفت نظرهم إلى أن الآلهة لا تتقلب و تتغير، و لا يحجبها شيء.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ استدراجا لهم و استهواء لقلوبهم: **هذا رَبِّي** لأنه أسطع نورا و أكبر حجما من الأول **فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**، يشير إلى أنه غير مطمئن النفس لهذه الكواكب، و انه لم يهتد بعد الى الطريق، و طلب من اللّه أن ينقذه من هذه الحيرة.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. لقد مضت التجربة الأولى و الثانية و الثالثة، و بقي الشك كما كان، اذن، لا بد من البراءة من عبادة الكواكب، لأنها لا تستأهل العبادة، و لا تستحق الإكبار، و بعد أن أعلن البراءة من آلهتهم توجه بقلبه إلى خالق الكون، و قال: **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**. هذه هي النتيجة الحتمية للنظرة الفاحصة، و التفكير الحنيف في أي شيء من أشياء هذا الكون، نظرة واحدة لا غير بتجرد و تدبر إلى أية صورة من صور هذا العالم تؤدي حتما إلى اليقين الجازم بأن اللّه وحده هو فاطر السموات و الأرض.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٠ الى ٨٣]

وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٥

اللغة:

تطلق الحجة على الدليل المثبت للحق، و تطلق على ما يحتج به المدعي على اثبات دعواه، أما المحاجّة فهي المجادلة و المبالغة في اقامة الحجة. و السلطان البرهان. و لم يلبسوا لم يخلطوا.

الاعراب:

ما تشركون به ضمير به يعود إلى اللّه. و تسبك ان يشاء ربي بمصدر في محل نصب على الاستثناء المنقطع، أي لا أخاف إلا مشيئة اللّه. و علما تمييز.

و كيف تكون خبرا للمبتدإ إذا وقعت قبل ما لا يستغنى عنه نحو كيف أنت، و حالا أو مفعولا مطلقا إذا كانت قبل ما يستغنى عنه، كما في الآية، و عليه يكون محلها النصب على انها مفعول مطلق على معنى أي خوف أخاف، أو حال أي على أي حال أخاف و الذين آمنوا مبتدأ أول، و أولئك مبتدأ ثان، و الأمن مبتدأ ثالث، و لهم خبره، و هو مع خبره خبر الثاني، و هذا مع خبره خبر الأول.

و تلك حجتنا مبتدأ و خبر. و جملة آتيناها حال. و درجات مجرورة بإلى محذوفة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٦

المعنى:

(وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ) بعد أن أورد ابراهيم (ع) على قومه الحجة الدامغة من منطق العقل و الفطرة، و أثبت به فساد عبادتهم للأوثان و الكواكب، بعد هذا أوردوا عليه حججهم الواهية، و قالوا له فيما قالوا: «وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ» و خوفوه من بطش آلهتهم به، فأجابهم ابراهيم **(قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللهِ وَ قَدْ هَدانِ)**. أي ما هذا الحجاج في اللّه، و قد هداني إلى معرفته من نفسي و من الكون، و تقدم في الآية ٧١ (إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى) الذي لا يتطرق اليه الشك، و ان ما عداه جهالة و ضلالة.

أما التخويف من آلهتهم فقد أجاب عنه بقوله: **(وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ)** من دون اللّه، لأنه لا يضر و لا ينفع، و لا يبصر و لا يسمع **(إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً)** و ذلك بأن يسقط اللّه صنما على رأسي يشجه، أو كسفا من شهب الكواكب يحرقني .. اذن، فيجب أن أخاف من اللّه وحده، لا من الأصنام و الكواكب. **(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)** فلا أخاف أن يصيبني مكروه من غير علمه و ارادته **(أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ)** ان آلهتكم ليست بشيء، و ان اللّه وحده هو الضار النافع، لأنه خالق كل شيء.

(وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً). المراد بما أشركتم الأوثان و الكواكب التي يعبدون، و المراد باشركتم باللّه جعلهم للّه شركاء، و المعنى أ تريدونني أن أخاف آلهتكم المخلوقة العاجزة، و أنتم لا تخافون زعمكم و جعلكم للّه شركاء .. هذا الزعم الذي هو افتراء محض، لا حجة له، و لا دليل عليه! .. و بتعبير أوضح ان ابراهيم قال لهم: أ تخوفونني مما لا حول له و لا قوة، و تأمنون أنتم، و قد افتريتم و اعتديتم على من له القوة و العزة جميعا! .. **(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)** الفريق الذي يؤمن باللّه القوي العزيز، و يكفر بالشريك الضعيف، أو الفريق الذي يؤمن بالضعيف الذليل، و يكفر بالقوي العزيز! ..

(الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ). هذا بيان للفريق الناجي من الفريقين، و انهم الذين أخلصوا للّه في إيمانهم و لم يخلطوا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٧

بهذا الايمان شركا في عقيدة، و لا في طاعة هوى مخلوق كائنا من كان.

هؤلاء وحدهم هم الآمنون المهتدون.

وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ. أي ان تلك الحجج الدامغة التي أفحم بها ابراهيم قومه- نحن ألهمناه إياها .. و في هذه الآية دلالة واضحة على ان الأنبياء، و من اهتدى بهديهم من العلماء هم لسان اللّه و بيانه، و ان الراد عليهم

راد على اللّه بالذات، كما جاء في الحديث. **نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ** تجد تفسيره في قوله تعالى: يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ- ١١ المجادلة.

فالسبب لرفعة الإنسان عند اللّه هو الايمان و العلم، و لكل منهما درجات، رفيع و أرفع، و قد بلغ ابراهيم (ع) أرفعها، حتى صار للرحمن خليلا **إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** حكيم منزه عن العبث و الشهوة، عليم بما يستحقه كل انسان من المراتب و الدرجات.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٤ الى ٩٠]

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (٨٦) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (٨٩) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (٩٠)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٨

الإعراب:

كلا هدينا كلا مفعول هدينا. و نوحا مثله. و ضمير ذريته يعود إلى نوح، لأنه أقرب ذكرا من ابراهيم، و لأن من جملة الأنبياء الآتية أسماؤهم لوط، و هو ابن أخي ابراهيم، و ليس من ذريته. و داود مفعول لفعل محذوف، أي و من ذريته هدينا داود و سليمان الخ. و كذلك بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف، أي و نجزي جزاء مثل ذلك. و كل من الصالحين مبتدأ و خبر، و الجملة معترضة لا محل لها من الإعراب. و كلا مفعول لفضلنا. و من آبائهم عطف على كلا، أي و فضلنا كلا من آبائهم. و الباء في بكافرين زائدة، و كافرين خبر ليسوا. و بهداهم متعلق باقتده، و الهاء في اقتده للوقف، و تسمى هاء السكت.

المعنى:

ذكر سبحانه في هذه الآيات ١٨ نبيا بما فيهم ابراهيم، و أشار إلى بعض آبائهم و ذرياتهم و إخوانهم، و وصف الجميع بالإحسان و الصلاح و الهداية، و انه تعالى منّ على الأنبياء المذكورين بالحكمة و النبوة، و منّ على بعضهم بتنزيل الكتاب، و القصد من ذلك أن يحتج محمد (ص) على العرب بأن جدهم ابراهيم و كثيرا من أبنائه كانوا موحدين، و أيضا أن يتخذ الرسول الأعظم ممن تقدمه من الأنبياء قدوة في الدعوة إلى اللّه، و الصبر على الأذى في سبيلها. هذا ملخص ما تضمنته الآيات السبع، و هي واضحة لا تحتاج إلى التطويل في البيان و الشرح، و لكن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢١٩

بعض المفسرين أبى إلا التطويل، فخرج عن موضوع التفسير إلى ما لا يمت اليه و لا إلى الحياة بصلة.

و تجدر الإشارة إلى أن أسماء الأنبياء المذكورين في الآيات لم تأت على حسب الترتيب في الزمان أو الفضل، كما انهم ذكروا على سبيل المثال، دون الحصر.

وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ الضمير في لَهُ يعود الى ابراهيم، و اسحق ابنه لصلبه مباشرة، و امه سارة، و يعقوب ابن اسحق، و ابن الابن ابن، قال تعالى: فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ- ٧١ هود.

كُلًّا هَدَيْنٰا من اسحق و يعقوب وَ نُوحاً هَدَيْنٰا مِنْ قَبْلُ لأنه أقدم من ابراهيم، وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ الضمير عائد الى نوح لأنه أقرب في الذكر، و قيل:

إلى ابراهيم. دٰاوُدَ وَ سُلَيْمٰانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ أي و هدينا هؤلاء كما هدينا نوحا و اسحق و يعقوب وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ لأن اللّه سبحانه يجزي المحسن بالحسنى، نبيا كان أو غير نبي، كما يجزي المسيء بعمله أبيض كان أو أسود.

وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيىٰ وَ عِيسىٰ وَ إِلْيٰاسَ و هؤلاء أيضا ممن هداهم اللّه كُلٌّ مِنَ الصّٰالِحِينَ و كل من استغل مواهبه لخيره و خير الناس فهو صالح، و مصلح أيضا.

الحسن و الحسين ابنا رسول اللّه:

قال الرازي في تفسير هذه الآية: انها تدل على ان الحسن و الحسين من ذرية رسول اللّه (ص) لأن اللّه تعالى جعل عيسى من ذرية ابراهيم، مع انه لا ينتسب الى ابراهيم إلا بالأم، فكذلك الحسن و الحسين من ذرية رسول اللّه، و ان انتسبا اليه بالأم .. و يقال: ان أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج ابن يوسف.

و قال صاحب تفسير المنار: أقول في الباب حديث أبي بكرة عند البخاري مرفوعا: ان ابني هذا سيد يعني الحسن، و لفظ ابني لا يجري عند العرب على أولاد البنات، و حديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم مرفوعا:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٠

و كل ولد آدم فان عصبتهم لأبيهم خلا ولد فاطمة فاني أنا أبوهم و عصبتهم و قد جرى الناس على هذا، فيقولون في أولاد فاطمة أولاد رسول اللّه (ص) و أبناؤه و عترته و أهل بيته.

و معنى هذا الكلام ان ولد فاطمة (ع) ليسوا أبناء رسول اللّه (ص) لغة، و لكنهم أبناؤه شرعا لقول الرسول: أنا أبوهم و عصبتهم و أيضا هم أبناؤه عرفا، لأن الناس قد جروا على القول: ان ولد فاطمة هم أولاد رسول اللّه و ابناؤه و عترته و أهل بيته .. و قد أجمع علماء السنة و الشيعة قولا واحدا على ان الشرع في مداليل الألفاظ مقدم على العرف و اللغة، و ان العرف مقدم على اللغة، لأن الحكيم يخاطب الناس بما يتبادر الى افهامهم، لا بما هو مسطور في قواميس اللغة، فإذا أوردت كلمة في آية أو رواية، و وجدنا لمعناها تفسيرا خاصا في كتاب اللّه أو السنة النبوية فتحمل الكلمة على هذا المعنى الخاص، و يسمى بالمعنى الشرعي، و يهمل المعنى اللغوي و العرفي، و إذا لم نجد لها تفسيرا في الكتاب و السنة فتحمل على ما يفهمه الناس منها، و يسمى بالمعنى العرفي، فإن لم يفهم الناس منها معنى معينا فتحمل على المعنى الموجود في قواميس اللغة.

و على هذا يأتي المعنى الشرعي في الدرجة الأولى، و العرفي في الثانية، و اللغوي في الثالثة، و قد ثبت شرعا و عرفا ان الحسن و الحسين ابنا رسول اللّه فيتعين ذلك، و تهمل اللغة، لأنها محكومة بالشرع و العرف.

أما السر في ان الحسن و الحسين ابنا رسول اللّه، مع انهما ليسا من أبنائه لغة، أما هذا السر فيجده الباحث في صفات الحسنين و شمائلهما، انها عين صفات الرسول الأعظم و شمائله .. و حسب الباحث من سيرة الحسن ان معاوية بن أبي سفيان لم يسعه الملك الذي كان فيه، و في الحسن عرق ينبض، و حسب الباحث من سيرة الحسين ان يزيد بن معاوية

ضاقت به الدنيا مع وجود الحسين، كما ضاقت بأبيه معاوية من قبل، مع وجود الحسن.

وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً هديناهم أيضا **وَ كلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ** في زمانه **وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ** من، هنا للتبعيض، أي و فضلنا البعض من كل صنف من هؤلاء، لأن من ذرياتهم و إخوانهم كانوا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢١

كافرين، بل لم يكن لعيسى و يحيى نسل و ذرية **وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ** هذا المديح و الثناء تمهيد لقوله تعالى: **ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ**. أي ان الهدى الذي يجب اتباعه هو ما جاء به الأنبياء، و لا يتبع هذا الهدى إلا من شمله اللّه بلطفه و توفيقه **وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**. أي ان هؤلاء الأنبياء على فضلهم و عظيم قدرهم لو صدر منهم أدنى شيء يشعر بالشرك لبطلت جميع أعمالهم، و ذهبت سدى، و الغرض من هذه الاشارة التنبيه إلى أن اللّه سبحانه يعامل الناس بأعمالهم لا بمناصبهم، و بالنهاية التي عليها يموتون، لا بالسابقة التي ابتدأوا بها حياتهم.

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ. أولئك إشارة إلى من تقدم ذكرهم من الأنبياء، و الكتاب جنس يشمل جميع الكتب السماوية السابقة على القرآن، كصحف ابراهيم و التوراة و الزبور و الإنجيل، و المراد بالحكم معرفة القضاء و كل ما شرعه اللّه من الحلال و الحرام **فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ**. هؤلاء، إشارة إلى مشركي قريش الذين أنكروا نبوة محمد (ص)، و نصبوا له العداء، و ضمير بها يعود إلى النبوة، و المراد بالقوم الذين ليسوا بها بكافرين المهاجرون و الأنصار الذين آمنوا بمحمد و ناصروه.

أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ. أولئك إشارة إلى الأنبياء الذين تقدم ذكرهم، و قد أمر اللّه نبيه الأكرم محمدا (ص) أن يسير على طريقهم في الدعوة إلى الحق، و الصبر على الأذى في سبيلها **قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** لأن الدين لم يشرع للكسب و الاتجار به **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ** ضمير هو يعود إلى القرآن، و في الكلام دلالة واضحة على ان محمدا أرسل للناس كافة في كل زمان و مكان.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩١ الى ٩٣]

وَ ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩٢)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٢

اللغة:

قدر الشيء بسكون الدال مبلغه و مقداره. و قراطيس جمع قرطاس، و هو ما يكتب فيه من ورق و جلد و غيرهما. و أم القرى مكة.

الاعراب:

حق صفة لمفعول مطلق محذوف، أي و ما قدروا اللّه قدرا حق قدره. و إذ في محل نصب بقدروا. و من شيء من زائدة

و شيء مفعول لأنزل. و نورا حال من الكتاب، أي منيرا. و جملة أنزلناه صفة كتاب، و كذا مبارك و مصدق.

و أم القرى على حذف مضاف، أي أهل ام القرى.

المعنى:

وَ ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. تدل هذه الآية على انه كان في عهد رسول اللّه (ص) قوم ينكرون الوحي من اللّه على أحد من الناس: و يقولون ما بعث اللّه بشرا رسولا .. و لكن اللّه سبحانه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٣

لم يبين من الذين أنكروا و قالوا ذلك، و من أجل هذا اختلف المفسرون فيمن هو المعني بقوله تعالى: **إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ** هل المراد بهم مشركو العرب أو يهود الحجاز؟.

قال فريق من المفسرين: انهم مشركو العرب. و يرد هذا القول أولا:

ان اللّه أمر رسوله محمدا أن يواجه المنكرين بهذا السؤال: **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ.** و بديهة ان هذا السؤال انما يتجه لمن يعترف بنبوة موسى و التوراة، و المعروف ان مشركي العرب لا يعترفون بموسى و توراته، و إلا كانوا من أهل الكتاب.

ثانيا: ان اللّه سبحانه و بّخ المنكرين بقوله: **تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً.** أي انكم حرفتم التوراة، فأبديتم ما يتفق مع أهوائكم، و أخفيتم ما لا يتفق معها، و معلوم ان الذين حرفوا التوراة هم اليهود، لا مشركو العرب.

و ذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الذين قالوا ما أنزل اللّه على بشر من شيء هم اليهود، و استدلوا بأمرين: الأول ان اللّه أمر رسوله محمدا أن يرد على من قال هذا بنبوة موسى و التوراة .. و هو رد صحيح و مفحم، ثم أكد هذا الرد بلفتهم الى تحريفهم التوراة، و خاطبهم تعالى موبخا: **تَجْعَلُونَهُ**- أي كتاب التوراة- **قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً.**

و هذا القول أقرب الى ظاهر الآية من القول الأول. **وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ.** هذا الخطاب موجه إلى اليهود أيضا، و المعنى كيف تقولون- أيها اليهود- ما أنزل اللّه على بشر من شيء، مع انكم تعتقدون ان موسى بشر، و ان التوراة نزلت عليه، و قد علمتم منها ما كنتم تجهلونه من قبل أنتم و آباؤكم، و من ذلك انكم كنتم تقرءون في التوراة صفة محمد قبل مبعثه، و لا تعرفون بالتفصيل من هو المقصود، و لما بعثه اللّه، و عرفتم انه هو المقصود بالذات حرفتم و حذفتم ما يدل عليه مكابرة و عنادا قل الله. هذا جواب عن السؤال السابق، و هو **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً.** و هذا الجواب هو المتعين، و لا مفر منه، لأن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٤

اليهود يعترفون بأن التوراة من عند اللّه، و من أجل اعترافهم هذا تقوم الحجة و الرد على قولهم: ما أنزل اللّه على بشر من شيء **ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.** أي قل الحق- يا محمد- ودع اليهود في باطلهم، و لا تهتم بعنادهم و مرائهم .. و في هذا تهديد لهم و وعيد، كما فيه استخفاف بهم و استهانة.

بعنادهم و مرائهم .. و في هذا تهديد لهم و وعيد، كما فيه استخفاف بهم و استهانة.

و تسأل: ان اليهود يعترفون بنبوة موسى (ع) و انزال التوراة عليه، كما قدمت- اذن- كيف نسب اللّه اليهم انكار الوحي و البعثة من الأساس؟.

الجواب: انهم أنكروا الوحي و البعثة في الظاهر، دون الواقع عنادا و مكابرة لمحمد (ص): **وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها**

أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا- ١٤ النمل.

أنبياء اللّه و علماء الطبيعة:

و بالمناسبة نشير إلى أن أكثر علماء الطبيعة في هذا العصر، أو الكثير منهم يؤمنون بوجود اللّه لأنهم رأوا ان هذا الكون الذي يتعاملون معه يسير وفقا لقوانين ثابتة و صريحة تتحكم به، و لا تحيد عنه بحال، و من أجل هذا أمكن رصدها و قياسها و الاستفادة منها، و هذا يحتم وجود قوة عليا وراء الكون تهندس و تبني و هذه القوة هي اللّه.

و بتعبير ثان ليس من الضروري ليكون الإنسان عالما بوجود الشيء أن يجربه في المعمل، و يراه رأي العين، بل يكفي أن يعلم علما لا يتطرق اليه الشك و الاحتمال، سواء أجاءه هذا العلم و الجزم من التجربة و العيان، أم من الاستنتاج العقلي البديهي. و صاحب الفكر و النظر إذا تأمل هذا الكون تأملا علميا مجردا عن كل شائبة ينتهي حتما إلى العلم بوجود اللّه .. و لكن علماء الطبيعة الذين آمنوا باللّه عن علم نفوا أن يكون له رسل من بني الإنسان يوحى اليهم، و قالوا:

ان الطبيعة وحدها هي كتاب اللّه، و ليس التوراة و الإنجيل و القرآن.

و لست أشك ان هؤلاء العلماء لو أعطوا لدراسة القرآن قليلا من الوقت الذي أعطوه لدراسة الطبيعة لاقتنعوا بأن للّه كتابين: الكون و الوحي، و انه لا غنى للإنسان بأحدهما عن الآخر، فمن كتاب الكون يعلم ملكوت اللّه، و يؤمن به،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٥

و من كتاب الوحي يعلم شريعة اللّه التي تنير له طريق الحياة و مدارج التقدم فيها، و تجنبه المهالك و المشاكل التي تعرقل سيره إلى الأمام.

لقد خلق الإنسان ليعمل في هذه الحياة، و لا بد لكل عامل من منهج يسير عليه في عمله، لأن الفوضى لا تؤدي الى خير، و اللّه سبحانه خلق الإنسان، و يعلم سره و جهره، و قوته و ضعفه، و ما ينفعه و يضره، فيتحتم، و الحال هذه، أن يكون هو المرجع الأول للمنهج الذي يجب أن يسير عليه في عمله، تماما كما هو الشأن في مخترع السيارة و الطائرة و غيرهما من الأدوات و الآلات، حيث يحتم الرجوع اليه في استعمالها و طريق الاستفادة منها، لأنه أعلم بما يصلحها و يفسدها، و ليس من شك ان تبليغ المنهج الإلهي لعباده و اعلامهم به ينحصر بالأنبياء و الرسل، لأنهم لسان اللّه و بيانه، و هذا هو الوحي بالذات. و من أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا: الإسلام و العقل، قسم النبوة و العقل.

وَ هٰذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ. هذا، اشارة الى القرآن الكريم، و المعنى كما أنزلنا التوراة على موسى كذلك أنزلنا هذا القرآن على محمد (ص)، و هو كثير النفع و الفائدة لمن علم أحكامه و أسراره، و عمل بها، و هو أيضا يصدق الكتب السماوية التي نزلت من قبل على أنبياء اللّه. قال الإمام علي (ع): تعلموا القرآن، فانه أحسن الحديث، و تفقهوا فيه، فانه ربيع القلوب، و استشفوا بنوره، فانه شفاء الصدور، و أحسنوا تلاوته، فانه أحسن القصص.

وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا. و أم القرى هي مكة، و سميت بذلك، لأن فيها أول بيت وضع للناس لعبادة اللّه .. و زعم بعض المستشرقين، و من قبلهم اليهود ان محمدا (ص) أرسل للعرب فقط، و احتجوا بهذه الآية، و تجاهلوا الآية ١٠٧ الأنبياء: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ. و الآية ٢٨ سبأ: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ. و مصدر القرآن واحد، و كلامه يفسر بعضه بعضا، و هاتان الآيتان بيان لقوله تعالى:

وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا و ان المراد به أن تبدأ دعوة الإسلام أول ما تبدأ في بلد صاحبها مكة، حتى إذا صار لها أتباع و أنصار بشروا بها في أرجاء

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٦

العالم، كآية دعوة عامة تبتدئ، حيث تولد، ثم تنطلق الى سائر الأقطار.

هذا، إلى أنه قد ثبت بطريق التواتر ان رسول اللّه (ص) قد كتب الى جميع الملوك و الرؤساء يدعوهم الى الإسلام، و في طليعتهم كسرى ملك الفرس، و قيصر امبراطور الروم، و المستشرقون يعلمون ذلك، و لكن البعض منهم يكتمون ما يعلمون.

وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ. الضمير في **بِهِ** يعود الى القرآن ..

و ما قرأ القرآن أحد بتجرد و إمعان إلا خرج منه بشيء، فإن كان مؤمنا باللّه و رسوله و اليوم الآخر ازداد ايمانا، و إن كان مؤمنا باللّه فقط آمن بالوحي و البعث، و ان كان مؤمنا باللّه و البعث دون الوحي آمن بالأنبياء و الكتب المنزلة من السماء، بخاصة نبوة محمد و القرآن، و ان كان كافرا باللّه آمن به، لأن القرآن يعرض الدلائل على ذلك، و يحث على النظر فيها، و هي بطبعها تؤدي بالباحث المنصف إلى العلم و الإيمان **وَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ يُحٰافِظُونَ**. ليكونوا على صلة دائمة وثيقة باللّه .. و خص الصلاة بالذكر، دون العبادات لأنها عمود الدين، و قوام الإيمان، و من شأنها ان تردع المصلي الخاشع عن الفحشاء و المنكر.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩٣ الى ٩٤]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قٰالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قٰالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ اللهُ وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الظّٰالِمُونَ فِي غَمَرٰاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلاٰئِكَةُ بٰاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيٰاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادىٰ كَمٰا خَلَقْنٰاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ مٰا خَوَّلْنٰاكُمْ وَرٰاءَ ظُهُورِكُمْ وَ مٰا نَرىٰ مَعَكُمْ شُفَعٰاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكٰاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مٰا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٧

اللغة:

الغمرات جمع غمرة، و هي الشدة. و الهون بضم الهاء بمعنى الذل و الهوان، و بفتحها بمعنى اللين الهين.

الاعراب:

افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً كَذِباً مفعول مطلق مثل جلست قعودا. و من قال سأنزل معطوف على ممن افترى، أي و ممن قال سأنزل. و إذ الظالمون إذ ظرف في محل نصب بترى، و الظالمون مبتدأ، و في غمرات متعلق بمحذوف خبرا للمبتدإ.

و الملائكة مبتدأ، و باسطو أيديهم خبر. و جملة اخرجوا أنفسكم مفعول لقول محذوف، أي يقولون اخرجوا. و فرادى حال من الواو في جئتمونا، و هو ممنوع من الصرف تشبيها له بثلاث و رباع. و كما خلقناكم الكاف في كما بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف، أي مجيئا مثل مجيئكم أول مرة.

و تقطع فاعلها محذوف دل عليه سياق الكلام، أي تقطع الوصل، و بينكم ظرف منصوب بتقطع.

المعنى:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً. و افتراء الكذب على اللّه أن يختلق عليه تعالى أشياء لا مصدر لها من كتاب اللّه،

أو سنة نبيه، أو من العقل البديهي، و يكون ذلك بأمور: منها أن يحلل ما حرم اللّه، أو يحرم ما أحل،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٨

و منها أن يصف اللّه- متعمدا- بما ليس فيه، أو يجعل له شركاء و أندادا، و بنين و بنات، و منها أن يدعي النبوة و ما هو بنبي، و اليه أشار سبحانه بقوله:

أَوْ قٰالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ و هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى:

افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً و هي من باب عطف الخاص على العام، و مثلها قوله سبحانه: **وَ مَنْ قٰالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ**. أي ان هذا اللعين يدعي القدرة على تأليف كتاب يضاهي القرآن في عظمته، و قيل: هو عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، و قال آخر: بل هو النضر بن الحارث.

و الخلاصة ان كل من نسب إلى اللّه شيئا، دون أن يستند إلى قوله اللّه و الرسول، أو بديهة العقل فهو مفتر كذاب يستحق التوبيخ و العذاب.

وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الظّٰالِمُونَ فِي غَمَرٰاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلاٰئِكَةُ بٰاسِطُوا أَيْدِيهِمْ. غمرات الموت سكراته و آلامه، و اختلف المفسرون في المراد ببسط أيدي الملائكة: هل المراد به مدها حقيقة إلى الإنسان حين الاحتضار، أو هو لمجرد التمثيل و الكناية عن أهوال الموت؟ و نحن لا نرى مبررا لهذا النزاع، لأن العقل لا ينفي وجود الملائكة، و لا أن يكون لهم أيد يبسطونها، و ألسنة يتكلمون بها، و قد ورد الوحي بذلك فيجب التصديق. و هذا الأصل يعتمد عليه جميع علماء المسلمين في اثبات العقيدة و الشريعة.

أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيٰاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ. هذا كله من كلام الملائكة يخاطبون به المفترين ساعة فراقهم لهذه الحياة، و هو تأنيب و توبيخ على افترائهم و تنكرهم للحق ..

و في الحديث: من مات فقد قامت قيامته. و من هنا قال بعض العارفين:

ان للإنسان قيامتين: صغرى، و هي الموت، و كبرى، و هي البعث. و توبيخ الملائكة لمن افترى على اللّه كذبا عند القيامة الصغرى إنذار له بما سيلاقيه من الأهوال في القيامة الكبرى. قال الإمام علي (ع): الموت للمؤمن كنزع ثياب وسخة، و فك قيود و أغلال إلى أفخر الثياب، و آنس المنازل، و هو للكافر كخلع ثياب فاخرة إلى أوسخها و أخشنها، و من المنازل الأنيسة إلى أوحشها و أعظم العذاب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٢٩

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادىٰ كَمٰا خَلَقْنٰاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ. جئتمونا بصيغة الماضي، و معناها المستقبل، أي تجيئوننا، و المعنى ان الإنسان يلقى ربه غدا كما خرج من بطن أمه، لا يحمل معه شيئا .. و يا حبذا لو دخل في جوف الأرض كما خرج منها، لا له و لا عليه .. انه خرج منها، لا سائلا و لا مسؤولا، و يعود اليها مسؤولا عما قدمت يداه، و لكن السائل، و الحمد للّه، عادل لا يظلم أحدا، و يعامل كل واحد بما عامل الناس في حياته الأولى ان خيرا فخير، و ان شرا فشرّ.

و اختلف القائلون بالحشر: هل يحشر الإنسان بروحه فقط، أو بروحه و جسمه معا، و ظاهر قوله تعالى: **كَمٰا خَلَقْنٰاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** يدل على الحشر روحا و جسما، لأنه خلق بهما معا: كَمٰا بَدَأْنٰا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنٰا إِنّٰا كُنّٰا فٰاعِلِينَ- ١٠٤ الأنبياء.

وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ. يعود الإنسان الى الأرض تاركا الأهل و الأصحاب، و المال و السلطان. **وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ** للّه كالأصنام و الكواكب و غيرها مما كنتم تعبدون و توالون من أهل الفساد و الضلال. **لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ**، أي لم تبق لكم أية صلة بشيء من أشياء الدنيا **وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ** من الدعاوى الكاذبة للذين توهمتم انهم شركاء أو شفعاء عنده، و خاب أملكم بعد أن تكشفت لكم الحقيقة .. و السعيد من فاز برضوان اللّه و مغفرته.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩٥ الى ٩٩]

إِنَّ اللهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٠

اللغة:

فلقه فلقا، و فرقه فرقا، و فتقه فتقا بمعنى واحد، أي شقه شقا.

و الإصباح مصدر سمي به الصبح، و معنى فلقه أخرجه من الظلمات. و السكن المسكون فيه كالبيت مأخوذ من السكون ضد الحركة. و الحسبان بضم الحاء لعد الأشياء و الأوقات. و المستقر موضع القرار، و المستودع موضع الوديعة. و متراكب أي بعضه فوق بعض مأخوذ من الركوب كتراكب حبوب القمح و الشعير في سنابلهما، و حبوب الرمان و الصنوبر في ثمارهما. و الطلع أول ما يخرج من النخلة في اكمامه. و قنوان جمع قنو، و هو العنقود من الثمر. و دانية قريبة سهلة التناول. و المشتبه و المتشابه بمعنى واحد، و هو ان بعض النبات يشبه بعضا في اللون و الطعم و الصورة، و منه ما ليس كذلك. و الينع النضج، يقال: أينعت الثمرة إذا أدركت و نضجت.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣١

الاعراب:

الشمس مفعول أول لفعل محذوف، و حسبانا مفعول ثان، أي و جعل الشمس و القمر حسبانا، و مستقر مبتدأ و الخبر محذوف، أي فمنها مستقر، و مثله و مستودع.

و ضمير منه الأولى يعود الى النبات، و ضمير منه الثانية الى الخضر.

و متراكبا صفة للحب. و من النخل متعلق بمحذوف خبرا لقنوان. و من طلعها بدل من النخل بإعادة الخافض. و دانية صفة لقنوان. و جنات منصوبة عطفا على نبات كل شيء، أي و أخرجنا جنات من أعناب. و من أعناب متعلق بمحذوف صفة لجنات. و الزيتون و الرمان عطف على نبات، أي و أخرجنا به الزيتون و الرمان. و مشتبها حال من كل ما تقدم من

النبات.

المعنى:

في هذه الآيات أمثلة من عجائب الخلق التي لا يملك صنعها إلا اللّه وحده، و لا تنفك عن الدلالة على وجود اللّه وحده، و لا تنفك عن الدلالة على وجود اللّه و عظمته، و جاء ذكر الأمثلة على الترتيب التالي:

١- **إِنَّ اللهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى**. إذا وضعت حبة من الحنطة، أو نواة من نوى التمر في الأرض- مثلا- انفلقت كل من الحبة و النواة من أسفلها و أعلاها، و خرج من الشق الأسفل عروق تهبط في الأرض، و من الشق الأعلى شجرة تمتد في الهواء، ثم تذهب الحبة و النواة، و يصير المجموع جسما واحدا، بعضه في الأرض و بعضه في الهواء، و ليس من شك ان هذه العملية تستند مباشرة إلى أسبابها الطبيعية، كالتربة و الماء، و الشمس و الهواء، و لكنها تنتهي الى اللّه وحده، لأنه خالق الطبيعة، و مسبب الأسباب، و موجد المادة الأولى بكلمة كُنْ فَيَكُونُ.

من أين جاءت الحياة؟

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٢

لا غرابة أن يتولد من الكائن الحي حي مثله، و أن ينفصل من الجماد جماد، و إنما العجب أن يتولد الجماد من الحي، و بالعكس. و قال قائل: إن الحياة تتولد من القوى الطبيعية.

و نسأل هذا القائل، و من الذي أوجد الطبيعة و قواها و تفاعلها؟ و إذا كان مجرد التفاعل كافيا وافيا لإيجاد الحياة، دون أن تتدخل العناية الإلهية، فلما ذا عجز علماء الطبيعة أن يصنعوا الحياة في معاملهم، كما يصنعون أدوات المطبخ و ما اليها مع انهم قد حاولوا و أوجدوا ألف تفاعل و تفاعل، و بعد اليأس أعلنوا ان صنع الحياة أصعب منالا من رجوع الشيخ إلى صباه و طفولته.

و لنسلم جدلا انهم ينجحون في خلق خلية حية، فهل ينجحون في صنع حشرة تعمل بنظام كما تعمل أتفه الحشرات؟ و لندع الإنسان و دماغ الإنسان، و الحيوان و عجائبه في خلقه، و نضرب أمثلة من الحشرات التي ننفر منها، و نستعمل المبيدات لها .. يقول المتخصصون بدراسة الحشرات:

إن بعضها يعيش في درجة ٥٠ مئوية تحت الصفر، و بعضها يعيش هذه الدرجة فوق الصغر، و بعضها يعيش في الهواء السام، و بعضها في آبار البترول، و لها نظم متقنة في حياتها و أعمالها، و إذا اخترع الإنسان الصواريخ و الأقمار الصناعية و العقول الألكترونية فمن المؤكد انه لا يستطيع أن يصنع في المعمل جناح بعوضة، و لا خلية من جناحها، فالعقل الانساني عظيم، و لكن عظمته تصبح عجزا مطلقا أمام القدرة الهائلة التي خلقت بعوضة أو نملة أو نحلة!! و كل هذه بديهيات .. و لكن المصيبة الكبرى اننا ننسى فلا ننظر إلى ما في أعماقنا، إلى مظهر من مظاهر القدرة الإلهية الحكيمة، فإذا نظرنا ازددنا ايمانا بما هو أكبر، و من هو أكبر، و كل ما نحتاج اليه هو الايمان، و كل ما يحتاج اليه أيماننا هو العقل، لأن الايمان بغير عقل كالوجه بلا عينين.

أجل، نحن بحاجة إلى الايمان بقدرة اللّه لنفسر بها ما تعجز عن تفسيره عقول العباقرة .. و قد اعترفت هذه العقول بالعجز عن تفسير الحياة بالطبيعة، و التجأ الكثيرون من أربابها إلى ما وراء الطبيعة، إلى قدرة حكيمة عليمة يفسرون بها أصل الحياة **ذلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**. قال اينشتين: ان بصيرتنا الدينية

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٣

هي المنبع الموجه لبصيرتنا العلمية. و علّق الأستاذ توفيق الحكيم على هذا في كتابه فن الأدب بقوله: هذا الاعتراف و لا شك كسب للدين، فما من أحد فيما مضى- أي منذ قرن من الزمان- يتصور العلماء يقولون عن الدين مثل هذا القول.

و نعلق نحن على قول الحكيم بأن السر الوحيد لاعتراف علماء القرن العشرين من أمثال اينشتين بأن البصيرة الدينية هي الأصل و المنبع للبصيرة العلمية، ان السر لهذا الاعتراف هو تقدم العلم في هذا القرن، و تأخره فيما مضى، و كلما تقدم العلم اكتسب الدين أنصارا من أمثال اينشتين يعترفون بعظمته، و يؤمنون بأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

فالِقُ الإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. ذكر سبحانه في الآية المتقدمة مثالا على عظمته بوجود الحياة على الأرض، و ذكر في هذه الآية ثلاثة أمثلة سماوية: الأول انه تعالى أخرج الصبح من الليل، و هو كناية عن وجود النهار الذي يسعى فيه الإنسان لرزقه و تدبير شئونه. الثاني انه تعالى أوجد الليل الذي يسكن فيه، و يستريح من العمل بالنهار. الثالث انه سبحانه أوجد الشمس و القمر بمقدار مخصوص من السرعة و البطء بحيث يكون للأرض حركتان: حركة تتم في ٢٤ ساعة، و عليها مدار حساب الأيام، و حركة تتم في سنة، و بها توجد الفصول الأربعة، و عليها مدار حساب السنة، قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ- ٥ يونس.

و تسأل: على هذا يكون وجود الليل و النهار نتيجة لدوران الأرض، فما هو الوجه لاسنادها إلى اللّه؟

الجواب: لأنه هو خالق السموات و الأرض، و اليه تنتهي الأسباب بكاملها، و على أية حال، فان المقصود الأول من كل ما جاء في هذه الآيات انه لا شيء من أشياء الكون قد وجد صدفة و جزافا، و إنما صدر عن عليم حكيم أعطى كل شيء خلقه، و قدره تقديرا **ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**.

٤- وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٤

فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. النجوم هنا ما عدا الشمس و القمر من النيرات، كما يدل عليه سياق الكلام، و في كتاب: القرآن و العلم الحديث، يقول حجة الفلك في العالم السير جيمس جينز: انه إذا أردنا أن نعرف مكان بيت في المدينة فاننا نسأل عن اسم الشارع الذي يحتويه، ثم رقمه، فيقال رقم كذا بشارع كذا، و كذلك الحال في النجوم، فإن منها ما هو معروف بأسماء خاصة ..

و هي أهم علامات يهتدي بها الملاح في سفينته، و الراكب في سيارته، و المرتحل على دابته، و كم قوافل في البحر سارت على خريطة السماء و مواقع النجوم عند ما تعطلت البوصلة.

٥- وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ. و النفس التي نشأ الكل منها هي الإنسان الأول الذي تسلسل منه سائر الناس، و هو آدم، و تكلمنا على ذلك مفصلا عند تفسير الآية الأولى من سورة النساء. و ذكر الرازي لتفسير قوله تعالى: فمستقر و مستودع ستة أقوال:

و أكثر المفسرين على ان المستقر هو استقرار النطفة في أصلاب الذكور، و المستودع جعلها في أرحام الإناث .. و ليس في الآية ما يدل على هذا المعنى، و لا على واحد من بقية المعاني التي نقلها الرازي.

ور وي عن الإمام جعفر الصادق (ع) انه قسّم المؤمن إلى قسمين: مؤمن إيمانا صادقا مستقرا حتى الموت، و هو الذي تتفق أقواله مع أفعاله، و مؤمن إيمانا متزلزلا و مستودعا يفارقه قبل الموت، و هو الذي تخالف أقواله أفعاله **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**. و من لا يفقه و يفهم هذه الدلائل الكونية على عظمة الخالق المبدع فهو من الذين عناهم اللّه بقوله: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ.

وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ نَبٰاتَ كُلِّ شَيْءٍ. المطر مصدر الماء العذب، و لولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة، و أسند سبحانه انزال الماء اليه لأنه مسبب الأسباب، منه تبتدئ، و اليه تنتهي مهما امتدت حلقاتها **فَأَخْرَجْنٰا مِنْهُ خَضِراً** ضمير منه يعود الى النبات، و المراد بالخضر الغض و الطراوة، أي تتشعب من النبات أغصان غضة طرية.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٥

و قيل الخضر هنا بمعنى الأخضر **نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرٰاكِباً** ضمير منه يعود الى الخضر، أي يخرج من الأغصان سنابل كسنابل القمح و نحوها كثمر الرمان الذي يركب بعض حبوبه بعضا **وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهٰا قِنْوٰانٌ دٰانِيَةٌ** طلعها بدل اشتمال من النخل بإعادة حرف الجر، أي و نخرج من طلع النخل قنوانا، و القنوان جمع قنو بالكسر، و هو من النخل كالعنقود من العنب، و دانية سهلة التناول، أو ان بعضها قريب من بعض لكثرتها.

وَ جَنّٰاتٍ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمّٰانَ. أي و نخرج من النبات هذه الأصناف الثلاثة، و ذكرها سبحانه على سبيل المثال، و منها تعرف البواقي **مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشٰابِهٍ** ان من النبات و الشجر ما يشبه بعضه بعضا في الشكل و الطعم، و منه ما لا يشبه بعضه بعضا فيهما **انْظُرُوا إِلىٰ ثَمَرِهِ إِذٰا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ**.

أي اعتبروا كيف يخرج الثمر أول ما يخرج صغيرا لا ينتفع به، ثم ينتقل من حال إلى حال، حتى يبلغ النضوج، فيصير لذيذا نافعا **إِنَّ فِي ذٰلِكُمْ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**. ليس المراد بقوم يؤمنون المؤمنون بالفعل فقط، بل و الذين يستجيبون لدعوة الايمان، و ينتفعون بالدلائل و البينات، أما أصحاب القلوب المغلقة فيمرون بها مرور البهائم و السوائم.

و الخلاصة ان المقصود الأول من هذه الأمثلة الأرضية و السماوية هو التنبه إلى أن أشياء هذا الكون، و ما فيها من إبداع و تدبير- محال أن تأتي صدفة و فلتة في نظر الفطرة و العقل، فهما يحكمان حكما قاطعا بأن كل ما في الوجود قد صدر عن ارادة و تصميم، و لحكمة بالغة يعرفها العالم و الجاهل و لا شيء أدل على بطلان الصدفة، كمبدأ، من تكرار الحادثة الواحدة كلما تكرر سببها.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٠ الى ١٠٧]

وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنٰاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَنّٰى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صٰاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لاٰ تُدْرِكُهُ الْأَبْصٰارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصٰارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جٰاءَكُمْ بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَ كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيٰاتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَكُوا وَ مٰا جَعَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٦

اللغة:

خرقوا له بنين أي ابتدعوا له كذبا. و بديع السموات و الأرض خالقها على غير مثال سابق. و الوكيل الحافظ. و الإدراك اللحاق و الوصول، يقال: أدرك الغلام إذا بلغ و لحق الرجال، و أدركته ببصري لحقه بصري. و بصائر جمع بصيرة، و لها عدة معان، و المراد بها هنا البينة و الحجة التي يبصر بها الشيء على ما هو عليه. و نصرّف الآيات نأتي بها بأساليب شتى. و درست أي قرأت و تعلمت.

الاعراب:

شركاء مفعول أول لجعلوا و الجن مفعول ثان. و بغير علم متعلق بمحذوف حالا من الواو في خرقوا. و بديع السموات خبر لمبتدأ محذوف أي هو بديع

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٧

السموات. و أنى بمعنى كيف، و هي في محل نصب حالا من ولد، و يكون تامة و الفاعل ولد. و ذلك مبتدأ و اللّه بدل و ربكم خبر، و جملة لا إله إلا هو خبر ثان، و خالق كل شيء خبر ثالث. و فلنفسه متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف، أي فإبصاره كائن لنفسه، و مثله فعليها أي فعماه كائن عليها.

و كذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف، أي نصرّف الآيات تصريفا مثل ذلك. و ليقولوا: اللام للعاقبة أي ان أمرهم يصير الى هذا القول. و لنبينه اللام للتعليل، و ان مضمرة بعدها و المصدر المنسبك معطوف على المصدر المنسبك من ليقولوا أي للقول و للبيان.

المعنى:

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ. المشركون على أنواع، منهم من جعل الأصنام آلهة مع اللّه، و آخرون أشركوا معه الكواكب، و منهم من عبد إبليس، و منهم من ألّه الظلمة، و فريق جعلوا الجن شركاء للّه، و اللّه سبحانه أخبر عن وجود الجن، كما أخبر عن وجود الملائكة، و انه خلقهم من مارج من نار، و في الآية التي نحن بصددها أخبر اللّه سبحانه عن الفريق الذين جعلوا الجن شركاء له جل ثناؤه، و لكنه لم يبين نوع هذا الجن المعبود للمشركين: هل هو جن الوهم و الخيال، أو غيرهم، و لأجل هذا اختلف المفسرون، فمنهم من قال: انه إبليس. و قال آخر: هو الظلمة، إلى غير ذلك مما لا يستند إلى أساس من علم.

و أيا كان، فان اللّه قد رد على هؤلاء المشركين بكلمة واحدة هي:

وَ خَلَقَهُمْ. و ضمير خلقهم عائد الى الجن لأنه أقرب، و يجوز الى المشركين و اليهما معا، لأن اللّه خالق الجن و الانس، و المعنى كيف يكون للّه شركاء، و هو خالق كل شيء.

وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ. خرقوا أي اختلقوا و ابتدعوا كذبا و افتراء .. قال مشركو العرب: الملائكة بنات اللّه. و قالت اليهود: عزير ابن اللّه. و قالت النصارى: المسيح ابن اللّه. و كل هذه الأقوال رجم بالغيب،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٨

و زعم بلا علم **سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَصِفُونَ** من المستحيلات عليه.

بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ. أي خالقها على غير مثال سابق **أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ**، من جنسه، و لا

من غير جنسه، لأنه ليس كمثله شيء، و هو الغني عن كل شيء، و تقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء **وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ**. و المخلوق لا يكون شريكا للخالق **وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** و مع هذا لا يعلم بأن له ولدا، و لو كان لعلم به، فعدم العلم بالشيء لا يدل على عدم وجوده واقعا بالنسبة الى غير اللّه، أما بالنسبة اليه تعالى فان علمه لا ينفك عن وجود المعلوم.

ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ. الخطاب موجه للمشركين، و المعنى ان اللّه استجمع صفات الوحدانية، و خلق الكون بما فيه، و تدبير الأمور كلها فهو جدير بأن تفردوه بالعبادة، و لا تشركوا معه أحدا من الأنداد، و لا تنسبوا له الصاحبة و الأولاد.

لاٰ تُدْرِكُهُ الْأَبْصٰارُ. تكلمنا عن رؤية اللّه مفصلا عند تفسير الآية ٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٧ **وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصٰارَ** و غيرها، لأنه بكل شيء محيط **وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**. لطيف بعباده، خبير بأعمالهم و مقاصدهم.

قَدْ جٰاءَكُمْ بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ. المراد بالبصائر هنا الدلائل و البينات على وجود اللّه و وحدانيته، و منها ما سبق ذكره تعالى فالق الحب و النوى، و خالق الليل و النهار، و الناس من نفس واحدة، و منزل الماء الذي أحيا كل شيء ..

و اطلاق البصائر على الدلائل من باب اطلاق المسبب على السبب، لأن البصائر جمع بصيرة: و هي الإدراك الحاصل بالقلب، و هذا الإدراك ينشأ من الأدلة و البراهين.

فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهٰا. بعد أن أقام الدليل القاطع على الحق قال: من اتبعه فإلى نفسه أحسن: و من خالفه فإليها أساء: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا- ٧ الاسراء. **وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** بل بشير و نذير، و اللّه وحده هو الوكيل و الرقيب.

وَ كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيٰاتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. كان العرب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٣٩

في الجاهلية أمة أمية، لا شيء عندهم من العلم، و لما استمعوا الى القرآن، و رأوا فيه من فنون البيان، و أنواع الأدلة و البراهين الدامغة لهم و لما يقدسون، و مع ذلك رفضوا الايمان و الهداية، لما كانت هذه حالهم لجأوا الى التعليلات الكاذبة، و قالوا: يا محمد هذا القرآن الذي جئنا به قد درسته و تعلمته من غيرك، و ليس هو وحيا من اللّه.

و بهذا التمهيد يتبين معنا ان قوله تعالى: **وَ كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيٰاتِ** معناه لقد أنزلنا في القرآن ألوانا من الدلائل و البينات بقصد أن يهتدي بها المشركون، و يرجعوا عن غيهم، فكانت عاقبة ذلك ان قالوا للنبي: انك درست هذه الآيات و تعلمتها من غيرك، و هذا هو المراد بقوله تعالى: **لِيَقُولُوا دَرَسْتَ**.

أما قوله: **وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** فمعناه اننا صرفنا الآيات في القرآن لينتفع بها الذين يعلمون معانيها، فتقودهم الى الايمان بالحق، أما أهل الجهالة و الضلالة فلا رجاء بهدايتهم، و غاية الأمر ان هذه الآيات تقطع معذرتهم، و تكون حجة عليهم.

اتَّبِعْ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ.

هذا أمر من اللّه لنبيه الأكرم أن ينذر و يبشر بالقرآن، و يداوم على ذلك، و لا يبالي بجحود المشركين و تكذيبهم و استهزائهم .. و غريب قول من قال: ان هذه الآية منسوخة بآية القتال، ان هذا القول غريب لأن اللّه سبحانه لم يأمر النبي (ص) بترك قتال المشركين في هذه الآية كي يقال: انها منسوخة بالآية الآمرة بقتالهم، و انما أمره بمتابعة الدعوة الى

الحق، و عدم المبالاة بتكذيب المشركين .. و بديهة ان الأمر بمتابعة الدعوة مع عدم المبالاة شيء، و الأمر بالقتال شيء آخر .. و أول شرط للنسخ أن يتحد الموضوع.

وَ لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكُوا. أي انه تعالى لم يرد إلجاءهم الى الايمان، و قهرهم على ترك الشرك بكلمة كُنْ فَيَكُونُ الذي خلق بها الكون، و لو أراد ايمانهم بإرادته التكوينية هذه ما أشركوا. أنظر تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة، فقرة التكوين و التشريع ج ١ ص ٧٢. **وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.** الجملة الأولى و الثانية بمعنى واحد، أو متقاربتان في

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤٠

المعنى، و لا نفهم أي غرض من ذلك سوى التأكيد، بل و هذا التأكيد تأكيد أيضا لقوله تعالى: **وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** لأنه لو كان وكيلا و حفيظا عليهم لما جاز الاعراض عنهم: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ- ٢٥ الغاشية.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٨ الى ١١٠]

وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

اللغة:

عدوا أي ظلما و عدوانا. و الجهد بفتح الجيم المشقة، و المراد به المبالغة، و بضمها الطاقة. و العمه التردد و الحيرة.

الإعراب:

عدوا مفعول من أجله ليسبوا. و الكاف من كذلك بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف، أي زينّا لكل أمة مثل ما زيّنّا لهؤلاء. و جهد مفعول مطلق لاقسموا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤١

لأنه مضاف الى الايمان، و هي بمعنى القسم. **وَ ما يُشْعِرُكُمْ إِنَّمَا** استفهام في موضع رفع بالابتداء، و يشعركم خبر. و أول مرة ظرف زمان متعلق بلم يؤمنوا به.

المعنى:

وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ. قالوا:

كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيجيبهم الكفار بسب اللّه جل ثناؤه، و هذا القول ليس ببعيد، فكثيرا ما يقع ذلك بين المختلفين في الدين، و لفظ الآية لا يأباه، بل روي عن الإمام جعفر الصادق (ع): انه سئل عن قول النبي (ص): ان الشرك أخفى من دبيب النمل على صفوانة سوداء في ليلة ظلماء؟. قال: كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون اللّه، فكان المشركون يسبون من يعبد المؤمنون، فنهى المؤمنين عن سب آلهتهم لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين، فكأنّ المؤمنين قد أشركوا من حيث لا يعلمون .. و قوله تعالى: بغير علم. اشارة إلى جهالة المشركين و سفاهتهم .. و في الآية دلالة واضحة على ان ما كان ضره أكثر من نفعه فهو محرم، و ان اللّه لا يطاع من حيث يعصى.

كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ. المعنى الظاهر من هذه الجملة ان اللّه سبحانه كما زين للمسلمين أعمالهم كذلك زين لغيرهم أعمالهم، حتى المشركين ..

و ليس من شك ان هذا المعنى غير مراد، لأن الشيطان هو الذي يزين للمشركين و العاصين الشرك و العصيان بنص الآية ٤٣ من الأنعام: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. بالاضافة إلى أن اللّه سبحانه لا يأمر عبده بالكفر و يزينه اليه، ثم يعاقبه عليه، بل العكس هو الصحيح، قال تعالى: وَ لكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ- ٧ الحجرات.

و من أجل هذا نرجح حمل الآية على ان اللّه خلق الإنسان على حال يستحسن معها ما يأتيه من أعمال، و يجري عليه من عادات، و وهبه عقلا يميز به بين الأعمال الحسنة و القبيحة، و لو خلقه على حال يستقبح معها جميع أعماله لما عمل

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤٢

شيئا .. و على هذا يكون معنى قوله تعالى: **زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** تماما كمعنى قوله: كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ- ٥٣ المؤمنون. و قولنا: كل انسان راض عن عمله.

ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. اذن، فليدع المؤمنون سب آلهة المشركين ما دام اللّه سيعاقبهم عليه.

و تسأل: ان من سب اللّه أو رسوله يجب قتله، و هذه الآية تشعر بأن أمره متروك الى حسابه و عذابه يوم القيامة؟.

الجواب: ان هذه الآية نزلت بمكة يوم كان المسلمون ضعافا لم يؤذن لهم بقتال، لأن القتال كان آنذاك بالنسبة اليهم أشبه بعملية الانتحار، أما مع قوة الإسلام و سلطانه فيجب تنفيذ حكم الاعدام بالساب، و لا يجوز وقفه و تعطيله.

وَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها. أيّد اللّه سبحانه رسوله محمدا (ص) بالأدلة الكافية على نبوته بما لا يدع مجالا للشك عند من يطلب الحق لوجه الحق، و لكن مشركي قريش اقترحوا على محمد (ص) معجزات خاصة، و جعلوها شرطا لإيمانهم به، و أقسموا أغلظ الإيمان أن يصدقوا محمدا إذا استجاب لاقتراحهم، فأمر اللّه نبيه أن يقول لهم: **إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ**.

ينزل منها ما تقوم به الحجة على الجميع، و ما زاد فينزله أو يمنعه بحكمته و قضائه .. و تمنى المؤمنون ان يستجيب اللّه لطلب الكافرين رغبة منهم في سلمهم و ايمانهم، فخاطب اللّه المؤمنين بقوله: **وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ** أي من أين علمتم ان اللّه سبحانه إذا أنزل الآية المقترحة يترك الكافرون كفرهم و عنادهم؟ و تقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٣٤- ٣٧ من هذه السورة، و في ج ١ ص ١٨٩.

وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. نقلب أفئدتهم و أبصارهم كناية عن علم اللّه تعالى بحقيقتهم، و ضمير به يعود الى محمد أو الى القرآن، و المعنى ان اللّه يعلم بأن المشركين لا يؤمنون بعد نزول الآية التي اقترحوها، و انهم يبقون مصرين على ضلالهم الأول الذي كانوا عليه قبل نزول

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤٣

الآية المقترحة .. انهم طلاب باطل و ضلال، و ليسوا طلاب حق و هداية.

وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أي بعد أن أصروا على الضلال رغم إقامة الحجة عليهم ندعهم و شأنهم، حتى يأتي اليوم الذي يلاقون فيه جزاء عملهم، و قد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، منها: فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ- ٨٣ الزخرف.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤٥

الجزء الثّامن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١١ الى ١١٣]

وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (١١٢) وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

اللغة:

القبل بضم القاف و الباء، و المراد به هنا المواجهة و المعاينة، و قيل: هو جمع قبيل بمعنى الجماعة و الصنف أي حشرنا عليهم من كل صنف جماعة. و الزخرف الزينة. يقال: زخرفه إذا زينه. و الغرور الخداع بالباطل. و اقترف المال اكتسبه، و الذنب اجترحه.

الإعراب:

قبلا حال من كل شيء، و لا يلتفت إلى قول النحاة: ان صاحب الحال يجب أن يكون معرفة، لأن العبرة بصحة المعنى، لا بالتعليلات النحوية. إلا ان يشاء اللّه المصدر المنسبك في محل نصب على الاستثناء المنقطع، أي ما كانوا ليؤمنوا إلا مع إكراه اللّه لهم على الايمان. و جعلنا، متعدية إلى مفعولين: الأول عدوا، و الثاني لكل نبي، و شياطين بدل من عدو، و كلمة عدو تطلق على

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤٨

المفرد و الجمع و المثنى و المذكر و المؤنث. و غرورا مفعول من أجله ليوحي. و الهاء في فعلوه عائد إلى زخرف القول. و ما يفترون ما بمعنى الذي مفعولا معه لذرهم. و المصدر المنسبك من لتصغى معطوف على غرور، و مثله ليرضوه و ليقترفوا، أي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول للغرور بزخرف القول، و الإصغاء اليه و الرضا به و اقتراف ما هم مقترفون.

طراز من الناس:

وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ. قلنا في تفسير الآيات السابقة: ان جماعة من المشركين اقترحوا على النبي (ص) أن يأتيهم بآية معينة، و ان المؤمنين تمنوا لو استجاب اللّه الى طلبهم، و ان اللّه سبحانه أجاب المؤمنين بقوله: وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ و بعد هذه الاشارة أوضح جل ثناؤه لنبيه الأكرم بأن هؤلاء المشركين الذين اقترحوا عليك يا محمد ما اقترحوا من الخوارق لا يؤمنون بك بحال، حتى و لو أنزلنا عليهم الملائكة من السماء، و أحيينا الموتى و شهدوا لك جميعا بلسان عربي مبين انك نبي مرسل، بل لو شهد لك الكون بأرضه و سمائه ما صدقوك و لا اتبعوك **إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ** أي

يلجئهم إلى الايمان بك بالقوة و الغلبة.

و تسأل: هل هذا الفرض صحيح، و هذا الطراز من الناس يمكن أن يوجد- بحسب المعتاد-؟ و كيف تكذب فئة قليلة الكون بما فيه؟ و هل من المتصور أن يكذّب الإنسان سمعه و بصره، فيرى الموتى تحيا و تقوم من قبورها الدارسة منذ آلاف السنين، و هي تقول: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، و يرى الملائكة تنزل من السماء أفواجا، تشهد لمحمد بالرسالة، و يسمع الحيوانات و الطيور و الأسماك و الأشجار و الأحجار و جميع الكواكب تنادي بأعلى صوتها: أشهد ان لا إله إلا اللّه و ان محمدا رسول اللّه، هل من المتصور أن يوجد انسان يكذّب بجميع هذه الخوارق و المعجزات؟ ان هذا لشيء عجاب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٤٩

الجواب: إن هذا الفرض غير صحيح، بل هو محال في حق الذين يتأثرون بالحق و دليله، و يسيرون بوحي من منطق العقل و فطرة اللّه التي فطر الناس عليها لأن هذه الخوارق دلائل قاطعة لا تبقي مجالا للريب، أما هذا الفرض في حق الذين تسيطر على جميع مشاعرهم المصالح الخاصة، و يرونها هي العقل و الفطرة و الحق و العدل، أما هذا الفرض في حق هؤلاء فصحيح، لأن هذا الطراز من الناس موجود بالفعل، و هم المستعمرون و المحتكرون، و من اليهم من الذين يعيشون على السلب و الفساد.

و الذين يستبعدون هذا الفرض لم يتنبهوا إلى واقع هذه الفئة، و خلطوا بين منطق العقل، و بين الموجه الأول للمنتفعين و الانتهازيين .. ان العقل من حيث هو ليس إلا مرشدا يأمر و ينهى، و لا يصغي اليه إلا من طلب الحق لوجه الحق، أما الموجه و القائد للمنتفعين فهو النفع الشخصي، و هو وحده الذي يقودهم في أعمالهم و سلوكهم، و هو دينهم و عقلهم، بل كيانهم و حياتهم، و من أجل هذا لا يجدي معهم أي منطق إلا منطق القوة الذي أشار اليه سبحانه بقوله: **إِلاَّ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ** .. **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** و لا ينتبهون إلى أنهم الفئة الباغية التي لا يجدي معها منطق العقل و الفطرة، و لا منطق الدين و الانسانية، و لا شيء إلا القهر و الغلبة، فمن الخطأ و الضياع أن يخاطب هؤلاء بلغة العلم و الانسانية.

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ. شيطان الإنس معروف، و هو كل من يغري الناس بالباطل، و يلبسه ثوب الحق .. أما الجن فهو من غيب اللّه، و نحن به من المؤمنين اجمالا، و من حيث المبدأ، و لا تعنينا التفاصيل لأننا غير مسؤولين عنها، تماما كما هو الشأن في الملائكة، و لا غرابة في عداء الأشرار للأنبياء السابقين و اللاحقين، لأنه من مظاهر العداء بين الخير و الشر، و بين الحق و الباطل.

و تسأل: إذا كان اللّه سبحانه هو الذي جعل للأنبياء أعداء من الأشرار، كما يظهر من الآية، فلما ذا يعاقبهم على عدائهم للأنبياء؟ و أيضا كيف أمر باتباع الأنبياء، ثم جعل لهم أعداء يقاومونهم، و يغرون الناس بالكفر بهم و برسالتهم؟.

الجواب: ان اللّه سبحانه بعث الأنبياء، و جعل مهمتهم الدعوة إلى التوحيد

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٠

و العدل، و نبذ الظلم و الوثنية، و هذه المهمة بطبيعتها تستدعي التناقض و الصراع بين الأنبياء و بين عبدة الأوثان و المستغلين، فاللّه سبحانه سبب البعثة، و البعثة سبب العداء، و بهذا الاعتبار نسب العداء اليه مجازا. جل ثناؤه. قال حكاية عن نوح: رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَ نَهٰاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعٰائِي إِلاَّ فِرٰاراً- ٥ نوح. فالفرار يستند إلى دعوة نوح، و دعوته تستند إلى أمر اللّه.

و زيادة في التوضيح نضرب هذا المثال: رجل ترك ثروة لولده، فسببت له عداوة الحساد، فيقال مجازا: خلق له والده حسادا.

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً. زخرف القول هو الكلام المموّه الكاذب، ظاهره الرحمة، و باطنه العذاب، و المعنى ان الأشرار يوسوس بعضهم الى بعض بالباطل المموه بالحق بقصد الإغراء بعمل القبيح، و معاندة الحق و أهله **وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ** ضمير فعلوه يعود الى عملهم القبيح، أي عداوة الأنبياء، و ايحاء بعضهم الى بعض، و المعنى ان اللّه لو أراد أن يمنعهم جبرا و قهرا عن القبح ما كان منهم ذاك العداء، و لا هذا الإيحاء، و لكن حكمته اقتضت أن يتركهم و شأنهم، و أن يكونوا مختارين غير مسيرين، فيحاسبون على ما يفعلون، و يعاقبون بما يستحقون **فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ** من الكذب، فعليك البلاغ، و علينا الحساب و الجزاء.

وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أي يوحي الأشرار بعضهم الى بعض زخرف القول ليستمع اليه الكفار **وَ لِيَرْضَوْهُ** بعد ان استمعوا اليه، و يعملوا به بلا بحث و تمحيص. و هاء يرضوه تعود إلى ما عادت اليه هاء ما فعلوه. **وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ** من المعاصي و الآثام، و يتميز المؤمن عن الكافر، و المخلص عن المنافق.

و الخلاصة ان الأبالسة الأشرار يزخرفون القول ليخدعوا به ضعاف النفوس، و يميلوا اليه، و يقترفوا الذنوب، قال أبو حيان الأندلسي: هذا الكلام في غاية البلاغة، لأنه أولا يكون الخداع، فيكون الميل، فيكون الرضا، فيكون الاقتراف، و كأن كل واحد مسبّب عما قبله.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٤ الى ١١٧]

أَ فَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)

اللغة:

الممترين المترددين الشاكين. و المراد بكلمة ربك هنا القرآن أو الإسلام.

و الخرص بفتح الخاء الكذب، يقال: تخرص و اخترص أي افترى و كذب، و الخراص الكذاب.

الاعراب:

غير مفعول أول لأبتغي، و حكما مفعول ثان، لأن معنى أبتغي اتخذ، و هي تتعدى إلى مفعولين. و صدقا و عدلا مفعول من أجله لتمّت. و اعلم من يضل (من) في محل نصب بنزع الخافض، أي اعلم بمن يسل و اعلم بالمهتدين، و يجوز أن يكون أعلم بمعنى يعلم و من مفعول: بل هو الأرجح عندنا.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٢

المعنى:

(أَ فَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً). الحكم بفتح الحاء و الكاف هو الحاكم الذي يحكم و يفصل بين الناس، و تتصل هذه الآية بالصراع و العداء بين النبي و المشركين الذين اقترحوا عليه الخوارق، و المعنى ان النبي (ص) قال للمشركين انكم تتحكمون في طلب المعجزات، و تقترحون علي الاقتراحات، و ليس لي أن أتعدى حكم اللّه، و قد أنزل عليكم القرآن كافيا وافيا بما تحتاجون من معرفة الحق و الحلال و الحرام، مغنيا عن غيره بمبادئه و تعاليمه، مثبتا لصدقه بأسلوبه المعجز، و شريعته الخالدة، و أخباره عن كثير من المغيبات، فطلبكم المزيد، و الحال هذه، إن هو إلا عناد و مكابرة.

(وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ). أي ان المنصفين من علماء اليهود و النصارى يعلمون علم اليقين بصدق القرآن و نبوة محمد (ص).

و مر نظيره في الآية ١٤٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٣٣ (فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) معنى الامتراء الشك، و قال كثير من المفسرين: الخطاب للنبي، و المراد به غيره على طريق التعريض، أما نحن فنرى ان الخطاب للنبي، و هو المراد دون غيره، مع علمنا بأن النبي لا يشك في القرآن، بل و محال عليه أن يشك، و صح توجه الخطاب اليه على عصمته لأنه من الأعلى الى من هو دونه، من اللّه لا من سواه. و تقدم ذلك أكثر من مرة.

(وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً). المراد بكلمة اللّه هنا القرآن أو الإسلام الذي أظهره اللّه على الدين كله و لو كره المشركون، و هذا هو المراد بتمامه، أما معنى (صِدْقاً وَ عَدْلاً) فهو ان القرآن صادق في كل ما قال، عادل في كل ما حكم و شرع لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ لأنها صدق و عدل، و كل ما هو صدق و عدل فهو من صلب الواقع، و لا شيء يقال له صدق و حق و عدل إذا لم يكن له أساس واقعي، و هذا الأساس لا يتغير و لا يتبدل، أي لا تنفك عنه الآثار و النتائج المترتبة عليه وَ هُوَ السَّمِيعُ لما يقولون بما يفعلون و يضمرون.

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٣

وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ. كل من دان بدين فانه يؤمن بصدقه ايمانا مطلقا، و يتعصب له تعصبا أعمى، و كل من رأى رأيا فانه يعتقد بصوابه، و بأن ما عداه و هم و خيال، و إذا أحصينا جميع الآراء و المعتقدات، و قسناها بمقياس اللّه و ميزانه جاءت النتيجة ان أكثر الناس يتبعون الظن الخاطئ، و الحدس الكاذب ..

و من أجل هذا أمر اللّه نبيه ان لا يستمع إلى الناس و لا يقرهم على عاداتهم و تقاليدهم، و ان عليه أن يتبع ما أوحاه اللّه اليه، لأنه هو طريق الحق و الهداية.

و إذا كان أكثر الناس على خطأ فيما يرون و يدينون فلا وزن- اذن- لأقوالهم و أحكامهم على هذا بالهداية، و ذاك بالضلال، و انما الحكم في ذلك للّه وحده، أي لما بينه من الأصول و الضوابط في كتابه الحكيم، و هذا هو المقصود بقوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. و من تلك الأصول الإلهية التي يتميز بها المحقون عن المبطلين قوله تعالى: وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ- ٣٣ فصلت.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٨ الى ١٢١]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَ ما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما

حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٤

الإعراب:

ما لكم ما استفهام مبتدأ، و لكم متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. و المصدر المنسبك من ألا تأكلوا مجرور بفي محذوفة، و المجرور متعلق بما تعلق به لكم.

و قد فصل الجملة حال من اسم الجلالة. و إلا ما اضطررتم ما في محل نصب بالاستثناء من **ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ**. و انكم لمشركون على حذف الفاء الواقعة في جواب الشرط أي و ان أطعتموهم فإنكم لمشركون.

المعنى:

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ. كان العرب في الجاهلية يأكلون الميتة، و يذكرون على ذبائحهم أسماء ما يعبدون من الأصنام، فحرم اللّه ذلك على المسلمين، و أباح لهم أكل الذبائح، شريطة أن يذكروا عليها اسم اللّه لا اسم سواه.

و تسأل: ان جواز الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم اللّه عليها غير منوط بالإيمان باللّه و آياته، إذ يجوز للكافر أن يأكل منها، كما ان الايمان باللّه غير منوط بالأكل من الذبيحة التي ذكر اسم اللّه عليها، حيث يكون المؤمن مؤمنا و ان لم يأكل منها .. و ظاهر الآية يشعر بأن الإيمان شرط لحلية الأكل من هذه الذبيحة، لأن معناها كلوا منها إن كنتم مؤمنين.

الجواب: ان قوله تعالى: ان كنتم بآياته مؤمنين ليس شرطا لحلية الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم اللّه عليها، و إنما هو اشارة الى ان من يذكر اسم غير اللّه على الذبيحة فقد جعل للّه شريكا، لأنه توجه في عمله هذا الى غير اللّه، كما كان يفعل مشركو العرب، و ان من ذكر اسم اللّه على الذبيحة فقد آمن باللّه و نفى عنه الشريك، لأنه توجه اليه وحده.

وَ ما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ. يظهر من هذا ان بعض المسلمين قد امتنع عن أكل الذبيحة التي ذكر اسم اللّه عليها لشبهة دخلت عليه، و هي كيف يجوز للإنسان أن يذبح الحيوان بيده و يذكر اسم اللّه عليه ثم يأكل

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٥

منه، و لا يجوز له أن يأكل من الحيوان الذي أماته اللّه حتف أنفه! فأنكر اللّه ذلك على هؤلاء، و قال: **ما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ ما اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**. يشير تعالى بقوله: و قد فصل لكم الخ، يشير الى الآية رقم ١٤٥ من هذه السورة، و يأتي الكلام عنها، و إلى الآية ١٧٣ من سورة البقرة، و تكلمنا في تفسيرها عن المحرمات، و عن حكم المضطر ج ١ ص ٢٦٤.

وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ. أي يحللون و يحرمون من غير دليل، و وفقا لشهواتهم، من ذلك ان مشركي العرب حللوا أكل الميتة و حرموا البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام، و سبق الكلام عن ذلك في الآية ٣ من سورة المائدة **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** الذين يحللون و يحرمون بأهوائهم و شهواتهم، و انه سيعاقبهم بما يستحقون.

وَ ذَرُوا ظٰاهِرَ الإِثْمِ وَ بٰاطِنَهُ. المراد بالإثم فعل الحرام الموجب له، و ظاهره ارتكاب المعصية علانية، و باطنه ارتكابها سرا، و قد نهى سبحانه عن اقتراف جميع المعاصي ما ظهر منها، و ما بطن إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمٰا كٰانُوا يَقْتَرِفُونَ من اتباع الأهواء بغير علم، و لا يتركون سدى من غير حساب و عقاب.

وَ لاٰ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ. ضمير انه يعود إلى الأكل، و هو مصدر متصيد من لا تأكلوا، و الفسق المعصية .. بعد أن أحل سبحانه ما ذبح على اسمه تعالى حرم ما لم يذكر اسمه عليه. و استنادا إلى ذلك أجمع الفقهاء، ما عدا الشافعية على ان الذابح إذا ترك التسمية عامدا حرمت الذبيحة، تماما كالميتة .. و يكفي مجرد اسم اللّه، مثل: اللّه. اللّه أكبر.

الحمد للّه. بسم اللّه. لا إله إلا اللّه، و نحو ذلك. و اختلفوا إذا تركت التسمية سهوا. قال الحنفية و الجعفرية و الحنابلة: لا تحرم الذبيحة. و قال المالكية:

تحرم. و قال الشافعية: لو ترك التسمية عمدا لا تحرم الذبيحة، فبالأولى لو تركها سهوا.

وَ إِنَّ الشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ لِيُجٰادِلُوكُمْ. المراد بالشياطين هنا أبالسة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٦

الأنس الذين يموهون الحقائق، و يزخرفون الأقوال، يخدعون بها السذج البسطاء ..

من ذلك ان بعض المشركين و أبالستهم كانوا يقولون لأتباعهم: اسألوا أصحاب محمد (ص) كيف تأكلون الحيوان الذي قتلتموه و ذبحتموه بأيديكم، و لا تأكلون الحيوان الذي قتله اللّه و أماته حتف أنفه، مع ان قتيل اللّه أولى بالأكل من قتيلكم؟ هذه هي مجادلتهم التي أوحى بها الشياطين لأوليائهم بقصد أن يلقوا الشبهة في قلوب ضعاف المسلمين، و يفتنوهم عن دينهم.

فقال سبحانه لهؤلاء الضعاف من المسلمين: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ.

أي من استمع إلى المشركين، و أحل أكل الميتة كما أحلوها فهو مشرك مثلهم.

و هذا الحكم لا يختص بأكل لحم الميتة، فكل من جحد حكما شرعيا، عالما بثبوته فهو كافر.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٢ الى ١٢٤]

أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكٰافِرِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا لِيَمْكُرُوا فِيهٰا وَ مٰا يَمْكُرُونَ إِلاّٰ بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغٰارٌ عِنْدَ اللهِ وَ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا كٰانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٧

اللغة:

القرية المكان الذي يجتمع فيه الناس قلّوا أو كثروا، و لكن كثر استعمالها في البلد الصغير فتغلبت عليه. و الصغار بفتح الصاد للذل و الهوان.

الإعراب:

أو من من بمعنى الذي مبتدأ، و خبره كمن. و مثله مبتدأ و خبره في الظلمات، و الجملة صلة كمن. ليس بخارج منها الجملة حال من الضمير في مثله.

و أكابر مفعول أول لجعلنا. و في كل قرية متعلق بمحذوف مفعولا ثانيا، و مجرميها مجرور باضافة أكابر. اللّه أعلم حيث يجعل رسالته أعلم هنا بمعنى يعلم، لأن التفاضل بين اللّه و غيره محال، و معنى حيث موضع الرسالة، أي محمد (ص)، و عليه تكون حيث في محل نصب مفعولا به لأعلم، و المعنى ان اللّه يعلم ان محمدا أهل لرسالته.

المعنى:

أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها. هذا مثل ضربه اللّه تعالى للمقارنة بين المؤمن و الكافر، و توضيحه ان المقارنة بينهما تماما كالمقارنة بين الموت و الحياة، و النور و الظلام، فالكافر ميت، فإذا آمن بعث من جديد و عادت اليه الحياة، و إيمانه نور يمشي به في حياته على بصيرة من أمره، و من بقي على الكفر و الشرك فهو كمن يتخبط في الظلمات، يسير على غير هدى، و لا يصل إلى خير مدى حياته كلها.

المسئولية و السائل الأعلى:

قد يقول القائل: ان الآية شبهت الإيمان بالحياة، و الكفر بالموت، مع أن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٨

الكافرين و الملحدين في هذا العصر أكثر ثراء و رفاهية من المؤمنين و العابدين؟.

الجواب: ليس المراد بالحياة في هذه الآية أن يعيش الإنسان في النعيم و الرفاهية، فيأكل طيبا، و يلبس ثمينا، و يشرب سائغا .. ان الرفاهية لا تناط بالكفر و لا بالإيمان، و الا كان المؤمنون سواء في الشرق و الغرب من حيث الحضارة و الرفاهية، و كذلك الملحدون و الكافرون، ان للرفاهية أسبابا و ملابسات لا تمت إلى الإيمان و الكفر بسبب .. و انما المراد بالحياة في الآية الايمان و الشعور الديني الذي يدفع بصاحبه الى القيام بالواجب كإنسان مسؤول عن سلوكه، يحاسب عليه و يكافأ على إحسانه بالثواب، و إساءته بالعقاب.

و لو كان الإنسان غير مسؤول عن شيء لكانت الشرائع و القوانين ألفاظا بلا معان .. و متى سلمنا بأن الإنسان مسؤول، و لا يترك سدى يلزمنا حتما أن نسلم بأنه مسؤول أمام من لا يسأل عما يفعل و هم يسألون .. و لو كان هذا السائل مسؤولا لوجب وجود سائل له، و هكذا إلى ما لا نهاية.

و من كفر بوجود السائل الأعلى الذي يسأل و لا يسأل فقد كفر بالمسؤولية و نفاها من الأساس، لأنه لا مسؤولية من غير سائل، و من كفر بالمسؤولية فقد كفر بالحياة الاجتماعية.

و تقول: أجل، ان الإنسان مسؤول، و لكن ليس من الضروري أن يكون السائل هو اللّه، فللناس أن يختاروا هيئة منهم يكون الإنسان مسؤولا أمامها ..

و نسأل بدورنا: إذا أخطأت هذه الهيئة فمن يسألها و يحاسبها، و ان قيل:

الوجدان، قلنا: أولا الوجدان أمر معنوي لا عيني. و ثانيا: ان الوجدان مشاع يدعيه كل واحد، فلما ذا يترك هذا لوجدانه دون ذاك؟ اذن، لا سائل غير مسؤول إلا اللّه وحده، فمن آمن باللّه و ألزم نفسه بشريعته و أحكامه فقد سار على بصيرة من أمره في عقيدته و سلوكه و إلا كان مثله كمن يمشي في الظلمات ليس بخارج منها.

كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكٰافِرِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ. أي مثل ما زيّن للمؤمنين أعمالهم أيضا زيّن للمشركين أعمالهم، و الفرق أن تزيين أولئك انعكاس عن الواقع، و تزيين هؤلاء و هم و خيال.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٥٩

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا. المراد بالقرية كل مجتمع من الناس قلّ أو كثر، و المعنى انه كما وجد في مجتمعك يا محمد رؤوس للاجرام تمكر و تنصب العداء لدين اللّه كذلك وجد في المجتمعات السابقة، و يوجد في اللاحقة أيضا رؤساء يمكرون بأمتهم، و يقفون موقف العداء للحق و أهله.

و تسأل: ظاهر الآية يدل على ان اللّه سبحانه هو الذي جعل أكابر المجرمين يجرمون و يمكرون بأهل الحق، مع العلم بأنه تعالى ينهى عن المكر و الإجرام، و يعاقب عليهما، فما هو التأويل؟.

الجواب: ان القصد من هذه النسبة اليه جل ثناؤه هو الاشارة إلى أن مشيئة اللّه قضت بأن تقوم السنن الاجتماعية على أساس التناقض بين المحقين و المبطلين، بين أرباب السلطان المعتدين، و بين الناس المعتدى عليهم، و لا مفر من هذا التناقض و الصراع إلا بالقضاء على المجرمين، و لا بد أن يتم ذلك، و تعلو كلمة الحق على أيدي دعاة العدل و الصلاح، مهما تضخم الباطل و استطال، و قد سجل سبحانه ذلك في كتابه، حيث قال عز من قائل: وَ لاٰ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَحْوِيلاً- ٤٣ فاطر. ان هذا التكرار تأكيد قاطع بأن العاقبة للمتقين على المجرمين، مهما طال الزمن، و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: لِيَمْكُرُوا فِيهٰا وَ مٰا يَمْكُرُونَ إِلاّٰ بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ.

وَ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ رُسُلُ اللّٰهِ.

اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على قولين: الأول ان أكابر المجرمين من العرب اقترحوا على محمد (ص) أن يأتيهم من المعجزات مثل ما أوتي موسى من فلق البحر، و عيسى من إحياء الموتى. القول الثاني: انهم قالوا له: لن نؤمن حتى ينزل علينا الوحي كما نزل على الأنبياء. و قال الرازي: هذا القول مشهور بين المفسرين. و نحن نرجحه على الأول لأن سياق الآية يدل عليه، حيث رد سبحانه على أكابر المجرمين بقوله: اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ.

بالاضافة إلى أن طلبهم أن ينزل اللّه الوحي عليهم يتلاءم مع حسدهم لرسول اللّه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٠

قال تعالى في الآية ٥٤ من سورة النساء: أَمْ يَحْسُدُونَ النّٰاسَ عَلىٰ مٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ. و في مجمع البيان و غيره، ان الوليد بن المغيرة قال للنبي (ص):

لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سنا، و أكثر منك مالا.

و معنى قوله: اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ واضح، و هو انه تعالى يختار لرسالته من يصلح لها من خلقه، و محمد أكرم خلق اللّه و أشرفهم.

سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغٰارٌ عِنْدَ اللّٰهِ لأنهم استعلوا و تعاظموا، فاستحقوا الجزاء بالاحتقار و الاذلال، و في بعض الروايات: ان المتكبرين يحشرون في صورة الذر يطأهم الناس بأقدامهم جزاء على تعاظمهم في الدنيا وَ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا كٰانُوا يَمْكُرُونَ. فالصغار جزاء التكبر، و العذاب جزاء المكر و الخداع، و بكلمة ان اللّه سبحانه يعامل أرباب النوايا الخبيثة، و الأهداف الفاسدة بعكس ما يقصدون و يهدفون.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٥ الى ١٢٧]

فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

اللغة:

الحرج أضيق الضيق. و دار السلام هي دار السلامة من المنغصات و الكروب، و المراد بها هنا الجنة. و الولي من يتولى الأمور.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦١

الإعراب:

صدره مفعول أول ليجعل، و ضيقا مفعول ثان، و حرجا صفة لضيق لأنه بمعنى شديد الضيق. و مستقيما حال من صراط ربك، و العامل فيه هاء التنبيه في هذا أو الاشارة لأنهما بمعنى الفعل. و لهم دار السلام مبتدأ و خبر، و هو وليهم مثله، و عند ربهم متعلق بمحذوف حالا من الضمير في لهم.

المعنى:

فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ. قال الرازي: تمسك أصحابنا- يريد السنة الاشاعرة- بهذه الآية في بيان ان الضلال و الهداية من اللّه تعالى.

أما أصحابنا فيقولون: لو كان الضلال و الهداية من اللّه لسقط التكليف، و بطل الحساب و الجزاء، لأنه تعالى أعدل من أن يفعل الشيء، و يحاسب غيره عليه، كيف؟. و هو القائل: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أما الآية التي نحن في صدد تفسيرها فلا تدل على دعوى الرازي و أصحابه، لأنها لم ترد لبيان مصدر الضلال و الهداية، و انه من اللّه أو من غيره، و انما وردت لبيان ان الناس فريقان:

الفريق الأول: تتسع صدورهم للحق، و يتفاعلون معه، و يطمئنون اليه، لوعيهم و تجردهم عن الأغراض و الأهداف الشخصية، و تحررهم من التقاليد و الأهواء، و هؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ- ١٨ الزمر. فقوله هم أولو الألباب يشعر بأن اللّه هداهم لأنهم من أولي الألباب، و انه تعالى يمد العبد بهدايته لحكمة في ذات العبد نفسه .. و أيضا هم المعنيون بقوله وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ- ١٣ الجن. و قوله: رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا- ١٩٣ آل عمران. و لما علم سبحانه الخير من هذا الفريق زادهم اللّه هدى، و أمدهم بتوفيقه و عنايته، قال تعالى: وَ يَزِيدُ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٢

اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً- ٧٦ مريم. و قال: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ- ١٧ محمد. و هكذا يهتم الأستاذ بتلميذه و يشجعه إذا علم منه الذكاء و النشاط.

الفريق الثاني: لا تتسع صدورهم للحق لجهلهم و ضيق أفقهم، أو لتناقضه مع منافعهم و أرباحهم، أو عاداتهم و تقاليدهم، و هؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ- ٢٢ الزمر. و قوله: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ

مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ- ٢ الأنبياء. و قوله:

وَ لَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ- ٢٣ الأنفال.

فاللّه سبحانه يعرض عن العبد، و يوكله الى نفسه إذا لم يعلم الخير منه، كما يهمل الأستاذ تلميذه بعد اليأس من نجاحه.

انظر تفسير الآية ٨٨ من النساء، فقرة: الإضلال من اللّه سلبي لا ايجابي ج ٢ ص ٣٩٩.

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ. كان الناس فيما مضى يضربون المثل للممتنع بالصعود الى السماء، حيث لا وسيلة اليه بحال، و التشبيه في الآية يتفق مع العصر الذي نزلت فيه، و القصد منه ان فريقا من الناس- و هم الفريق الثاني الذي أشرنا اليه- يجدون الضيق و العسر لو كلفوا باتباع الحق، تماما كما لو أمروا بالصعود الى السماء **كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ.**

المراد بالرجس هنا العذاب، لأنه جزاء الكافرين، و المعنى ان الذين وقعوا في الضيق و الحرج من اتباع الحق في الدنيا كذلك غدا يقعون في العذاب الذي هو أشد و أعظم عليهم ضيقا و حرجا من اتباع الحق: وَ قٰالُوا لاٰ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نٰارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا- ٨١ التوبة.

وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً. هذا إشارة إلى الإسلام الذي تنشرح له و تستريح به صدور الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و الإسلام هو الصراط الذي لا و عورة فيه و لا اعوجاج **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ.** أي أقمنا الدلائل و الحجج الواضحة الكافية على صحة الإسلام و صدقه في القرآن و آياته، و بها ينتفع الذين يعرفون دلائل الحق و به يعملون **لَهُمْ دٰارُ السَّلاٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ.**

و الذين يقيمون في دار اللّه هذه لا يمسهم السوء، و لا هم يحزنون، لأن اللّه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٣

كافلهم **وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** من الخيرات و الطاعات.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٨ الى ١٣٢]

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يٰا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قٰالَ أَوْلِيٰاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنٰا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنٰا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنٰا قٰالَ النّٰارُ مَثْوٰاكُمْ خٰالِدِينَ فِيهٰا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَ كَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظّٰالِمِينَ بَعْضاً بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يٰا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيٰاتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا قٰالُوا شَهِدْنٰا عَلىٰ أَنْفُسِنٰا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا وَ شَهِدُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كٰانُوا كٰافِرِينَ (١٣٠) ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهٰا غٰافِلُونَ (١٣١) وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

اللغة:

المعشر مثل القوم جمع أو اسم جمع لا واحد له من لفظه. و استكثر من الشيء أخذ الكثير منه. و المثوى المكان. و يقصون عليكم أي يتلون عليكم.

الإعراب:

يوم مفعول لفعل محذوف، أي أذكر يوم نحشرهم. و جميعا حال. و خالدين

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٤

حال من ضمير المخاطب في مثواكم. و الا ما شاء اللّه ما في محل نصب بالاستثناء من خالدين. و جملة يقصون في محل رفع صفة لرسل. و ذلك خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر ذلك. و ان لم يكن ان مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن محذوف، أي لأنه لم يكن. و لكل درجات مبتدأ و خبر، أي درجات كائنة لكل واحد. و مما عملوا متعلق بمحذوف صفة لدرجات. و ربك مبتدأ، و غافل خبر و الباء زائدة اعرابا.

المعنى:

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً أي الانس و الجن، و نقول: **يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ** أي استكثرتم من اغوائهم و اضلالهم **وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ** الضمير في أولياؤهم يعود الى الجن، أي ان الانس الذين تولوا الجن و أطاعوهم قالوا للّه تعالى: **رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ** أي ان الجن استمتعوا بالانس، و الانس استمتعوا بالجن، و بيّن الرازي وجه هذا الاستمتاع بقوله:

كان الانس يطيعون الجن، فصار الجن كالرؤساء .. فهذا استمتاع الجن بالانس، أما استمتاع الانس بالجن فهو ان الجن كانوا يدلون الانس على أنواع الشهوات و الطيبات، و يسهلونها عليهم.

وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا ما زال الكلام للانس الذين أطاعوا الجن، و المعنى ان استمتاع بعضنا ببعض كان إلى أجل معين، و وقت محدود، و هو اليوم الذي كان فيه فراقنا للحياة الدنيا .. و ها نحن بين يديك نعترف بذنوبنا، فاحكم فينا بما تشاء. **قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللهُ** هذا هو الحكم الفاصل، و الجزاء العادل **إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** يمضي قضاؤه بالناس على أساس الحكمة و العلم.

وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ. لما ذكر سبحانه في الآية المتقدمة ١٢٧ انه هو ولي المؤمنين ذكر هنا ان الكافرين من الجن و الإنس

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٥

بعضهم أولياء بعض، لأنهم شركاء في الكفر و الظلم، و يوم القيامة يكونون شركاء أيضا في العذاب و العقاب.

(يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا. هذا السؤال يوجهه اللّه سبحانه غدا للأشرار من الجن و الإنس، و هو للتأنيب و التوبيخ، و ليس على وجهه و حقيقته، لأن اللّه يعلم و هم يعلمون بأن اللّه قد أرسل لهم رسلا مبشرين و منذرين: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ- ٢٤ فاطر. **قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا** حيث لا مجال للإنكار في هذا الموقف .. و في موقف آخر أفسح لهم المجال فكذبوا، و قالُوا وَ اللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ و سبق الكلام عن ذلك في الآية ٢٣ من هذه السورة.

وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا و المراد انهم هم اغتروا بالحياة الدنيا، لأن الدنيا ما خبأت شيئا من عظاتها و تقلباتها **وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ** ذكر سبحانه أولا انهم قالوا شهدنا على أنفسنا، ثم عقب على ذلك بأنهم شهدوا على أنفسهم، و القصد من هذا التأكيد الردع و الزجر عن الكفر و المعصية، لأن من حاول أن يقترف ذنبا إذا أيقن انه سيضطر الى الاعتراف به أحجم و لم يقدم، ان كان عاقلا.

ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ. ذلك اشارة الى إرسال الرسل، و المعنى ان اللّه عادل لا يظلم أحدا، و لا يعاقب إلا بعد أن يرسل رسولاً يأمر و ينهى، فان لم يأتمر العبد و ينته أخبره الرسول بما يحل به إذا لم يتب و يرتدع، فان أصر عاقبه اللّه بما يستحق **وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا** فللمسيئين درجات حسب أعمالهم من السخرية

بالغمز الى نهب الشعوب أقواتها و إلقاء القنابل الذرية على الألوف، و للمحسنين درجات وفق أعمالهم من التحية الى الاستشهاد في سبيل الحق و الصالح العام وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ فكل شيء مسجل كبيرا كان أو صغيرا، حسنا أو قبيحا.

و تجدر الاشارة الى ما سبق مرارا من اننا نؤمن بوجود الجن اجمالا، لأن الوحي أثبته، و العقل لا ينفيه، تماما كما هو الشأن بالنسبة الى الملائكة، أما التفاصيل فما زالت في عالم الغيب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٦

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٣ الى ١٣٥]

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مٰا يَشٰاءُ كَمٰا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مٰا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عٰاقِبَةُ الدّٰارِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ (١٣٥)

اللغة:

يذهبكم أي يهلككم. و الإنشاء الابتداء، انشأ اللّه الخلق، أي ابتدأه. و مكانة الإنسان الحال التي هو عليها.

الإعراب:

كما أنشأكم الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف، أي يستخلفكم استخلافا مثل انشائكم. ان ما توعدون ما اسم ان و لآت خبرها.

المعنى:

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ بعد أن ذكر سبحانه انه يحاسب الناس وفق أعمالهم وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا أشار إلى انه غني عن العالمين، لا تنفعه طاعة من أطاع، و لا تضره معصية من عصى، و ان العالم كله بحاجة إلى رحمته لأنه تعالى هو السبب الأول لوجوده إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ لأنه غني عنكم وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مٰا يَشٰاءُ فيبدل بكم غيركم يكونون أطوع اليه منكم، و لكنه أمهلكم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٧

تفضلا منه و كرما كَمٰا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ أي كما هان عليه إيجادكم من جيل مضى يهون عليه إيجاد جيل جديد منكم أو من غيركم .. و القصد من هذه الآية أن ينذر جل ثناؤه الكافرين المعاندين بالهلاك و الدمار، تماما كما فعل بقوم نوح و عاد و ثمود.

إِنَّ مٰا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بعد أن خوّفهم سبحانه من عذاب الدنيا خوّفهم من القيامة و عذابها و انها آتية لا ريب فيها، و لا مهرب منها إلا اليه وحده.

قُلْ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عٰاقِبَةُ الدّٰارِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ. بعد أن دعا النبي (ص) عرب الجاهلية إلى الإسلام، و استجاب له منهم من استجاب، و عاند من عاند أمره اللّه جل و عز أن يقول للمعاندين: اعملوا على شاكلتكم التي أنتم عليها، و أنا عامل بهداية ربي، و بعد حين تعلمون لمن تكون العاقبة الحسنى، تماما كما تقول لمن يرفض النصيحة: ابق على طريقتك، و سترى عاقبة أمرك.

إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ لأنفسهم بالكفر، أو لغيرهم بالعدوان، و لو أفلح الظالم لكان العادل أسوأ حالا من الظالم، و كانت ألفاظ القيم ترادف النفاق و الرياء.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٦ الى ١٤٠]

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِراءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٨

اللغة:

ذرأ أي خلق على وجه الاختراع و الإبداع. و يلبسوا يخلطوا. و حجر أي محجور و ممنوع.

الإعراب:

ساء ما يحكمون، ساء فعل ماض، و ما مصدرية، و المصدر المنسبك فاعل أي قبح حكمهم. و حجر صفة للانعام و الحرث، و يستوي فيه الواحد و الكثير، و الذكر و الأنثى. و افتراء مفعول لأجله ليذكرون. و ما في بطون ما في محل رفع بالابتداء، و خالصة خبر، و أنث لفظ خالصة على معنى الانعام، و ذكر لفظ محرم حملا على لفظ ما. و اسم يكن ضمير مستتر يعود إلى ما في بطون.

و افتراء مفعول لأجله لحرموا.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٦٩

المعنى:

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ. الواو في جعلوا يعود إلى مشركي العرب، و ذرأ خلق، و الحرث الزرع، و الانعام المواشي، و النصيب السهم، و الشركاء الأصنام.

و محصل المعنى ان اللّه سبحانه بعد أن أبطل في الآيات السابقة عقيدة المشركين بمنطق العقل و الفطرة تعرض في هذه الآيات الى بعض ما كان مشركو العرب يزاولونه في أموالهم و أولادهم، و هذه الآية التي نفسرها تعرضت لشأنهم و تقاليدهم في ثروتهم المالية، و هي الزرع و الماشية، و كانوا- كما في كتب التفسير- يعينون شيئا من زرعهم و أنعامهم للّه، و يصرفونه الى الصبيان و المساكين، و شيئا لأصنامهم، و ينفقونه على سدنة الأصنام و حراسها، و كانوا يبالغون و يجتهدون في تنمية نصيب الأصنام، ليأتي نتاجه أكثر و أوفر من نصيب اللّه، لأن اللّه غني، و في الأصنام فقر، و كانوا إذا

خالط شيء مما جعلوه للّه ما جعلوه للأصنام تركوه لها، و إذا خالط شيء مما جعلوه للأصنام ما جعلوه للّه ردوه الى الأصنام، و أيضا إذا أصابهم الجدب أكلوا من نصيب اللّه، و تركوا نصيب الأصنام ..

و هذه الصورة أوضح تفسير للآية الكريمة **ساءَ ما يَحْكُمُونَ** في إيثار أصنامهم على اللّه تعالى علوا كبيرا.

وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ. تقدم ان المراد بالشركاء في الآية السابقة الأصنام، أما في هذه الآية فالمراد بهم الكهنة و سدنة الأصنام بطبيعة الحال، لأن الأصنام لا تشعر و لا تنطق، فكيف تزين و تغري؟.

و المعنى ان المشركين كما جعلوا في أموالهم نصيبا للّه، و نصيبا للأصنام كذلك زين لهم السدنة و الكهنة، و من اليهم من الرؤساء، زينوا لهم قتل أولادهم.

و تسأل: إن تصرف المشركين في أموالهم و أولادهم على النحو المتقدم كان بوحي من عرف الجاهلية، و معلوم ان العرف، يضعه الناس للناس، فإذا قتل واحد منهم ابنه خشية الفقر و الاملاق، أو وأد ابنته خوف

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧٠

العار، كما نسب الى قيس بن عاصم، قلده من هم على شاكلته في السفاهة و الجهالة ..

اذن، فما هو الوجه في نسبة ذلك إلى الأصنام، أو القائمين عليها؟.

الجواب: أجل ان تصرف المشركين كان بوحي من التقاليد، و لكن السدنة و الرؤساء قد زينوا هذه التقاليد و حبذوها، و هم الناطقون باسم الأصنام فصحت النسبة اليها.

لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ الواو يعود الى الكهنة و من اليهم، و ضمير هم يعود الى المشركين، و الرد هنا معناه الهلاك، و اللبس الخلط، و اللام للعاقبة و المعنى ان الكهنة زينوا للمشركين أعمالهم، فكانت نتيجة هذا التزين هلاك المشركين، و ضياعهم عن الحق و الدين القويم **وَ لَوْ شاءَ اللهُ ما فَعَلُوهُ** أي لو شاء اللّه أن يمنعهم عن ذلك جبرا و قهرا ما تصرفوا في أموالهم و أولادهم ذاك التصرف القبيح، و لكنه تركهم و شأنهم بعد أن هداهم النجدين. **فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ** من اضافة ما يحللون و يحرمون الى اللّه .. و الأمر بتركهم و افتراهم جاء لتهديد المشركين و وعيدهم، و ليس على وجهه و حقيقته، تماما كالأمر في قوله تعالى: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ- ٤١ فصلت.

ثم ذكر سبحانه في الآية التالية ان المشركين قسموا زرعهم و أنعامهم الى ثلاثة أقسام:

القسم الأول **وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ**. الحجر الحرام، أي ان المشركين كانوا يقتطعون قسما من زرعهم و ثمارهم و ماشيتهم، و يحرمون التصرف فيه إلا على من يختارون .. و لم يبين سبحانه الذين يختارهم المشركون لهذا القسم، و لكن بعض المفسرين قالوا: هم الكهنة و خدم الأصنام، و قال آخرون: هم الرجال دون النساء.

القسم الثاني **وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها** فلا تركب، و لا يحمل عليها، و تقدم ذكرها في الآية ١٠٣ من المائدة.

القسم الثالث **وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا** في الذبح، بل يذكرون اسم آلهتهم، و تقدم التفصيل عند تفسير الآية ١٢١ من هذه السورة **افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ** أي انهم نسبوا هذا التقسيم إلى اللّه كذبا و افتراء، و اللّه معاقبهم عليه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧١

وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ

سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. قال الرازي:

هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة- و تقدم ذكر الأقسام الثلاثة في الآية السابقة- كانوا يقولون في اجنة البحائر و السوائب: ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور، لا تأكل منه الإناث، و ما ولد ميتا اشترك فيه الذكور و الإناث.

سيجزيهم وصفهم، و المراد الوعيد **إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ليكون الزجر واقعا على حد الحكمة و بحسب الاستحقاق.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ. و أي شيء أكثر سفاهة من أقدام الوالد على ذبح ولده بمديته، أو دفنه حيا تحت التراب، و قوله بغير علم تأكيد للسفاهة، أما خسارتهم في الدنيا فتتمثل في قتل أولادهم، و فساد حياتهم الاجتماعية، و خسارتهم في الآخرة أدهى و أمر **وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ** من الأنعام و الحرث التي زعموا انها حجر **افْتِراءً عَلَى اللهِ** لأن التحريم منهم و ليس منه **قَدْ ضَلُّوا وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ** إلى شيء من الخير و الرشاد.

قال الرازي: ذكر اللّه أمورا سبعة، و كل واحد منها سبب تام في حصول الذم، و هي الخسران، و السفاهة، و الجهل، و تحريم ما أحل اللّه، و الافتراء عليه، و الضلال عن الرشد، و عدم الاهتداء .. ثم قال الرازي: فثبت انه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد و تحريم ما أحله اللّه تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الذم، و ذلك نهاية المبالغة.

و نقول للرازي: إذا كان اللّه قد ذمهم على الضلال بأعظم أنواع الذم و نهايته فكيف تدعي ان اللّه هو الذي خلق فيهم الضلال؟ و أي منطق يجيز أن يعاقب البريء و يذم على شيء فعله الذي ذمه و عاقبه؟. لقد تكرر ذلك من الرازي في تفسيره الكبير عدة مرات، منها ما قاله منذ قريب عند تفسير الآية ١٢٥ من هذه السورة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤١ الى ١٤٤]

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٤٣) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)

اللغة:

الجنات البساتين و الكروم. و المعروشات التي ترفع فروعها على دعائم، كالعنب، و غير المعروشات تترك على الطبيعة كالنخل، و الأكل بضم الهمزة و الكاف ما يؤكل.

و متشابه بالنظر و نحوه، و غير متشابه بالطعم و غيره. و الحمولة ما يحمل عليه الأثقال.

و الفرش ما يفرش للذبح من الضأن و المعز و صغار الإبل و البقر، أو ما يتخذ الفرش من صوفه و شعره و وبره.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧٣

الإعراب:

معروشات صفة لجنات، و النخل الزرع أي و ثمرة النخل، و حب الزرع، و مختلفا حال منهما، و أكله فاعل مختلفا، و الزيتون و الرمان عطف على جنات أي و أنشأ الزيتون و الرمان، و متشابها حال، و من الأنعام حمولة أي و أنشأ من الانعام حمولة، و ثمانية أزواج بدل من حمولة و فرشا، و اثنين بدل بعض من ثمانية، و الذكرين مفعول حرم، ام كنتم شهداء أم بمعنى بل.

المعنى:

بعد أن بيّن سبحانه في الآيات السابقة ان المشركين حرموا ما حرموا من الزرع و الانعام افتراء على اللّه- بيّن في هذه الآيات انه خلق الزرع و الانعام ليتنعم الإنسان بها، قال عز من قائل: **وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ** مرفوعة فروعها على دعائم **وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ** متروكة على الطبيعة **وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ** عطف على جنات من باب عطف الخاص على العام **مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ** فالحبوب على أصناف، و لكل صنف طعم، و الثمار أشكال ألوان طعما و رائحة، و البقول كذلك **وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ** أيضا عطف على جنات **مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ** فثمر الرمان يشبه بعضه بعضا، و لكن منه الحلو، و منه الحامض، و كذلك الليمون، و ثمر الزيتون منه الجيد و منه الرديء **كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ** لأنه خلق من أجلكم **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ** قيل: المراد بحقه الزكاة.

و قيل: الصدقة المستحبة، و كلا القولين خلاف الظاهر، و المتبادر الى الذهن أن يجمع و لا يترك عرضة للتلف و الضياع **وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** الإسراف تجاوز الحد، و قد نهى اللّه عنه، سواء أ كان في الإنفاق على النفس، أم الإعطاء إلى الغير.

وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً أي و أنشأ من الانعام ما يحملكم و يحمل أثقالكم كالإبل و البقر، و ما تذبحونه و تنتفعون بلحمه و صوفه و شعره و وبره **كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ** كهذه الانعام و غيرها، و اشكروه على نعمه **وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ**

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧٤

بتحليل ما حرم اللّه، و تحريم ما أحله، و بالإسراف و التبذير **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** يأمركم بالسوء و الفحشاء و ان تقولوا على اللّه ما لا تعلمون.

ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ. كلمة الزوج تطلق على كل واحد له قرين، كأحد الزوجين من الذكر و الأنثى، و أحد النعلين، و يقال للاثنين معا: زوجان **مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ** الذكر و الأنثى، و كلمة الضأن تختص بالغنم ما نص أهل اللغة، و لا تشمل المعز بدليل عطفه على الضأن **وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ** الذكر و الأنثى:

و المعز جنس له واحد من لفظه، و هو ماعز للذكر و الأنثى، و يقال للأنثى:

ماعزة و معزاة **قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ** الذكر من الضأن و الذكر من المعز **أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ** الأنثى من الضأن و الأنثى من المعز **أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ** أم حرم الأجنة في بطن الأنثى من الضأن، و بطن الأنثى من المعز **نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** لا بحدس و هوى و تقليد. لأن التحريم يحتاج إلى دليل قاطع، فأين هو؟.

وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ الذكر و الأنثى، الجمل و الناقة، و الإبل اسم جمع كالقوم لا واحد له من لفظه. **وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ** الذكر و الأنثى **قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ** من الإبل و البقر **أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ** منهما **أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ** أم الأجنة في

بطن الناقة، و بطن البقرة. **أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهذا** زعموا ان اللّه هو الذي حرّم ما حرموا من الأنعام و الحرث، فقال لهم: ان الشيء لا يثبت إلا بواحد من اثنين: اما بالعيان، و إما بشهادة الشاهد الصادق، و أنتم لم تأخذوا التحريم من اللّه مباشرة، و لا بواسطة أنبيائه و رسله، فمن أين أتيتم بهذه الأحكام؟. **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً** إذا لم تعاينوا، و لم يشهد لكم شاهد أمين فأنتم- اذن- مفترون، و المفتري ظالم آثم، بل أنتم أظلم من كل ظالم، لأنكم على اللّه، لا على سواه تفترون .. **لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ** يصدهم عن سبيل اللّه، و في الوقت نفسه يزعم انه الهادي الى دين اللّه، شأن أكثر المعممين في هذا العصر **إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** لأنهم قطعوا كل صلة بينهم و بين اللّه، بل حرموا حلاله، و حللوا حرامه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٥ الى ١٤٧]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)

اللغة:

طاعم يطعمه، أي آكل يأكله. و الميتة ما مات حتف أنفه. و الدم المسفوح يخرج بدفق كدم العروق، و غير المسفوح يسح سحا كدم الكبد. و الرجس القذر. و الإهلال رفع الصوت، و المراد بأهل لغير اللّه ذبح باسم غير اللّه. و الباغي من يرتكب الحرام من غير ضرورة، و العادي من يتجاوز الحد. و حملت ظهورها علقت بها. و الحوايا جمع حاوية، و هي المصارين و الأمعاء، لأنها تحوي الفضلات و قيل: الحوايا كل ما تحويه البطن. و ما اختلط بعظم قال الرازي: هو شحم الألية في قول جميع المفسرين. و اختلاطه بالعظم هو اتصاله بالعصعص.

الإعراب:

محرما صفة لمفعول محذوف، أي مطعوما محرما أو طعاما محرما. و اسم يكون

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧٦

ضمير مستتر، و ميتة خبر، و التقدير إلا أن يكون المحرم أو المأكول ميتة، و المصدر المنسبك من أن يكون منصوب على الاستثناء المنقطع، لأنه مستثنى من غير المحرم. أو فسقا عطف على لحم الخنزير. إلا ما حملت ما في موضع نصب على الاستثناء المنقطع من شحومها. و ذلك مفعول جزيناهم.

المعنى:

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. الرجس القذر، و الفسق الحرام، بعد أن بيّن سبحانه افتراء المشركين على اللّه فيما حللوا و حرموا من المأكولات- بيّن في هذه الآية المحرمات عند اللّه سبحانه مما يؤكل، و هي أربعة: الميتة، و الدم المسفوح، و لحم الخنزير، و ما ذبح على غير اسم اللّه، و لا يجوز

لأحد أن يتناول منها شيئا إلا المضطر إلى أكلها، فله، و الحال هذه، أن يتناول منها ما يدفع به الضرر عن نفسه، و تقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤. و أجبنا هناك عن سؤال من سأل ان ظاهر الآية يدل على حصر المأكولات المحرمة بهذه الأربعة، مع انها كثيرة، و أيضا سبق الكلام عن ذلك بصورة أوسع في أول هذا المجلد عند تفسير الآية ٣ من سورة المائدة.

وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا. الذين هادوا هم اليهود .. حرّم سبحانه الأصناف المذكورة في الآية السابقة على الناس جميعا اليهود و غير اليهود، أما المحرم في هذه الآية فيختص باليهود وحدهم بدليل قوله: **وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا**.

أولا: **كُلَّ ذِي ظُفُرٍ** بجميع أجزائه، دون استثناء، و قال الطبري في تفسيره: ذو الظفر من البهائم و الطير ما لم يكن مشقوق الأصابع- يريد منفرج الأصابع- كالإبل و النعام و الأوز و البط.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧٧

ثانيا: **وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما**. لم يحرم على اليهود جميع أجزاء البقر و الغنم، بل اللحم الأبيض، دون اللحم الأحمر، بل استثنى من شحوم البقر و الغنم ثلاثة أصناف: الأول ما أشار اليه بقوله: **إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما** و هو الشحم الملتصق بالظهر. الثاني: **أَوِ الْحَوايا** و هي المصارين و الأمعاء، و المراد ان الشحوم الملتصقة بها غير محرمة. **أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** و هو شحم الألية في قول جميع المفسرين على عهدة الرازي، أما العظم الذي اختلط به شحم الألية فهو العصعص.

ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ هذا بيان لسبب حرمان اليهود من هذه الطيبات، و انه جزاء على جرائمهم التي لا يبلغها الإحصاء، و منها قتل الأنبياء، و أكلهم أموال الناس بالباطل، و قولهم: اللّه فقير، و يده مغلولة ..

و في تفسير الآية ٩٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١١٤ ما يتصل بقوله تعالى:

و على الذين هادوا حرمنا.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

أي ان كذبوك يا محمد فلا تؤيسهم من رحمة اللّه، و قل لهم: ان اللّه بقبلكم و يصفح عنكم ان تبتم و أنبتم، كما انه ينتقم منكم إذا أصررتم على ما أنتم عليه، و في هذه الآية وعد و وعيد، رضا اللّه و غضبه، رضاه عمن التجأ اليه طالبا المغفرة، و غضبه على من أصر على التمرد و العناد: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ- ٧ ابراهيم.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٨ الى ١٥٠]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

الإعراب:

و لا آباؤنا عطف على ضمير أشركنا. و من شيء من زائدة، و شيء مفعول حرمنا. و هلم معناها الدعاء كتعال، و هي هنا متضمنة معنى الحضور أي احضروا شهداءكم. قال أبو البقاء: للعرب في هلم لغتان: إحداهما أن تكون بلفظ واحد للواحد و المثنى و الجمع و المذكر و المؤنث، فتكون اسم فعل، و بنيت لوقوعها موقع فعل الأمر. اللغة الثانية أن

تصرف، فيقال: هلما و هلمي و هلممن و هلموا، فتكون فعلا.

المعنى:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ.

الذين يتقبلون النصح، و يتبعون أحسن القول قليلون جدا، و أقل منهم من يرون عيوب أنفسهم و يعترفون بها .. فإن الأكثرية الغالبة يرون عيوبهم فضائل، و سيئاتهم حسنات: كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ- ١٢ يونس.

فإن عجزوا عن تحسين قبائحهم تبرأوا منها، و أحالوها إلى مشيئة اللّه، أو إلى أي مصدر آخر .. و اللّه سبحانه منزه عما يصفون .. انه يأمرهم و ينهاهم، و يجعل لهم الخيار فيما يفعلون و يتركون، ليهلك من هلك عن بينة، و يحيا من حي عن بينة و ما لأحد على غيره من سلطان، حتى الشيطان يقول:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٧٩

لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ- ٢٢ إبراهيم.

و في الآية التي نحن بصددها حكى سبحانه ادعاء المشركين ان شركهم و شرك آبائهم، و تحريم ما حرموا من الحرث و الانعام إنما كان بمشيئة اللّه و أمره، و لو شاء أن لا يشركوا لمنعهم عن الشرك **كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا** أي لقد كذّب مشركو العرب بمحمد (ص) الذي نهاهم عن الشرك و الافتراء على اللّه، تماما كما كذّب من كان قبلهم بأنبياء اللّه و رسله، و لم يصدقوهم إلا بعد أن نزل بهم العذاب جزاء على تكذيبهم.

و بعد أن حكى سبحانه ادعاء المشركين و انه في الكذب كادعاء أسلافهم أمر رسوله ان يرد عليهم بسؤال يخرسهم، و يبطل ادعاءهم، و هو **قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا** المراد بالعلم هنا الدليل، و هو من باب اطلاق المسبب على السبب، لأن الدليل سبب لحصول العلم، و القصد من هذا السؤال اظهار عجزهم و كذبهم، لأن معناه لقد زعمتم أيها المشركون ان الشرك كان برضا من اللّه، فمن الذي قال هذا؟. و من أين علمتم بمشيئته تعالى؟. انها من غيبه، و لا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول، و الرسول لم يقل هذا لكم و لا لغيركم- اذن- كيف تحيلونه على اللّه جل ذكره؟.

إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ. و نحن لا نشك أبدا بأن أكابر المجرمين يعلمون انهم يخرصون و يكذبون فيما قالوا، و انما قالوا عنادا للحق الذي يزهق أباطيلهم، و يقضي على أغراضهم و مكاسبهم العدوانية.

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ بيّن سبحانه في الآية السابقة ان المشركين لا حجة لهم على ما يدعون سوى الظن و التخرص، و في هذه الآية بيّن ان الحجة القاطعة هي للّه وحده عليهم و على غيرهم، و معنى بالغة انها قد بلغت من القوة ما تقطع بها كل عذر **فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ.** في المجلد الأول ص ٧٢ ذكرنا ان للّه إرادتين: ارادة الخلق و التكوين، و هي عبارة عن قوله: كُنْ فَيَكُونُ و ارادة الطلب و التشريع، و هي عبارة عن أمره و نهيه، و انه سبحانه يخلق الكون بإرادته التكوينية و لا يتدخل- ان صح التعبير- بهذه الارادة في شئون الناس

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٠

الاجتماعية، بل بإرادة التشريع و الإرشاد، و بهذا يتضح معنى قوله: **(فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ** أي لو أراد أن يتدخل في شئونكم الاجتماعية بإرادة كُنْ فَيَكُونُ لآمنتم جميعا، و لكنه لا يفعل، لأنه لو فعل لبطل التكليف، و انتفى الثواب و

العقاب.

و بتقرير ثان ادعى المشركون ان شركهم كان بمشيئة اللّه، فأبطل سبحانه دعواهم هذه بأنها من غير دليل، لأن اللّه لا يتدخل في شئون عباده بإرادة التكوين سلبا و لا إيجابا .. و لو سلّم- جدلا- انه يتدخل بهذه الارادة التي تلجئ الإنسان إلجاء، لو افترض هذا لألجأهم سبحانه إلى الإيمان بوحدانيته بطبيعة الحال، و لم يلجئهم إلى عصيانه و الكفر به و جعل الشريك له.

(قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا. افترى المشركون على اللّه الكذب في تحريم ما حرموا من الحرث و الأنعام، و أيضا افتروا عليه في نسبة شركهم اليه، فأمر نبيه محمدا في الآية الأولى أن يقول لهم: هل عندكم دليل على ما تدعون، فتخرجوه لنا؟. ثم أمره في الآية الثانية أن يقول لهم: ان الدليل القاطع لكل شبهة ملك للّه، لا لكم، ثم أمره في هذه الآية أن يقول لهم: أروني من يشهد بأن اللّه أوحى اليه مباشرة، أو بواسطة نبي من أنبيائه انه تعالى حرم ما حرمتم أيها المشركون، لأن الشهادة الحقة يشترط فيها العلم القاطع للشك و الاحتمال، و لا وسيلة للعلم بحرام اللّه و حلاله إلا الوحي، فأحضروا من يشهد به **فَإِنْ شَهِدُوا** على سبيل الفرض **فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ** هذا النهي كناية عن كذبهم في شهادتهم، لأن النبي محال أن يشهد مع المشركين .. و الكناية أبلغ من التصريح.

وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. بعد أن حكم اللّه عليهم بالكذب و الافتراء بيّن علة حكمه بأمور ثلاثة: الأول انهم يتبعون الأهواء و الشهوات، و عبّر عن ذلك بقوله: **وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا** لأن النبي محال أن يتبع من كذّب بنبوته. الثاني انهم **لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** و من لا يؤمن بالآخرة لا يخشى عاقبة الكذب.

الثالث انهم **بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** أي يجعلون له عدلا يشاركه في الخلق، و من يشرك باللّه فلا تقبل له شهادة، لأنه قد ارتكب أقبح القبائح.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥١ الى ١٥٣]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

اللغة:

الإملاق الإفلاس، و منه الملق و التملق لأن المفلس يتملق لأرباب المال طمعا في العطية. و أشد بضم الشين قال صاحب مجمع البيان: هو جمع شد، مثل الأشر جمع شر، و الأضر جمع ضر. و أيا كان فان المراد به هنا الإدراك و البلوغ.

الإعراب:

اتل ما حرم ما مفعول اتل. و ان لا تشركوا ان مفسرة بمعنى أي

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٢

و لا ناهية، و يجوز أن تكون ان ناصبة و لا نافية، و المصدر المنسبك بدل من ما حرم. و شيئا مفعول مطلق لتشركوا لأن المراد به الاشراك. و إحسانا مفعول لفعل محذوف أي أحسنوا بالوالدين إحسانا، أو أوصيكم بهما إحسانا. و ما ظهر منها و ما بطن بدل اشتمال من الفواحش. إلا بالحق في موضع الحال، أي الا محقين. ذلك وصاكم به مبتدأ و خبر. و لو كان ذا قربى اسم كان محذوف أي و لو كان المقول له. **وَ أَنَّ هٰذٰا** المصدر المنسبك من ان و ما بعدها مجرور بلام محذوفة، و المجرور متعلق باتبعوه. و مستقيما حال من صراطي.

المعنى:

أشار سبحانه في الآيات السابقة الى ان المشركين حللوا و حرموا بالحدس و الأهواء، و انهم نسبوا الشرك اليه جهلا و افتراء، ورد عليهم بمنطق العقل و الفطرة، و ذكر من المحرمات الميتة و الدم المسفوح و لحم الخنزير و ما أهل لغير اللّه، و في هذه الآيات الثلاث ذكر طرفا من المحرمات، و هي التي لا يختص تحريمها بشريعة من الشرائع السماوية، و ذكر الى جانبها بعض الواجبات كالوفاء بالكيل و الميزان، و بعهد اللّه و اتباع العدل .. و بديهة ان كل ما وجب فعله حرم تركه، و كل ما حرم فعله وجب تركه، و أطلق بعض المفسرين على محتويات هذه الآيات الثلاث الوصايا العشر.

الوصايا العشر:

١- **قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**. ابتدأ سبحانه بالأصل الأول من العقيدة، و هو نفي الشرك الذي يقابله ثبوت التوحيد، و اليه ترجع جميع الأصول و الفروع، و منه تستمد جميع الحقوق و الواجبات، و به تقبل الطاعات و عمل الخيرات، و يتلخص معنى التوحيد بقوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لا في الذات و لا في الصفات و لا في الأفعال.

٢- **وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً**. قرن سبحانه الوصية بالوالدين بربوبيته المتفردة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٣

إشعارا بأن الإحسان اليهما يجب أن يكون فريدا في بابه .. فكأنه قال: لا تشركوا باللّه، و لا تشركوا بالإحسان إلى الوالدين إحسانا. و تكلمنا بشبهه عن البر بالوالدين عند تفسير الآية ٨٣ من سورة البقرة ج ١ ص ١٤١.

٣- **وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ مِنْ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّٰاهُمْ**. بعد ما أوصى الأبناء بالآباء أوصى الآباء بالأبناء. و سبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٣٧ من هذه السورة.

٤- **وَ لاٰ تَقْرَبُوا الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ**. كل ما تجاوز الحد في القبح فهو فحش، و منه الزنا و اللواط و الظلم و التهتك و التبرج، و الكذب و الغيبة و النميمة و اللؤم و الحسد، و أعظم الفواحش كلها الإلحاد و الشرك باللّه، و عقوق الوالدين، و قتل النفس المحترمة، و أكل مال اليتيم، و إنما أفرد اللّه هذه بالذكر، مع انها تدخل في الفواحش للتنبيه إلى انها قد بلغت الغاية و النهاية من القبح و الفحش، سواء اقترفت سرا أم علانية، و عن ابن عباس ان أهل الجاهلية كانوا يكرهون الزنا علانية، و يفعلونه سرا، فنهاهم اللّه عنه في الحالين.

و عن رسول اللّه (ص) انه قال: الا أخبركم بأبعدكم مني شبها؟ قالوا:

بلى يا رسول اللّه. قال: الفاحش المتفحش البذيء البخيل المختال الحقود الحسود القاسي القلب البعيد عن كل خير يرجى غير مأمون من كل شر يتقى.

٥- **وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**. الأصل في قتل النفس التحريم، و لا يحل إلا بسبب موجب، و هو واحد من أربعة: نصت السنة النبوية على ثلاثة منها، و هي قوله (ص): لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد ايمان، وزنا بعد إحصان، و قتل نفس بغير حق. و نص الكتاب على السبب الرابع في الآية ٣٣ من سورة المائدة: إِنَّمٰا جَزٰاءُ الَّذِينَ يُحٰارِبُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا. **ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** أي تعرفون قبح الشرك و قتل النفس و الفواحش، و حسن البر بالوالدين.

٦- **وَ لا تَقْرَبُوا مٰالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**. و النهي عن القرب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٤

منه أبلغ من النهي عنه بالذات، و يعم جميع وجوه التصرف، كما ان التي هي أحسن أبلغ من التي هي حسنة، و المعنى المقصود هو التشدد في شأن أموال كل قاصر عن التصرف في أمواله إلا على الوجه المألوف يتيما كان أو مجنونا أو سفيها أو غائبا أو صغيرا يتولى أبوه شئونه المالية، و ان على أولياء هؤلاء أن يحافظوا على أموال القاصرين، و يدبروها لمصلحتهم، و من هنا ذهب جماعة من كبار الفقهاء الى أن تصرفات الولي في مال القاصر لا تنفذ إلا مع الغبطة و المصلحة، و نحن على هذا الرأي، حتى و لو كان الولي أبا أو جدا لأب، و دليلنا كلمة أحسن. أما حديث: أنت و مالك لأبيك فهو حكم أخلاقي لا شرعي بدليل كلمة انت فان الابن ليس سلعة يملكها الأب.

و تسأل: ان كلمة اليتيم يختص بمن مات أبوه، و هو صغير، فكيف جعلتها عامة تشمل كل قاصر؟.

الجواب: نحن نعلم علم اليقين ان السبب المبرر لوجوب التصرف بالتي هي أحسن هو القصور، و ليس اليتم بما هو يتم، و القصور متحقق في الجميع من غير تفاوت.

حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ و تجد تفسيره في الآية ٥ من النساء: وَ ابْتَلُوا الْيَتٰامىٰ حَتّٰى إِذٰا بَلَغُوا النِّكٰاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ و تقدم تفسيرها في ج ٢ ص ٢٥٦.

٧- **وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزٰانَ بِالْقِسْطِ** بعتم أو اشتريتم **لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا** هذه جملة معترضة، و القصد منها التنبيه الى ان الوفاء المطلوب بالكيل و الميزان هو الوفاء الممكن المعروف بين الناس، و هم يتسامحون بزيادة ما قل أو نقصانه، لأن مراعاة الحد العادل فيه نحو من العسر و الحرج وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ. و على أية حال، فإن الأساس في شتى أنواع التجارة هو رضى الطرفين، سواء أ كانت السلعة مما يكال أو يوزن أو يعد أو يذرع، أو يقدر بالفكر كالكتاب، أو النظر كالقطعة الفنية.

٨- **وَ إِذٰا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ** هذا هو المحك لمن يخاف اللّه و يخلص له و يشعر أمامه بالمسؤولية، لا أمام زوجة أو أب أو أم أو ابن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٥

أو صهر .. لا شيء إلا الحق و العدل، أما من يتكلم باسم الدين، ثم يميل به هواه مع قريب أو صديق فما هو من الدين في شيء.

٩- **وَ بِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا**. و كل ما أمر اللّه به، و نهى عنه فهو عهد اللّه، أما الوفاء به فامتثاله و طاعته **ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** و لا تغفلون عن طاعة من لا يغفل عنكم.

١٠- **وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً** هذا اشارة إلى كل ما ذكر، و هو صراط اللّه المستقيم، و ليس بعده إلا الضياع و

الضلال **فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** كالشرك و الإلحاد و الأحزاب و الأديان الباطلة **فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**. فأية سبيل غير القرآن و الإسلام فهي من وضع الأهواء، و ليس للأهواء حد و لا ضابط، فإذا اتبعها الناس تفرقوا شيعا و أحزابا متناحرة، أما إذا اتبعوا جميعا دين اللّه فتوحدهم العقيدة الحقة، و الإيمان القويم، و في الحديث: ان النبي (ص) خط خطا بيده، و قال: هذا سبيل اللّه مستقيما، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط و عن شماله، و قال: هذه ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه، ثم قرأ: **وَ أَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ** .. **ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** سبل الشيطان التي تميل بكم مع الأهواء و الشهوات.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٤ الى ١٥٧]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَ هٰذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلىٰ طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٦

الاعراب:

تماما حال بمعنى متمم. و مبارك صفة لكتاب، و المصدر المنسبك من أن تقولوا مجرور بإضافة مفعول من أجله محذوف، و التقدير أنزلناه كراهية القول. و إن كنا ان مخففة من الثقيلة مهملة عن العمل. و اللام في لغافلين هي اللام الفارقة بين إن المخففة و ان النافية. و عن دراستهم متعلق بغافلين.

المعنى:

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ حار المفسرون في ثم لأن الحديث في الآيات السابقة كان عن القرآن، و هذه الآية تحدثت عن التوراة، و قد نزلت قبل القرآن، و ثم تدل على التراخي و تأخير ما بعدها عما قبلها زمانا، فكيف يعطف المتقدم على المتأخر في الزمان؟. و ذكر الرازي لذلك ثلاثة وجوه، و زاد الطبرسي رابعا .. و نحن لا نرى مسوغا للاطالة في ذلك، لأن الترتيب هنا في القول، لا في الزمان، و العطف من باب عطف خبر على خبر، لا من باب عطف معنى على معنى.

تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ تماما بمعنى متمم، و على هنا بمعنى اللام، كما هي في قوله تعالى: وَ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلىٰ ما هَداكُمْ أي لهدايتكم كما في مغني ابن هشام، و المعنى آتينا موسى الكتاب، و هو يتمم نقص الذي أحسن الانتفاع به، كقوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً- ٣ المائدة. **وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ** هذه صفة ثانية لكتاب موسى (ع) و انه يشتمل على جميع الأحكام التي يحتاج اليها ناس ذاك

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٧

العصر. قال تعالى: وَ كَتَبْنا لَهُ- أي لموسى- فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ- ١٤٤ الأعراف. **هُدىً وَ رَحْمَةً** وصفان آخران لكتاب موسى. و بالهدى يعرف الناس الحق و الخير، و بالرحمة يحيون حياة طيبة هادئة **لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** ضمير يؤمنون يعود إلى بني إسرائيل و المعنى آتينا موسى كتابا جامعا لكل ما ذكرنا من أوصاف،

كي يؤمن قومه باللّه و ثوابه و عقابه، و لكنهم أصروا على العناد، و قالوا فيما قالوا: يا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً- ٥٥ البقرة. و على فرض أن يروا اللّه جهرة- و فرض المحال ليس بمحال- فإنهم يقولون: ما هذا بإله، لأنه ليس جنيها و لا دولارا.

وَ هٰذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ هذا إشارة إلى القرآن الكريم، و هو مبارك لأنه كثير الخير و النفع **فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** اتبعوا ما أمركم به، و اتقوا ما نهاكم عنه، كي تشملكم رحمته دنيا و آخرة.

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمٰا أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلىٰ طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ. الخطاب في أن تقولوا موجه لمشركي العرب، و المراد بالكتاب التوراة و الإنجيل، و بطائفتين أهل الكتاب، و هم اليهود و النصارى، و ضمير دراستهم يعود إلى أهل الكتاب، و المعنى يا معشر العرب لقد أنزلنا القرآن بلسانكم، و على رجل منكم و فيكم، لئلا تعتذروا عن شرككم بأنه لم ينزل كتاب من السماء بلسانكم، و إنما نزل على اليهود و النصارى، و نحن كنا غافلين عن دراسة كتابهم و تعاليمه لا ندري ما فيه، لأن لسانهم غير لساننا.

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدىٰ مِنْهُمْ. في الآية السابقة قال تعالى لمشركي العرب: أنزلنا القرآن بلسان عربي مبين لئلا تقولوا غدا:

ان التوراة و الإنجيل نزلا بلغة كنا عنها غافلين، لا نعرف شيئا منها، و في هذه الآية قال لهم: أو تقولوا يا معشر العرب: لو نزل الكتاب علينا و بلغتنا لكنا أهدى و أسبق من اليهود و النصارى إلى الإيمان. و بالاختصار ان هذه الآية و التي قبلها أشبه بقول القائل: ان فلانا يملك ثروة كبرى، و أنا لا أملك شيئا، و لو ملكت لفعلت كذا و كيت. فرد اللّه عليهم بجواب قاطع لكل عذر: **فَقَدْ**

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٨

جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ و المراد بالبينة القرآن، و فيه الدلائل و البينات على صدق محمد (ص)، و فيه أيضا الأحكام و التعاليم التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنْهٰا أبدا لا أحد أشد لؤما و ظلما لنفسه و للناس ممن كفر بالحق و الخير، و سعى في الأرض فسادا بصده عن سبيل اللّه **سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ** صدف عن الشيء أعرض عنه، و آيات اللّه حججه و دلائله، و المعنى انه جل ثناؤه أقام البرهان القاطع على وحدانيته و على نبوة محمد و صدق ما جاء به من ربه، و لكن المشركين أعرضوا و أبوا أن يتدبروا تلك الحجج عنادا منهم للحق و أهله، فاستحقوا بذلك الخزي و العذاب الأليم.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٨ الى ١٦٠]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لاٰ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمٰا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَها وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (١٦٠)

اللغة:

الشيع جمع واحدها الشيعة، و معناها الفرقة، قال تعالى: و لقد أرسلنا من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٨٩

قبلك في شيع الأولين، أي في فرقهم، و قال: ثم لننزعن من كل شيعة أي من كل فرقة.

الاعراب:

يوم يأتي يوم منصوب على الظرفية متعلق بلا ينفع. أمثالها صفة لمحذوف أي عشر حسنات أمثالها.

المعنى:

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ. الاستفهام هنا للإنكار، و المراد بينظرون ينتظرون .. بعد أن ذكر سبحانه ان المشركين أعرضوا عن دلائل القرآن، و رفضوا أن يتدبروها قال في هذه الآية: انهم لا يؤمنون إلا بأحد أمور ثلاثة: الأول مجيء الملائكة. الثاني مجيء الرب. الثالث مجيء بعض الآيات. و لكنه سبحانه لم يبين أي الملائكة الذين يجب أن تأتيهم، كي يؤمنوا: هل ملائكة الموت أو غيرهم، و لا بيّن المراد بمجيء الرب: هل مجيئه هو بزعمهم، أو مجيء أمره، كما هو الواقع؟

و أيضا لم يبين نوع بعض الآيات: هل الآيات التي اقترحوها، أو علامات القيامة؟

و قال أكثر المفسرين أو الكثير منهم: ان المراد بالملائكة ملائكة الموت، و بمجيء الرب مجيء عذابه و انتقامه، و ببعض الآيات أشراط الساعة، أي أولها و العلامات الدالة عليها .. و هذا التفسير غير بعيد، لأن الكلام الذي عقب به سبحانه هذه الأمور الثلاثة يشعر بقول المفسرين و يعززه، و هو قوله تعالى:

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً. يقول عز من قائل: ان التوبة و الإيمان عند مجيء أحد هذه الأمور لا يجدي شيئا، و انما الذي يجدي هو الإيمان و العمل الصالح الذي يكسبه المؤمن قبل أن يلجأ إلجاء إلى ذلك، إذ لا تكليف حين النزع و الاحتضار، و لا عند اشتراط الساعة، أو نزول العذاب، و مع عدم التكليف

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩٠

يكون الإيمان و عدمه سواء، و قوله تعالى: **أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً** يومئ إلى أن الإيمان باللّه ينجي صاحبه من الخلود في النار، لا من عذاب النار، أما من آمن و عمل صالحا فلا تمسه النار إطلاقا. **قُلِ انْتَظِرُوا** هذه الأمور الثلاثة **إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحل عليه عذاب مقيم- ٣٩ هود.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ. الخطاب في لست موجه للنبي (ص). و كما اختلف الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا كذلك المفسرون صاروا شيعا في تفسير المراد بالذين فرقوا دينهم. قيل: هم المشركون بالنظر إلى أن بعضهم يعبد الأصنام، و بعضهم الكواكب، و بعضهم النور و الظلام.

و قيل: هم أهل الكتاب فاليهود افترقوا إلى الصادوقيين و الفريسيين و الحسديين «١» أما النصارى فقسموا الكنيسة إلى شرقية و غربية. و قيل: هم الفرق الاسلامية.

و قيل: كل أهل الملل و النحل بلا استثناء .. و خير ما قرأته في تفسير هذه الآية ما قاله صاحب تفسير المنار: ان المراد بالذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا هم أهل الكتاب، و المراد ببراءة الرسول منهم تحذير المسلمين من مثل تفرقة أهل الكتاب و فعلهم ليعلموا انهم إذا فعلوا فعل أهل الكتاب فإن محمدا (ص) بريء منهم بطريق أولى.

إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ فهو وحده يتولى حساب و عقاب من يعمل على التفريق بين عباده، و يثير العداوة و البغضاء في

الدين و غير الدين **ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ** من الاستجابة الى الدساسين المفتنين: قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ- ٣٨ الاعراف.

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ. كل ما فيه للّه رضا و للناس صلاح فهو حسنة، و كل ما فيه

---

(١). من أقوال الفريسيين ان الأموات يرجعون الى هذه الدنيا ليشتركوا في ملك المسيح الذي سيأتي، و من أقوال الصادوقيين انه لا حياة بعد الموت إطلاقا لا الى الدنيا و لا الى الآخرة، و من أقول الحسديين المساواة بين الناس. الأسفار المقدسة لعلي عبد الواحد وافي.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩١

سخط للّه و فساد للناس فهو سيئة، و اللّه سبحانه عادل و كريم، و من عدله ان يجزي فاعل السيئة بما يعادلها من العذاب، و من كرمه أن يعفو، و ان يضاعف لفاعل الحسنة أضعافا تزيد إلى عشرة أمثال، أو إلى سبعمائة، أو إلى ما لا يبلغه العد و الإحصاء وفقا لنوايا المحسن و صفاته و أوضاعه. انظر تفسير الآية ٢٦١ من سورة البقرة ج ١ ص ٤١٢.

و من أحاديث النبي (ص) في هذا الباب قوله: ان اللّه تعالى قال: الحسنة عشر أو أزيد، و السيئة واحدة أو عفو، فالويل لمن غلب آحاده أعشاره.

و قال: يقول اللّه: إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة و ان لم يفعلها، فان فعلها فعشر أمثالها، و ان همّ بسيئة فلا تكتبوها، و ان فعلها فسيئة واحدة.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٦١ الى ١٦٥]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَ غَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩٢

اللغة:

القيم الذي يقوم بأمر الناس .. و الحنيف المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق. و النسك العبادة. و الوزر الحمل الثقيل و المراد به هنا الذنب. و خلائف جمع خليفة، و هو الذي يخلف من قبله. و الابتلاء الاختبار.

الاعراب:

دينا بدل من صراط مستقيم على المحل، لأن كل مجرور لفظا منصوب محلا، و المعنى هداني صراطا مستقيما، مثل قوله تعالى: وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً.

و قيما صفة لدين. و ملة ابراهيم بدل من دين. و حنيفا حال من ابراهيم. أغير اللّه غير مفعول أول لأبغي، و ربا مفعول ثان، لأن أبغي تتضمن معنى اتخذ، و هي تتعدى إلى مفعولين. و درجات مجرورة بإلى محذوفة.

المعنى:

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بعد أن ذكّر سبحانه الذين فرّقوا دينهم و كانوا شيعا- أمر رسوله أن يعلن للمشركين و أهل الكتاب و غيرهم ان اللّه جل ثناؤه قد هداه بالفطرة الصافية، و العقل السليم، و الوحي من عنده إلى السبيل الذي يبتعد به عن الباطل، و يوصله إلى الحق **دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً** الملة الدين، و الحنيف من ترك الأديان الباطلة، و اتبع دين الحق، و المعنى ان الصراط الذي هدى اللّه به رسوله محمدا هو دين ابراهيم خليل الرحمن الذي يعظمه أهل الأديان جميعا **وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** بل من أعدى أعداء الشرك و أهله، و هذا رد على مشركي قريش الذين زعموا انهم على دين ابراهيم.

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. موضوع الآية السابقة أصول الدين و العقيدة بقرينة **وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** و موضوع هذه الآية فروع الدين و الشريعة لمكان الصلاة و النسك، و عطف النسك على الصلاة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩٣

من باب عطف العام على الخاص، مثل قوله تعالى: وَ ما أُوتِيَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ- ٨٣ آل عمران. و المحيا و الممات هنا كناية عن الثبات و الاستمرار، و المعنى ان عبادة محمد (ص) و جميع ما هو عليه في حياته عقيدة و نية و عملا يتجه به إلى اللّه وحده، و لا يحيد عنه حتى الممات.

لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ. هذه الآية توضيح و تأكيد لما تضمنته الآية السابقة من التوحيد و الإخلاص .. و محمد (ص) أول المسلمين من أمته بطبيعة الحال، لأنه صاحب الدعوة.

قُلْ أَ غَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا. و من طلب هذا الرب فأين يجده؟!: فَأَيْنَمٰا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ و من توهم وجها غير وجهه الكريم صدق عليه قول الشاعر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أو حمار

وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ

. و رب كل شيء واحد لا ضد له و لا ند.

و لا تزر وازرة وزر أخرى:

وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهٰا. كل ما يفعله الإنسان من خير أو شر فهو وليد غرائزه و ظروفه و أوضاعه، و من نسب فعل الإنسان إلى غيره فهو تماما كمن ينسب الولد إلى غير أمه، و الثمرة إلى غير شجرتها **وَ لا تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ** المراد بالوزر هنا الذنب، قال تعالى: أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَزِرُونَ أي ما يفعلونه من الذنوب و الآثام، و هذه الجملة توضيح و تأكيد للجملة قبلها، و معناها ان كل نفس لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا اكْتَسَبَتْ دون ما كسب أو اكتسب غيرها، و هذا أصل ديني و

عقلي لا يمكن نسخه و لا تعديله، و قد فرع عليه علماء الكلام و الفقهاء كثيرا من المسائل و الأحكام.

و تسأل: ان هذه الآية تومئ إلى ان الإنسان مسؤول عن نفسه و كفى، اذن، أين وجوب الجهاد، و بذل النصح، و التعاون على البر و التقوى؟.

الجواب: ان موضوع الآية خاص بالمؤاخذة فقط، و ان الإنسان لا يؤخذ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩٤

بجريرة غيره، و لا صلة لها بالجهاد و النصح، و لا بغيرهما من قريب أو بعيد، لأن عدم المؤاخذة على ذنب الغير شيء، و وجوب الجهاد و إصلاح الفاسد شيء آخر.

سؤال ثان: لقد اعتاد الناس أن يبذلوا المال و الطعام عن أرواح أمواتهم، و ان يقرءوا سورا من القرآن، و يهدوا اليهم ثوابها، فهل مثل هذا جائز شرعا؟

و هل ينتفع به الأموات؟ كيف؟ و المفروض ان الأموات لا يعذبون بسيئات الأحياء، فينبغي أن لا يتنعموا بحسناتهم؟.

الجواب: قلنا: ان كلا من العقل و الشرع يأبى أن يؤخذ البريء بجرم المذنب، و ان يشاركه فيما يستحق من العقاب، أما بالنسبة إلى الثواب فلا مانع في نظر العقل أن يشارك غير المحسن المحسن في الثواب الذي استحقه على عمله، و قد ورد الشرع بذلك، فوجب التصديق، قال رسول اللّه (ص): إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له .. و قال: من مات و عليه صوم فليصم عنه وليه .. و قال: من دخل المقابر و قرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ، و كان له بعدد من فيها حسنات.

و عن الإمام جعفر الصادق (ع): ما يمنع الرجل منكم أن يبر والديه حيين و حين؟.

فهذه الأحاديث و غيرها تدل على ان الميت ينتفع باهداء الثواب على عمل الخير و العقل لا يأبى ذلك إطلاقا، لأنه يتفق مع فضل اللّه و كرمه، و لكن الناس توسعوا كثيرا، و تجاوزوا الموارد المنصوص عليها، و قد اتفق الفقهاء على ان كل من أتى بما لا نص فيه بقصد انه راجح شرعا فقد ابتدع في الدين، و افترى على اللّه و رسوله .. فالأولى أن يهدى الثواب إلى الميت رجاء أن ينتقى به من غير قصد الرجحان دينا و شرعا.

ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ دون أن تستندوا إلى عقل أو وحي، فاعترفتم بما هو معروف عندكم، لا عند الحق، و أنكرتم ما هو منكر عند أهوائكم و شهواتكم.

الأرض و البيت:

وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاٰئِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مٰا آتٰاكُمْ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩٥

خلق اللّه سبحانه هذه الأرض، و جعلها مقرا صالحا لنشأة الإنسان بجوها و تركيبها، و حجمها و بعدها عن الشمس و القمر، و جهزها بجميع ما يحتاج اليه الإنسان، حتى وسائل الانس و الترفيه، تماما كالدار التي حوت خيرات كل شيء، ثم اسكن الإنسان فيها بعد أن زوده بالمؤهلات و الاستعداد الكامل للانتفاع بخيرات الأرض و بركاتها، و شاءت حكمته تعالى أن يتفاوت الناس في تلك المؤهلات، و أن يكون بعضهم فوق بعض في العقل و العلم و قوة الجسم، و اختط لهم منهجا قويما ليختبر الأقوياء «١»: هل يؤدون شكر هذه النعمة، و يتجهون بقوتهم و مؤهلاتهم الى صالحهم و صالح إخوانهم من بني الإنسان، أو يتخذون منها أداة للظلم و الاستغلال و التعاظم و التكاثر؟. و قد دلت هذه الآية ان اللّه

سبحانه قد أوجد الإنسان على هذه الأرض للعلم و العمل النافع.

و تسأل: كيف تجمع بين هذه الآية، و بين الآية التي تقول: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ؟.

الجواب: لا تنافي بين الآيتين، لأن العلم و العمل النافع عبادة للّه، بل من أفضل العبادات، و أكمل الطاعات.

إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ ابتلى عباده ليتميز الخبيث من الطيب، فيعاقب هذا، و يثيب ذاك **وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** و ليس لرحمته حد، و لا لعفوه قيد ..

أجل، ان التوبة تجعل العفو جزاء وفاقا، و يبقى عفو السخاء و الكرم، و عطاء الجود الذي لا موجب له إلا ذاته القدسية، و هذا هو الدليل: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ- ٣٠ الشورى. أي كثير مما كسبت أيدينا.

اللهم انّا نستغيث بك من أنفسنا، و نسألك العفو عن أوزارنا.

---

(١). عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة بينا معنى الاختبار من اللّه لعباده.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩٧

سورة الأعراف

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٢٩٩

سورة الأعراف مكية، و آياتها ٢٠٥، و في مجمع البيان ان قوله تعالى: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ- إلى قوله- بِما كانُوا يَفْسُقُونَ نزل بالمدينة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (١) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٣)

اللغة:

الحرج الضيق. و المراد بالذكرى للمؤمنين التذكر النافع لهم مثل هدى للمتقين.

الاعراب:

كتاب خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا كتاب. و لتنذر الفعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك متعلق بأنزل، و ذكرى عطف عليه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٠

و أولياء مفعول تتبعوا، و من دونه متعلق بمحذوف حالا من أولياء. و قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف، أي تذكرا قليلا ما تذكرون، و ما حرف زائد يؤكد معنى القلة، و تذكرون أي تتذكرون، حذفت إحدى التائين للتخفيف.

المعنى:

المص هكذا تكتب و تلفظ بأسماء حروفها: ألف. لام. ميم. صاد.

و مضى الكلام عن هذه في أول سورة البقرة. **كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**. الخطاب لمحمد (ص)، و المراد بالكتاب القرآن، و بالمؤمنين من ينتفع بالقرآن، سواء أ كان سببا لإيمانه أم لتثبيتهم و استمرارهم على الإيمان، و المعنى ان اللّه سبحانه أنزل القرآن إلى النبي (ص) لينذر به الملحدين و المشركين و أهل الأديان الباطلة، و لينتفع به أصحاب الفطرة السليمة .. و هذه مهمة شاقة يلقى النبي (ص) صعابا جساما من الكافرين الذين يجابههم بالقرآن، لأنه يستهدف إبطال عقائدهم، و تغيير تقاليدهم و أوضاعهم التي توارثوها أبا عن جد مئات السنين .. و من ثم وجد النبي تقاليدهم و أوضاعهم التي توارثوها أبا عن جد مئات السنين .. و من ثم وجد النبي ضيقا بما يلاقيه من عنادهم و مقاومتهم: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ- ٩٧ الحجر.

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً- ٥ المزمل. و قد أمره اللّه سبحانه أن يصبر و يمضي يتذكر و يذكر.

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ. في الآية السابقة أمره اللّه أن يبلغ و لا يحفل بمقاومة المعاندين، و في هذه الآية أمر الناس أن يتابعوا الرسول، و يعملوا بالقرآن. قال علي المرتضى ع: ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا و العكس صحيح أيضا **وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ** لأنه ليس دون القرآن إلا الضلال و الأهواء **قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ** و تتعظون بمواعظ اللّه و نصائحه، لأنكم لا تتورعون عن شيء و لا تخشون العواقب:

و إنما يتذكر من يخشى، و قوله: إِلاَّ قَلِيلاً فيه إيماء إلى قلة من اتعظ و تذكر منهم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤ الى ١٠]

وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (٤) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ (٧) وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨)

وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (٩) وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (١٠)

اللغة:

يطلق البأس على الشجاعة و القوة، و على الضرر و الحرج، يقال: لا بأس به أي لا ضرر و لا حرج به، و المراد به هنا العذاب. و البيات الليل. و قائلون من القيلولة في النهار، و المراد بالكلمتين ان الهلاك نزل بهم حين دعتهم و استراحتهم. فلنقصن أي نتلون. و الوزن مقابلة أحد الشيئين بالآخر. و معايش جمع معيشة، و هي ما يعاش به من المطاعم و المشارب.

الإعراب:

كم في موضع رفع بالابتداء، و جملة أهلكناها خبر. و قيل: ان بياتا مصدر في موضع الحال، أي بائتين، و هم قائلون عطف على بياتا أي بائتين أو قائلين، و الأرجح ان بياتا مفعول فيه لأنها بمعنى ليلا. و دعواهم اسم كان، و المصدر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٢

المنسبك من ان قالوا خبرها. و بعلم في موضع الحال أي عالمين. و الوزن مبتدأ، و يومئذ خبر، و الحق صفة للوزن. و بما كانوا ما مصدرية تسبك و ما بعدها بمصدر مجرور بالباء متعلقا بخسروا، أي خسروا أنفسهم بسبب ظلمهم. و معايش مفعول جعلنا. و قليلا ما تشكرون قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف، أي شكرا قليلا، و ما حرف لتأكيد القلة.

المعنى:

وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ. بعد أن أمر جل ذكره النبي الأكرم أن ينذر بالقرآن، و أمر الناس أن يتبعوه- ذكّرهم في هذه الآية بمصارع الغابرين الذين أهلكهم اللّه بسبب اعراضهم عن ذكره و تكذيبهم لأنبيائه، و انه تعالى أنزل العذاب بهم في الليل أو وقت القيلولة في النهار، حيث الراحة و الأمان، ليكون العذاب أعظم وقعا عليهم، و أشد تنكيلا بهم، و قال كثير من المفسرين: ان قوم لوط جاءهم العذاب ليلا .. و لا أدري من أين جاءهم هذا العلم، و اللّه سبحانه يقول: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ- ٨١ هود.

و قال فريق من المفسرين: ان في الآية قلبا، لأن الإهلاك يأتي بعد مجيء البأس، و من حق التعبير أن يكون هكذا: و كم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ..

و ذكر الرازي لتأويل الآية ثلاثة أوجه، و زاد الطبرسي رابعا. و الصحيح انه لا يجب ترتيب الكلام حسب ترتيب المعنى في الواقع إذا كان الترتيب الواقعي واضحا، و معروفا للجميع، كما هو في الآية، و الفاء كما تأتي للتعقيب فإنها تأتي أيضا زائدة و في صدر الكلام و مفسرة، و البأس الذي دخلت الفاء على مجيئه مفسرة لنوع الإهلاك الذي حل بالمشركين.

فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ. كان المشركون يهتفون باسم الأصنام، و هم آمنون مطمئنون، و لما رأوا العذاب تبرأوا من آلهتهم، و اتجهوا للّه مقرين على أنفسهم بالكفر و الشرك، و لكن بعد أن انقطع التكليف، و انسد باب التوبة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٣

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. بعد أن أشار الى إهلاكهم في الدنيا أشار إلى أنهم يسألون في الآخرة، و يسأل المرسلون اليهم، و يشهدون عليهم فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ و لا يكتفي جل شأنه بسؤالهم و سؤال المرسلين اليهم، بل هو أيضا يتلو عليهم كل شيء قالوه و فعلوه:

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللهُ وَ نَسُوهُ وَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ- ٦ المجادلة. و القصد من ذلك ان تشتد بهم المحنة، و يشعروا بنقمة اللّه و غضبه عليهم جزاء على عصيانهم و تمردهم.

ميزان الأعمال:

وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ. كثر الكلام حول حقيقة الميزان الذي يزن اللّه فيه أعمال الناس، حتى ان بعضهم قال: ان لهذا الميزان لسانا و كفتين .. و الذي نفهمه من هذا الميزان- و اللّه أعلم بمراده- انه المقياس الذي يميز الطائع من العاصي، و الخبيث من الطيب، و هذا المقياس هو أمر اللّه و نهيه، فإذا جاء أوان الحساب ينظر إلى ما فعل الإنسان و ما ترك، و يقارن بينهما و بين أمره و نهيه تعالى، فإذا انطبق فعله و تركه على أمر اللّه و نهيه فهو من الذين ثقلت موازينهم، و كان عند اللّه من المفلحين و الراجحين، و إلا فهو من الذين ثقلت موازينهم، و كان من الظالمين الخاسرين أنفسهم بعذاب الحريق.

و بتعبير ثان: ان لكل شيء في هذه الحياة أصولا، و ضوابط علما كان أو أدبا أو فنا أو غير ذلك، و بها يتميز الشيء عن غيره، بل و يعرف جيده من رديئه، و تسمى تلك الأصول و الضوابط ميزانا و مقياسا و منهاجا و حكما، و كذلك الحساب في الآخرة له أصول و ضوابط، أو أطلق القرآن عليها كلمة الميزان، و كلمة الصراط، و هذه الأصول و الضوابط، أو الميزان لأعمال الناس و أهدافهم هو أمر اللّه و نهيه، فشأنهما في محاكمة الإنسان غدا كشأن الفقه و القانون في محاكمة المدعى عليه في هذه الحياة.

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ و هم الذين محصت أعمالهم على أساس أوامر القرآن و نواهيه فجاءت كاملة وافية **فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** لأنهم لم يعثروا في الامتحان

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٤

وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ و هم الذين ظهر البعد و التباين بين أعمالهم، و بين أحكام اللّه و تعاليمه **فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَظْلِمُونَ**. قال كثير من المفسرين: ان المراد بالظلم هنا الكفر، و الصحيح انه التكذيب بآيات اللّه مطلقا، كما هو ظاهر الآية، سواء أدلت تلك الآيات على وحدانية اللّه، أم على رسالة رسله، أم البعث، أم على حلاله و حرامه.

وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ. بعد أن أمر سبحانه المشركين بقوله: اتَّبِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ و خوفهم من عذاب الدنيا بقوله: **وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا** و من عذاب الآخرة بقوله:

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بعد هذا كله ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم، و انه هو الذي مكنهم في هذه الأرض، و أعطاهم القدرة على تطويعها و استخدامها في مصالحهم، قال أحد المفسرين الجدد:

لو لا تمكين اللّه للإنسان في هذه الأرض ما استطاع هذا المخلوق الضعيف أن يقهر الطبيعة .. و إلا كيف يمضي، و القوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه، و هي بزعم الملحدين و الماديين التي تصرف نفسها بنفسها، و لا سلطان وراء سلطانها.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١١ الى ١٨]

وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السّٰاجِدِينَ (١١) قٰالَ مٰا مَنَعَكَ أَلاّٰ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قٰالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قٰالَ فَاهْبِطْ مِنْهٰا فَمٰا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهٰا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّٰاغِرِينَ (١٣) قٰالَ أَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قٰالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥)

قٰالَ فَبِمٰا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرٰاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمٰانِهِمْ وَ عَنْ شَمٰائِلِهِمْ وَ لاٰ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شٰاكِرِينَ (١٧) قٰالَ اخْرُجْ مِنْهٰا مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٥

اللغة:

الهبوط الانحدار و السقوط. و الصغار الذلة و الهوان، و الصاغر الذليل.

و الإنظار و الإمهال و التأخير و التأجيل بمعنى واحد. و ذأم الشيء عابه، و الذام و الذيم أشد العيب. و المدحور المطرود.

الاعراب:

ما منعك ما استفهام انكاري، و محلها الرفع بالابتداء، و جملة منعك خبر. و ان لا تسجد لا زائدة، و المصدر المنسبك من أن و الفعل مجرور بمن محذوفة، و التقدير ما منعك من السجود؟ و قيل: صراطك منصوب بنزع الخافض، أي لأقعدن لهم على صراطك. و مذؤوما حال، و مدحورا مثله.

لمن اتبعك اللام للابتداء، و من شرطية مبتدأ، و لأملأن اللام واقعة في جواب قسم محذوف و املأن جواب القسم، و سادة مسد جواب الشرط، و هو من، و الجملة من القسم و الجواب خبر المبتدأ.

حول أصل الإنسان:

وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ. الخطاب لبني آدم، و معنى خلقناكم انه جل

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٦

ثناؤه أنشأ أصلنا الأول من تراب، و أنشأنا نحن من النطفة التي تنتهي إلى التراب، و المراد بصورناكم انه جعل المادة الأولى التي خلقنا منها بشرا سويا على الهيئة التي هو عليه: أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً- ٣٧ الكهف، فالفرق بين الخلق و التصوير ان خلق الشيء معناه إيجاده و انشاؤه، أما التصوير فهو إعطاء الشيء صورة خاصة بعد إيجاده.

و تسأل: ان أتباع دارون يقولون: إن الإنسان وجد أول ما وجد على غير صورته هذه، ثم انتقل من نوع إلى نوع، حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن؟

الجواب: نحن مع الدليل العلمي الذي لا يقبل الشك، و الاحتمال المضاد، لأنه متى طرأ الاحتمال بطل الاستدلال، و هذه حقيقة يقينية بديهية، لا ينكرها حتى التجريبيون الذين حصروا مصدر المعرفة بالخبرة الحسية .. و أهم الأدلة التي اعتمدها أصحاب نظرية النشوء و الارتقاء هي الحفريات، حيث كشفت عن وجود أنواع من الحيوان بعضها أرقى من بعض، و ان زمن الأرقى متأخر عن زمن الأدنى، و ان بينها و بين الإنسان شبها في كثير من المزايا.

و نحن لا ننكر هذه الكشوف، و لكنها لا تثبت نظرية دارون، لأنها لا تحتم أن يكون الأرقى متطورا من الأدنى في يقين لا يقبل الشك، بل لا يجوز ذلك و يجوز أن يكون كل من الأرقى و الأدنى نوعا مستقلا بذاته عن الآخر أوجدته ظروف ملائمة له، ثم انقرض حين تغيرت ظروفه، كما انقرض غيره من أنواع الحيوان و النبات .. و إذا جاز الأمران، فالأخذ بأحدهما دون الآخر تحكّم.

و قرأت فيما قرأت ان كثيرا من العلماء، و فيهم الملحدون، كانوا يؤمنون بالنظرية الداروينية، و لما تقدموا في ميدان العلم عدلوا عنها، لما ذكرنا، و لأن في الإنسان خصائص عقلية و روحية تجعله مستقلا عن جميع المخلوقات و أنواعها.

ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ.

تقدم نظيره في الآية ٣٤ سورة البقرة ج ١ ص ٨٢.

قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ. و لا هنا زائدة، و يدل على زيادتها سقوطها من الآية ٧٥ من سورة ص: قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ و لأن المعنى لا يستقيم مع وجودها اللهم إلا أن تكون

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٧

كلمة منعك متضمنة معنى حملك، و يكون تأويل الكلام هكذا: ما حملك على ترك السجود، و المراد بالسجود سجود التحية، لا سجود العبادة، و هو طاعة للّه تعالى، لأنه بأمره.

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. و ما فعل إبليس فعلة إلا ابتدع لها مبررا، و الشرط الأساسي لكل مبرر في منطقه أن يخالف إرادة اللّه و مرضاته، هذا هو الأصل الأول الذي يعتمده إبليس في جميع أقواله و أفعاله .. يجتهد الفقيه في البحث ليهتدي الى ما شرع اللّه من أحكام، أما إبليس فيشرع أحكاما ترتكز على قال اللّه .. و أقول .. أمره اللّه بالسجود لآدم فرفض و لم يعتذر، بل اعترض بجرأة و صلافة، و قال: كيف اسجد لمن أنا خير منه؟! و كأنه يقول للّه تعالى علوا كبيرا: كان الأولى ان تأمر آدم بالسجود لي، دون أن تأمرني بالسجود له .. و ابتدع مبررا لهذه الأولية، و هو افتخاره بخلقه، و تعصبه لأصله:

خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.

فالعزة و الكرامة في منطق إبليس بالتعصب للأصل، لا بتقوى اللّه و طاعته، و عند اللّه بالفعل و التقوى، لا بالأصل، و العلم عند إبليس هو القياس و الأهواء، و عند اللّه هو الوحي و حكم العقل الذي لا يختلف فيه اثنان لبداهته و وضوحه.

فمن تعصب لأصله، أو قاس الدين برأيه فقد اقتدى بإبليس، من حيث يريد أو لا يريد، قال صاحب تفسير المنار: روي عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده ان رسول اللّه (ص) قال: أول من قال قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال اللّه تعالى له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه الخ. ثم قال جعفر:

فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه اللّه تعالى يوم القيامة إبليس.

و تسأل: تدل هذه الآية على ان الحياة توجد من النار، و مثلها الآية ١٥ من سورة الرحمن: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ. المارج الشعلة ذات اللهب الشديد .. و كيف يجتمع هذا مع قوله تعالى: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ؟.

الجواب: ان الكائنات الحية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم على أنواع، منها عالم الملائكة، و منها عالم الجان، و منها ما يعيش في هذه الأرض، و هذا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٨

النوع الثالث منه ما يحيا بالماء كالحيوان و النبات و الإنسان، و هو المقصود من التعميم بقوله تعالى: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ و منه ما يحيا بالنار ..

و بكلمة ان الماء ضرورة لحياة الإنسان- بموجب طبعه و تكوينه- و كذلك سائر أفراد الحيوان و أنواعه، و النبات و أصنافه، و هذا لا يمنع أن يكون هناك مخلوقات تكون النار ضرورة لحياتها، قال أهل الاختصاص بعلم الحشرات: ان نوعا منها لا يحيا إلا بالهواء السام، و آبار البترول.

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ.

قيل: ضمير منها يعود الى الجنة. و قيل: إلى السماء .. و نحن لا نهتم بالتفاصيل إذا لم يرد لها ذكر في الكتاب أو السنة، و نكتفي بالإجمال، و سياق الكلام يدل على ان الضمير يعود الى الدرجة الرفيعة عند اللّه، و المعنى ان اللّه سبحانه طرد إبليس من رحمته الى لعنته جزاء على تكبره و امتناعه عن طاعته، فان السجود لآدم بأمر اللّه هو طاعة للّه، و ليس لآدم .. و كل من يرى لنفسه الحق في ان يرفض حكم اللّه فقد حقت عليه اللعنة الى يوم الدين.

قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. لحاجة في نفس إبليس- سيصرح بها- طلب الامهال إلى يوم يبعثون قال- تعالى- **إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ**. قيل:

ان إبليس طلب الامهال الى اليوم الذي تحيا فيه جميع الأموات للحساب و الجزاء، فرفض اللّه طلبه هذا، و أمهله الى

اليوم الذي تموت فيه جميع الأحياء، و هو المشار اليه بالآية ٣٨ من الحجر: قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ و هذا اليوم هو ساعة النفخ في الصور الذي دلت عليه الآية ٦٨ من الزمر: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ.

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. قطع إبليس عهدا على نفسه انه سينتقم لمأساته من هذا المخلوق الذي كان السبب لطرده من رحمة اللّه الى لعنته، و بيّن نوع هذا الانتقام بأنه سيقعد على الطريق المؤدية الى اللّه و طاعته، و يصد عنها آدم و ذريته.

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ. و إتيانه لهم من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٠٩

وجده في اضلالهم و اغوائهم، بحيث لا يدع معصية إلا أغراهم بها، و لا طاعة إلا ثبطهم عنها .. فان أمرهم اللّه بالجهاد و التضحية بالنفس حبب إبليس اليهم الحياة، و ان حثهم سبحانه على بذل المال في سبيله خوّفهم اللعين من الفقر، و ان نهاهم الجليل عن الخمر و الزنا و الميسر و نحوه زيّن لهم الخبيث الملذات و حب الشهوات، و ان توعدهم اللّه بالنار، و وعدهم بالجنة قال لهم عدو اللّه و عدوهم:

لا جنة و لا نار .. و هكذا يعد لكل حق باطلا، و لكل قائم مائلا .. و تنطبق هذه الصورة كل الانطباق على الذين باعوا دينهم للشيطان، يبررون أعمال المستعمرين، و قتل النساء و الأطفال، و تشريد الآمنين من ديارهم.

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً. الذأم العيب و الاحتقار، و الدحر الطرد، و قد خص اللّه بهما إبليس، حيث أنزله اللّه سبحانه من المقام الذي كان فيه، أما جهنم فإنها له و لحزبه الذين أطاعوه، و عصوا أمر اللّه **لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ** و نحو هذه الآية قوله تعالى: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

و هنا تساؤلات تطلب أجوبتها، و هي أولا: هل كان خطاب اللّه لإبليس بواسطة أو بلا واسطة؟ ثانيا: ان قول إبليس: **فَبِما أَغْوَيْتَنِي** يدل على ان إغواءه كان من اللّه، فكيف يعاقبه عليه؟ ثالثا: لما ذا أمهل سبحانه إبليس و هو يعلم فساده و إفساده؟.

و نجيب عن هذه التساؤلات الثلاثة بايجاز شديد .. فعن التساؤل الأول: نحن نؤمن بوجود هذا الحوار، لأن الوحي دل عليه، و العقل لا يأباه، و ما علينا أن نبحث عن هيئته و كيفيته، ما دام الوحي لم يصرح به.

و عن التساؤل الثاني: ان الغواية من إبليس، و ليست من اللّه تعالى، و قد اعترف إبليس بنفسه على انه هو الغاوي في الآية ٣٩ من الحجر: وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. و كيف يغوي اللّه العبد، ثم يعاقبه على الغواية؟! تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا، أما قول إبليس: **فَبِما أَغْوَيْتَنِي** فمعناه بما امتحنتني به من الأمر بالسجود لآدم الذي أوقعني في الغي و العصيان فاني سأفعل كذا و كيت .. و بكلمة ان قول إبليس هذا هو تعبير ثان عن قوله:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٠

لأنك أمرتني و عصيت أمرك فسوف لا أدع أحدا يطيع لك أمرا.

و عن التساؤل الثالث: ان مشيئة اللّه اقتضت أن يمد الإنسان بالعقل و التذكير على أيدي الرسل، و بالقدرة على فعل الخير و الشر، و أن يدع له الخيار، و أن يبتليه بالشهوات و المغريات التي يوسوس بها إبليس و جنوده تمييزا للطيب من

الخبيث، و المخلص من الخائن .. أنظر تفسير الآية ٩٤ من المائدة، فقرة معنى الاختبار من اللّه، و المجلد الثاني من تفسيرنا هذا ص ٣٢٤، فقرة قرين الشيطان.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩ الى ٢٥]

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (٢٠) وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣)

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (٢٤) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ (٢٥)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١١

اللغة:

الوسوسة الصوت الخفي، و قد يكون المراد بها هنا ما يجده الإنسان في نفسه من الخواطر الضارة. و ووري الشيء غطي و ستر. و السوءة ما يسوء الإنسان، و المراد بها هنا العورة، حيث يسوؤه ظهورها. و قاسمهما أي أقسم لهما. و دلاهما استنزلهما. و الغرور الخداع بالباطل. و طفقا أخذا و شرعا. و يخصفان أي جعلا يلصقان ورقة على ورقة، من قولهم خصف الاسكافي النعل.

الإعراب:

فتكونا يجوز الجزم عطفا على لا تقربا، و النصب بأن مضمرة بعد الفاء.

و المصدر المنسبك من أن تكونا مجرور بإضافة مفعول لأجله محذوف، أي ما نهاكما الا مخافة كونكما ملكين. تلكما المشار اليه الشجرة، و المخاطب بالاشارة اثنان، و لذلك ثنى حرف الخطاب. و بعضكم مبتدأ و عدو خبر، و لبعض متعلق بعدو. و لكم في الأرض مستقر مبتدأ و خبر.

المعنى:

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ. مر تفسيره مفصلا عند الآية ٣٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٤.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما. و وري من المواراة أي الستر، و السوءة العورة، و عنهما أي لا يرى أحدهما عورته، و لا عورة الآخر، أما وسوسة الشيطان فلا ندري كيف كانت، و لكنا نؤمن بأن أي خاطر أو قول أو عمل يقف في طريق الحياة و تقدمها فهو من وحي الشيطان ..

و مهما يكن، فان الشيطان أظهر النصح لآدم و حواء، و أبطن الغدر، و يوحي ظاهر الآية بأن إبليس كان يعلم ان من أكل من هذه الشجرة تبدو عورته،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٢

و ان من بدت عورته يطرد من الجنة، و من أجل هذا احتال لاخراجهما من الجنة، **وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ**. عكس اللعين الآية رأسا على عقب .. فحلف انه لهما من الناصحين، و هو العدو اللدود، و حلف انهما إذا أكلا من الشجرة يكونان من الخالدين، و هو على علم اليقين ان عاقبة الأكل هو الطرد و الشقاء و الموت .. و هكذا يفعل شياطين الإنس يوهمون البسطاء بأن السراب ماء، و الماء سراب.

فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ دلاهما من التدلية، أي اسقطهما، و الغرور الخداع بالباطل، و المعنى ان الشيطان بعد أن حلف لآدم و حواء انه ناصح أمين استجابا لاغرائه ظنا منهما انه لا أحد يجرأ على الحلف باللّه كاذبا، لأن اللعين هو أول من تجرأ على اليمين الكاذبة، كما انه أول من تعصب لأصله، و قاس برأيه **فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ**. طفقا شرعا، و يخصفان يضعان، و المعنى حين أكلا من الشجرة ظهرت لكل واحد منهما عورته و عورة صاحبه، و كانت من قبل في حجاب، فخجلا، و شعرا بالحاجة إلى سترها، فشرعا يجمعان من ورق شجر الجنة، و يضعانه على العورة.

وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ. هذا تقريع من اللّه لآدم و زوجه على اغترارهما بقول إبليس، و ضعفهما تجاه اغوائه و إغرائه، و في الوقت نفسه فيه تنبيه إلى وجوب التوبة و الانابة، و لذا سارعا إلى الاعتراف بالذنب و طلب الاستغفار **قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ**. و قد غفر اللّه و رحم بدليل الآية ٣٧ من سورة البقرة: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ. الخطاب في اهبطوا لآدم و زوجه و إبليس، و المراد ببعضكم إبليس و قبيله، و ببعض آدم و ذريته، و سبب هذا العداء هو إبليس، لأنه تعمد إغواء الإنسان و إفساده انتقاما منه لمأساته، أما الإنسان فانه لا يرى إبليس كي يناله بأذى، قال تعالى: إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ- ٢٧ الأعراف.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٣

و قال: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا- ٦ فاطر.

وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ. و هكذا كتب اللّه علينا، بعد أن كان من آدم ما كان، ان نحيا و نموت في هذه الأرض، ثم نخرج منها للحساب و الجزاء بعد الذي قاسيناه من الشقاء و العناء.

قصة آدم كما هي في القرآن:

ذكر اللّه سبحانه قصة آدم في الآية ٣٣ و ما بعدها من سورة البقرة، و في الآية ١٨ و ما بعدها من سورة الأعراف، و في الآية ١١٥ و ما بعدها من سورة طه، و تتلخص القصة كما جاءت في هذه الآيات:

بأن اللّه جلت عظمته أنبأ ملائكته انه سينشئ خلقا في هذه الأرض، يمشون في مناكبها، و يأكلون من رزقه، و ان الملائكة قالوا له: كيف تجعل في الأرض من يفسدون و يسفكون الدماء تنافسا على خيراتها، و نحن دائبون على العبادة لك؟! فأجابهم سبحانه بما اطمأنت له قلوبهم، و طلب منهم أن يسجدوا لآدم إذا سواه بشرا. و بعد أن خلقه من تراب، و أعطاه الصورة النهائية أقبل الملائكة على آدم معظمين له و ساجدين إلا إبليس جهر بالعصيان، و أعلن التمرد.

و لما سأله اللّه قال: أنا خير منه عنصرا .. فجازاه اللّه بالطرد و اللعنة ..

و علّم سبحانه آدم أسماء الكائنات كلها، و كانت الملائكة تجهلها، فأمر اللّه آدم أن ينبئهم بها بيانا لفضله، و إظهارا لحكمة استخلافه في الأرض، فأخبرهم آدم بما كانوا يجهلون، و حينئذ تبينوا فضله، و أدركوا حكمة اللّه في خلقه.

و جعل اللّه لآدم زوجة من جنسه، و أسكنهما جنة من نعيمه، و أطلق لهما العنان في اجتناء ما يريدون من ثمارها، و نهاهما عن شجرة واحدة من أشجارها، و ضمن لهما إذا هما امتثلا أن لا يجوعا و لا يظمئا و لا يعريا، ثم حذرهما من إبليس و اغوائه .. و عز على اللعين أن يشقى هو، و ينعم الذي كان السبب لشقائه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٤

و طرده من رحمة اللّه، فدلف إلى الجنة، و جدّ في استمالة آدم و زوجه، فافتتنا بزخرف قوله و زلا باغوائه، و كان عليهما لباس يواري عورتهما لا يرانها من أنفسهما، و لا أحدهما من الآخر .. و لما أكلا من ثمر الشجرة تهافت اللباس عنهما و ظهرت العورة منهما، فبادرا إلى سترها بورق الجنة.

فناداهما الجليل معاتبا و مؤنبا على اغفال نصيحته، و نسيان تحذيره من إبليس، فتضرعا اليه بالاعتراف و الندم، و طلبا الرحمة و المغفرة، فرحم و غفر، و لكنه طردهما من نعيم ما كانا فيه، و أسكنهما هذه الأرض التي جعل فيها طريقين: هدى و ضلالا، و وعد من اتبع هداه بالجنة، و توعد من ضل بالنار، و أنبأ آدم و ذريته بأن العداوة بينهم و بين إبليس ستظل قائمة إلى آخر يوم، و حذرهم من فتنته و غوايته.

هذا تلخيص ما في القرآن لقصة آدم و زوجه، و الناس فيها على قولين:

بين جاحدين بالوحي، و بين مؤمنين به، و هؤلاء على فئتين: فئة تجاوزت ظاهر النص القرآني، و اعتمدت الاسرائيليات في تفسير جنة آدم و غيرها، و ان هذه الجنة كانت في الدنيا، و تسمى جنة عدن، و ان الشجرة التي أكل منها آدم و حواء هي شجرة الحنطة، و انهما سترا سوءاتهما بورق التين، و ان إبليس دخل الجنة، و هو في جوف حية، إلى غير ذلك مما لا حديث فيه، و لا وحي ..

و فئة شطحت الى ما وراء الحس، و فسرت الشجرة بالامتحان، و الشيطان بالشهوة، و السوءة بالرذيلة، إلى غير ذلك من فراسة الصوفية و أذواقهم.

و نحن نقف موقفا وسطا بين الفئتين، فنؤمن اجمالا بما أوحى به ظاهر النص من ان الشجرة و السوءة و الورق، كل ذلك كان من الكائنات الحسية، لأنها هي المدلول الحقيقي للّفظ، و لا موجب للتأويل، ما دام العقل يتقبل المعنى الظاهر، و لا يرفضه .. و لا نتحدث عن حقيقة جنة آدم، و انها كانت في هذه الدنيا أو في غيرها، و لا عن نوع الورق الذي ستر به آدم و حواء عورتيهما و لا عن شخص الشجرة، و لا كيف دلف إبليس الى الجنة، لأن هذه التفاصيل من علم الغيب، و لم ينزل بها وحي و العقل يعجز عن إدراكها .. و عن الإمام أحمد انه قال: ثلاثة ليس لها أصل: التفسير و الملاحم و المغازي يريد

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٥

التفسير بغير المعنى الظاهر من كلام اللّه تعالى، لأنه من الذين يستدلون بهذا الظاهر في الأصول و الفروع.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

يٰا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنٰا عَلَيْكُمْ لِبٰاساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِبٰاسُ التَّقْوىٰ ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ آيٰاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

اللغة:

المراد بالريش هنا ما كان فاخرا من اللباس و الأثاث، و مثله الرياش.

و الفتنة الابتلاء و الاختبار. و القبيل الجماعة كالقبيلة.

الاعراب:

لباس التقوى مبتدأ أول، و ذلك مبتدأ ثان، و خير خبره، و الجملة خبر المبتدأ الأول. لا يفتننكم مضارع مبني على الفتح لفظا لاتصاله بنون التوكيد، و محله الجزم لمكان لا الناهية. كما أخرج الكاف بمعنى مثل، صفة لمفعول مطلق محذوف، و ما مصدرية، و المصدر المنسبك مجرور باضافة مثل، و التقدير لا يفتننكم فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم. و جملة ينزع عنهما حال من أبويكم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٦

المعنى:

ذكر سبحانه في الآية ١٤١ من الأنعام ما تفضل به على عباده من الطعام، فقال: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ.

و ذكر تعالى في الآية التي نحن بصددها ما أنعم به على عباده من اللباس، فقال:

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً. الخطاب لجميع بني آدم، و أنزلنا عليكم، أي أعطيناكم، قال تعالى: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ. و قال: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. و قد امتن سبحانه على عباده بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف أنواعه، من الأدنى الذي يواري السوءة إلى الريش، و هو ما كان فاخرا من اللباس و الأثاث **وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ** و هو الخوف من اللّه و العمل الصالح، و أطلق اللباس على التقوى، لأنها تقي صاحبها من عذاب اللّه، كما يقي اللباس من الحر و البرد، قال تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ- ٨١ النحل **ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** أي ان اللّه أعطاكم اللباس تفضلا منه لتعملوا بطاعته، و تنتهوا عن معصيته.

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما. لا يفتننكم الشيطان أي لا تغفلوا عن فتنته و خداعه، و ينزع عنهما لباسهما، أي كان الشيطان سببا لنزع اللباس عنهما، و إظهار عورتيهما.

أشار سبحانه في الآية السابقة إلى عداوة الشيطان لآدم، و كيف كاد له، حتى أخرجه و زوجه من حياة الراحة و الهناء إلى حياة التعب و العناء، و في هذه الآية حذر جل ذكره أبناء آدم أن يوقعهم الشيطان في شباكه و فتنته، و يحملهم على معصية اللّه، ليصدهم عن دخول الجنة، كما خدع أبويهم من قبل، و كان سببا لكشف عورتيهما، و إخراجهما من الجنة .. و بديهة ان المنع من دخول الجنة أيسر من الإخراج منها بعد الدخول، فان طرد المحتل أكثر صعوبة من صد من يحاول الاحتلال، قال بعض الواعظين: ان ذنبا واحدا أخرج آدم من الجنة بعد أن دخلها آمنا، فكيف يدخلها أبناؤه، و قد

تراكمت عليهم الذنوب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٧

إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ. يرانا الشيطان و جنوده، و نحن لا نرى واحدا منهم، بهذا خبر الوحي، و نحن به من المؤمنين **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**. تومئ هذه الجملة إلى جواب عن سؤال مقدر، و تقرير السؤال: إذا كان الشيطان يرانا و لا نراه فمعنى هذا انه يقدر علينا، و نعجز عنه، و انه يستطيع اغتيالنا متى شاء، و لا نستطيع التحفظ منه، فكيف صح الأمر بالحذر منه، و النهي عن الإصغاء اليه؟.

و تقرير الجواب بنحو من التفصيل: أجل، نحن لا نرى الشيطان بشخصه، و لكنا نحس بآثاره، و هي وسوسته ان لا جنة و لا نار، و نحو ذلك .. فمن آمن باللّه و اليوم الآخر يعرض عن هذه الوسوسة، و لا يستجيب لها، و يتعوذ منها و ممن يوسوس بها، فينقلب الشيطان عنه خاسئا خاسرا، و من كفر باللّه و اليوم الآخر يندفع مع هذه الوسوسة، و يستولي الشيطان عليه، فيقوده حيث شاء، و متى شاء، و هذا معنى قوله تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** أما المؤمنون فلا ولاية للشيطان عليهم، لأنهم أسلموا قيادهم للّه وحده: اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ.

و قال بعض المفسرين: ان الشياطين التي لا نراها هي المكروبات يحملها الذباب و البعوض إلى جسم الإنسان، فتتوالد فيه و تنمو بسرعة، و تسبّب الأمراض المستعصية .. و هذا تفسير لمراد اللّه تعالى بالحدس و التخمين .. و ما هو من منهجنا في شيء.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٨

اللغة:

الفاحشة المعصية الكبيرة، و الفعلة المتناهية في القبح. و القسط العدل.

الإعراب:

و أقيموا معطوف على معنى الأمر بالقسط، أي أقسطوا و أقيموا. و مخلصين حال من واو ادعوه. و الدين مفعول لمخلصين. كما بدأكم الكاف بمعنى مثل صفة لمحذوف، أي تعودون عودا مثل بدئكم. فريقا هدى و فريقا حقّ الفريق الأول مفعول هدى، و الفريق الثاني مفعول أضل المحذوفة، و دل السياق على الحذف.

المعنى:

وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً ضمير فعلوا يعود إلى الذين لا يؤمنون المذكورين في آخر الآية السابقة، و قال جماعة من المفسرين: ان المراد بالفاحشة ما كان يفعله عرب الجاهلية من الطواف بالبيت عراة نساء و رجالا. و الصحيح انها تعم جميع المحرمات التي كانوا يقترفونها، و إذا نهوا عنها **قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللهُ أَمَرَنا بِها** و فعل الآباء حجة و

دليل عند المشركين و غيرهم، حتى عند أكثر علماء الدين، و لكنهم لا يشعرون .. أما زعم المشركين بأن اللّه أمرهم بالفاحشة فقد استدلوا عليه بما حكاه سبحانه عنهم في الآية ١٤٩ من سورة الأنعام:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا. ورد اللّه عليهم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣١٩

هناك بقوله قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ. و فسرنا كلا من الزعم و دحضه.

أما هنا فقد رد عليهم سبحانه بقوله: **قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ** بل الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ- ٢٦٨ البقرة. **أَ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**. و كل من قال من غير علم فهو مفتر كذاب، و قد خاب من افترى.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ و هو العدل و الاستقامة، و قال الطبرسي: القسط اسم جامع لجميع الخيرات، و أيا كان معنى القسط فان الأمر به يكذّب زعمهم بأن اللّه أمرهم بالفاحشة **وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**. المراد بأقيموا وجوهكم العبادة للّه، و كلمة المسجد اسم لمكان السجود و زمانه، و لكن كثر استعمالها في البناء المعروف المختص بالعبادة، حتى صار اسما لا يشاركه فيه سواه، و ليس المراد بكل مسجد جميع المساجد، بل المراد مسجد من المساجد أيا كان «١»، و المعنى ان اللّه يأمركم باقامة العبادة في أي مسجد اتفق، على أن تخلصوا له في دينكم و عبادتكم **كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** اليه يوم القيامة للحساب و الجزاء، و في هذا تهديد و إنذار لمن يخالف ما أمر اللّه به من العدل و اقامة العبادة و الإخلاص.

فَرِيقاً هَدى و هم الذين اتخذوا اللّه وليا، و امتثلوا أمره و نهيه، و لم تخدعهم زخارف الشيطان و أباطيله **وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ** و لهم في الآخرة عذاب عظيم، ذلك **إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ** و من يتخذ الشيطان وليا من دون اللّه فقد خسر خسرانا مبينا **وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** في ارتكاب الفواحش، و تقليد الآباء، و الافتراء على اللّه الكذب قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً- ١٠٥ الكهف.

---

(١). للعموم معنيان: استغراقي مثل جاء كل رجال البلد، اي لم يتخلف منهم احد، و عموم بدلي مثل أريد رجلا من البلد أي ايّ رجل كان، و كلمة كل وضعت للاستغراق، و قد تستعمل للبدل كما في الآية.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣١ الى ٣٤]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

الإعراب:

عند ظرف لخذوا. و كل على حذف مضاف أي قصد كل مسجد. و من حرم مبتدأ و خبر. و الطيبات عطف على زينة. و هي مبتدأ، و للذين متعلق بمحذوف خبرا للمبتدإ، و التقدير هي مستقرة للذين آمنوا. و خالصة حال من الضمير في الخبر المحذوف، و هو مستقرة. و يجوز رفع خالصة على أن تكون خبرا لهي، و للذين آمنوا متعلق بخالصة. و ما ظهر و ما بطن بدل من الفواحش.

المعنى:

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ. قال المفسرون: كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة نساء و رجالا، و كانوا لا يأكلون في أيام حجهم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢١

دسما، و لا ينالون من الطعام إلا ما يقيم الأود تعظيما للحج، فنزلت هذه الآية، و ان النبي (ص) قال: لا يحج بعد العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان، فنودي بقوله في الموسم، و من روايات هذا الباب ان امرأة جميلة من العرب نزعت ثيابها و وضعت يدها على فرجها و طافت، و لما صوبت اليها الأنظار أنشدت و هي تطوف:

اليوم يبدو بعضه أو كله و ما بدا منه فلا أحله

جهم من الجهم عظيم ظله كم من لبيب عقله يضله

و ناظر ينظر ما يمله الجهم العبوس، تريد أن فرجها عظيم في مكانه، له هيبة و صيانة، و لا أحد يستطيع الوصول اليه، و انه يضجر من ناظره و يكرهه.

و أيا كان سبب النزول فان اللّه حرم نظر الأجنبي إلى عورة غيره رجلا كان أو امرأة، و أوجب ستر العورتين في الصلاة و الطواف .. و المراد بكل هنا العموم البدلي، دون العموم الاستغراقي، و مثلنا للفرق بين العمومين في التعليق على الآية السابقة، و المقصود هو الحث على النظافة و التطهير من الأوساخ و الأحداث، و التزين بجميل الثياب في صلاة الجمعة و الجماعة و الأعياد و الطواف، حيث يجتمع الناس، فلا ينفر بعضهم من ريح بعض و منظره، و التجمل حسن حتى للفقير يتجمل حسب وضعه و حاله، و في الحديث: ان اللّه جميل يحب الجمال.

وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا هذا رد على من حرم بعض المآكل و المشارب **وَ لا تُسْرِفُوا** في الأكل و الشرب، و لا في التزين باللباس و المظهر **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**. و في الآية ٢٧ من الإسراء: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ.

و في الحديث: المعدة بيت الداء، و الحمية رأس كل دواء، و عوّدوا كل جسم ما اعتاد .. و قال الإمام علي المرتضى (ع): كم أكلة منعت أكلات.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ. ظاهر اللفظ الاستفهام، و معناه المبالغة في نفي التحريم، و انه من وساوس الشيطان، لا من وحي الرحمن، و اضافة الزينة اليه تشعر بالحل، أما لفظة الطيبات فتدل

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٢

بذاتها عليه، لأن كل ما هو محرم فهو خبيث و ليس بطيب، و الزينة تشمل جميع أنواعها من مسكن و ملبس و مركب و أثاث، و تشمل الطيبات جميع المأكولات و المشروبات، و التمتع بالطيب و النساء، و الصوت الجميل و المنظر الجميل، و كل ما لذ و طاب مما لم يرد النهي عنه في الشريعة، و اتفق علماء الإسلام قولا واحدا على ان كل شيء حلال، حتى يرد فيه نهي، و استدلوا بحكم العقل بأنه لا عقاب بلا بيان، و بقول الرسول الأعظم (ص): الناس في سعة ما لا يعلمون.

و قوله: ما حجب اللّه علمه عن العباد فهو موضوع عنهم.

و قوله: كل شيء مطلق، حتى يرد فيه نهي.

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ. أي ان الذين آمنوا الآن و في هذه الحياة سوف يتنعمون غدا بزينة اللّه و الطيبات من الرزق وحدهم لا يشاركهم فيها أحد من الذين كفروا و أشركوا، أما في الحياة الدنيا فيتنعم بها الجميع المؤمنون و الكافرون. **كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** من تتبع آي الذكر الحكيم يرى ان اللّه سبحانه يطلق كلمة العالم على من علم أحكام اللّه و عمل بها، و أيضا يطلقها على من يرجى منه ان يعلمها و ينتفع بها إذا فصلت له، و المراد بقوم يعلمون هنا هم النوع الثاني الذين ينتفعون ببيان حكم الزينة و الطيبات و غيرها، و يصيرون بمعرفة حكم اللّه علماء بالدين، و يستدلون بآيات اللّه سبحانه على حلاله و حرامه.

و بعد أن أنكر سبحانه على من حرم الزينة و الطيبات بيّن أصول المحرمات، و هي:

١- **قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ**. تقدم بيانها عند تفسير الآية ١٥١ من الأنعام، فقرة الوصايا العشر، رقم ٤.

٢- **وَ الْإِثْمَ** و هو كل ما يعصى اللّه به من قول أو فعل، و عطف الإثم على الفواحش من باب عطف العام على الخاص، نحو قوله تعالى: كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ- ١٦٣ النساء.

٣- **وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** و هو الظلم، و في الحديث: لو بغى جبل على جبل لجعل اللّه الباغي منهما دكا. و قال الإمام أمير المؤمنين (ع): من سلّ سيف البغي قتل به.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٣

٤- **وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً** و ليس بعد الكفر و الشرك ذنب، و الشرك ضد التوحيد الذي يتلخص بقوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ و تقدم الكلام عنه في الوصايا العشر الآية ١٥٣ من الأنعام.

٥- **وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ** و من ذلك ما كان عليه أهل الجاهلية الذين أشارت اليهم الآية ٢٨ الأعراف: وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللهُ أَمَرَنا بِها. و لا رذيلة أقبح من القول بلا علم، و لا فرق بين الافتراء على اللّه، و بين الشرك به من حيث الحكم، قال الإمام علي (ع): من ترك قول لا أدري أصيبت مقاتله.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ. المراد بالأمة هنا الجماعة، كما في الآية ٢٣ من القصص:

وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ .. بعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة ٢٨ ان المشركين يفعلون الفواحش، و يقولون: اللّه أمرنا بها و ذكر في الآية ٣١ ما أحل اللّه، و في الآية ٣٣ ما حرم، بعد هذا قال:

و لكل أمة أجل. أي لكل جماعة، و منهم المشركون الذين افتروا على اللّه الكذب- أجل معين في هذه الحياة، ثم يردون الى اللّه، فينبئهم بما كانوا يعملون ..

و في هذا تهديد و وعيد للمشركين و مرتكبي الفواحش و لأهل البغي و الإثم، و لكل من قال على اللّه بغير علم.

فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ تقدم تفسيره في الآية ١٤٥ من آل عمران، فقرة الأجل محتوم ج ٢ ص ١٧١.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٥ الى ٣٩]

يٰا بَنِي آدَمَ إِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيٰاتِي فَمَنِ اتَّقىٰ وَ أَصْلَحَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ أُولٰئِكَ يَنٰالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتٰابِ حَتّٰى إِذٰا جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قٰالُوا أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا وَ شَهِدُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كٰانُوا كٰافِرِينَ (٣٧) قٰالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النّٰارِ كُلَّمٰا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهٰا حَتّٰى إِذَا ادّٰارَكُوا فِيهٰا جَمِيعاً قٰالَتْ أُخْرٰاهُمْ لِأُولاٰهُمْ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً مِنَ النّٰارِ قٰالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لٰكِنْ لاٰ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَ قٰالَتْ أُولاٰهُمْ لِأُخْرٰاهُمْ فَمٰا كٰانَ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٤

الإعراب:

فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ إما مركبة من كلمتين ان الشرطية، و ما زائدة مؤكدة، و لدخولها على ان دخلت النون الثقيلة على يأتي. فمن اتقى جواب الشرط.

حتى إذا حتى تفيد معنى الغاية، و لا عمل لها هنا، و كذلك إذا دخلت على الجمل. و إذا ظرف في محل نصب بقالوا. و **أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تَدْعُونَ** أين مبتدأ، و ما خبر، أي أين الآلهة التي كنتم تعبدون. و كلما منصوبة على الظرفية، و اكتسبت هذه الظرفية من ما التي هي بمعنى وقت. و جميعا حال من واو ادارکوا. و ضعفا صفة لعذاب بمعنى مضاعف، و من النار متعلق بمحذوف صفة ثانية. و لكل متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف، و ضعف صفة للمبتدإ المحذوف، و التقدير لكل من الأخرى و الأولى عذاب ضعف.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٥

المعنى:

يٰا بَنِي آدَمَ إِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيٰاتِي فَمَنِ اتَّقىٰ وَ أَصْلَحَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ.

خلق اللّه سبحانه آدم و ذريته، و سنّ لهم منهجا يسيرون عليه، و أرسل اليهم من يبلغهم إياه، و جعل الرسل المبلغين من أبناء جنس المرسلين اليهم، لأن ذلك ادعى في التأثير، و أبلغ في الحجة، فمن سمع و أطاع فهو في أمن و أمان من غضب اللّه و عذابه **وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ.** كان أستاذنا رضي اللّه عنه و أرضاه يقرأ لتلاميذه مقطعا مقطعا من الكتاب المقرر للتدريس، و يشرحه لهم بكلام يفهمه كل الناس، فإذا كان المقطع واضحا و مفهوما للجميع علق عليه بكلمة: توضيح الواضحات من أشكل المشكلات. و مشى الى غيره.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ تقدم في سورة الأنعام الآية ٢١. **أُولٰئِكَ يَنٰالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ**

الْكِتابِ أولئك اشارة إلى من تقدم ذكرهم، و هم الذين اختلقوا في ما لا وجود له، و كذبوا بما هو موجود، و المراد بالكتاب النصيب المكتوب من الآجال و الأرزاق، و المعنى ان اللّه يدع الكاذبين و المكذبين يستوفون ما كتب لهم في هذه الحياة من العمر و الرزق حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا و هم ملائكة الموت يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا لا نحن نعرف أين هم؟. و لا هم يأتون لخلاصنا من العذاب وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ و الاعتراف بالذنب يجدي حيث يمكن اخفاؤه و الفرار من الجزاء عليه، أما بعد ظهوره كالشمس، و حين تنفيذ العقوبة فلا يجدي الاعتراف و الندم شيئا.

بعد ان يشهد الكافرون على أنفسهم تنتهي المحاكمة، و يصدر الحكم عليهم بعذاب الحريق.

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ. المراد بالأمم أهل الملل الكافرة، أي ان اللّه يقول لمن كفر بنبوة محمد (ص): ادخلوا النار جزاء على كفركم، كما دخلها من كذّب بالأنبياء من قبلكم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٦

كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها يتلاعنون، و قد كانوا اخوة في الدين، و تجمعهم الأنساب و الاصهار .. و هكذا أهل الأهواء و الضلال يتحابون و يتعاطفون حين الدعة و أيام الأمل، و يتباغضون و يتلاعنون حين لا يدرك أمل، و يرجى نوال.

حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً أي تلاحقوا، و أدرك بعضهم بعضا، و عندها يبدأ الخصام و الجدال قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ. قال بعض المفسرين: المراد بأولاهم الأولى دخولا في النار، و بأخراهم المتأخرة دخولا فيها. و قال آخرون: بل المراد بأولاهم القادة المتبوعون، و بأخراهم الأتباع. و هذا القول أقرب و أنسب لقول أخراهم: هؤلاء أضلونا مشيرين لأولاهم، لأن المضل متبوع و المضلّل تابع ..

طلب التابعون من اللّه سبحانه أن يضاعف العذاب للمتبوعين، لأنهم السبب في ضلالهم قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ أي ان لكم و لهم عذابا مضاعفا و لكن لا يعلم كل فريق ما للآخر من مقدار العذاب و شدته.

وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ طلب التابعون أن يزيد في عذاب المتبوعين، فقال هؤلاء لأولئك: و لما ذا هذا الطلب؟ و كلنا في الجزاء سواء، و لا تفاوت في شيء، حتى يزيد اللّه في عذابنا دون عذابكم، ثم توجه المتبوعون إلى التابعين، و قالوا لهم جوابا عن طلب المزيد في عذابهم:

فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ مختارين من الآثام، و ما كان لنا عليكم من سلطان.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٤٢) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٧

اللغة:

السم بفتح السين و ضمها الثقب. و الخياط الابرة. و المهاد الفراش. و الغواشي جمع غاشية، و هي ما يغطي الشيء و يستره. و الوسع الشيء المقدور. و النزع قلع الشيء من مكانه. و الغل الحقد.

الاعراب:

يلج منصوب بأن مضمرة بعد حتى. و محل الكاف من كذلك النصب صفة لمصدر محذوف، أي نجزي المجرمين جزاء مثل ذلك. و لهم من جهنم مهاد مبتدأ و خبر. و من فوقهم غواش مثله، و التنوين في غواش عوض عن الياء المحذوفة، و هي ممنوعة من الصرف مثل مساجد. و الذين آمنوا مبتدأ أول، و أولئك مبتدأ ثان، و أصحاب الجنة خبره، و الجملة خبر المبتدأ الأول. و جملة لا نكلف نفسا معترضة بين المبتدأ و الخبر. و تسبك ان و هدانا بمصدر مرفوع بالابتداء، و الخبر محذوف، أي لو لا هداية اللّه حاصلة لنا. و ان تلكم ان مفسرة بمعنى أي، و تلكم مبتدأ، و الجنة عطف بيان، و جملة أورثتموها خبر المبتدأ.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٨

المعنى:

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ. آيات اللّه تشمل الدلائل على وجوده، و نبوة أنبيائه، و كل ما جاء على ألسنتهم نقلا عن اللّه تعالى، و التكذيب بآيات اللّه معروف، و عطف الاستكبار عنها من باب عطف التفسير، و قوله: **لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ** كناية عن رفض أعمالهم، و انها لا تقبل منهم كما تقبل أعمال الصالحين، قال تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ- ١٠ فاطر.

وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ. هذا تعليق على محال، تماما كقوله تعالى: قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ- ٨١ الزخرف. و وجود ما علّق على المحال محال .. و العرب تضرب المثل لما لا يكون بقولهم: لا أفعله، حتى يشيب الغراب، و حتى يدخل الجمل في سم الخياط **وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** أي نجازيهم بالحرمان من الجنة.

و مع هذا الحرمان **لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ.** المهاد الفراش، و الغواشي الأغطية، و المعنى ان جهنم محيطة بالمجرمين من جميع الجهات.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ. لما توعد العاصين بعذاب جهنم وعد المطيعين بنعيم الجنة، يتمتعون به إلى ما لا نهاية، و أشار بقوله: **لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها** إلى أن الجنة على عظمتها يمكن الوصول اليها بغير مشقة و حرج، و ان من دخل جهنم انما دخلها لأنه سلك طريقها بإرادته و اختياره.

وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ. و لما ذا الغل؟

و قد كان في الدنيا غل و حسد و رياء و كذب و نفاق، لأن فيها فقيرا و غنيا، و ظالما و مظلوما، و خاملا و شهيرا، و لا فقر في الجنة و لا ظلم و لا شهرة بعد أن وضع اللّه كلا في درجته التي يستحقها، و مرتبته التي عمل لها .. ان كل واحد من أهل الجنة يشعر بالغبطة و السعادة لخلاصه من نار جهنم، و لا ينظر إلى من فوقه إطلاقا: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ

أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٢٩

وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا أي أرشدنا إلى طريق هذا النعيم وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللهُ هذا شكر للّه على نعمه لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ أخبرهم الرسل بالجنة، فآمنوا بالغيب، و لما شاهدوها عيانا فرحوا، حيث أصبح الغيب مشهودا وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. و كلمة الإرث بسبب العمل توحي بأن الجنة حق لازم للعاملين، تماما كالميراث لأهله، و بكلمة ان الآية تدل على ان الثواب حق لا تفضل.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (٤٥)

اللغة:

العوج بفتح العين مختص بالمرئيات، و بكسرها مختص بما ليس بمرئي، تقول:

في ساقه عوج، و في رأيه عوج.

الاعراب:

ان قد وجدنا أن مفسرة بمعنى أي، و مثلها ان لعنة اللّه. و حقا حال من ما وَعَدَنا و يجوز أن تكون مفعولا ثانيا لوجدنا على ان تتضمن معنى

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٠

علمنا. و عوجا حال من واو يبغونها أي يبغونها معوجين أو ضالين، و قال الطبرسي في مجمع البيان: ان عوجا مفعول به على معنى يبغون لها العوج.

المعنى:

وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا. ان أصحاب الجنة على علم اليقين بأن أصحاب النار قد وجدوا صدق الوعيد و التهديد، و لكنهم وجهوا اليهم هذا السؤال شكرا للّه على ما أنعم عليهم، و تقريعا لأهل النار على كفرهم و عنادهم، و تذكيرا لهم بما كانوا يقولونه من الهزؤ و الاستخفاف بدين الحق و أهله.

قالُوا نَعَمْ حيث لا وسيلة للإنكار فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ بهذه اللعنة يرفع المؤذن صوته يوم القيامة واصفا الظالمين بثلاثة أوصاف:

١- الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ أي يمنعون الناس من اتباع الحق بشتى الوسائل.

٢- وَ يَبْغُونَها عِوَجاً. لا يريدون الصدق و الإخلاص و الاستقامة، و انما يريدون الكذب و النفاق و الخيانة.

٣- وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ فلا يخافون حسابا و لا عقابا على جرائمهم و آثامهم.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٦ الى ٤٩]

وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَ نادى أَصْحابُ

الأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣١

اللغة:

الحجاب المانع و الحاجز. و الأعراف جمع عرف، و هو المكان المرتفع، و منه عرف الديك و الفرس. و سيما و سيماء و سيمياء بمعنى واحد العلامة. و التلقاء جهة اللقاء، و هي الجهة المقابلة، و لذلك كان ظرفا من ظروف المكان، مثل حذاءك.

الاعراب:

تلقاء منصوب على الظرفية، و العامل فيه صرفت. و ما أغنى ما نافية، و أغنى فعل ماض، و جمعكم فاعل، و ما كنتم مصدرية، و المصدر المنسبك معطوف على جمعكم، أي و كونكم تستكبرون. و هؤلاء مبتدأ، و الذين خبر لمبتدأ محذوف، و الجملة خبر هؤلاء، أي أ هؤلاء هم الذين أقسمتم، و لا يجوز أن يكون الذين عطف بيان لهؤلاء، لأن المبتدأ يبقى بلا خبر.

الأعراف:

نحن نؤمن بيوم القيامة و حسابه و جزائه- اجمالا- كأصل من أصول الدين، أما التفاصيل و الجزئيات فإنها من عالم الغيب، و لا يثبت شيء من هذا العالم إلا بآية صريحة واضحة، أو بحديث صريح واضح ثبت عن المعصوم بالخبر المتواتر، لا بخبر الآحاد، لأن خبر الآحاد حجة في الفروع، لا في الأصول، و الخبر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٢

المتواتر هو الذي يرويه كثيرون يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب، و يقابله الخبر الواحد.

و قد ثبت بالوحي ان في الآخرة مكانا يقع بين الجنة و النار يسمى الأعراف «١»، و ما هو بالنعيم، و لا بالجحيم، و لكن باطنه فيه الرحمة، و هو ما يلي الجنة، و ظاهره فيه العذاب، و هو مما يلي النار: فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ- ١٤ الحديد. و على هذا المكان المسمى الأعراف رجال يعرفون جميع أهل الجنة، و جميع أهل النار، يعرفونهم لا بأسمائهم و لا بأشخاصهم، بل بعلامات فارقة تدل عليهم، و هم يتعمدون النظر إلى أهل الجنة، و يسلمون عليهم، و يطمعون أن يكونوا في وقت من الأوقات معهم، و إذا وقع طرفهم على أهل النار سألوا اللّه أن لا يجعلهم مع القوم الظالمين الهالكين.

ثم تنتهي الحال بأهل الأعراف إلى دخول الجنة لأنهم من أهل لا إله إلا اللّه، و للّه عناية خاصة بأهلها.

هذا مجمل ما نزل به القرآن في الأعراف و أهلها، و لكن كثيرا من المفسرين تجاوزوه إلى تفاصيل لا نعرف لها أصلا .. و بعد هذا التمهيد نشرع في تفسير مداليل ألفاظ الآيات:

وَ بَيْنَهُما حِجابٌ أي بين الجنة و النار، أو بين أهليهما، و الحجاب هو الأعراف الذي أشار اليه بقوله: **وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ.**

أي ان رجال الأعراف يعرفون كلا من أهل الجنة و أهل النار بعلامات تدل عليهم .. و غير بعيد أن تكون هذه العلامات

هي المشار اليها في الآية ١٠٦ من آل عمران: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ. و الآية ٣٨ و ما بعدها من سورة عبس: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ- أي سواد و ظلمة- أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ. و قيل: ان هذه علامات عامة يعرفها كل الناس، و ظاهر الآية يدل على ان تلك العلامات يعرفها رجال الأعراف فقط. و مهما يكن، فان الأمر سهل جدا، ما دمنا غير

---

(١). الاعراف اسم لهذا المكان، أما البرزخ فهو الزمان الذي بين الموت و البعث.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٣

مكلفين و لا مسؤولين عن معرفة تلك العلامات بكنهها و حقيقتها، و لا بصفاتها الخاصة أو العامة.

و تسأل: من هم رجال الأعراف؟

الجواب: للمفسرين فيهم أقوال، أرجحها- ذوقا- ما عليه الأكثر:

انهم الذين تساوت كفتا ميزانهم، و لم ترجح حسناتهم على سيئاتهم، و لا سيئاتهم على حسناتهم، و لو زادت إحداهما على الأخرى مثقال ذرة لتعين مصيرهم، إما إلى جنة، و اما إلى نار.

سؤال ثان: ان أهل الجنة يعرفون بدخولها، و كذلك أهل النار، فأية حاجة إلى العلامات؟

الجواب: قد تكون تلك العلامات للتمييز بين الفريقين قبل الحساب و العقاب كما يعرف المجرم من ملامح وجهه، و هو يساق إلى المحاكمة.

وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ضمير نادوا يعود إلى رجال الأعراف، و المعنى انهم حين ينظرون إلى أهل الجنة يسلمون عليهم تسليم تحية و إكرام **لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ** في دخول الجنة، لأنهم من أهل لا إله إلا اللّه، و كل من آمن باللّه يطمع في رحمته و مغفرته: إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ- ٨٧ يوسف. و في الحديث: ان رجلا قال: و اللّه لا يغفر اللّه لفلان. فقال اللّه تعالى: من هذا الذي تألى عليّ- أي أقسم عليّ- أن لا أغفر لفلان؟ .. فاني قد غفرت لفلان، و أحبطت عمل المتألّي.

وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و بناء **صُرِفَتْ** للمجهول يوحي بأن نظر رجال الاعراف إلى أهل النار كان من غير قصد، و المراد بالظلم هنا الشرك و الكفر، و المعنى انهم إذا صادف و رأوا ما عليه أهل النار خافوا و تضرعوا إلى اللّه تعالى أن لا يجعلهم مع الكافرين الهالكين.

وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. كان الذين استكبروا في الأرض يسخرون من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٤

المؤمنين، و يتعاظمون عليهم بما كانوا يملكون من مال و جاه، و يقولون لهم:

لا تنالكم أبدا رحمة اللّه، و لما جاءت ساعة الحق، و لاقى المترفون جزاء أعمالهم ذكّرهم أهل الأعراف بأمرين: الأول بما كانوا يجمعون و يستكبرون به من مال و نحوه، و اليه الاشارة بـ **قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ**

تَسْتَكْبِرُونَ.

الثاني بما قالوه للمؤمنين: لا تدخلون الجنة، و اليه الاشارة بـأَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاٰ يَنٰالُهُمُ اللّٰهُ بِرَحْمَةٍ. فهؤلاء اشارة الى المؤمنين المستضعفين، و الخطاب في أقسمتم موجه من أهل الأعراف الى المترفين المستكبرين، لاٰ يَنٰالُهُمُ اللّٰهُ بِرَحْمَةٍ من قول المترفين.

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. أي ان المؤمنين الذين قال لهم المترفون: لا تنالكم رحمة اللّه و لا تدخلون الجنة، ان هؤلاء المؤمنين قيل لهم: ادخلوا الجنة الخ، و بطبيعة الحال قيل للمترفين المستكبرين: ادخلوا النار خاسرين خاسئين. و سلام على من قال: الغنى و الفقر بعد العرض على اللّه.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٠ الى ٥٣]

وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ النّٰارِ أَصْحٰابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنٰا مِنَ الْمٰاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَهُمٰا عَلَى الْكٰافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا فَالْيَوْمَ نَنْسٰاهُمْ كَمٰا نَسُوا لِقٰاءَ يَوْمِهِمْ هٰذٰا وَ مٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ (٥١) وَ لَقَدْ جِئْنٰاهُمْ بِكِتٰابٍ فَصَّلْنٰاهُ عَلىٰ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنٰا مِنْ شُفَعٰاءَ فَيَشْفَعُوا لَنٰا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنّٰا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٥

اللغة:

المراد بالكتاب هنا القرآن. و فصّلناه بيّناه. و ينظرون ينتظرون. و التأويل ما يؤول اليه حال الشيء.

الإعراب:

ان أفيضوا ان مفسرة بمعنى أي. و قال حرّمهما و لم يقل حرّمه مع ان العطف السابق بأو، لا بالواو، لأن المعنى حرّم كلا منهما. و الذين اتخذوا في محل جر صفة للكافرين. و لهوا مفعول ثان لاتخذوا. على علم متعلق بمحذوف حالا من فاعل فصّلناه، و هدى حال من المفعول أو مفعول لأجله، و يوم منصوب بيقول. فيشفعوا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء الواقعة في جواب الاستفهام. و نرد بالرفع لأن التقدير أو هل نرد. و فنعمل بالنصب بأن مضمرة.

المعنى:

جاء في الحديث: ان فرحة أهل الجنة بالخلاص من الجحيم تزيدهم نعيما على نعيم، و ان حسرة أهل النار على ما فاتهم من النعيم تزيدهم عذابا على عذاب، و هم يعلمون ان أهل الجنان في نعيم مقيم، و لذا نٰادىٰ أَصْحٰابُ النّٰارِ أَصْحٰابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنٰا مِنَ الْمٰاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ فأجابهم أهل الجنة إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَهُمٰا عَلَى الْكٰافِرِينَ.

و بعد اليأس من أهل الجنة يستغيث أهل النار بخزنتها، كما في الآية ٤٩ من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٦

غافر: وَ قٰالَ الَّذِينَ فِي النّٰارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنّٰا يَوْماً مِنَ الْعَذٰابِ فيجيب الخزنة: أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالُوا بَلىٰ قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰاءُ الْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ.

و بعد اليأس من الخزنة يستغيثون باللّه رب العالمين، و قد كان أهون شيء عليهم في ساعة اليسر و الرخاء: قٰالُوا رَبَّنٰا

غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ. رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ فيجيبهم الباري جل اسمه: اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ- ١٠٨ المؤمنون.

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا تقدم تفسيره في سورة الأنعام الآية ٧٠ **فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ** المراد بالنسيان هنا الإهمال: وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا و المعنى يهملهم اللّه يوم القيامة كما أهملوا العمل له، و كما جحدوا ما أنزل على رسله من الآيات و الحجج.

وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. ذكر سبحانه فيما سبق أهل الجنة، و أهل النار، و أهل الأعراف، و هذه الآية و التي تليها مختصتان بأهل النار الذين غرتهم الحياة الدنيا .. قال سبحانه: لقد جئنا هؤلاء بالقرآن يهدي الى الرشد، و يبين عن علم ما يحتاج اليه الناس في معاشهم و معادهم، و ضمن لمن آمن و عمل بتعاليمه الهداية الى الخير في الدنيا، و رحمة اللّه و ثوابه في الآخرة.

أما من أعرض، و اتبع هواه فمآله جهنم و ساءت مصيرا **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ** ينظرون أي ينتظرون، و ضمير تأويله يعود الى الكتاب، و معنى تأويله هنا ان كل ما نطق به القرآن يؤول أمره الى الوقوع لا محالة **يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** بوقوع ما أخبر عنه، و يتبين للكافرين صدقه بالعيان **يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ** قالوا هذا بعد أن شاهدوا العذاب، و من قبل قالوا للرسل: سحرة مفترون .. و أيضا قالوا بعد أن رأوا العذاب: **فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا** عند اللّه في غفران خطايانا، و لا يعاملنا بما نستحقه من الخزي و العقوبة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٧

أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ. لو استجاب اللّه لدعوتهم هذه لبطلت جميع المقاييس و القيم، و تساوى الخبيث الذي لا يؤمن إلا و السيف مصلت على رأسه مع الطيب الذي يؤمن بالحق بملء ارادته، و يضحي في سبيله بالنفس و النفيس **قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ.** و هكذا تذهب أعمال المبطلين سدى، و يغيب عنهم الشفعاء و الأولياء الذين كانوا يعملون من أجلهم، و يدخرونهم لساعة العسرة.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٤ الى ٥٦]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

اللغة:

استوى هنا بمعنى استولى. و العرش كناية عن الملك و السلطان. و الغشاوة الغطاء، و قيل: المراد بها الذهاب، أي ان الليل يذهب بنور النهار. و حثيثا مسرعا. و المسخر الخاضع المنقاد. و تبارك اللّه، أي تعالى بعظمته، و هو فعل غير منصرف لا يصاغ منه أمر و لا مضارع. و التضرع التذلل. و الخفية لغة ضد العلانية.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٨

الاعراب:

جملة يطلبه حال من الليل. و حثيثا صفة لمفعول مطلق محذوف، أي طلبا حثيثا، و يجوز أن يكون حالا. و الشمس مفعول لفعل محذوف، أي و خلق الشمس. و مسخرات حال من الشمس و ما عطف عليها. و تضرعا في موضع الحال من واو ادعوا، أي متضرعين و مخفين. و مثله خوفا و طمعا أي خائفين و طامعين. و قريب على وزن فعيل يستوي فيه المذكر و المؤنث.

المعنى:

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ. للمفسرين في هذه الآية أقوال متضاربة، و يرجع سبب الاختلاف إلى أمرين: الأول ان أفعال اللّه تعالى لا تقدر بالزمان: وَ ما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ- ٥٠ القمر.

أي كلمة واحدة و هي كُنْ فَيَكُونُ. الأمر الثاني ان الزمان انما يقدر بعد وجود السموات و الأرض و ما يقع فيها من حوادث، فقبل الكون لا زمان و لا أيام، فكيف يمكن إيجاده من أيامه و في أيامه؟ و هل هذا إلا كقول القائل:

بنيت بيتا من سقفه و حيطانه؟.

اذن، لا بد من تأويل الأيام بمعنى مقبول و معقول، و قد اختلفوا في تعيين هذا المعنى المجازي، فمنهم من قال: ان في الكلام حذفا أي في مقدار ستة أيام، و منهم من قال: ان الأيام هنا كناية عن المراحل و الدفعات، و انه تعالى لم يخلق الكون دفعة واحدة، بل على ست مراحل، ليكون لكل شيء حد محدود، و وقت مقدر. و من قائل: ان الأيام كناية عن الأطوار، و انه سبحانه لم يخلق الكون ابتداء كما هو عليه الآن، بل انتقل بخلقه من طور إلى طور وفقا لنظرية النشوء و الارتقاء، حتى الطور السادس و الأخير، و هو الذي نراه الآن.

و هذه الوجوه كلها محتملة، و ليس لدينا ما يعين أحدها، أو يرجحه برغم تتبعنا لكثير من التفاسير القديمة و الحديثة، و لذا نقول مع القائل:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٣٩

ان الأيام قد تكون ست مراحل، و قد تكون ستة أطوار، و قد تكون ستة أيام من أيام اللّه التي لا تقاس بمقياس زماننا .. و قد تكون شيئا آخر، فلا ينبغي أن يجزم أحد ما ذا يعني هذا العدد على وجه التحديد .. و الظن باسم العلم محاولة تحكمية، و هزيمة روحية أمام ما يقال له علم، و هو لا يتجاوز درجة الظنون و الفروض.

ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ. هذه الجملة تفسرها الجملة التي بعدها، و هي **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الأَمْرُ** أي انه يملك الكون و يدبر أمره، و مثلها الآية ٣ من سورة يونس: إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ. و انما عبر سبحانه عن ملكه و تدبيره بالاستواء على العرش لأن الملك يستولي على مملكته و يديرها: و هو على عرشه، و القصد التقريب، دون التشبيه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً. هذا من تدبيره تعالى لشؤون الكون، و معناه ان الليل يتبع النهار، و يتعقبه مسرعا في طلبه، و يتغلب على المكان الذي كان فيه، فيصير مظلما بعد ان كان منيرا، و مثله قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشىٰ أي يتغلب على ضوء النهار، و قوله: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها أي يتغلب على ضوء الشمس.

وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ. أي و خلق هذه الكواكب تنقاد لمشيئته، و تسير على مقتضى الحكمة و المصلحة .. و الكلام عن هذه الكواكب يحتاج الى علم الفلك، و لا نعرف منه شيئا **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الأَمْرُ** هذا بيان و تفسير لقوله: **ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ** كما أسلفنا، و في الحديث: من زعم ان اللّه جعل للعباد من الأمر شيئا فقد كفر

بما أنزل على أنبيائه بقوله:

الا له الخلق و الأمر. **تَبٰارَكَ اللهُ رَبُّ الْعٰالَمِينَ**. تعالى بوحدانيته و ملكه و تدبيره.

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً. و ليس معنى دعوة العبد ربه أن يقول:

اللهم رحمتك و غفرانك، كلا .. و انما دعوة الحق أن يخافه و يتقيه، و يلتزم أوامره و نواهيه، و ليس المراد بالتضرع أن يقول: اللهم أتضرع اليك تائبا،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٠

و أعوذ بك مستجيرا، بل المراد به أن يكون صادقا مخلصا للّه فيما يقول و يفعل، أما خفية فمعناها أن لا يباهي بما يفعل من خير، و يعلنه على الملأ، فان هذا ضرب من الاعتداء، و اللّه يقول: **إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** أي المتجاوزين ما أمر به، و ما نهى عنه، و قد نهى سبحانه عن المباهاة بالعبادات، و فعل الخيرات.

اللّه أصلح الأرض و الإنسان أفسدها:

وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا. أصلح اللّه هذه الأرض بما أودع فيها من كنوز لا تحصيها كثرة من الطيبات و المتع الروحية و المادية .. فمن مباهج الطبيعة إلى جمال المرأة، و من وفاء الأصدقاء إلى بر الأبناء، و من نشوة المعرفة و الاطلاع إلى وشوشة الألحان و الأنغام .. إلى ما لا نهاية.

أما الطيبات المادية فمن المأكول الحبوب و الخضار و اللحوم و الفواكه، و في كل نوع من هذه أشكال و ألوان، و من الملبوس الصوف و القطن و الجلد و الحرير، ثم اكتشف الإنسان النايلون، و سيكتشف بعد ما نظنه من الممتنعات و المستحيلات، تماما كما اكتشف و اخترع الأعاجيب لطئ الأرض و السماء، و عبور القارات في دقائق و لحظات، أما الوقود فمن الشجر إلى الفحم الحجري، و من البترول الى الكهرباء، إلى حرارة الشمس و الذرة .. و قرأت فيما قرأت ان العلم استخرج من البترول المطاط الصناعي للاطارات، و الزجاج غير القابل للكسر، و قنابل النابالم و النايلون، و الأسمدة الكيماوية، و الأطباق و أنابيب الري بالرش، و مساحيق التجميل، و مناضد الحدائق، و أغطية الموائد، و الزهور الصناعية، و أحمر الشفاه و كحل العيون، و طلاء الأظافر، و الملابس الداخلية، و فرشاة الأسنان، و حبر المطابع، و الأفلام، إلى ثلاثة آلاف صنف أحصاها الخبراء، بل إلى ما لا يحصيه عدا إلا من أحاط بكل شيء علما: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ كَفّٰارٌ- ٣٤ ابراهيم.

ان الإنسان لظلوم كفار .. جاءت الآية بصيغة المبالغة، مع تأكيدين لهذه المبالغة: أولهما بأنّ، و ثانيهما باللام .. و أي شيء أكثر ظلما و كفرانا، و أعظم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤١

فسادا و طغيانا من تحويل الطيبات من الرزق إلى قنابل النابالم، تقتل الصغار و تشوه الكبار، و إلى نفاثات السموم و اللهب يحرق الأخضر و اليابس، أما القنابل الذرية و الهيدروجينية فإنها لا تبقي و لا تذر.

لقد بدّل الإنسان نعمة اللّه كفرا، و حوّل نعيم أرضه إلى جحيم، و ربط مصير الانسانية كلها بمصير القنابل الذرية و الهيدروجينية .. لقد أودع اللّه في هذه الأرض المتع و الطيبات من الرزق لعباده و عياله، و أودع الظلوم الكفار القنابل الذرية في مخازنه و طائراته، تجوب أجواء القارات ليل نهار، يرقب الفرصة المؤاتية ليحوّل الأرض و من عليها إلى رماد و هباء .. و هذا هو تأويل قوله تعالى: **وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا**. فيجب أن تعرف الذي أفسد علينا

الأرض بعد أن أصلحها اللّه لنا، و أن نقطع عليه الطريق بكل ما نملكه من وسائل، و أقلها أن نعلن حقيقته للملإ، و نسميه باسمه الذي وضع له، و هو عدو اللّه و الانسانية، ليحذر الناس، كل الناس من مكره و خداعه.

وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً. ان بث روح اليأس خيانة، لأنه لا حياة مع اليأس، و بث روح الأمل مع ترك التحفظ و الحذر أيضا خيانة، لأنه تغرير و تخدير، و طريق النجاة وسط بين الاثنين، قال تعالى: وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخافُونَ عَذابَهُ- ٥٧ الإسراء. و قال: نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ- ٥٠ الحجر. فالمؤمن العاقل يعمل، و هو خائف من اللّه أن لا يقبل منه لخلل في عمله، و في الوقت نفسه يرجو النجاح و القبول، و كل من الخوف و الرجاء يدعو إلى التحفظ و الإتقان، **إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**. فيه إيماء إلى أن من يخاف اللّه و يرجوه فهو من أهل الإحسان، و انه تعالى يجازي الإحسان بمثله.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٢

اللغة:

بشرا بسكون الشين و أصله بضم الشين بشرا جمع بشير، و معناه مبشرات.

و المراد بالرحمة هنا المطر. و ثقال جمع ثقيل، و المراد به هنا المثقل ببخار الماء.

و البلد الميت أرض لا نبات فيها. و البلد الطيب هو الجيد التربة. و النكد بكسر الكاف كل شيء يخرج بتعسر و مشقة.

الاعراب:

بشرا حال من الرياح أي مبشرات. و أهملت حتى بدخولها على إذا. و نكدا حال من ضمير يخرج.

المعنى:

هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ لبلد ميت على حذف مضاف أي لحياة بلد ميت، و ضمير به الأولى يعود الى بلد ميت، و ضمير به الثانية يعود الى الماء، و كل الثمرات المراد به العموم العرفي، لا العموم الواقعي.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٣

ان الرياح تهب، و الشمس تبخر ماء البحار، و ترتفع الرياح بهذا البخار إلى العلو، ثم تجذبه الأرض اليها، فيتساقط عليها قطرات متراكبة، كل ذلك و ما اليه يأتي وفقا لسنن الطبيعة، ما في ذلك ريب .. و لكن من هو الذي أوجد هذه الطبيعة، و أودعها هذه السنن التي تسير على وتيرة واحدة مدى ملايين القرون، لا تتغير و لا تتبدل؟. هل وجدت الطبيعة عفوا؟. و هل حكمتها القوانين و السنن من البداية الى النهاية صدفة و من غير سبب؟. اذن، فبالأولى أن يكون هذا الزعم جزافا و من غير سبب؟. و كيف ينتج اللانظام نظاما، و اللاوعي وعيا؟.

و بالتالي، هل لهذه التساؤلات جواب معقول و مقبول إلا وجود خالق قدير، و مدبر حكيم؟ .. هو الذي أوجد الطبيعة، و

أودعها السنن و القوانين، و اليه ينتهي كل شيء، و يفتقر كل شيء، و لا يفتقر الى شيء.

فالرياح و المطر و حياة البلد الميت تنسب إلى سنن الطبيعة مباشرة، و بالواسطة إلى خالق الطبيعة **كَذٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**. يقول الجاحدون:

كيف نؤمن بالبعث، و ما رأينا واحدا عادت اليه الحياة بعد موته؟ يقولون هذا، و هم يرون رأي العين حياة الأرض بعد موتها، و لكنهم ذهلوا ان السبب واحد، و انه لا فرق إلا في الصورة، فذكرهم اللّه بذلك لعلهم ينتفعون بالتذكير، أو تلزمهم الحجة.

وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ لاٰ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً.

بإذن ربه كناية عن عطاء الكثير بيسر و سهولة، و النكد كناية عن عطاء القليل بعسر و صعوبة، و أكثر المفسرين، أو الكثير منهم على ان هذا تمثيل لقلب المؤمن و الكافر، و البر و الفاجر بالأرض التي خلق الجميع منها، و وجه الشبه ان الأرض كلها واحدة من حيث الجنس، و لكن منها الطيبة إذا شربت الماء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج، و منها القاسية المغلقة تصد و تنأى عن الخير و الصلاح، و إذا أتت بشيء منه فكالذي يساق الى الموت **كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**. ان اللّه يضرب هذه الأمثال و غيرها للجميع، للخبيث و الطيب، و لكن الطيبين هم الذين ينتفعون بها و يشكرون اللّه عليها، أما بالنسبة إلى الخبثاء فإنها حجة قاطعة لأعذارهم و علاتهم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٩ الى ٦٤]

لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَقٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قٰالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (٦٠) قٰالَ يٰا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاٰلَةٌ وَ لٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (٦٢) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤)

اللغة:

الملأ من القوم أشرافهم. و الفلك بضم الفاء يطلق على السفينة و السفن. و عمين جمع عم، و هو من عمى البصيرة، و الأعمى من عمى البصر.

الإعراب:

من زائدة، و إله مبتدأ، و لكم خبر، و غيره صفة لإله على المحل. و يا قوم أصلها يا قومي، حذفت الياء تخفيفا، و كسرت الميم للدلالة على الياء.

و لينذركم منصوب بأن مضمرة، و المصدر المنسبك متعلق بجاءكم. و معه متعلق بمحذوف صلة الذين، أي و الذين استقروا معه في الفلك. و عمين صفة لقوم، و أصله عميين.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٥

المعنى:

بعد أن قال سبحانه في الآية ٣٥ من هذه السورة: يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ أشار في هذه الآيات و ما بعدها الى قصة نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، و أوجز سبحانه قصة نوح هنا أشد الإيجاز، حيث اكتفى بذكر الحوار بينه و بين قومه، و إعراضهم عن دعوته، و كيف عجبوا ان يختار اللّه رسولا منهم، و انه سبحانه أغرق المكذبين و نجّى المؤمنين.

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ. قال الطبرسي في مجمع البيان: هو نوح ابن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ النبي إدريس، و نوح أول نبي بعد إدريس، و قيل: انه كان نجارا، و انه ولد في العام الذي مات فيه آدم .. و نحن لا نعلم لهذا القيل مصدرا.

فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. أوجز الرسالة التي حملها إلى قومه من اللّه، أوجزها نوح بكلمة:

و هي أن يعبدوا اللّه وحده، لأنه لا إله سواه، و ان دعوته هذه اليهم إنما هي لإشفاقه عليهم من عذاب يوم القيامة.

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. رموه بالضلالة و السفاهة لا لشيء إلا لأنه نهاهم عما ألفوه و ورثوه من عبادة الأحجار .. و هكذا كل سفيه و ضال يرمي بدائه من سار على طريق الهداية و الرشاد.

قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ. رد عليهم بنفي الضلالة عن نفسه، و وصفها بأشرف الصفات، وصفها بأنه رسول اللّه أرسله لينقذهم من الهلاك و الضلالة، و انه ناصح لهم و أمين، و انه يعلم من اللّه وحدانيته و عدله، و من كانت له هذه الصفات فلا يكون ضالا.

أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. قال له قومه: ما أنت إلا بشر مثلنا، و لو أراد اللّه أن يبعث رسولا لبعثه ملكا، فرد عليهم بأنه لا عجب أن يرسل اللّه رجلا إلى قومه لا مصلحة له و لا هدف إلا أن يرشدهم إلى ما فيه خيرهم و صلاحهم، و إنما العجب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٦

أن يهملهم و يتركهم سدى من غير مرشد، قال الرازي: هذا الترتيب في غاية الحسن، فان المقصود من البعثة الإنذار، و المقصود من الإنذار التقوى، و المقصود من التقوى الفوز برحمة اللّه في دار الآخرة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ. تفتحت أبواب السماء بالماء، و تفجرت به عيون الأرض، فأغرق اللّه الظالمين المكذبين، و نجّى نوحا و من معه من المؤمنين، و يأتي الكلام مفصلا عن نوح و قومه في السورة المسماة باسمه إن شاء اللّه.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٥ الى ٧٢]

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٦٦) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)

قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ

رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٧

المعنى:

جاء في تفسير المنار نقلا عن اسحق بن بشر و ابن عساكر: ان هودا أول من تكلم بالعربية، و كان له أربعة أولاد: قحطان و مقحط و قاحط و فالغ، و هو أبو مضر، و أما قحطان فأبو اليمن، و لا نسل لقاحط و مقحط.

و قال المفسرون: كان قوم هود من ذراري نوح، و كانوا على دينه، و لما طل عليهم الأمد لعب بهم الشيطان، فعبدوا الأصنام، و أفسدوا في الأرض ..

و في تفسير الطبري ان الإمام عليا (ع) قال لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك و سدر كثير بناحية كذا و كذا من أرض حضرموت؟ قال الرجل: نعم، يا أمير المؤمنين، و اللّه انك لتنعته نعت رجل قد رآه. قال الإمام: لا، و لكني حدثت عنه. قال الرجل: و ما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود (ع).

و إذا صح هذا الخبر وجب أن تزال القطعة المعلقة على قبر الإمام التي جاء فيها: السلام عليك و على جاريك هود و صالح الا ان يكون الجوار في الآخرة، لا في الدنيا أو نقل جثمان هود بعد وفاة الإمام.

و هذه الآيات التي نزلت في قصة هود موافقة للآيات السابقة التي نزلت في قصة نوح لفظا و معنى إلا في أشياء نشير اليها فيما يلي:

١- قال نوح لقومه: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. و قال هود لقومه: **أَ فَلا تَتَّقُونَ** ذلك انه قبل نوح لم يظهر في العالم مثل ذاك العذاب، و هو الطوفان، و كان قوم هود على علم به، فحذرهم و أمرهم أن يتقوا اللّه بترك الشرك و الإقرار له بالوحدانية.

٢- قال قوم نوح له: إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ و قال قوم هود له:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٨

إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ لأن نوحا كان يصنع الفلك، حيث لا بحر و لا نهر، و هذا العمل بظاهره جهل و ضلال، أما هود فلم يفعل شيئا من هذا النوع، و انما سفّه قومه بعبادتهم الأصنام، فقابلوه بالمثل، و نسبوه الى السفاهة.

٣- قال نوح لقومه: لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ و قال هود لقومه: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ و أراد نوح بالرحمة دفع العذاب عنهم، و أراد هود بالفلاح الهداية الى الصواب، و المعنيان متشابكان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

٤- ان اللّه سبحانه ذكر في هذه الآيات أشياء قالها قوم هود لنبيهم، و لم يذكر هنا جل ثناؤه أن قوم نوح قالوها لنبيهم، و هي **قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا**. عبارة مطروقة يجترها كل جاهل و مقلد **فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** استعجلوا العذاب استعجال من يهزأ بالناصح الأمين .. و جاء الجواب من الرسول حاسما و سريعا **قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ** و معنى وقع هنا وجب، و المراد بالرجس العذاب، و بالغضب السبب الموجب للعذاب.

أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ.

لا وجود للآلهة التي يعبدونها، و كل ما لا وجود له لا أثر له، و لا دليل عليه، و على هذا يكون الاسم الذي وضع له كلاما فارغا بلا معنى فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ هذا جواب قولهم: فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين.

فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ الدابر هو الآخر، و قطع دابر القوم استأصلهم بالهلاك عن آخرهم ..

و بيّن سبحانه نوع العذاب الذي أهلك به قوم هود في الآية ٦ و ما بعدها من سورة الحاقة: وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ، سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ.

و يأتي ان شاء اللّه مزيد بيان لحال هود، مع قومه في السورة المسماة باسمه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٤٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٣ الى ٧٩]

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

اللغة:

البيّنة العلامة الفاصلة بين الحق و الباطل. و بوأكم أنزلكم. و العثي مجاوزة الحد.

و عقروا الناقة نحروها. و العتو التمرد. و الرجفة من الرجف، و هو الحركة و الاضطراب. و الجثوم البروك على الركبة، و المراد به هنا الهلاك.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥٠

الاعراب:

إلى ثمود متعلق بمحذوف، أي و أرسلنا إلى ثمود، و منع ثمود من الصرف للعلمية و التأنيث، و هي القبيلة. و صالحا بدل من أخاهم. و آية حال من ناقة اللّه. و تأكل مجزوم جوابا للأمر، و هو فذروها. فيأخذكم جواب للنهي، و هو و لا تمسوها، و الناصب ليأخذكم ان مضمرة بعد الفاء. و قصورا مفعول أول لتتخذون، و من سهولها مفعول ثان. و تنحتون بمعنى تتخذون، و عليه تكون الجبال مفعولا أولا، و البيوت مفعولا ثانيا. و مفسدين حال من الواو في تعثوا.

و لمن آمن بدل بعض من للذين استضعفوا باعادة العامل مثل مررت بزيد بأخيك.

و جاثمين خبر فأصبحوا، و في ديارهم متعلق بجاثمين.

المعنى:

وَ إِلىٰ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ.

ثمود قبيلة من العرب سميت باسم جدهم ثمود بن عامر، و كانت مساكنهم الحجر بكسر الحاء بين الحجاز و الشام إلى وادي القرى، قال تعالى: وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ- ٨٠ الحجر. و قوله تعالى: **وَ إِلىٰ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً** نظير قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ و قوله: وَ إِلىٰ عادٍ أَخاهُمْ هُوداً و مر التفسير في الآية ٥٩ و ٦٥ من هذه السورة.

هٰذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً. قال جماعة من المفسرين: ان قوم صالح سألوه أن يخرج لهم ناقة من الصخرة، و انه سأل ربه ذلك، فتمخضت الصخرة كالمرأة يأخذها الطلق، فولدت ناقة عشراء و براء .. و نحن نؤمن إجمالا بأن الناقة كانت بينة و آية من اللّه، و انها لم تأت بسبب معتاد، و ان اللّه سبحانه أضافها اليه تعظيما لشأنها .. نؤمن بهذا و لا نزيد شيئا، حيث لم ينزل به وحي و لا جاء به خبر متواتر عن المعصوم.

فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ. أمر صالح (ع) قومه أن يتركوا الناقة و شأنها تأكل من أرض اللّه، و حذرهم من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥١

سوء العاقبة ان تعرضوا لها بأذى، ثم قال لهم: **وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ.** أهلك اللّه عادا بذنوبهم، و أورث ثمود أرضهم و ديارهم، فذكرهم صالح بنعمة هذا الاستخلاف، و أيضا ذكرهم قائلا: **وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً.** و يدل هذا النص على إيجازه ان ثمود كانت تعيش في حضارة عمرانية واضحة المعالم، و انها كانت في نعمة و رفاهية **فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.** آلاء اللّه نعمه، و معنى لا تعثوا في الأرض مفسدين لا تسعوا في الأرض فسادا .. بعد أن ذكر صالح قومه بما أسبغ اللّه عليهم من النعم أمرهم أن يتذكروا و يشكروا نعم اللّه، و نهاهم عن الفساد .. و في ذلك تحذير لهم من بأس اللّه و عذابه.

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ. أصر المترفون من قوم صالح على التمادي في الطغيان، و التعصب لعبادة الأوثان، أما المستضعفون فمنهم من آمن، و منهم من بقي على الشرك تبعا للمترفين، فقال هؤلاء لمن آمن من الفقراء المستضعفين:

أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ سألوا المستضعفين هذا السؤال مستنكرين و مهددين، أو ساخرين مستهزئين.

قالُوا- أي المستضعفون- **إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ.** قالوا هذا غير مكترثين بالتهديد و الاستهزاء، لأنهم على يقين من دينهم، و ثقة من أمرهم.

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا- للمؤمنين المستضعفين- **إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ.**

على الرغم من الدلائل و البينات القاطعة على نبوة صالح، لأن مصالحهم فوق الأديان السماوية، و البراهين العقلية، قال الرازي: هذه الآية من أعظم ما يحتج به على ان الاستكبار انما يتولد من كثرة المال و الجاه، لأن هذه الكثرة هي التي حملتهم على التمرد و الإباء و الكفر.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ. و كشف هذا العتو عن حقيقتهم و ذات أنفسهم، و انهم لا يكترثون إلا بصالحهم وحده لا شريك له .. و قد تحدوا صالحا باستعجال العذاب وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

و لم يمهلهم سبحانه جزاء لهذا العناد فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥٢

أي هالكين، و المراد بالرجفة الصاعقة، قال تعالى: وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ- ٤٥ الذاريات.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ. لما رأى صالح ما حل بقومه من العذاب تولى عنهم كئيبا، و تبرأ من مصيرهم هذا الذي جلبوه على أنفسهم بالعتو و التمرد.

قال الرازي: قال رسول اللّه (ص): يا علي أشقى الأولين عاقر ناقة صالح، و أشقى الآخرين قاتلك.

و سنعود إلى النبي صالح (ع) مرة أخرى ان شاء اللّه.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٠ الى ٨٤]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٨٣) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

الاعراب:

و لوطا أي و أرسلنا لوطا و هو منصرف لخفته. و جملة ما سبقكم حال من الفاحشة. و شهوة مفعول لأجله لتأتون. و جواب خبر مقدم لكان، و المصدر المنسبك من ان قالوا اسمها. و مطرا مفعول مطلق.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥٣

المعنى:

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ. نقل صاحب تفسير المنار عن كتب الأنساب العربية و سفر التكوين ان لوطا ابن أخي ابراهيم الخليل (ص) و انه ولد في اور الكلدانيين و هي في طرف الجانب الشرقي من جنوب العراق الغربي من ولاية البصرة، و كانت تلك البقعة تسمى أرض بابل، ثم سافر لوط مع عمه ابراهيم إلى ما بين النهرين، و هو مكان تحيط به دجلة، حيث كانت مملكة أشور، ثم أسكنه ابراهيم في شرقي الأردن.

ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ. يدل على ان قوم لوط أول من ابتدع هذا النوع من الفساد إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ. هذا تفسير للفاحشة، و ان المراد بها هنا اللواط المعبر عنه اليوم بالشذوذ الجنسي، و الفعل الشنيع بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. قد تجاوزتم الحد في كل شيء، حتى بلغتم إلى هذا الانحراف الذي يمجه الطبع، و تأباه الفطرة، و يخالف سنن الحياة.

وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ. أجل، ان الطهر و العفاف ذنب عند العاهر الفاجر، و الأمانة جريمة عند العميل الخائن .. أخرجوهم لأنهم يتطهرون .. و هكذا المجتمع القذر يرفض الأطهار

و الأبرار، لا لشيء إلا لأنهم يتطهرون، و العكس صحيح أيضا.

فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ. المراد بأهله من آمن معه، سواء أ كان من أرحامه، أو من غيرهم، و غبر تأتي بمعنى مضى، و بمعنى بقي، و هذا المعنى هو المراد هنا، أي ان امرأة لوط بقيت مع الهالكين، و لم يصحبها معه حين سرى بأهله بقطع من الليل فرارا من العذاب، لأنها كانت منافقة تتآمر على زوجها مع المشركين، و قيل: ان اسمها واهلة .. و قال تعالى:

مِنَ الْغابِرِينَ، و لم يقل من الغابرات تغليبا للرجال على النساء، لأن الذين أهلكهم اللّه كانوا من الفئتين.

و هكذا أصاب امرأة لوط من العذاب ما أصاب المشركين لأنها منهم، و لم يجدها القرب من نبي اللّه و التصاقها به شيئا.

و في الحديث: المرء مع من أحب.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥٤

وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً. بيّن سبحانه العذاب الذي أنزله بهم بأنه نوع من المطر، و لكنه بالحجارة، لا بالماء كما جاء في الآية ٨١ من سورة هود:

وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ و يأتي التفصيل في محله ان شاء اللّه **فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**؟

انها العذاب الأليم، و العاقل من اتعظ بغيره.

و تسأل: ان كلا من نوح و هود و صالح دعا قومه الى عبادة اللّه وحده فيما تقدم من الآيات، أما لوط فقد دعا قومه في هذه الآيات الى الامتناع عن الفاحشة، فهل معنى هذا ان قوم لوط كانوا موحدين، و لكنهم فسقوا بهذا الفعل الشنيع؟.

الجواب: ان قوم لوط كانوا كفارا، و قد دعاهم الى التوحيد، و نهاهم عن الكفر و الشرك كما نهاهم عن اللواط بدليل قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ- ١٦٣ الشعراء. و انما اهتم بهذه الرذيلة لأنها كانت فاشية فيهم، و أدت بهم الى غيرها من القبائح و الرذائل، و حملتهم على التمرد و العناد للحق، و جرأتهم على تكذيب أنبياء اللّه و رسله.

و قد أجمعت المذاهب الإسلامية قولا واحدا على تحريم اللواط، و انه من الكبائر، و اختلفوا في عقوبته، قال الحنفية: انها التعزير بما يراه الحاكم، و قالت بقية المذاهب: انها القتل لحديث: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل و المفعول به.

و أباحت الحكومة الانكليزية اللواط، و أقره مجلس العموم البريطاني سنة ١٩٦٧ و نقلت جريدة الأهرام تاريخ ٦- ٩- ١٩٦٧ عن التايمز اللندنية ان جماعة من كبار الشخصيات في انكلترا أقاموا احتفالا عاما ابتهاجا بإباحة اللواط، و تعاطوا فيه هذه العملية أمام المئات من المتفرجين .. و ليس من شك ان وجود السيدات و الآنسات في هذا الحفل يزيد من بهجته و روعته.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٥ الى ٨٧]

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا

تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيٰاءَهُمْ وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَ لاٰ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرٰاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَ إِنْ كٰانَ طٰائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طٰائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّٰى يَحْكُمَ اللّٰهُ بَيْنَنٰا وَ هُوَ خَيْرُ الْحٰاكِمِينَ (٨٧)

اللغة:

الكيل تقدير الشيء بالمكيال. و الوزن تقديره بالميزان. و المساحة تقديره بالمتر و الذراع. و البخس النقص. و العوج بفتح العين يكون فيما يرى كالعود و الحائط، و بكسر العين يكون فيما لا يرى كالدين و ما اليه.

الإعراب:

إلى مدين متعلق بفعل محذوف أي و أرسلنا إلى مدين، و مدين مجرور بالفتح للتعريف و التأنيث، و شعيبا بدل من أخاهم. و لا تبخسوا يتعدى إلى مفعولين:

الأول الناس، و الثاني أشياءهم. و جملة توعدون حال من واو لا تقعدوا. و من آمن مفعول به لتصدون. و ضمير تبغونها يعود إلى سبيل اللّه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥٦

المعنى:

وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ.

مر نظيره في الآية ٥٩ من هذه السورة. و شعيب من أنبياء العرب كهود و صالح، و أهل مدين عرب، و كانوا يسكنون أرض معان من أطراف الشام.

قَدْ جٰاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ. البينة كل ما يتبين به الحق، سواء أ كان برهانا عقليا، أم معجزة خارقة للعادة، و ليس من شك ان شعيبا قد جاء قومه بمعجزة تدل على نبوته، و الا كان متنبئا، لا نبيا. و لا نص في القرآن يدل على نوع هذه المعجزة، فتعيينها بالذات كما في بعض التفاسير قول على اللّه بغير علم.

فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزٰانَ وَ لاٰ تَبْخَسُوا النّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ. و يومئ هذا النص إلى انهم كانوا يسيئون المعاملة في البيع و الشراء، و ان ذلك كان فاشيا فيهم، و لذلك أمرهم بايفاء الكيل و الميزان بعد أن أمرهم بتوحيد اللّه، ثم أمرهم بالعدل و عدم البخس في جميع الحقوق مادية كانت كالمبيعات، أو معنوية كالعلم و الأخلاق، فلا يصفون العالم بالجهل، و الأمين بالخيانة.

وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا. مر تفسيره في الآية ٥٦ من هذه السورة، فقرة اللّه أصلح الأرض و الإنسان أفسدها **ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ذلك إشارة إلى الخمسة المتقدمة، و هي عبادة اللّه، و الوفاء بالكيل و الوزن و عدم البخس و الإفساد.

وَ لاٰ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرٰاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً. هذا بيان و تفسير لقوله: و لا تفسدوا في الأرض لأن معناه دعوا الناس و شأنهم، و لا تلقوا عليهم الشبهات، و لا تتوعدوهم و تهددوهم ان أرادوا الإيمان باللّه و رسوله، و لا تمنعوا من آمن أن يقيم شعائر الدين، و تصدوه عن طريق اللّه القويم، و تحاولوا أن

تحملوا الناس على سلوك الطريق العوجاء التي تسيرون عليها .. و أوضح تفسير لهذه الآية و أوجزه ما روي عن ابن عباس انهم كانوا يقعدون على الطريق، و يخوفون الناس أن يأتوا شعيبا، و يقولون لهم انه كذاب، فلا يفتننكم عن دينكم.

وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ. جعلهم اللّه أغنياء بعد أن كانوا فقراء،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥٧

و أقوياء بعد أن كانوا ضعفاء، و كثيرين بعد أن كانوا أقلاء، فوجبت عليهم الطاعة و الشكر للّه **وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** أي و إلا أصابكم ما أصاب من أفسد الأرض مثل قوم نوح و هود و صالح و لوط.

وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنا. آمن بشعيب جماعة، و كفر به آخرون، فدعا الجميع إلى التعايش السلمي، و ان تترك كل طائفة و شأنها، و لا يتعرض أحد لأحد بأذى، سواء اختار الكفر، أم الإيمان، ثم تنتظر الطائفتان الى ان يحكم اللّه بينهما **وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ**. و لا رد لهذا المنطق، و بأي شيء ترد من يقول لك: انتظر فيك حكم اللّه؟.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٥٩

الجزء التّاسع

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٨ الى ٨٩]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (٨٩)

اللغة:

الملة الديانة. و للفتح معان، منها الحكم، و هو المراد هنا.

الإعراب:

أو لو كنا كارهين، الهمزة للإنكار، و الواو للحال، و لو بمعنى ان، و الجملة بمعنى الحال، و التقدير كيف نعود في ملتكم، و نحن كارهون لها؟.

و ربنا بدل من اللّه، و المصدر المنسبك من أن يشاء اللّه مجرور بإضافة ظرف محذوف، أي إلا عند مشيئة اللّه، أو مع مشيئة اللّه. و علما تمييز محول عن فاعل، أي وسع علم ربنا كل شيء.

المعنى:

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦٢

مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا. قدمنا ان شعيبا دعا المترفين الكافرين الى المسالمة و التعايش مع الذين أمنوا به، و ان

يترك الخيار لمن يشاء أن يدخل في الدين الذي يشاء .. و لكن المترفين رفضوا دعوته، و خيروه بين أمرين لا ثالث لهما: اما أن يخرج هو و من آمن معه من بلدهم، و اما أن يعود الذين آمنوا به الى الكفر، و يعود هو إلى موقفه السابق- قبل النبوة- لا مؤيد لدينهم و لا مفند، و بكلمة ان قولهم: **أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا** معناه أن يرجع الوضع الذي كان قبل النبوة إلى ما كان.

قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟. هذا هو منطق المنصف المخلص، لا يحمل أحدا على ما يكره، و لا يحب أن يحمله أحد على ما لا يريد، ثم هل يكون الإيمان بالإكراه؟. و هل المؤمن حقا يؤثر الإقامة في الوطن على دينه و عقيدته؟.

قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْها. طلب المشركون من شعيب (ع) أن يرتد عن الإيمان إلى الشرك، فقال لهم: ان الارتداد افتراء على اللّه، و عاقبة الافتراء عليه تعالى و بال و عذاب، و قد أنجانا اللّه منه، فكيف نفتري عليه؟ .. اما ان الارتداد افتراء على اللّه فواضح، لأن معناه ان الشرك باللّه خير و أبقى من الإيمان بوحدانيته **وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّنا**. ضمير فيها يعود إلى ملة الكفر و الشرك، و التعليق هنا على مشيئة اللّه تعليق على المحال، لأن اللّه لا يشاء الكفر و الشرك، فهو تماما كقوله تعالى: وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ.

وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً تقدم نظيره في الآية ٨٠ من سورة الأنعام.

عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا. و من توكل عليه لا يخشى التهديد و الوعيد، لأنه على علم اليقين بأن المخلوق لا يضر و لا ينفع.

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ. بعد أن يئس شعيب منهم و تأكد من إصرارهم على الكفر التجأ إلى اللّه، و تضرع اليه أن يحكم و يفصل بينه و بين من كفر من قومه، لأنه تعالى هو مصدر القوة و العدل.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (٩٣)

اللغة:

غني بالمكان أقام به. و آسى عليه حزن عليه.

الإعراب:

لئن تدل اللام على قسم محذوف، و جملة انكم إذا لخاسرون جواب للقسم، و سادة مسد جواب الشرط، و إذا ملغاة لاعتراضها بين اسم انّ و خبرها. و الذين كذبوا شعيبا الأولى مبتدأ، و كأن اسمها ضمير الشأن محذوف أي كأنه، و جملة كأن و اسمها و خبرها خبر المبتدأ، و الذين كذبوا شعيبا الثانية بدل من الأولى.

و هم ضمير فصل بين اسم كان و خبرها، و لا محل له من الإعراب.

المعنى:

وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦٤

توجه المشركون أولا إلى شعيب صاحب الدعوة يهدون و يتوعدون، و لما يئسوا منه تحولوا الى الذين آمنوا به يحاولون فتنتهم عن دينهم، و قالوا لهم فيما قالوا:

انكم لخاسرون في اتباعكم شعيبا، و هذا دأب من لا حجة له إلا الإغواء و الإضلال.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ. هذا هو الجواب الصحيح لمن عاند و تمرد، و أبى إلا الضلال و الفساد، و تقدمت هذه الآية بالحرف ٧٨ من هذه السورة.

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها. لقد أتى العذاب عليهم و على ديارهم و جميع آثارهم، حتى كأنهم لم يعرفوا هذه الحياة و تعرفهم .. و كل امرئ مجزي بما أسلف عاجلا أو آجلا. **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ**. قال الذين أشركوا للذين آمنوا: انكم لخاسرون فكانت العاقبة خسرانهم و هلاكهم، و ربح المؤمنين و نجاتهم .. و العاقل لا يقول للمترف الهناء لك، و للمستضعف الويل لك، لأن للدهر مخبآت و مفاجآت، و الأمور بخواتيمها، و إنما كرر **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً** تأكيدا لخسرانهم و هوانهم.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ. كيف أحزن على من أهلك نفسه بنفسه مصرا على الكفر باللّه و كتبه و رسله، و الاستهزاء بمن آمن به و اتبع صراطه القويم. و تقدم نظيره في الآية ٧٩ من هذه السورة.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٤ الى ٩٥]

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦٥

اللغة:

البأساء الشدة. و الضراء ما يضر الإنسان ماديا أو أدبيا. و التضرع الخضوع.

و العفو الترك، و المراد به هنا الكثرة و النمو، أي تركوا حتى تناسلوا و كثروا.

و البغتة الفجأة.

الإعراب:

يضرّعون أصلها يتضرعون، فأدغمت التاء في الضاد. و حتى عفوا أي الى أن عفوا. و بغتة نعت لمصدر محذوف أي اخذة بغتة، و يجوز أن تكون بغتة مصدرا في موضع الحال، أي مباغتين.

المعنى:

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ.

المراد بالقرية البلدة الجامعة التي يسكنها- في الغالب- الرؤساء و الزعماء، و لعل هنا بمعنى كي.

في الآيات السابقة أشار سبحانه الى الهلاك الذي حل بالمكذبين من قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، و إلى ما في نهايتهم من عبر و عظات، و ان الخير كان عاقبة المتقين، و ان دائرة السوء دارت على المبطلين، و بيّن في هذه الآية

ان ما جرى لأقوام أولئك الأنبياء لا يختص بهم وحدهم، و لكنها سنة اللّه.

تجري على كل قوم كذبوا نبيهم .. يأخذهم اللّه بالشدة و المشقة في أنفسهم و أبدانهم و أموالهم، لا لشيء إلا ليتعظوا و يرتدعوا، و يعتبر بهم من يأتي من بعدهم.

ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ.

المراد بالسيئة هنا الضيق و العسر، و بالحسنة السعة و اليسر، و بالعفو الكثرة.

و المعنى ان اللّه سبحانه ابتلاهم بالضيق و الشدة ليتعظوا، و بالسعة و العافية ليشكروا، و لكن قلّ من يتعظ، و أقل منه من يشكر، و لما كثروا بالنعم و النسل استخفوا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦٦

بالحق، و هزأوا بأهله، و أخذوا يفسرون سنة اللّه بجهلهم و على أهوائهم، و يقولون: ما أصاب آباءنا من الضراء لم يكن عقوبة على ضلالهم و فسادهم، و ما نالهم من السراء لم يكن مثوبة على صلاحهم و هدايتهم، و انما هي الصدفة تخبط خبط عشواء.

و إذا غفل هؤلاء و اضرابهم عن حكم اللّه و حكمته فان اللّه جل ثناؤه ما هو بغافل عنهم و عن أعمالهم **فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ** جزاء على اغترارهم و انطلاقهم مع الأهواء و الأغراض .. و هكذا يحذر القرآن الذين لا يتورعون و لا يتحرجون عن شيء، يحذرهم من الأخذ بغتة، و هم لا يشعرون.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٦ الى ١٠٠]

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (٩٧) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (٩٩) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

اللغة:

البركات بوجه عام الخيرات النامية، و بركات السماء كثيرة، و أظهرها المطر،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦٧

و بركات الأرض كثيرة أيضا، و أظهرها الخصب و المعادن، بخاصة الذهب الأسود.

و المراد بالبأس هنا العذاب. و البيات وقت المبيت و هو الليل. و الضحى انبساط الشمس.

الإعراب:

أ فأمن الهمزة للاستفهام على وجه التوبيخ و الإنكار، و الفاء لعطف الجملة على ما قبلها. و بياتا منصوب على الظرفية بيأتيهم لأن المراد به الليل. و المصدر المنسبك من أن يأتيهم مفعول لأمن، أي امنوا إتيان بأسنا. ان لو نشاء ان مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن محذوف، و الجملة بعد لو خبرها، و المصدر المنسبك فاعل يهد، و التقدير أو لم يهد لهم هذا الشأن، و هو انّا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

المعنى:

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ.

أظهر بركات السماء المطر، و أظهر بركات الأرض النبات و المواشي و المعادن بشتى أنواعها.

و قد بينا عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة، فقرة هل الرزق صدفة أو قدر: ان مجرد الإيمان باللّه لا ينبت قمحا، و بينا أيضا في تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة، فقرة الرزق و فساد الأوضاع: ان المراد بالإيمان الموجب للرزق هو الإيمان باللّه مع العمل بجميع أحكام اللّه و مبادئه، و اقامة العدل في كل شيء، و انه متى عمّ العدل و ساد صلحت الأوضاع، و ذهب البؤس و الشقاء.

وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ. أي لم يعملوا بأحكام اللّه، بل سعوا في الأرض فسادا بالظلم و الجور، و السلب و النهب، و تكديس الثروات على حساب الضعفاء و البؤساء، و قد أخذهم اللّه بالهلاك و العذاب، لأنهم كفروا و استأثروا.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦٨

أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا بَيٰاتاً وَ هُمْ نٰائِمُونَ؟. هذا تخويف و إنذار منه تعالى للمتمردين و المستأثرين أن يفاجئهم اللّه بعذابه، و هم في غفلة من غفلاتهم، كما فعل بمن كان قبلهم .. و هل يملك الإنسان أن يدفع عنه قضاء اللّه في صحوه و حذره؟ فكيف يملكه، و هو أشبه بالموتى؟.

أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ؟ و يلعبون هنا كناية عن ذهولهم عن المفاجئات و المخبآت، و عن محاسبتهم لأنفسهم. و تسأل:

لا فرق أبدا بين يقظة الإنسان و غفلته أمام بأس اللّه، فما هو القصد من ذكر النوم و اللعب؟.

الجواب: ان يتنبه الإنسان إلى جهات الضعف فيه لعله يتذكر أو يخشى.

أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللّٰهِ فَلاٰ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخٰاسِرُونَ. المراد بمكر اللّه هنا العذاب الذي يأتيهم بغتة دون سابق إنذار، و سبق الكلام عن مكر اللّه تعالى في تفسير الآية ٥٤ من آل عمران ج ٢ ص ٦٨ و انه سبحانه يصف نفسه بالماكر لأنه يبطل مكر الماكرين، و بالشاكر لأنه يثيب الشاكرين، و بالتواب لأنه يقبل من التائبين .. أما انهم الخاسرون فلأنهم أوقعوا أنفسهم في الخسران بسبب عنادهم و استهتارهم.

أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهٰا أَنْ لَوْ نَشٰاءُ أَصَبْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ.

أي ان هؤلاء المشركين الذين ورثوا الأرض ممن أهلكناهم بذنوبهم، و قد كانوا أشد منهم قوة- ان هؤلاء المشركين ألم يتبين لهم ان شأننا فيهم تماما كشأننا فيمن كان قبلهم لو نشاء أصابهم عذابنا كما أصاب غيرهم من قبل؟ .. فان سنة اللّه واحدة في جميع خلقه .. و الغرض من هذه المبالغة في النصيحة و التحذير أن يراقب الإنسان نفسه، و لا يذهل عنها، و ان يتعظ بغيره، و لا يغتر بالمظاهر الجوفاء .. و لكن: وَ مٰا تُغْنِي الْآيٰاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ- ١٠١ يونس.

وَ نَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ. تقدم الكلام عنه في الآية ٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٥٣.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٦٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

تِلْكَ الْقُرىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰائِهٰا وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ الْكٰافِرِينَ (١٠١) وَ مٰا وَجَدْنٰا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنٰا أَكْثَرَهُمْ لَفٰاسِقِينَ (١٠٢)

اللغة:

نقص عليك أي نتلو عليك. و النبأ الخبر عن أمر عظيم الشأن. و المراد بالعهد هنا الالتزام بالأدلة الدالة على التوحيد و النبوة و كل ما أمر اللّه و العقل به، و نهيا عنه.

الإعراب:

تلك مبتدأ القرى عطف بيان، و جملة نقص خبر. و من عهد من زائدة و عهد مفعول لوجدنا، و لأكثرهم متعلق بمحذوف حالا من عهد. و ان مخففة من الثقيلة يجوز أن تكون ملغاة، و ان تكون عاملة، و اسمها محذوف أي إنا وجدنا، و لفاسقين مفعول ثان لوجدنا، و دخلت عليه اللام للفرق بين ان المخففة و ان النافية.

المعنى:

تِلْكَ الْقُرىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها. تلك القرى اشارة الى أهل القرى

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٠

الخمس، و هم قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، و الخطاب في نقص عليك موجه الى رسول اللّه محمد (ص)، و القصد منه أن يخبر المسلمين بأحوال الغابرين ليعتبروا و يحذروا **وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ.**

ذكر الرازي ثلاثة وجوه لتفسير هذا المقطع من الآية، و زاد الطبرسي رابعا، و لم يرجحا وجها منها، و تركا القارئ العادي في تيه، مع ان المعنى واضح لا غموض فيه، و يتلخص بأن أهل تلك القرى كانوا قبل أن يرسل اللّه اليهم رسله على الشرك و الضلال، و انهم استمروا في شركهم و ضلالهم بعد أن جاءتهم الرسل بالدلائل و المعجزات، و لم تؤثر فيهم شيئا، حتى كأن اللّه لم يرسل اليهم بشيرا و نذيرا، و يدل على هذا المعنى قوله تعالى: **كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِ الْكافِرِينَ**، و الطبع هنا كناية عن قسوة قلوبهم، و انها لا ترعوي عن ضلالها، و لا يرجى خيرها.

وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ. فلا يؤمنون بدين اللّه، و لا يلتزمون بشيء يمت الى الانسانية بصلة .. أجل، لهم عهد واحد يلتزمون به، و لا يحيدون عنه، و هو اتباع المصالح و الأهواء. **وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ.** أي و انّا وجدنا أكثرهم منحرفين عن قصد السبيل.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٣ الى ١١٢]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ بِآياتِنا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَ قالَ مُوسىٰ يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلىٰ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٠٥) قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقىٰ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (١٠٧)

وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (١١٠) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧١

اللغة:

ظلموا بها أي جحدوا بها. و حقيق بمعنى جدير. و النزع إخراج الشيء من مكانه. و المراد بتأمرون هنا تشيرون. و أرجأ الشيء أخّره و أجّله. و مدائن و مدن جمع مدينة. و حاشرين أي ان الشرطة يجمعون السحرة، و يحشرونهم ضد موسى (ع).

الإعراب:

كيف خبر مقدم لكان، و عاقبة اسمها، و الجملة مفعول فانظر. و حقيق مبتدأ، و علي متعلق به، و المصدر المنسبك من إلا أقول خبر المبتدأ، أو فاعل حقيق ساد مسد الخبر، و التقدير حقيق عليّ قول الحق على اللّه. فإذا للمفاجأة.

و هي ثعبان مبتدأ و خبر. و فما ذا تأمرون يجوز أن تكون ما مبتدأ و ذا اسم موصول خبر، و يجوز أن تكون ما ذا كلمة واحدة منصوبة بنزع الخافض مفعولا لتأمرون، و التقدير بأي شيء تأمرونني؟. و أرجه أصله أرجئه بالهمزة، أو أرجيه بالياء حيث يجوز فيه الأمران- كما قيل- و على الياء يكون الحذف على الأصل، و على الهمزة يكون حذفها إلحاقا لها بالياء أو للتخفيف، و أخاه مفعول معه. و حاشرين مفعول به لأرسل.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٢

تلخيص القصة:

لقد مر بنا العديد من الآيات التي عرضت قصة موسى (ع) مع بني إسرائيل، و الآن تعرض هذه الآيات التي نفسرها قصة موسى (ع) مع فرعون.

و كلمة فرعون لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم، و كسرى لملوك الفرس، و النجاشي لملوك الحبشة، و نقل عن الكثيرين ممن يعنون بالتاريخ المصري القديم: ان اسم فرعون موسى منفتاح، و كان يلقب بسليل الإله، و قد كتب بجانب هيكله الذي بدار الآثار المصرية هذه الآية: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً.

اسم ام موسى و الأسطورة:

أما موسى (ع) فهو ابن عمران، و أهل الكتاب يقولون عمرام، و في المجلد الأول من هذا التفسير ص ١٠١ ذكرنا ان اسم موسى مركب من مو اسم الماء، و سى اسم الشجر، لأن أمه وضعته في صندوق، و اقفلته أقفالا محكما، و ألقته في النيل خوفا عليه من فرعون الخ.

و من الطريف أن يخترع مخترع من هذا القفل الذي أقفلت به ام موسى صندوق وليدها، أن يخترع منه اسطورة شاعت و ذاعت مدى قرون من الزمن، و آمن بها كثيرون من البسطاء السذج .. و هي ان ما من قفل إلا و يفتح تلقائيا إذا قرئ عليه اسم ام موسى، و من أجل هذا لا يعرفه إلا الخواص من أهل الأسرار .. و في ذات يوم دخلت على أحد رجال الدين، و له اسم و شأن بين قومه، فوجدته يبحث و ينقب مهتما في مجلدات بحار الأنوار للمجلسي، فقلت له: ما شأنك؟ قال: أربد؟؟؟ أن أعرف اسم ام موسى ..

و منذ سنتين قصدني رجل يظن اني من أهل الأسرار، و سألني عن اسمها، فقلت له: ليس المسئول بأعلم من السائل، فلم يقتنع، فقلت له: ان هذه خرافة .. فاعتقد اني أ تهرب منه، و لا أريد أن اطلعه على هذا السر العظيم ..

و لما يئست منه قلت له: لا يجوز لي أن اطلعك عليه لأني لا آمن أن تسرق

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٣

أموال الناس، فأقسم و أغلظ في القسم انه لن يفعل، فتظاهرت بعدم الثقة به، و مضت الأيام، و شرعت في تفسير القرآن الكريم، و لما بلغت هذه الآيات راجعت مصادرها، و منها كتاب قصص القرآن وضعه أربعة من الكتّاب المصريين، و هم محمد أحمد جاد المولى، و علي محمد البجاوي، و محمد أبو الفضل، و السيد شحاته، و إذا فيه ان اسم ام موسى يوكابد و لكن المؤلفين لم ينسبوه إلى مصدر.

و بعد هذا الاستطراد نعود إلى قصة موسى مع فرعون، كما جاءت في الآيات التي نحن بصدد تفسيرها، و يتلخص معناها بأن فرعون كان يدعي الربوبية من دون اللّه، و يضطهد بني إسرائيل، فأرسل اللّه اليه موسى و هارون، فذهبا و اقتحما عليه مجلسه لا يخشيان سلطانه و طغيانه، و جابهه موسى بقوله: يا فرعون اني رسول من رب العالمين اليك و الى كل جاحد، و لديّ ما يثبت رسالتي، و عليك أن تطلق بني إسرائيل من أسرك، و تدعهم أحرارا يذهبون حيث يشاءون .. فاستخف به فرعون، و قال: هات ما يثبت رسالتك، فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان، و وضع يده في جيب قميصه، و أخرجها فتلألأت ناصعة لكل ناظر، و كان موسى أسمر.

فقال رجال فرعون و أهل مشورته: ان هذا ساحر ماهر .. و جمع فرعون السحرة لموسى، و قبل أن يشرعوا بألاعيبهم قالوا لفرعون: ألنا أجر ان غلبنا موسى؟ قال: لكم أجر و قربى، و ألقى السحرة حبالهم و عصيهم، فخيل للنظارة انها حيات تسعى، و ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون، فأسلم السحرة، و آمنوا برسالة موسى، فتهددهم فرعون بالعذاب و التنكيل، فلم يعبئوا و ثبتوا على ايمانهم .. و جاء في العديد من الروايات ان فرعون نفّذ فيهم تهديده و وعيده، و طبيعة الحال ترجح ذلك.

و راح فرعون ينزل بموسى و من معه صنوف العذاب، و يشتط في التنكيل و التعذيب، و لكن موسى استمر في دعوته الى اللّه لا يثنيه عنها شيء، فضج بنو إسرائيل و قالوا لموسى: أوذينا من قبل أن تأتينا و من بعد ما جئتنا، فأمرهم بالصبر، و مناهم الفوز.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٤

و أخذ اللّه آل فرعون بالجدب و الضيق، و أرسل عليهم أمطارا تهلك زرعهم و ثمارهم، و جرادا يأتي على ما تبقى من أثر السيول، و قملا ينهك أجسامهم، و ضفادع تفسد عليهم حياتهم، و فوق هذا كله تحولت مياههم الى دماء ..

و عندها فزعوا الى موسى، و قالوا له: لئن كشف ربك عنا العذاب لنكونن من المؤمنين، و كشف اللّه عنهم الى حين لعلهم يرجعون .. و لكن نكثوا العهد، و أصروا على الكفر، فأغرقهم اللّه في البحر، و قطع دابر الكافرين.

هذا تلخيص سريع لما جاء في الآيات التي نحن بصددها ابتداء من الآية ١٠٣ الى نهاية الآية ١٣٧. و فيما يلي نشرح دلالة هذه الآيات على ما ذكرنا.

المعنى:

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها. ضمير بعدهم يعود إلى الأنبياء الخمسة: نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، أو إلى قومهم، و الآيات التي بعث بها موسى هي المعجزات الدالة على نبوته، و ملأ فرعون أشراف قومه الذين بيدهم الحل و العقد، و ليس لغيرهم إلا الانقياد و التسليم، و معنى ظلموا بها جحدوا و كفروا بما جاء به من الآيات و المعجزات. **فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**. و هم فرعون و أنصاره الذين يتحكمون في رقاب العباد، و هذه العاقبة ستجيء في السياق.

وَ قالَ مُوسىٰ يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. بهذا النداء خاطبه موسى يا فِرْعَوْنُ من غير تبجيل و تعظيم، لأنه يتكلم بلسان الله، و يبلغ رسالات الله التي يصغر عندها كل كبير .. و بهذا ندرك السر لسيرة الصلحاء الذين يترفعون على الفاسقين و يخفضون جناح الذل من الرحمة للمؤمنين.

حَقِيقٌ عَلىٰ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ شأن كل نبي ائتمنه الله على وحيه، و اختاره لرسالته قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ تدل على اني رسول من رب العالمين فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ كان فرعون يستعبد بني إسرائيل، و يستخدمهم في أشق الأعمال، فطلب منه موسى (ع) أن يطلقهم، و يدعهم و شأنهم يذهبون الى حيث يشاءون.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٥

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. يظهر ان فرعون كان يظن ان موسى كاذب في دعواه، فأراد أن يفتضح أمام الملأ، فقال له: فأت بها ان كنت من الصادقين، فألقمه موسى حجرا بحجته الدامغة و معجزته القاطعة فَأَلْقىٰ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ ظاهرا و واقعا، لا تمويها و إيهاما، ففزع فرعون، و لكنه تمالك لأنه كان يدعي انه هو الرب الأعلى، و فاجأه موسى بالثانية كما فاجأه بالأولى وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ.

و يد موسى سمراء، لأنه كان يميل إلى السمرة، فكيف صارت بيضاء من غير سوء، أي من غير مرض و علة؟.

فشعر فرعون بالمذلة و الهوان، و صغر شأنه عند نفسه، فأدرك جلساؤه و حاشيته منه ذلك، و ان موسى أنزله من عليائه، فحاولوا أن يخففوا عن سيدهم، و كذبوا عليه و على أنفسهم قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ.

هذه هي حجة العاجز إلصاق التهم بالأبرياء، و النيل من كرامة الأصفياء.

ثم قال الملأ من قوم فرعون: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ. أي ان موسى يريد أن ينزع منهم الحكم و السلطان، و لما سمع فرعون ما سمع قال:

فَما ذا تَأْمُرُونَ أي إذا كان الأمر كذلك فبماذا تشيرون؟ قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ، أخرهما و لا تقتلهما، لأنك ان فعلت ذلك غضب الرأي العام، و عرضت نفسك و سلطانك للتهديد و الخطر وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ المدائن جمع مدينة، و الحاشرون الشرطة يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ. قال المؤرخون: ان أرض مصر كانت تموج بالسحرة على عهد الفراعنة، و كان كهنة الديانات و سدنة الآلهة هم الذين يزاولون أعمال السحر، قال العقاد في كتاب إبليس فصل الحضارة المصرية:

كان الفراعنة أنفسهم يلجئون إلى السحر لمغالبة الأرواح الخفية .. و لدينا من بقايا قصص السحر نخبة لم يتخيرها جامعو الآثار، و لكنها اجتمعت لهم من حيث اتفق بين الأنقاض و المحفورات، و كلها تروي أعمال السحر في مجازاة الأشرار .. و كانوا يقسمون السحر إلى أقسام، منها ما يستعان فيه بقدرة إله الخير على إله الشر، و منها ما يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٦

و انتشار السحر في عهد فرعون يفسر لنا عصا موسى، و يؤيد المبدأ القائل:

ان معجزة كل نبي تأتي من النوع السائد في عصره، ليكون التحدي أبلغ في الحجة و قاطعا لكل عذر، فموسى أبطل السحر لرواجه في عصره، و عيسى أحيا الموتى، و محمد أخرس البلغاء للغاية نفسها من المشابهة.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١١٣ الى ١٢٦]

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (١١٣) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (١١٧)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (١١٩) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (١٢٠) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (١٢٢)

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٧

اللغة:

استرهبوهم أي أرهبوهم و خوفوهم من أعمال السحر. و تلقف الشيء تناوله بحذق و سرعة. و الإفك صرف الشيء عن وجهه، و منه الكذب. و المكر الخديعة، و منه مذموم إذا قصد به الشر، و منه ممدوح إذا كان وسيلة للخير، و لا شائبة فيه للشر. و تقطيع الأيدي و الأرجل من خلاف أن تقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى، و العكس بالعكس.

الاعراب:

و المصدر المنسبك من إما أن تلقي و إما أن نكون مفعول لفعل محذوف، أي اختر اما القاءك و اما القاءنا. ان ألق ان مفسرة لأوحينا، فهي هنا ترادف كلمة أي، و يجوز أن تكون مصدرية على أن يكون المصدر المنسبك مجرورا بباء الجر المحذوفة أي و أوحينا بالإلقاء. و هنالك في محل نصب على الظرفية متعلقا بغلبوا، لأنه إشارة إلى المكان الذي غلبوا فيه. و صاغرين حال، و مثلها ساجدين. و رب موسى و هرون بدل من رب العالمين. و ما تنقم ما للاستفهام مع الإنكار، و محلها الرفع بالابتداء، و جملة تنقم خبر، و المصدر المنسبك من ان آمنا مفعول تنقم أي لا تنقم منا إلا الإيمان.

المعنى:

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ، قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. ان هؤلاء السحرة الذين ساوموا فرعون ضد موسى (ع) كانوا يمثلون الدين في عصرهم .. و لهم أشباه و نظائر في كل عصر، يساومون على دينهم و ضميرهم كل من يدفع الثمن .. ففي عصرنا هذا اشترى الصهاينة و المستعمرون الكثير من أرباب القلانس و العمائم، و دفعوا لهم الثمن، فقبضوا و تطوعوا يناصرون الاستعمار و الاستغلال بالتمويه و التضليل، و ألفوا لهذه الغاية

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٨

الهيئات و الجمعيات باسم الدين و المبادئ، و لكن سرعان ما افتضحوا، و صاروا سبة على لسان كل واع مخلص.

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ. خيروه بين أن يبدأ، أو يبدءوا ثقة منهم بسحرهم و قدرتهم على الغلبة، و عدم مبالاتهم بموسى (ع).

و غريب قول الرازي: ان السحرة خيروا موسى تأدبا و احتراما. قال- موسى- **أَلْقُوا** مستخفا بهم و بسحرهم **فَلَمَّا أَلْقَوْا**

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ. و نسبة السحر إلى الأعين دليل على ان سحرهم لا واقع له، و إنما هو مجرد تمويه و تضليل، و استرهبوهم أي ان سحرهم لا واقع له، و إنما هو مجرد تمويه و تضليل، و استرهبوهم أي ان السحرة خوفوا و أرهبوا النظارة، و جاءوا بسحر عظيم في التمويه و التضليل، لا في الحقيقة و الواقع.

وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. خاف موسى أن يغتر الجاهلون بتمويه السحرة و تضليلهم، فشد اللّه من عزمه، و أوحى اليه انه معه، و أن ما جاء به السحرة ليس بشيء، و إنما هو افتعال و تزوير. و أمره أن يلقي العصا، و لما ألقاها ابتلعت ما زوروا، و أبطلت ما افتعلوا، و ظهر الحق عيانا للجميع. و ذهل فرعون من هول الصدمة .. انه حشد الجماهير، و أتى بالسحرة من كل مكان ليدعم بهم عرشه و سلطانه، و يثبت للناس كذب موسى و افتراءه .. و إذا بالآية تنعكس رأسا على عقب، و يؤمن الجميع بما فيهم السحرة بصدق موسى و أمانته، و كذب فرعون و خيانته فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ. بعد ذاك الزهو، و تلك الكبرياء، و لو وقف الأمر عند هذا الحد لهان الخطب على فرعون بعض الشيء و لكنه فوجئ بما هو أدهى و أمر وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ، قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ، رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ. هؤلاء هم السحرة الذين تحدى بهم فرعون موسى و هرون يستسلمون طائعين، و يسجدون لرب العالمين رب موسى و هرون، لا لفرعون الذي جاء بهم لإبطال دعوة اللّه و الحق.

و تسأل: ما هو القصد من قول السحرة: رب موسى و هرون، مع العلم بأن قولهم: آمنا برب العالمين يغني عنه؟.

الجواب: ان فرعون كان يقول للناس: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلى .. ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٧٩

و لو اكتفى السحرة بقولهم: رب العالمين لدلّس فرعون و حرّف، و قال: اياي يعنون برب العالمين، فقطعوا الطريق على تدليسه و تحريفه بقولهم: رب موسى و هرون.

حول السحر:

في المجلد الأول ص ١٦٤ تكلمنا عن السحر بعنوان السحر و حكمه، و قلنا فيما قلنا: نحن مع الذين لا يرون للسحر واقعا، و أقمنا الدليل على ذلك، و نعطف الآن على ما سبق ما يلي:

ان قوله تعالى: سحروا أعين الناس دليل واضح ان السحر لا واقع له، و انه شعوذة و تمويه، أما قوله سبحانه: و جاءوا بسحر عظيم فمعناه ان ما جاءوا به عظيم في ظاهره، و في أعين الناس، و انهم قد بلغوا النهاية في الشعوذة و التزوير، و يوضح هذا المعنى و يؤكده الآية ٦٦ من سورة طه: فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى. انها لا تسعى حقيقة و واقعا، بل توهما و تخيلا .. و عن الرسول الأعظم (ص): من مشى الى ساحر أو كاهن أو كذاب يصدقه فقد كفر بما أنزل اللّه.

و قال كثير من المفسرين: ان سحرة فرعون احتالوا لتحريك الحبال و العصي بما جعلوا فيها من الزئبق حتى تتحرك بحرارة الشمس .. و أيا كان السبب فنحن نؤمن ايمانا لا يشوبه ريب بأن الساحر كذاب لا يصدقه إلا مغفل، و ان ما أتى به سحرة فرعون، و يأتي به الهنود و غير الهنود من الأعمال المدهشة لها سبب من غير شك، و نحن و ان كنا نجهل نوع هذا السبب فانا نعلم علم اليقين بأنه لا يغير الواقع، و لا يبدل منه شيئا، و الا استطاع الساحر أن يدفع عن نفسه الضر، و يملك لها النفع، و يحكم العالم بأسره بمجرد ارادته و تمتماته، و كان شريكا للّه في ملكه تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ. أ رأيت الى هذا المنطق؟ انه يريدهم أن يستأذنوه في شئون قلوبهم من الإيمان و الحب و البغض .. و لا انسان

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٠

في الكون له سلطان على قلبه، و لكنه منطق الطغاة إِنَّ هٰذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهٰا أَهْلَهٰا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. يوجه فرعون بقوله هذا التهمة إلى السحرة بأن ايمانهم بموسى لم يكن عن حجة و اقتناع، و انما هو مجرد حيلة و خديعة تواطئوا عليها مع موسى من قبل، و ان الغاية من هذا التواطؤ إخراج الحاكمين من مصر و انتزاع الملك منهم .. قال هذا فرعون، و هو يعلم انه كاذب في قوله، و لكن أراد التمويه على الناس خوفا أن ينتقضوا عليه، و يؤمنوا بموسى، و لكن الناس يعلمون ان السحرة كانوا يؤلهون فرعون، و يمكنونه من رقاب العباد باسم الدين، و ان السحرة لم يؤمنوا الا عن بصيرة و اقتناع، و أيضا يعلم الناس ان موسى لم يجتمع بواحد من السحرة، لأن فرعون جمعهم من هنا و هناك.

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. هذا هو سلاح الطغاة في مواجهة الحق، قال المسعودي في مروج الذهب: جمع معاوية الناس في سنة ٥٩ هـ ليبايعوا ولده يزيد، فقام رجل من الأزد خطيبا، و قال:

ان مات هذا- مشيرا الى معاوية- فهذا مشيرا إلى يزيد، و من أبى فهذا، و هز السيف. فقال له معاوية: اقعد أنت من أخطب الناس.

قالُوا إِنَّا إِلىٰ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ. افعل ما شئت فلا نأبه بك و لا بقتلك فنحن على يقين من لقاء ربنا و عدله .. و كل من يؤمن بلقاء اللّه يقف هذا الموقف، بل يرى الاستشهاد سعادة و وسيلة لمرضاة اللّه و ثوابه، أما الذين يخافون الموت في سبيل اللّه، و يتهربون منه فهم يؤمنون بلقاء اللّه نظريا فقط، أما عمليا فإنهم به كافرون.

وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا. ان قولهم هذا يتضمن التهديد لفرعون، لأن معناه انك لا تنقم منا نحن، و انما أنت تنقم من اللّه و رسوله بالذات، لأنه لا ذنب لنا إلا الإيمان باللّه و رسوله موسى: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ- ٦٤ التوبة.

رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً. في هذا الموقف يحمد الصبر على القتل و التعذيب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨١

لأنه في سبيل اللّه، و قد سألوا اللّه سبحانه ان يرزقهم هذه الفضيلة خوفا أن تنهار أعصابهم، و تتلاشى عزائمهم ان أحسوا بوقع السيف في أجسادهم.

وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ لك و لنبيك راضين بالتعذيب و التنكيل في سبيلك.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٢٧ الى ١٢٩]

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسىٰ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (١٢٧) قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

المعنى:

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسىٰ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ. بعد ان انفض ذلك المشهد الرهيب الذي انتصر فيه موسى، و افتضح فرعون مضى موسى يدعو إلى عبادة اللّه وحده، و دليله ما حدث بالأمس بينه و بين السحرة، فاجتمع حوله خلق كبير، فخاف الأشراف من قوم فرعون أن تتغير الأوضاع، و تدور الدائرة عليهم و على سيدهم فحرضوه على موسى، و قالوا: إلى متى تسكت عن موسى، و تدعه يفسد في الأرض؟. و هم يريدون بالإفساد في الأرض عبادة الناس للّه وحده التي تؤدي بطغيانهم و طغيان فرعون.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٢

وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ. ان هذا القول من الملأ لفرعون يدل على انه كان له آلهة يعبدها، و هو يتنافى بظاهره مع قول فرعون: ما علمت لكم من إله غيري ..

أنا ربكم الأعلى، و أجاب المفسرون بأجوبة أرجحها انه كان لفرعون آلهة يزعم انه الابن الحبيب لها، و انه يستمد منها حكمه و سلطانه، فقوله: ما علمت لكم إلها غيري يريد به انه لا حاكم للمصريين باسم الإله و الرب إلا هو وحده لا شريك له، و يؤيد هذا المعنى قوله: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي- ٥١ الزخرف.

قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ. كان فرعون قبل ولادة موسى يقتل الذكور من نسل بني إسرائيل، و يستبقي الإناث، و لما حرضه الأشراف من قومه على موسى أجابهم بأنه سيعيد فيهم سيرته الأولى من قتل الأبناء و استبقاء النساء، حتى ينقرضوا **وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ.** أي انه قادر عليهم الآن كما كان قادرا عليهم من قبل موسى.

قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. لما سمع بنو إسرائيل تهديد فرعون و وعيده جزعوا فسكنهم موسى (ع)، و أمرهم بالصبر و التوكل على اللّه، و مناهم بالنصر إذا هم صبروا و اتقوا، لأن الأرض و الملك للّه لا لفرعون، و اللّه مع المتقين.

قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا. كان فرعون يضطهد بني إسرائيل قبل مجيء موسى، و أوغل في اضطهادهم بعد مجيئه، و لما قالوا ذلك لموسى **قالَ عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.** ان موسى على علم اليقين انه سيهلك فرعون، و انه سيمن على بني إسرائيل بالنجاة منه، و يمكن لهم في الأرض، و عبّر عن ذلك بالرجاء دون الجزم لئلا يتكلوا على وعده .. ثم أومأ موسى (ع) إلى قومه انه ليس المهم أن يهلك اللّه عدوهم و يستخلفهم في الأرض، و انما المهم أن يتقوا اللّه، و يحسنوا خلافته في أرضه، فينظر أ يصلحون أم يفسدون؟ .. و قد عملوا الكثير في الأرض، حيث قتلوا الأنبياء و المصلحين من قبل، و أقاموا دولة من بعد لا شريعة لها إلا شهوة القتل و التشريد.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٣

في هذه السنة ١٩٦٨ صدر كتاب في إسرائيل، اسمه سياخ لوخاميم أي أحاديث الجنود، ترجمت جريدة الأهرام بعض ما جاء فيه في عدد ٢٣/ ٨/ ٦٨، من ذلك:

من لا يستطيع أن لا يقتل أ و لا يدمر بيتا و ينسفه على من فيه فالأفضل له أن يقعد في بيته، ان الحركة الصهيونية تقوم على هذا الأساس، عند ما جئنا إلى أرض فلسطين كان هناك شعب آخر يسكنها و يعيش فيها، و لم يكن لنا أن نتوقع انه سوف يترك مزارعه و بيوته لنا بالرضى و القبول، فكان لا بد أن نقتلهم لنأخذ البيت و المزرعة، أو نخيفهم بالقتل لكي يهربوا، و يتركوا لنا البيت و المزرعة.

هذه هي شريعة إسرائيل، و هذا هو هدفها: القتل و التشريد .. انها ليست مجرد دولة كغيرها من الدول، و انما هي عصابة مسلحة صهيونية استعمارية تهدف إلى قتل أو تشريد أصحاب البيوت و المزارع من النيل إلى الفرات لتحتل بيوتهم و مزارعهم .. فما ذا أعد لها العرب؟. لا وسيلة و لا حل إلا المبدأ الفيتنامي القائل:

اما الموت، و اما الحياة، اما لا إسرائيل تقتل و تشرد، و اما لا عرب إطلاقا على سبيل مانعة الجمع.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٠ الى ١٣٣]

وَ لَقَدْ أَخَذْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَلٰا إِنَّمٰا طٰائِرُهُمْ عِنْدَ اللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (١٣١) وَ قٰالُوا مَهْمٰا تَأْتِنٰا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنٰا بِهٰا فَمٰا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمُ الطُّوفٰانَ وَ الْجَرٰادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفٰادِعَ وَ الدَّمَ آيٰاتٍ مُفَصَّلاٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٣)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٤

اللغة:

الأخذ هو التناول باليد، و المراد به هنا الابتلاء. و السنة تطلق على الحول، و تطلق على الجدب، يقال: أسنت القوم إذا أجدبوا، و هذا المعنى هو المراد في الآية. و التطير التشاؤم. و المراد بطائرهم نصيبهم الذي قدر لهم.

الاعراب:

يطيروا أصلها يتطيروا فأدغمت التاء بالطاء، و به عائد إلى مهما. و بمؤمنين الباء زائدة، و مؤمنون خبر لنحن. و آيات حال من الأشياء المذكورة.

المعنى:

وَ لَقَدْ أَخَذْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ.

كانت مصر تفيض بالخصب و العطاء، و قد فاخر فرعون بخصبها هذا، حيث قال: وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي. و قال المتنبي عن ثعالبها: فقد بشمن و ما تفنى العناقيد. و أخذها اللّه بالجدب و ضيق العيش على عهد فرعون موسى ليرعوي عن غيه، و يستجيب لدعوة الحق .. و في بعض الروايات إذا جار الولاة حبس المطر. و سواء أ كان هناك علاقة بين ظلم الوالي و الجدب على وجه العموم أم لم يكن، فان اللّه عاقب آل فرعون لظلمهم لعلهم يذكرون قبل أن يقذف بهم في أعماق اليم.

فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٥

معه. بهذا المنطق يفسرون الأحداث .. كل ما أصابهم من خير فهم مستحقون له، لأنهم يتحكمون في رقاب العباد، و كل ما أصابهم من سوء فسببه من يدعوهم الى الحق، أما اللّه و الطبيعة التي خلقها اللّه فبمعزل عن الخصب و الجدب، فرد اللّه عليهم بقوله: **أَلٰا إِنَّمٰا طٰائِرُهُمْ عِنْدَ اللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ.**

طائرهم كناية عما أصابهم من الجدب، و انه بارادة اللّه التي تنتهي اليها جميع الأسباب، و ان تطيرهم بموسى خرافة و جهل.

و تسأل: لما ذا قال الحسنة بالتعريف و قال سيئة بالتنكير؟.

الجواب: غير بعيد أن يكون تعريف الحسنة اشارة إلى أن خير الطبيعة كالخصب و نحوه كثير، و ان تنكير السيئة اشارة الى ان شرها كالزلزال و الطوفان قليل.

وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. هذا اعتراف صريح بأنهم يرفضون الحق، و في الوقت نفسه اعتراف بالعجز عن مواجهته بالحجة و البرهان .. فكان جزاء عنادهم هذا ان ابتلاهم اللّه بخمسة أنواع من العذاب:

١- **فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ** من مطر السماء، فأغرق الزرع و أهلك الضرع.

٢- **وَ الْجَرادَ** جاء بعد الطوفان بطبيعة الحال، و أكل البقية الباقية من كلأهم و زرعهم.

٣- **وَ الْقُمَّلَ** بضم القاف و تشديد الميم دواب صغار كالقردان تركب البعير الهزيل، و بفتح القاف و تخفيف الميم القمل المعروف، و كلاهما ينزل البلاء، و ينشر الوباء.

٤- **وَ الضَّفادِعَ** تنغص عليهم الحياة.

٥- **وَ الدَّمَ**. قيل: تحول ماؤهم إلى دم، و لم يقدروا على الماء العذب، و قيل: أصيبوا بمرض الرعاف.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٤ الى ١٣٧]

وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٣٦) وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

اللغة:

الرجز الانحراف عن الحق، و منه و الرجز فاهجر. و نكث العهد نقضه.

و اليم البحر. يعرشون ان أخذ من العرش فمعناه البناء، و ان أخذ من العريش فمعناه الكروم.

الإعراب:

إذا هم إذا للمفاجأة. و أورثنا يتعدى الى مفعولين لمكان الهمزة، الأول القوم، و الثاني مشارق الأرض. و ما كان يصنع ما بمعنى الذي، و اسم كان ضمير مستتر يعود الى ما.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٧

المعنى:

ذكر سبحانه في الآية السابقة انه ابتلى آل فرعون بخمسة أنواع من العذاب، و كانوا كلما نزل بهم نوع منه يتوسلون بموسى في الكشف عنهم لكرامته عند اللّه، و يقطعون العهود على أنفسهم انه إذا فعل استجابوا لدعوة الحق، و كان

سبحانه يكشف العذاب عنهم إلى أجل معلوم ليمهد لهم سبيل التوبة، و يقيم عليهم الحجة، و لكنهم كانوا ينكثون العهد و لا يفون بما يقولون، فينزل اللّه العذاب الثاني، فيعودون إلى التضرع و التوسل، و يعود سبحانه الى الكشف عنهم، و هكذا الى العذاب الخامس، أو التجربة الخامسة، و لا شيء بعدها إلا الأخذ الحاسم، فانتقم اللّه منهم، و ألقاهم في أعماق البحر.

و بعد أمد طويل من إغراق فرعون، و وفاة موسى و هرون خرج من بني إسرائيل داود و سليمان (ع)، و أوجدا دولة لها حدودها شرقا و غربا .. و لكن سرعان ما ذهبت، و حكم رقاب الإسرائيليين بختنصر، ثم الفرس، ثم خلفاء الإسكندر، ثم الرومان.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٨ الى ١٤١]

وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قالَ أَ غَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٨

اللغة:

تجاوز الشيء تعداه. و عكف عليه واظب عليه و لزمه. و التبار و التّبر الهلاك، و التتبير الإهلاك و التدمير.

الإعراب:

قال الزمخشري و البيضاوي: ان ما في **كَما لَهُمْ** كافة للكاف عن العمل.

و ما هم فيه ما بمعنى الذي فاعل متبر، و هم فيه مبتدأ و خبر، و الجملة صلة الموصول. و ما كانوا يفعلون ما فاعل لباطل.

و ابغي تتعدى إلى مفعولين الأول ضمير المخاطبين كم و الثاني إلها، و غير اللّه حال مقدم من إله.

المعنى:

وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. جاء في بعض الروايات ان موسى بقي ثلاثة و عشرين عاما يجاهد فرعون من أجل كلمة التوحيد و تحرير بني إسرائيل من الاضطهاد، و قد شاهدوا المعجزات الباهرة التي ظهرت على يد موسى، و أخيرا رأوا انفلاق البحر بضربة من عصا موسى، و كيف جعل منه اثني عشر طريقا يبسا لكل سبط من بني إسرائيل طريق معلوم، و أيضا رأوا كيف انطبق البحر على فرعون و جنوده، شاهدوا ذلك كله، و قبل أن تمضي فترة ينسون فيها ما رأوه من المعجزات وقعت أبصارهم على قوم و ثنيين يعبدون الأصنام، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنما يعبدونه، طلبوا هذا، و هم يعلمون ان موسى رسول اللّه، و ان مهمته الأولى الدعوة الى التوحيد، و محاربة الشرك، و يعلمون أيضا ان اللّه أغرق فرعون و جنوده لشركه، قال بعض المفسرين: لو انهم بأنفسهم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة، و لكنما هي إسرائيل.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٨٩

إِنَّ هٰؤُلاٰءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ بٰاطِلٌ ما كٰانُوا يَعْمَلُونَ. بدأ موسى (ع) جوابه لقومه بأنهم من أهل الحماقة و الجهالة، و ثنى بإخبارهم ان نهاية المشركين و عبدة الأوثان إلى الخسران و الهلاك.

قٰالَ أَ غَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعٰالَمِينَ. مر تفسيره في الآية ٤٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٥. و على أية حال، فإن تفضيلهم على فرعون و قومه لا يعد منقبة و فضيلة.

وَ إِذْ أَنْجَيْنٰاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنٰاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰاءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلاٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ. تقدم نظيره في الآية ٤٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٩.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٢ الى ١٤٥]

وَ واٰعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنٰاهٰا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقٰاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قٰالَ مُوسىٰ لِأَخِيهِ هٰارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَ لَمّٰا جٰاءَ مُوسىٰ لِمِيقٰاتِنٰا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قٰالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قٰالَ لَنْ تَرٰانِي وَ لٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكٰانَهُ فَسَوْفَ تَرٰانِي فَلَمّٰا تَجَلّٰى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسىٰ صَعِقاً فَلَمّٰا أَفٰاقَ قٰالَ سُبْحٰانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قٰالَ يٰا مُوسىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّٰاسِ بِرِسٰالاٰتِي وَ بِكَلاٰمِي فَخُذْ مٰا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشّٰاكِرِينَ (١٤٤) وَ كَتَبْنٰا لَهُ فِي الْأَلْوٰاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهٰا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهٰا سَأُرِيكُمْ دٰارَ الْفٰاسِقِينَ (١٤٥)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٠

اللغة:

الميقات الوقت المعين الذي يقرر فيه عمل من الأعمال. و اخلفني أي كن خليفتي من بعدي. و تجلي الشيء ظهوره بنفسه أو بآثاره و دلائله. و خرّ سقط.

و صعقا: مغشيا عليه.

الإعراب:

ثلاثين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف مضاف أي تمام ثلاثين. و أربعين ليلة متعلق بمحذوف حالا من ميقات، أي كاملا أربعين ليلة. و هرون بدل من أخيه. و دكا مفعول ثان لجعله. و صعقا حال من موسى. و موعظة و تفصيلا بدل من كل شيء على المحل، لأن كل شيء مفعول أو بمعنى المفعول لكتبنا، و لأن المراد بكل شيء عموم الموعظة و تفصيل الأحكام.

المعنى:

وَ واٰعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنٰاهٰا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقٰاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

طلب موسى (ع) من ربه أن ينزل عليه كتابا يهدي الناس به الى ما يحتاجون اليه من أمور دينهم، فوعده سبحانه أن ينزل عليه الكتاب بعد ثلاثين ليلة، و يستمر إنزاله عشر ليال، فيكون المجموع من أمد الوعد و أمد الانزال أربعين ليلة، فصّلها هنا، و أجملها في الآية ٥١ من سورة البقرة، حيث قال: وَ إِذْ واٰعَدْنٰا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩١

وَ قٰالَ مُوسىٰ لِأَخِيهِ هٰارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ.

لما ذهب موسى (ع) استخلف أخاه هرون على بني إسرائيل، و نصحه أن يقوم على شئونهم و يصلح أمورهم، و حذره من طبيعتهم التي هي إلى الفساد أميل، فبالأمس القريب اشرأبت نفوسهم إلى عبادة الأوثان، و قال لهم موسى: انكم قوم تجهلون كما سبق في الآية ١٣٨. فتقبل هرون النصيحة عن طيب خاطر، كما يتقبلها المرءوس المخلص من رئيسه الناصح الأمين.

وَ لَمَّا جاءَ مُوسىٰ لِميقاتِنا الذي وقّته سبحانه لاعطاء التوراة **وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ** من وراء حجاب: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً- ٥١ الشورى **قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**. قال بعض العلماء: ان موسى لم يسأل رؤية اللّه من أجل نفسه، و إنما سألها من أجل قومه.

و هذا القول يتنافى مع قول موسى: **سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ**. و مهما يكن، فان موسى قد طلب الرؤية، سواء أ كان من أجله أم من أجلهم .. و نحن لا نرى أي بأس في هذا الطلب، فان نفس الإنسان تتشوف إلى ما يكون و إلى ما لا يكون، بخاصة إلى الرؤية التي تزيد النفس اطمئنانا و تأكيدا، و قد طلب ابراهيم (ع) ما يشبه ذلك: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلىٰ وَ لٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي- ٢٦٠ البقرة.

قالَ لَنْ تَرانِي. لأن رؤية اللّه بالبصر محال، و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٥١ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٢ فقرة رؤية اللّه **وَ لٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي**. تلفت موسى إلى الجبل ليرى اللّه فإذا به قد غار في الأرض، و لم يبق له عين و لا أثر. و قد أراد اللّه بهذا أن يفهم موسى (ع) ان رؤية اللّه ممتنعة عليه و على غيره .. علق سبحانه إمكان رؤيته على استقرار الجبل، و المفروض انه لم يستقر، اذن، فالرؤية ممتنعة و غير ممكنة .. و هذا الأسلوب من باب افعل هذا إذا شاب الغراب، و إذا دخل الجمل في سم الخياط.

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا. أي فلما ظهر أمر ربه، تماما كقوله تعالى: وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا أي جاء أمر ربك **وَ خَرَّ مُوسىٰ صَعِقاً**. غاب عن وعيه لهول المفاجأة، فلطف اللّه به و شمله برحمته، فأفاق

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٢

من غشيته **فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ** من سؤالي رؤيتك **وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** بأنك أعظم من أن ترى بالعيان. و ليس المراد انه أول المسلمين بحسب الزمان، و إنما المراد الثبات و التأكيد على الإسلام.

قالَ يا مُوسىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ. بعد أن تضرع موسى (ع) إلى خالقه ذكّره اللّه بنعمه و أعظمها النبوة و التكليم، و المراد بالناس ناس زمانه بدليل قوله: **بِرِسالاتِي** فان اللّه قد اختار رسلا كثيرين قبل موسى و بعده، أما تخصيصه بالتكليم فلا دلالة فيه على الأفضلية، و ان دل على الفضل، فان إرسال الروح الأمين الى خاتم الرسل و سيد النبيين هو أعلى المراتب و أفضلها على الإطلاق.

وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ. المراد بالألواح التوراة لأنها هي التي أنزلها على موسى، و فيها الموعظة و تفصيل الأحكام.

و كل شيء لفظ عام، و المراد به خاص، و هو ما يتعلق بموضوع الرسالة من المواعظ و الحكم، و أصول العقيدة كالإيمان باللّه و رسوله و اليوم الآخر، و الأحكام الشرعية كالحلال و الحرام، فقوله: **مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً** هو بيان و تفسير لقوله: **مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** لأن المراد بالتفصيل بيان الأحكام الشرعية. **فَخُذْها بِقُوَّةٍ** أي حافظ على التوراة، و اعمل بها بنية صادقة.

وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها. كل ما أنزل اللّه في كتابه فهو حسن، و لكن منه الأحسن، قال تعالى: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ- ثم قال- وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ- ١٩٤ البقرة. و قال: وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ- ٤٥ المائدة. أي من تصدق بالقصاص.

سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ. أي على الفاسق و الباغي تدور الدوائر. هذا ما فهمته من هذه الجملة قبل أن أرجع الى التفاسير، و بعد الرجوع اليها وجدت أقوالا في تفسيرها، و منها ان اللّه سيريهم دار فرعون و قومه بعد إهلاكهم.

و منها انه سيريهم أرض الشام التي كانت في ذاك الزمان بقبضة الوثنيين.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٦ الى ١٦٩]

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٤٦) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ (١٤٨) وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (١٤٩) وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (١٥٥)

وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْهٰا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئٰاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمٰاءِ بِمٰا كٰانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كٰانَتْ حٰاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتٰانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لاٰ يَسْبِتُونَ لاٰ تَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَ إِذْ قٰالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّٰهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً قٰالُوا مَعْذِرَةً إِلىٰ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذٰابٍ بَئِيسٍ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)

فَلَمّٰا عَتَوْا عَنْ مٰا نُهُوا عَنْهُ قُلْنٰا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خٰاسِئِينَ (١٦٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَ قَطَّعْنٰاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصّٰالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذٰلِكَ وَ بَلَوْنٰاهُمْ بِالْحَسَنٰاتِ وَ السَّيِّئٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتٰابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنىٰ وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنٰا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثٰاقُ الْكِتٰابِ أَنْ لاٰ يَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مٰا فِيهِ وَ الدّٰارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (١٦٩)

اللغة:

كل من لا يخضع للحق فقد تكبر عليه. و الحلي بضم الحاء و تشديد الياء جمع حلى بفتح الحاء و تخفيف اللام. و الخوار صوت البقر. و سقط و أسقط في يده كناية عن الندم.

الإعراب:

جسدا صفة لعجل، أي مجسدا، و ليس رسما بالألوان، و قيل: بدل منه، و المعنى واحد.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٤

المعنى:

سَأَصْرِفُ عَنْ آيٰاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. المتكبرون في الأرض هم الذين يعاندون الحق، و لا يخضعون لسلطانه، و قوله: **بِغَيْرِ الْحَقِّ** للتوضيح، لا للاحتراز تماما مثل وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ. أما آيات اللّه فيطلقها القرآن تارة على الآيات المبينة لأصول العقيدة و أحكام الشريعة و نحوها، و تطلق تارة على الحجج و الدلائل المثبتة للألوهية و النبوة، فإن تكن الأولى هي القصد في الآية التي نفسرها فالمعنى ان اللّه سبحانه يحفظها و يصونها من يد التحريف، تماما كقوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحٰافِظُونَ- ٩ الحجر.

و ان تكن الثانية أي الدلائل و البينات فالمعنى ان المعاندين بعد أن أعرضوا عنها و رفضوا الإصغاء اليها فإن اللّه سبحانه يدعهم و شأنهم، و لا يلجئهم إلى الإيمان بها إلجاء، و تقدم الكلام عن ذلك مرات، منها عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٩٩ فقرة الإضلال من اللّه سلبي لا إيجابي.

وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاٰ يُؤْمِنُوا بِهٰا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاٰ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ.

هذا بيان لحقيقة المتكبرين، و للسبب الموجب لتكبرهم أيضا، أما حقيقتهم فهي انهم لا يرتدعون عن غي، و لا يميلون إلى رشد، أما السبب الموجب فهو ان اللّه سبحانه قد جاءهم بالحجج و البراهين، و طلب اليهم أن ينظروا اليها و

يتدبروها و يعملوا بموجبها، فرفضوا و أصروا على الاعراض و عدم النظر .. و لو انهم استجابوا و درسوا تلك الدلائل لأدى بهم الدرس و النظر الى الإيمان و الاعتراف بالحق، و لم يتكبروا و يفسدوا في الأرض.

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. كل من لا يؤمن باللّه و لقاء ربه فهو من الهالكين غدا، و يذهب ما كان يفاخر به و يكاثر سدى و هباء جزاء على كفره و عناده .. و أعجبني ما قاله هنا بعض المفسرين غفر اللّه له، و شمله برحمته، و لذا أنقله بالحرف، قال:

حبوط الأعمال مأخوذ من قولهم: حبطت الناقة إذا رعت نباتا ساما،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٥

فانتفخ بطنها ثم نفقت، و هو وصف ملحوظ في طبيعة الباطل يصدر من المكذبين بآيات اللّه و لقاء الآخرة، فالمكذب ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة و قوة، ثم ينفق كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام.

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ. تقدم في الآية ١٤٢ ان موسى (ع) ذهب لميقات ربه، و انه استخلف على قومه أخاه هرون، و أيضا تقدم في الآية ١٣٨ أن بني إسرائيل بعد أن تجاوزوا البحر طلبوا من موسى أن يجعل لهم صنما يعبدونه، لا لشيء إلا لأنهم رأوا عبدة الأصنام، و ما أن غاب موسى حتى اغتنموا فرصة غيابه، فجمع السامري حلي النساء، و صنع منها عجلا، و جعله على هيئة بحيث يخرج منه صوت الثيران، و قال لهم: هذا إلهكم و إله موسى، فتهافتوا على عبادته، و نهاهم هرون، و لكنه لم يملك ردهم عن الضلال، و لم يستجب له إلا قليل منهم. و تقدمت الإشارة إلى ذلك في الآية ٥١ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٢. و أيضا يأتي الكلام عنه ..

و هذه الآية تعزز ما كررناه في المجلد الأول و الثاني من ان إسرائيل لا تثبت إلا على مبدأ الشهوات و الأهواء، ان صح ان تكون الأهواء مبدأ.

أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ.

هذا هو منطق الفطرة و العقل الذي يأبى أن يعبد الإنسان إلها من صنع يده ..

و لكن ما لاسرائيل و العقل و الفطرة و الدين؟.

وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ. هذه هي المنقبة الوحيدة و الأولى و الأخيرة التي سجلها القرآن لاسرائيل من حيث هي و على وجه العموم، و بصرف النظر عن القلة القليلة التي آمنت منهم بموسى و ثبتت معه حتى النهاية .. و قد استظهر بعض المفسرين من توبة بني إسرائيل انه كان فيهم آنذاك بقية من الاستعداد للصلاح، ثم ذهبت هذه البقية، و لم يبق أي أثر فيهم للاستعداد إلى الخير. و هذا الاستظهار غير بعيد، و تومئ اليه الآية ٧٤ من سورة البقرة: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً و هذه الآية بالذات نزلت بعد قصة ذبح البقرة، و هذا الذبح متأخر عن عبادتهم العجل.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٠ الى ١٥٤]

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

(١٥٠) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

اللغة:

تأتي أسف بمعنى غضب، و منه قوله تعالى: فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ.

و تأتي بمعنى حزن، و منه وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ و هذا هو المراد من الآية. و الشماتة الفرح بالمصيبة، و لا تكون إلا من العدو. و في نسختها أي ما نسخ و كتب منها.

الإعراب:

غضبان حال من موسى، و أسفا حال ثانية. ابن أم قرئ بفتح الميم على

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٧

أن تكون ام و ابن بمنزلة خمسة عشر، و قرئ بكسر الميم، و الكسرة تدل على الياء المحذوفة لأن الأصل يا ابن أمي. و الذين عملوا السيئات مبتدأ، و الخبر جملة ان ربك من بعدها لغفور رحيم. و اللام في لربهم تقوية لوصول الفعل إلى مفعوله، مثل للرؤيا تعبرون.

المعنى:

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً. حين كان موسى على الطور يناجي ربه أخبره المولى جل ثناؤه بأن قومه قد عبدوا العجل من بعده، كما دلت الآية ٨٧ من طه: قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً .. و ظهر هذا الغضب بقوله: **بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ**. تركهم على التوحيد، و لما عاد وجدهم على الشرك .. أما أمر ربهم الذي لم يصبروا له فهو انتظار موسى أربعين ليلة، و يدل هذا على قول موسى لهم كما في سورة طه: أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ؟

و كما بدا غضبه في قوله فقد بدا أيضا في فعله **وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ**. قال جماعة من العلماء: ألقى موسى التوراة، و فيها اسم اللّه، و أخذ برأس أخيه هرون، و هو العبد الصالح الطيب، و موسى معصوم فكيف حدث منه ذلك؟ .. و بعد هذا التساؤل أخذوا يؤوّلون و يعللون.

أما نحن فلا نؤوّل و لا نعلل، بل نبقي الكلام على ظاهره، لأن العصمة لا تحوّل الإنسان عن طبيعته، و تجعله حقيقة أخرى، و لا تسلبه صفة الرضا و الغضب، بخاصة إذا كان للّه، و بصورة أخص إذا فوجئ بما فوجئ به موسى (ع)، فلقد لبث في قومه عمرا يلقنهم التوحيد، و يؤدبهم على دين اللّه، حتى إذا اطمأن الى إيمانهم جابهوه بالردة و الشرك، دون أي سبب موجب.

و قال آخرون: ان موسى كان حديدا، أما هرون فكان لينا .. و نقول:

ان موسى كان شديد العزيمة، قوي الارادة، عظيم الثقة بنفسه، و كان هرون دونه بمراحل، على صلاحه و فلاحه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٨

قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

يريد بالأعداء الذين عبدوا العجل، لأنهم اتخذوا هرون عدوا، و أرادوا قتله حين نهاهم عن الشرك و عبادة العجل، فكأنه يقول لأخيه موسى: أ تكون عليّ مع أعدائي و أعدائك، فتأخذ برأسي و لحيتي أمامهم ليشمتوا بي؟. و كيف تغضب مني كغضبك منهم، و أنا بريء منهم و من أفعالهم، و وقفت منهم موقف المعارض و المفند، و لم أقصّر بما وجب عليّ من النصح و التحذير.

و هنا يلين موسى (ع)، و تأخذه عاطفة الرحمة و الأخوة **قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**. استغفر لنفسه لما كان من قسوته مع أخيه، و استغفر لأخيه مخافة تقصيره في هدايتهم و ردعهم عن الشرك و الارتداد ..

و ليس من شك ان اللّه قد استجاب لدعوة موسى (ع) لأنه أرحم الراحمين، و لعلمه بإخلاص موسى و هرون.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ. و تسأل: تدل هذه الآية بظاهرها على ان الذين اتخذوا العجل قد غضب اللّه عليهم، و أذلهم في الحياة الدنيا الى يوم يبعثون، مع العلم بأنهم تابوا و استغفروا اللّه و سألوه الرحمة كما نصت الآية السابقة ١٤٩. و اللّه سبحانه هو القائل: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ- ١١٩ النحل. اذن كيف لزم الغضب الأبدي و اللعنة الدائمة من تاب عن عبادة العجل؟.

و أجاب البعض بأن الذين عبدوا العجل انقسموا بعد رجوع موسى اليهم إلى فرقتين: فرقة تابت توبة صحيحة، و هؤلاء قد غفر اللّه لهم. و فرقة أصرت و استمرت على الشرك كالسامري و أشياعه، و هؤلاء هم الذين غضب اللّه عليهم و أذلهم في الحياة الدنيا.

و يلاحظ بأنه لا شيء في الآية يدل على هذا التقسيم .. و أنسب الأجوبة ان اللّه قد علم ان اليهود لا يتوبون و لن يتوبوا أبدا عن الضلال و اتباع الشهوات توبة خالصة، لا ردة بعدها، و يدل على هذه الحقيقة طبيعتهم و سيرتهم، فإنهم كانوا و ما زالوا لا يزدجرون من اللّه و الضمير بزاجر، و لا يرتدعون عن الضلال و الفساد برادع إلا القوة وحدها.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٣٩٩

سؤال ثان: ان ليهود اليوم دولة باسم إسرائيل .. و بها زالت عنهم الذلة في الحياة الدنيا، و هذا يتنافى مع ظاهر الآية؟.

الجواب: كلا، و ألف كلا، ما قامت و لن تقوم أبدا دولة اليهود، تماما كما سجل اللّه في كتابه الحكيم .. أما إسرائيل فليست دولة كغيرها من الدول، و إنما هي عصابة مسلحة، تماما كجيش المرتزقة .. أوجدها الاستعمار لحماية مصالحه و ضرب القوى الوطنية، و ليس لها من الدولة إلا الاسم، و قد أثبتنا ذلك عند تفسير الآية ١٠٩ من آل عمران، و غيرها في المجلد الأول و الثاني من هذا التفسير، و في كتاب من هنا و هناك فصل: باع دينه للشيطان، و غيره من الفصول.

وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. معنى الآية واضح، و تقدم نظيرها أكثر من مرة، و القصد من ذكرها بعد الآية السابقة هو التأكيد بأن من تاب و أناب مخلصا، و لم يعاود المعصية كما يفعل بنو إسرائيل فان اللّه سبحانه يرحمه و يغفر له اسرائيليا كان أو قرشيا.

وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ. ان موسى نبي معصوم، ما في ذلك ريب، و لكنه انسان يحزن و يفرح، و يرضى و يغضب .. و قد تملكه الغضب حين فوجئ بارتداد قومه عن دين اللّه، و تركه الغضب حين استعطفه أخوه هرون، و وعده اللّه بالانتقام من المرتدين، و بعد أن عاد

موسى (ع) إلى وضعه الطبيعي عاد الى الألواح التي ألقاها حين غضبه، و اطمأن إلى ما فيها من الهدى لمن يتفتح قلبه للخير، و الى ما فيها من الرحمة لمن يخشى نقمة اللّه و عذابه .. ان حكمة اللّه جل ثناؤه اقتضت أن يهب الرضوان و الرحمة لكل من أطاعه مخافة نقمته، و ان ينزل النقمة و العذاب بكل من عصاه اتكالا على رحمته.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٥ الى ١٥٧]

وَ اخْتارَ مُوسىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (١٥٥) وَ اكْتُبْ لَنا فِي هٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

اللغة:

المراد بالفتنة هنا العذاب، و يأتي البيان، و هدنا اليك أي تبنا اليك. و الإصر الثقل الذي يمنع حامله من الحركة. و الأغلال جمع غل بالضم حديدة تجمع يد الأسير أو الجاني إلى عنقه. و المراد بها هنا المشقة. و المراد بالتعزير الإعانة و التوقير.

الاعراب:

قومه منصوب بنزع الخافض، أي و اختار من قومه. و سبعين مفعول اختار.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠١

و رجلا تمييز. و لو شئت مفعول شئت محذوف أي لو شئت إهلاكنا. و أهلكتهم جواب لو، و إياي معطوف على الضمير المنصوب في أهلكتهم. و ان هي ان نافية بمعنى ما، و هي ضمير عائد الى الرجفة. و الذين يتبعون الرسول بدل من للذين يتقون.

المعنى:

وَ اخْتارَ مُوسىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا. لقد أطال المفسرون الكلام حول هذه الآية، و تضاربت أقوالهم في تفسيرها. فاختلفوا في بيان الميقات هل هو ميقات نزول التوراة أو غيره؟ و أيضا اختلفوا لما ذا اختار موسى من قومه سبعين رجلا للخروج الى الميقات: هل لأنهم اتهموا موسى، و قالوا له: لن نؤمن لك حتى نسمع كلام اللّه كما سمعته أنت، فصحبهم معه ليسمعوا كما سمع، أو لسبب آخر؟ و أيضا اختلف المفسرون في السبب الذي من أجله عاقبهم اللّه. و بالتالي اختلفوا: هل أدت الرجفة بهم الى الموت، أو انها كادت أن تقصم ظهورهم، و تقطع مفاصلهم، و لم تبلغ بهم الى الموت.

و ليس في الآية أية اشارة الى شيء مما اختاره جماعة من المفسرين، و كل ما دلت عليه ان موسى (ع) اختار من قومه سبعين رجلا، ليذهب بهم الى ميقات ربه، و بطبيعة الحال كان هذا الاختيار بأمر من اللّه لأن موسى لا يفعل إلا بما يؤمر، و ان اللّه قد أنزل بالسبعين نوعا من العذاب لحكمة استدعت ذلك، و ليس لدينا ما يثبت تحديد الميقات، و لا السبب الموجب للاختيار، و لا للعذاب ..

أجل، ان قول موسى للّه: أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا يدل على انهم فعلوا ما يوجب الهلاك، و لكنه لم يبين الشيء الذي فعلوه، و ليس لنا أن نقول ما لا نعلم.

فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ. لقد اصطفى موسى من خيار قومه سبعين رجلا، و ذهب بهم إلى ميقات ربه، حتى إذا بلغوه هلكوا جميعا، و بقي فريدا .. انه لموقف حرج يضعف فيه الفؤاد،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠٢

و تقل فيه الحيلة؟. فما يصنع؟. هل يرجع وحده إلى بني إسرائيل؟. و بماذا يجيبهم إذا سألوه عن رجالهم؟. لا ملجأ أبدا من اللّه إلا اليه، فتضرع إلى اللّه أن يكشف عنه ما هو فيه، و تمنى لو أهلكه معهم من قبل أن يأتي بهم إلى هذا المكان .. ثم قال مخاطبا العلي الأعلى: أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا أي انك أجل و أعظم من أن تفعل ذلك، لأنك حليم كريم.

إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ. للفتنة معان، منها الإضلال و الإفساد، و منه يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ- ٢٦ الأعراف. و يقال: هذا مفتن أي مفسد. و من معاني الفتنة القتال، يقال: افتتن القوم أي تحاربوا و تقاتلوا. و منها الابتلاء و الاختبار وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ. و تستعمل الفتنة كثيرا في العذاب، و منه الآية ٢٥ من الأنفال: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ.

و هذا المعنى أي العذاب هو المراد من الفتنة في قوله: إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ و ضمير هي يعود الى الرجفة التي تقدم ذكرها صراحة، و معنى تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ ان اللّه يصيب بالرجفة التي هي العذاب من يشاء من عباده، و معنى وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ انه تعالى يصرف الرجفة عمن يشاء. و المعنى الجملي ان اللّه سبحانه ينزل العذاب بمن يشاء ممن يستحقه، و يصرفه عمن يشاء ممن لا يستحقه ..

و بهذا يتبين معنا ان قوله: إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ يرتبط معناه بما تقدم عليه، و تأخر عنه من السياق، و انه لا يجوز الاستدلال به على ان الإضلال من اللّه، و كيف يضل اللّه الإنسان، ثم يعاقبه على الضلال؟. و ما اللّه يريد ظلما للعباد ..

ان الشيطان هو العدو المضل، و كفى بربك هاديا و نصيرا «١».

أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ. و لا ترجمان لهذه المناجاة أفضل من قول سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي (ع) حين أحاط به الألوف من كل جانب، و هو وحيد فريد فلاذ إلى ربه، و عاذ به من أعدائه قائلا:

---

(١). راجع فصل الهدى و الضلال ج ١ ص ٧٠ من هذا التفسير الآية ٢٦ سورة البقرة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠٣

اللهم أنت ثقتي في كل كرب، و أنت رجائي في كل شدة، و أنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من كرب يضعف فيه الفؤاد، و تقل فيه الحيلة، و يخذل فيه الصديق، و يشمت فيه العدو أنزلته بي، و شكوته اليك رغبة مني اليك عمن سواك، ففرجته عني و كشفته، فأنت ولي كل نعمة، و صاحب كل حسنة، و منتهى كل رغبة.

قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ ممن يستحق العذاب، لأن مشيئة اللّه لا تجري إلا بالحق و العدل، و لا عبث و لا ظلم

عند اللّه، قال الرازي: قرأ الحسن أصيب به من أساء بالسين لا بالشين، و اختار الشافعي هذه القراءة.

رحمة اللّه تسع إبليس:

يطلق القرآن رحمة اللّه على عنايته، و على ثوابه، و معنى العناية منه جل ثناؤه ان الموجودات بكاملها، حتى إبليس تفتقر اليه سبحانه في بقائها و استمرارها، كما تفتقر اليه في أصل وجودها، و انه هو الذي يمدها بالبقاء في كل لحظة من لحظات استمرارها في الوجود، بحيث لو تخلى عنها طرفة عين فما دونها لم تكن شيئا مذكورا، و أوضح تفسير لهذه الرحمة و العناية الآية ٤٥ من سورة فاطر:

وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ.

و هذه الرحمة هي المراد من قوله تعالى: **وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** حتى إبليس اللعين. أما الرحمة بمعنى الثواب فان اللّه سبحانه يمنحها لمن آمن و اتقى، و إليها أشار بقوله: **فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** المعاصي، و يمتثلون أمر اللّه و نهيه **وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ** و ذكر الزكاة دون الصلاة، لأن الإنسان يطغى ان رآه استغنى.

وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ. أي ان رحمة اللّه التي هي بمعنى الثواب لا ينالها إلا من اتقى اللّه، و آتى المال على حبه، و آمن بنبوة محمد (ص) إذا بلغت اليه رسالته .. و خص المال بالذكر لما أشرنا اليه، و لأن الحديث عن اليهود، و المال ربهم الذي لا إله سواه عندهم و قد وصف اللّه محمدا (ص) في هذه الآية بالصفات التالية:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠٤

١- **الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ** و الأمية وصف خاص به، دون الأنبياء إشعارا بأنه على أميته أخرج الناس من الظلمات إلى النور، و أثر في حياة الأمم في كل عصر و مصر.

٢- **الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ**. راجع تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٣٣. و فقرة هل الأنبياء كلهم شرقيون؟

ج ٢ ص ٤٩٢ الآية ١٦٣ من سورة النساء.

٣- **يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ**. راجع ج ٢ ص ١٢٣ و ١٣٢ الآية ١٠٤ و ١١٠ من آل عمران.

٤- **وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ**.

٥- **وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ**. الإصر الثقل الذي يمنع من الحركة، و المراد بالأغلال المشقة .. لقد حرم اللّه على بني إسرائيل بعض الطيبات التي أشار اليها في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام، كما ان شريعة موسى كانت شديدة و شاقة، حتى ان التائب من بني إسرائيل لا تقبل توبته الا إذا قتل نفسه: فَتُوبُوا إِلىٰ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ- ٥٤ البقرة. و يقول اللّه لبني إسرائيل الذين أدركوا محمدا (ص): انهم إذا أسلموا تحل لهم طيبات ما حرم عليهم، و ترتفع عنهم المشقة في التكليف، لأن محمدا قد بعث بالشريعة السهلة السمحة.

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ المراد من آمن بمحمد (ص) من اليهود و غيرهم **وَ عَزَّرُوهُ** أعانوه في دعوته، و وقروه لعظمته **وَ نَصَرُوهُ** على عدوه **وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ** أي عملوا بالقرآن **أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** في الدنيا و الآخرة.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٨ الى ١٥٩]

قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ

رَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ كَلِماٰتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

الاعراب:

جميعا حال من الرسول. و الذي له خبر لمبتدأ محذوف، أي هو الذي له ملك الخ. قال أبو البقاء في كتاب الاملاء: لا يجوز أن يكون الذي بدلا و لا صفة من رسول اللّه لوجود فاصلين هما إليكم و جميعا. لا إله خبر لا محذوف تقديره موجود إلا هو و هو بدل من الضمير المستتر في موجود.

المعنى:

قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً. هذه الآية مكية في سورة مكية، و هي تكذب الذين قالوا: ان محمدا حين كان ضعيفا قال: أنا رسول اللّه لأهل مكة و من حولها، و بعد أن صار قويا قال: أنا رسول اللّه للناس أجمعين. و أجبنا هؤلاء بردود قاطعة عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ. تؤكد هذه الآية و كثير غيرها من الآيات انه لا واسطة بين اللّه و عباده، و ان الملك و الأمر للّه وحده .. فمحمد، و ان كان مرسلا لجميع الناس في كل زمان و مكان و أشرف الخلق و خاتم النبيين و سيدهم، و لكنه لا يملك لنفسه شيئا فضلا أن يملك لغيره: قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللهُ- ٤٩ يونس.

و قد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، و القصد هو تعريف المسلمين بحقيقة محمد (ص) و انه بشر مثلهم، كيلا يغالوا فيه، كما غالى النصارى بالسيد المسيح (ع). و كفى بكلمة لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه التي يكررها المسلم ليل نهار، كفى بها دليلا على تنزيه المسلمين من الغلو، و ايمانهم بأن محمدا لا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠٦

يملك من الأمر إلا الرسالة و التبليغ.

فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ كَلِماٰتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. ان قوله: فاتبعوه بعد قوله: فآمنوا باللّه و رسوله، دليل على ان مجرد الإيمان لا يجدي شيئا ما لم يكن معه عمل بكتاب اللّه و سنة رسوله. راجع فقرة لا ايمان بلا تقوى ج ١ ص ٣١٤ الآية ٢١٢ من سورة البقرة.

بين الصهيونية و اليهودية:

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ. قال الرازي: اختلفوا في ان هذه الأمة متى حصلت؟ و في أي زمان كانت؟ فقيل: هم اليهود الذين آمنوا بمحمد (ص) كعبد اللّه بن سلام، و ابن صوريا .. و قيل: انهم قوم ثبتوا على دين موسى، و لم يحرفوه كما فعل غيرهم من بني إسرائيل الذين أحدثوا البدع.

و نحن نميل إلى أن هؤلاء كانوا في عهد موسى، ثم انقرضوا كما يومئ قوله تعالى: **مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ** أما ابن سلام و ابن صوريا فلا يقال لهما و لا لعشرة مثلهما أمة و طائفة .. و على أية حال، فإن القرآن قد نعت اليهود بكل قبيح، و ألصق بهم و بتاريخهم العار و الشنار في العديد من آياته .. و ان دل قوله: **مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ** على شيء فإنما يدل على ان لكل قاعدة شواذ، و بديهة ان الشاذ النادر لا ينقض القاعدة، بل يؤكدها؟.

و بصرف النظر عن الذكر الحكيم و آياته فهل الفساد و الضلال بعيد عن طبيعة اليهود و سيرتهم؟. و هل اليهود منزهون

عن الضلال و الافتعال؟. بل هل في تاريخ اليهود بادرة واحدة فقط لا غير تعشر بالخير:.

و رب قائل: ان الفساد و الضلال وصف لازم للصهيونية لأنها حركة عنصرية فاشيّة سياسية تهدف إلى خدمة الاستعمار و انتشاره، أما اليهودية فإنها ديانة كغيرها من الديانات! ..

و نجيب أولا: ما يدرينا ان المصدر الذي أوحى بهذا الفارق هم اليهود أنفسهم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠٧

ليدفعوا عنهم ما لصق بهم و بتاريخهم القديم و الحديث من العار و الشنار على وجه العموم .. راجع فقرة الصهاينة تواطئوا مع النازية في تفسير الآية ٦٤ من المائدة.

ثانيا: على فرض وجود الفارق بين اليهود و الصهيونية- و هو فرض محل نظر- فهل اليهود بوجه العموم راضون أو ناقمون على الصهيونية التي أوجدت عصابة مسلحة باسم إسرائيل لا تهدف إلى شيء إلا الى حماية مصالح الاستعمار، و ضرب القوى التحررية؟ .. و لما ذا ناصر اليهود هذه العصابة الصهيونية، و مدوها بالأموال و الأرواح، و تطوعوا بالألوف ذكورا و إناثا في حرب ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ بعد أن تدربوا و تمرنوا على استعمال الأسلحة الجهنمية؟. ثم الا يؤمن اليهود دينا و عقيدة بأنهم شعب اللّه المختار، و ان اللّه متحيز معهم ضد جميع الناس، و انه قد حرم دماءهم، و أحل لهم دماء البشرية جمعاء، و انهم وضعوا قوانينهم و نظمهم على هذا الأساس، و القوة المنفذة عصابة إسرائيل؟.

و بعد، فإن اليهودية كديانة نزلت من السماء على موسى (ع) قد ذهبت و باد أهلها، و لم تبق منهم باقية، كما باد غيرها من الديانات، و ان يهود اليوم صهاينة إلا من شذ، و الشاذ- كما قدمنا- لا يقاس عليه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٠ الى ١٦٢]

وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)

اللغة:

السبط ولد الولد ذكرا كان أو أنثى، و يغلب على ولد البنت مقابل الحفيد لولد الابن. و قطعناهم صيرناهم قطعا و فرقا. و الاستسقاء طلب الماء للسقيا.

و الانبجاس الانفجار. و المن مادة بيضاء تنزل من السماء. و السلوى طير يشبه السمان.

الاعراب:

اثنتي عشرة مفعول ثان لقطعنا، لأنها بمعنى صيرنا، و المميز محذوف أي اثنتي عشرة فرقة، و لهذا أنث العشرة. و أسباطا بدل من اثنتي عشرة، لا تمييز لأنه جمع، و تمييز العدد المركب مفرد. و أمما صفة لاسباط. و ان اضرب بمعنى أي لأن ما بعد ان و هو اضرب تفسير لأوحينا. و حطّة خبر لمبتدأ محذوف أي أمرنا حطة. و نغفر على الجزم جوابا للأمر، و هو

قولوا و ادخلوا.

المعنى:

وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً. أي فرقنا بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة، و كل فرقة تنتمي إلى سبط من الأسباط الاثني عشر ليعقوب بن اسحق ابن ابراهيم، فقد كان له ١٢ ولدا، و لكل واحد نسل.

وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ تقدم نظيره في الآية ٦٠ من سورة البقرة ج ١ ص ١١١.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٠٩

وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. سبق مثله في الآية ٥٧ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٦.

و قوله: **وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ** الى قوله: **يَظْلِمُونَ** مذكور مع التفسير في ج ١ ص ١٠٨ الآية ٥٨- ٥٩ من سورة البقرة.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٣ الى ١٦٦]

وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (١٦٦)

اللغة:

حاضرة البحر أي على شاطئه. و يعدون أي يتجاوزون حكم اللّه. و شرعا ظاهرة على وجه الماء. و المعذرة و العذر بمعنى واحد. و البئيس الشديد. و العتو العصيان. و خاسئين صاغرين.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٠

الاعراب:

شرعا حال من الحيتان. و معذرة خبر لمبتدأ محذوف أي موعظتنا معذرة.

و بئيس صفة لعذاب.

المعنى:

وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ. الخطاب موجه لمحمد (ص)، و القرية على حذف مضاف أي أهل القرية، و ضمير هم في و اسألهم يعود إلى يهود المدينة الذين عاصروا رسول اللّه (ص)، لأن هذه الآية نزلت في المدينة لمواجهة اليهود بها، و ضمت الى السورة المكية تكملة للحديث عن اليهود، و لم يذكر اللّه سبحانه اسم القرية، و قيل: انها كانت على شاطئ البحر الأحمر ..

و على أية حال فهي معروفة عند اليهود الذين سألهم النبي عنها، أما الباعث على هذا السؤال فأمران: الأول أن يجابه النبي يهود المدينة بأنهم أنكروا نبوته، و هم على يقين منها في أنفسهم، لأنه قد أخبرهم عن الكثير من تاريخ أسلافهم، و منها قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر، مع العلم أنه لم يقرأها في كتاب، و لم يسمعها من أحد، فما هي- اذن- إلا

وحي من اللّه .. الأمر الثاني: أن ينبههم النبي الى أنهم مكابرون معاندون للحق، و ان عنادهم هذا ليس غريبا عن طبيعة اليهود و سيرتهم، و انما هو دأبهم و ديدنهم منذ القديم.

و الدليل قصة أهل تلك القرية التي أشار اليها بقوله: **إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لاٰ يَسْبِتُونَ لاٰ تَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ**. و تتلخص هذه القصة بأن اللّه حرم على اليهود العمل يوم السبت، و منه صيد الأسماك، و لأجل أن يعاملهم اللّه معاملة المختبر لحالهم، و يظهرهم للملإ على حقيقتهم كان يرسل الحيتان اليهم بكثرة ظاهرة على وجه الماء يوم السبت، و يمنعها عنهم في سائر الأيام، فتوصل جماعة منهم إلى حيلة يحللون بها ما حرم اللّه، فحفروا أخاديد، و مسارب تتصل بالماء تنفذ الحيتان منها إلى الأخاديد، و لا تستطيع الخروج، فكانوا يأخذونها يوم الأحد و يقولون،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١١

نحن نصطاد يوم الأحد، لا يوم السبت، فأنكر عليهم جماعة منهم، و زجروهم عن هذا الاحتيال و التلاعب بالدين، و حذروهم من بأس اللّه و عذابه فلم يتعظوا.

وَ إِذْ قٰالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّٰهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً.

أي قالت جماعة من بني إسرائيل أيضا للجماعة الناهية عن المنكر، قالت لهم:

ما الفائدة من نهيكم العصاة، و تحذيركم إياهم، ما داموا لا ينتهون و لا يحذرون؟! دعوهم .. فان اللّه سيستأصلهم عن آخرهم من هذه الأرض، أو يبقيهم مع العذاب الأليم. فقالت جماعة الأمر بالمعروف: **مَعْذِرَةً إِلىٰ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**.

أي نهيناهم عن المنكر ليعلم اللّه انّا لهم مخالفون، و لأعمالهم كارهون، و في الوقت نفسه نرجو أن ينتفعوا بنهينا و مواعظنا.

فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذٰابٍ بَئِيسٍ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ. الضمير في نسوا و ذكروا و ظلموا و يفسقون عائد إلى العصاة، و ضمير ينهون عائد إلى جماعة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و وصف اللّه العصاة بالفاسقين لأنهم فسقوا عن أمر ربهم، و بالظالمين لأن كل من فسق عن أمر ربه فهو ظالم لنفسه، و المعنى ان اللّه سبحانه أخذ المذنبين بذنبهم، و أنجى المطيعين لطاعتهم.

فَلَمّٰا عَتَوْا عَنْ مٰا نُهُوا عَنْهُ قُلْنٰا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خٰاسِئِينَ. عاقب سبحانه أولئك العصاة بمسخهم على هيئة القرود، و في رواية انهم بقوا كذلك ثلاثة أيام، ثم هلكوا، لأن الممسوخ لا يعيش أكثر من هذه المدة، و لا يولد له شيء من جنسه.

و تسأل: لقد جرت سنة اللّه أن لا يأخذ المذنب بذنبه في الدنيا بشهادة الوجدان و العيان بالاضافة إلى قوله تعالى: وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا كَسَبُوا مٰا تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دٰابَّةٍ- ٤٥ فاطر. فكيف عاقب أولئك الذين خرجوا عن طاعته في صيد الحيتان، و ترك الذين أجروا من دماء الأبرياء أنهرا في فلسطين و فيتنام، و من قبلهما الكونغو و اليابان، و غيرها كثير مما لا يبلغه الإحصاء؟.

الجواب: أجل، لقد جرت سنته تعالى بأن لا يأخذ المذنب بذنبه في هذه الحياة، مهما عظم .. و لو فعل لما تميز الخبيث من الطيب، و لما كان لتارك

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٢

الشر من فضل، لأن الترك كان بدافع الخوف، لا حبا بالخير، و كرها للشر ..

و لكن حكمة اللّه سبحانه قد اقتضت أن يستثني من هذه السنة معجزات الأنبياء، و استجابة دعائهم في أهل المعصية و الفساد لكرامتهم عند اللّه، و لاثبات نبوتهم.

و قال أهل التفاسير في تفسير الآية ٧٨ من المائدة: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ لِسٰانِ دٰاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ.

قالوا: ان داود (ع) لعن أهل ايلة من بني إسرائيل لما اعتدوا و اصطادوا في في سبتهم، و قال: اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء، فمسخهم اللّه قردة خاسئين.

اذن، فسبب مسخ الصيادين المحتالين هو دعاء النبي داود، و لا نبي في هذا العصر يدعو على سفاكي الدماء، و ناهبي مقدرات الشعوب .. و مهما يكن، فنحن نؤمن بعدل اللّه، و بأن الحق لا يذهب عنده هدرا، و ان الإنسان مجزي بأعماله، مهما طال الزمن، و انما يعجل من يخاف الفوت.

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦٧]

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)

اللغة:

تأذن من الأذان، و هو الاعلام. و يسومهم أي يذيقهم.

المعنى:

لقد تحدث القرآن طويلا عن بني إسرائيل، تحدث عن كفرهم و افسادهم في الأرض، و تمردهم على الحق، و تكلمنا نحن كثيرا عنهم تبعا لآي الذكر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٣

الحكيم، و ذكرنا عشرات الأمثلة من سيرتهم كشرح و تطبيق للنص القرآني في شأنهم، و لكن هنا سؤال قد يرتفع إلى مستوى الحيرة و الشك حول هذه الآية:

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ.

و حول الآية ١١٢ من سورة آل عمران: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مٰا ثُقِفُوا.

و أجبنا عن هذا السؤال في المجلد الثاني صفحة ١٣٤ عند تفسير الآية ١١٢ من سورة المائدة، و أيضا أجبنا عنه بأسلوب آخر قريبا عند تفسير الآية ١٥٣ من السورة التي ما زلنا في تفسيرها، و نشير هنا الى الجواب بإيجاز .. لقد سلط اللّه من قبل علي بني إسرائيل الفراعنة، ثم البابليين، ثم الفرس، ثم خلفاء الإسكندر، ثم النصارى.

و من الطريف ما جاء في تفسير البحر المحيط ان طائفة من النصارى أملقت، فباعت اليهود الذين في بلدهم لبلد مجاور .. و أخيرا فر اليهود من الذل و النكال لاجئين الى بلاد العرب، فعاشوا بها آمنين، و لكنهم نكثوا العهد الذي أعطوه لرسول اللّه (ص)، فقتل بعضا، و أجلى عمر بن الخطاب البقية الباقية، فتشتتوا في شرق الأرض و غربها موزعين مع الأقليات تابعين غير مستقلين يسمعون الأوامر فيطيعون صاغرين.

و أخيرا أدرك اليهود انه لن يكون لهم اسم يذكر إلا إذا أخلصوا للاستعمار، و من أجل هذا باعوا أنفسهم لكل مستعمر

قوي ينفذون مؤامراته و دسائسه ..

و في أيامنا هذه- نحن الآن في صيف سنة ١٩٦٨- اكتشفت بعض الدول ان المستعمرين أوعزوا إلى يهود أوروبا الشرقية أن يقوموا بمحاولات تهدف إلى سير هذه البلاد في ركاب المستعمرين، و باشر اليهود بتنفيذ الخطة، و لكنهم افتضحوا قبل إتمامها و كادوا يجرون العالم إلى حرب ثالثة. و على هذا المخطط، مخطط سير الشعوب في ركاب الاستعمار أوجد المستعمرون عصابة مسلحة من اليهود على أرض فلسطين، و أطلقوا عليها اسم دولة إسرائيل.

و كل عاقل يتساءل: هل يصح أن تسمى إسرائيل دولة بالمعنى الصحيح، مع العلم بأنه لو تخلى الاستعمار عنها يوما واحدا لزالت من الوجود؟. و هل من دولة في العالم كله لا تعترف بها دولة واحدة من الدول المجاورة لها؟. و إذا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٤

كانت إسرائيل دولة بالمعنى الصحيح فلما ذا تقيم علاقاتها مع الدول و الشعوب المجاورة لها على أساس الغدر و الاعتداء و التوسع؟.

ان الدولة حقا ليست غدرا و سلاحا، و إنما هي قبل كل شيء كيان يقوم على أساس السلم، و نظام يرتكز على أساس الحق، و قيم تبتعد بها عن العنصرية و التعصب، و كيان إسرائيل عسكري يقوم على أساس الحرب، و نظامها عدم التوقف عن العدوان، و قيمها الصهيونية العنصرية، و الحقد و المكر و الغدر، قال الكاتب الانكليزي كرستوفر مارلو في مسرحية اليهودي المالطي: ان تخيل إمكانية معايشة اليهود ضرب من الجنون، و لا دواء لنفوسهم إلا السيف البتار.

أبعد هذا يقال للعرب عيشوا مع اليهود بسلام، أو يقال: ان اليهود أعزاء لأن منهم عصابة مسلحة تسمى باسم دولة إسرائيل تقتل و تشرد مئات الألوف بمساندة الاستعمار؟. أجل، إذا كانت القرصنة عزا، و الرذيلة مجدا فان اليهود في أوج المجد و العز.

و بالتالي، فان اللّه وحده هو الذي يعلم الخطوة التالية، و العاقل لا يخدع بالظواهر، و لا يستبق الأحداث.

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ للذين حقت عليهم كلمة العذاب **وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** لمن أقلع عن ذنبه و أناب.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٨ الى ١٧١]

وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٥

اللغة:

و قطعناهم أمما أي فرقناهم جماعات. و الخلف بسكون اللام قوم لاحقون أشرار، و بفتحها أخيار. و عرض بفتح الراء الشيء الزائل الذي لا ثبات له.

و المراد بالأدنى هنا الدنيا. و درسوا ما فيه قرأوا ما فيه. و يمسّكون بالكتاب يعملون به. و النتق قلع الشيء، و المراد هنا

رفع الجبل فوقهم بعد قلعه.

و الظلة مفرد و جمعها ظلل و ظلال، و كل شيء يظلك من سقف و نحوه فهو ظلة بضم الظاء.

الاعراب:

يجوز أن تعرب أمما مفعولا ثانيا على أن تكون قطعناهم بمعنى صيرناهم، و لك أن تعربها حالا على أن تكون قطعناهم بمعنى فرقناهم. و منهم الصالحون مبتدأ و خبر، و مثله و منهم دون ذلك على أن يكون المبتدأ محذوفا و دون صفة له أي قوم دون ذلك، و لفظ ذلك مفرد و معناها هنا الجمع أي دون أولئك لأنها تستعمل للمفرد و المثنى و الجمع. و الذين يمسكون مبتدأ و جملة إنا لا نضيع خبر.

المعنى:

وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً. فرّق اللّه بني إسرائيل في الأرض فرقا و جماعات شتى لا وطن يجمعهم و لا دولة تحفظهم، و حاولت الصهيونية أن تقيم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٦

لهم دولة من النيل الى الفرات بالقرصنة و الاغتيال، و خيل اليها ان العدوان الاسرائيلي يحقق لها ما تريد ذاهلة ان إسرائيل تقوم على الألغام، و ان الأمر يحدث بعده الأمر، و ان مصائر الخلق بيد اللّه وحده لا بيد الصهيونية و الاستعمار.

مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ. الظاهر ان المراد بالصلاح هنا الايمان.

و ان المراد بدون ذلك غير المؤمنين، و تقدم نظيره الآية ١٥٩ من هذه السورة **وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** المراد بالحسنات الصحة و الرخاء، و السيئات ضدهما، و الغرض من تقلبهم بين النعماء و الضراء أن يثوبوا إلى رشدهم و يتوبوا إلى بارئهم.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ. المراد بعرض هذا الأدنى المال الحرام كالربا و الرشا. بعد أن ذكر سبحانه انه كان على عهد موسى (ع) جماعة من بني إسرائيل صالحون، و منهم دون هؤلاء قال: لقد ترك هؤلاء و أولئك نسلا عرفوا حلال التوراة و حرامها، و لكنهم كانوا يحرمون ما أحل اللّه، و يحللون ما حرم، و يقولون: سيغفر اللّه لنا، و لا يؤاخذنا على شيء، لأننا أبناؤه و أحباؤه و شعبه المختار.

و تسأل: لما ذا قال سبحانه: **وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** بعد أن قال: **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى** مع ان القولين في معنى واحد؟ فما هو الغرض من هذا التكرار في آية واحدة؟.

الجواب: الغرض الرد عليهم بأنهم يصرون على كبائر الذنوب، و يعودون اليها مرات و مرات غير مكترثين و لا مستغفرين، و مع هذا يقولون: **سَيُغْفَرُ لَنا**؟ .. ان الإصرار على الصغائر معصية كبرى، فكيف بالإصرار على الكبائر؟.

أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ.

هذا رد ثان عليهم، و وجه الرد انهم يزعمون الإيمان باللّه و بالتوراة، و قد درسوها و فهموا كل ما فيها، و مما جاء في التوراة ان اللّه يغفر لمن تاب و أقلع عن المعصية، أما من أصر عليها فهو من الهالكين، و أيضا قد أخذت التوراة عهدا و ميثاقا على كل من آمن باللّه و بها أن لا يفتري على اللّه الكذب، و العصاة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٧

على علم من هذه الحقيقة، و مع هذا يصرون على كبائر الذنوب قائلين: سيغفر اللّه لنا .. و هذا نقض للعهد و الميثاق، و كذب على اللّه و افتراء: و قد خاب من افترى **وَ الدّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** و لا يتهافتون على عرض هذا الأدنى، و لا يقولون كذبا و افتراء: سيغفر اللّه لنا **أَ فَلا تَعْقِلُونَ** و كيف يعقل من أعشت الشهوات عقله، و أمرضت الأهواء قلبه؟.

وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ.

الذين يمسّكون بالكتاب هم الذين يعملون به، و يمسّك أبلغ من يعمل لأنه يشعر بالجد و العزم الثابت على العمل، و عطف أقاموا الصلاة على يمسكون من باب عطف الخاص على العام، لسر في الخاص أوجب النص عليه بالذات، و الآية تعريض باليهود الذين آمنوا بالتوراة، و لم يعملوا بأحكامها، و أيضا هي تعريض بكل من انتسب إلى دين و تهاون في أحكامه، بخاصة الصلاة التي هي عمود الدين ..

و لكنها عند أبناء هذا الجيل تأتي على الهامش لأن الدين كذلك عندهم.

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

رفع اللّه الطور فوق بني إسرائيل كأنه سقف أو غمامة تظللهم، و أمرهم في ظل هذه المعجزة، و هذا التخويف ان يتقوا اللّه ..

و لكن إسرائيل هي إسرائيل .. و تقدم نظيره في سورة البقرة الآية ٦٣ ج ١ ص ١١٩.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٨

اللغة:

الظهور جمع ظهور، و هو معروف. و الذرية سلالة الإنسان من ذكور و أناث.

الإعراب:

من ظهورهم بدل اشتمال من بني آدم مع إعادة حرف الجر، و المعنى أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم. و بلى حرف جواب تبطل النفي، فإذا قال لك قائل: ليس لي عندك درهم، و أجبته بلى كان إقرارا منك بالدرهم، و ان أجبت نعم لا يلزمك شيء، و لذا قيل: لو قالوا: نعم في جواب أ لست بربكم لكفروا. و المصدر المنسبك من ان تقولوا مجرور بإضافة مفعول من أجله محذوف أي مخافة قولكم.

عالم الذر:

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ. في المسلمين فئة تؤمن بعالم الذر مستندة الى هذه الآية، و إلى بعض الروايات، و معنى عالم الذر عند هذه الفئة ان اللّه بعد أن خلق آدم أخرج من صلبه كل ذكر و أنثى يوجدان- فيما بعد-

منذ آدم الأول الى نهاية الكون، و جمعهم دفعة واحدة على هيئة الذر، ثم قال لهم: أ لست بربكم؟. قالوا: بلى أنت ربنا، و بعد هذا الاعتراف ردهم إلى صلب آدم .. و نحن مع الذين يؤمنون بعالم الذر ان أجابوا عن التساؤلات التالية:

أين جمع اللّه هذه الذرية؟. هل جمعها في هذه الأرض أو في غيرها؟.

و هل تتسع هذه الأرض لهم جميعا؟. و لنفترض انها اتسعت، لأنهم على هيئة الذر، فهل كان آدم من الضخامة بحيث يستوعب كل من خرج منه مباشرة و بالواسطة إلى يوم يبعثون؟. ثم هل يتذكر واحد من الجم الذي يفوق عدد

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤١٩

الرمال، هل يتذكر واحد فقط هذا الخطاب و العهد الذي أعطاه للّه مشافهة؟.

و ان كان قد أنساه طول العهد، فكيف يحتج اللّه عليه بشيء لا يتذكره ..

هذا من جهة العقل، أي بعض ما يدور في ذهن العاقل.

أما من جهة نص الآية فانه يدل على عكس عالم الذر الذي أخذ من صلب آدم الأول، لأن اللّه سبحانه قال: **أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ** و لم يقل من آدم، مع العلم ان ابن آدم يقال له: آدم، و لا يقال لآدم الأول: ابن آدم ..

و أيضا قال تعالى: **مِنْ ظُهُورِهِمْ** و لم يقل من ظهره. و قال: **ذُرِّيَّتَهُمْ** و لم يقل: ذريته .. هذا، الى ان اللّه قال في الآية الثانية: انه فعل ذلك لئلا يحتج عليه أحد بشرك الآباء، مع ان أول من أشرك لا مبرر لاحتجاجه بشرك أبيه، لأن المفروض ان أباه لم يشرك .. و ان دل هذا على شيء فانه يدل على ان العهد قد أخذ من كل واحد واحد مستقلا بعد وجوده حتما، بل و بعد رشده و إدراكه.

و نحن لا نفهم معنى لهذا العهد المأخوذ من الإنسان للّه تعالى الا الفطرة، و غريزة الاستعداد التي أودعها اللّه في كل عاقل، و التي بها- لو قصد التفهم و التدبر- يميز بين الهدى و الضلال، و بين الحق و الباطل، و بها يهتدي الى الإيمان باللّه و دينه الحق .. و بكلمة ان على كل امرئ ان يتفكر في آيات اللّه و دلائله. و اتفق المسلمون قولا واحدا على ان السنة النبوية تفسير و بيان للآيات القرآنية، و قد ثبت بالتواتر قوله (ص): كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. و قوله: يقول اللّه اني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتاحتهم عن دينهم.

وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا. كل من السؤال و الجواب قائم الى اليوم، و إلى آخر يوم، لأنهما بلسان الحال و الواقع، تماما كقوله تعالى: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ- ١١ فصلت. **أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ** أي مخافة أن تقولوا أو لئلا تقولوا:

إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ. هذا اشارة إلى التوحيد الذي دل عليه قوله:

أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى. لا تعليل و لا معذرة أبدا، لا في هذه الحياة و لا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٠

في الآخرة لمن منحه اللّه الاستعداد الكامل لتفهم الدلائل و البينات على وحدانية اللّه و عظمته، ثم كفر و أشرك.

أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ. يقلد الإنسان في الأشياء التي تحتاج إلى التخصص، و تستغرق سنوات من الدراسة كالطب و الهندسة، و ما اليهما، أما الإدراكات الفطرية التي لا تكلف الإنسان أكثر من اليقظة و التنبه كوجود اللّه و وحدانيته، أما هذه فالكل فيها سواء .. و قد أقام اللّه سبحانه البراهين الوافية الكافية على وحدانيته، و منح كل عاقل الاستعداد لتفهمها بيسر، و لم يبق عذرا لمعتذر بأنه جحد أو أشرك تقليدا

لغيره من المبطلين .. و لا فرق أبدا في نظر العقل بين من يعمل بغير علمه متعمدا و بين من يتبع الباطل جهلا به و من غير قصد مع قدرته على معرفته و تمييزه عن غيره.

وَ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إلى عقولهم التي تؤدي بهم حتما بمعونة الدلائل إلى عقيدة التوحيد. أنظر تفسير الآية ٤١ من سورة الأنعام، فقرة اللّه و الفطرة ص ١٨٨.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٥ الى ١٧٧]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنٰاهُ آيٰاتِنٰا فَانْسَلَخَ مِنْهٰا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطٰانُ فَكٰانَ مِنَ الْغٰاوِينَ (١٧٥) وَ لَوْ شِئْنٰا لَرَفَعْنٰاهُ بِهٰا وَ لٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سٰاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ أَنْفُسَهُمْ كٰانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢١

اللغة:

النبأ الخبر الذي له شأن. فانسلخ منها تجرد منها. و أخلد إلى الأرض لصق بها، و المراد به هنا الركون الى الدنيا. و اللهث بفتح اللام، و اللهاث بضمها، و معناهما واحد، و هو التنفس الشديد مع إخراج اللسان عطشا أو اعياء. و المراد بالمثل هنا الصفة.

الإعراب:

ساء بمعنى بئس، و الفاعل مستتر يفسره مثلا المنصوب على التمييز، و القوم مجرور بإضافة اسم محذوف أي مثل القوم، و هذا المحذوف هو المخصوص بالذم، و هو مبتدأ، و جملة ساء خبر.

المعنى:

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنٰاهُ آيٰاتِنٰا فَانْسَلَخَ مِنْهٰا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطٰانُ فَكٰانَ مِنَ الْغٰاوِينَ. اتل الخطاب موجه لمحمد (ص)، و ضمير عليهم يعود الى اليهود.

أما الذي آتاه اللّه آياته فانسلخ منها فلا نعرف من هو و لا ندخل في شيء ليس في القرآن و السنة المتواترة نص عليه، و لكن القصاصين و أكثر المفسرين أو الكثير منهم قالوا: ان اسم الرجل بلعام بن باعور، و انه كان على دين موسى و عالما بأحكامه، ثم ارتد، و نحن ننظر الى هذا النقل و الى غيره أيضا بحذر، و لا نطمئن إلا للنص القرآني، و قد دل هذا النص على ان اللّه سبحانه أمر رسوله أن يخبر اليهود بقصة الرجل الذي كان عالما بدين اللّه و آياته، و بطبيعة الحال كان علماء اليهود على علم من هذا الرجل، ثم أغواه الشيطان، فترك علمه و دينه، و لزم الغواية فكان من الغاوين الهالكين.

وَ لَوْ شِئْنٰا لَرَفَعْنٰاهُ بِهٰا أي بما آتاه اللّه من العلم بآياته، و لكن اللّه لم يشأ أن يلجئه إلى العمل بآياته قهرا، لأنه جل ثناؤه لا يعامل الناس بمشيئته الخالقة

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٢

التي تقول للشيء كن فيكون، و انما يعاملهم بمشيئة النصح و الإرشاد التي يعبر عنها بأمره و نهيه، و لهذا ترك للذي انسلخ من آيات اللّه، ترك له الحرية و الاختيار، فاختار العاجلة على الآجلة **وَ لٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ**.

معنى الإخلاد اللزوم، و المراد بالأرض هنا متاع الحياة الدنيا، لأن الأرض مصدرها، و منها الطيبات و الملذات، و المعنى

ان هذا المنسلخ المتجرد قد عصى مولاه، و أطاع هواه ملازما له لا يفارقه أبدا، قال الرازي: هذه الآية أشد الآيات على أصحاب العلم، قال رسول اللّه (ص): من ازداد علما، و لم يزدد هدى لم يزدد من اللّه الا بعدا.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ. الكلب الذي يلهث من العطش أو الاعياء يستمر في اللهاث زجرته أو تركته، فانه لاهث على كل حال .. و كذلك من لزم هواه يستمر في ضلاله و عظته أو أغفلته فهو ضال على كل حال ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا. أي هذه هي صفة كل من أصر على المعصية .. أبدا، لا ينتفع بآية، و لا يصغي لموعظة، و ضرب اللّه مثلا للعاصي المصر بالكلب اللاهث اشارة إلى خسته وضعته.

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. أي حدث يا محمد اليهود عن المكذبين من أسلافهم، و ما آل اليه أمرهم كأهل القرية التي كانت حاضرة البحر، و هذا المنسلخ ليكون ذلك عبرة لهم، و رادعا عن التكذيب بنبوتك.

ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ. الكذب على اللّه، و التكذيب بآيات اللّه كلاهما بدعة، لأن الأول يثبت في الدين ما ليس منه، و الثاني ينفي عنه ما هو منه، و هذه هي البدعة بالذات، و كل بدعة ضلالة و كل ضلالة في النار- اذن- من ابتدع نقد ظلم نفسه، حيث عرضها للعذاب و الهلاك.

و تسأل: من يحرف الحق خوفا على نفسه من ظالم: هل يعد مبتدعا؟.

الجواب: أجل، انه مبتدع يستحق الذم و العقاب، ما في ذلك ريب، لأن عليه أن يخاف من غضب اللّه لتحريف الحق، لا من غضب الظالم للثبات على الحق .. أجل، قد يسوغ للإنسان ترك العمل بالحق دفعا للضرر عن نفسه، أما

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٣

تحريف الدين بالكذب على اللّه فلا مبرر له على الإطلاق، مهما تكن النتائج.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٨ الى ١٨١]

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٧٨) وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٧٩) وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

اللغة:

الذرأ الإنشاء و الخلق. و الإلحاد الانحراف عن الطريق القويم.

الاعراب:

اللام في لجهنم للعاقبة مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا. و جملة لهم قلوب صفة لكثير. و جملة لا يفقهون صفة للقلوب. و ممن خلقنا خبر مقدم، و أمة مبتدأ مؤخر.

المعنى:

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ. ليس المراد

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٤

ان من يخلق اللّه فيه الهداية فهو المهتدي، و من يخلق فيه الضلال فهو الضال ..

كلا، ان هذا المعنى تأباه الفطرة و البديهة .. لأن اللّه ليس بظلّام للعبيد، و أيضا يأباه النص القرآني: فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما

يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا- ١٠٨ يونس. و كيف يجمع اللّه تعالى بين وصفي العدالة و الإضلال؟. ان الشيطان هو المضل: قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ- ١٥ القصص. وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ.

و الذي نراه ان المعنى المقصود من الآية ان المهتدي حقا هو من كان عند اللّه مهتديا، و لو كان عند الناس ضالا .. و ليس من شك ان الإنسان لا يكون من المهتدين في الميزان الإلهي إلا إذا آمن و عمل صالحا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ- ٩ يونس. وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ- ٦٩ العنكبوت. و كذلك الضال فإنه من كان ضالا في حساب اللّه، لا في حساب الناس. و بكلمة ان الآية تحدد معنى كل من المهتدي و الضال بأنه من كان كذلك عند اللّه، تماما كما قال الإمام علي (ع):

الغنى و الفقر بعد العرض على اللّه.

وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ. ذرأنا خلقنا .. و اللّه سبحانه لم يخلق و لن يخلق أحدا بقصد تعذيبه، كيف؟. و هل يلتذ جلت عظمته بتعذيب المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة، و لا يهتدون سبيلا؟. في بعض ما قرأت ان الامريكيين كانوا إذا أرادوا الترويح عن النفس جاءوا بأحد الملونين، و تحلقوا حوله، و أمطروه بوابل من رصاص مسدساتهم، فيسقط على الأرض متخبطا بدمائه، و هم يرسلون القهقهات عاليا .. و اللّه لن يشوي البشر بناره إلا إذا تجنس بالجنسية الأمريكية أو الصهيونية .. تعالى اللّه عما يصفون.

ان اللّه سبحانه خلق الإنسان للعلم النافع، و العمل الصالح، و زوده بجميع المؤهلات لذلك، و أعطاه العقل المميز بين الهدى و الضلال، و أرسل الرسل لايقاظه و إرشاده، و ترك له الخيار في سلوك الطريق الذي يشاء منهما، لأن الحرية هي قوام حقيقة الإنسان، و لو سلبها منه لكان هو و الجماد سواء، فان اختار طريق الهدى أدى به الى مرضاة اللّه و ثوابه، و ان سلك طريق الضلال فمآله جهنم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٥

و ساءت مصيرا .. و على هذا تكون اللام في لجهنم لام العاقبة مثل اللام في ليكون من قوله تعالى: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا، و مثل: لدوا للموت و ابنوا للخراب.

و تسأل: ان اللّه سبحانه قال: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ و أنت تقول: خلق اللّه الإنسان للعلم النافع، و العمل الصالح.

الجواب ان العلم النافع و العمل الصالح من أفضل الطاعات، فقد جاءت الرواية: عالم واحد أفضل من ألف عابد، و ألف زاهد، و في رواية ثانية:

عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد.

لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا. كل شيء لا يؤدي الغاية المطلوبة منه فوجوده و عدمه سواء من هذه الحيثية.

و من أهم الغايات المقصودة من القلب أن ينفتح لدلائل الحق، و من العين أن تبصر هذه الدلالة، و من الأذن أن تسمعها، فإذا أعرضت هذه الأجهزة الثلاثة عن ذلك، و لم تنتفع بشيء من دلائل الحق كان وجودها كعدمه، قال تعالى:

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ ٣٧ ق. فالقلب و السمع موجودان، و مع ذلك يصح سلب الوجود عنهما إذا غفلا عن آيات الحق و دلائله **أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ** لهم قلوب و أعين و آذان، و لكن قلوبهم لا تنفتح

للحق، و أعينهم لا تبصر دلائله، و آذانهم لا تسمعها فكانوا كالأنعام بل تنفتح للحق، و أعينهم لا تبصر دلائله، و آذانهم لا تسمعها فكانوا كالأنعام **بَلْ هُمْ أَضَلُّ** لأن الأنعام تؤدي الغرض المطلوب منها على أكمل وجه، و لأنها تعجز عن تحصيل الكمال، و لا تحاسب و تعاقب، و بالتالي هي تعرف خالقها بالفطرة، و الكافرون لا يؤدون المطلوب منهم، و قادرون على الكمال، و لا يفعلونه، و هم محاسبون و معاقبون **أُولٰئِكَ هُمُ الْغٰافِلُونَ** عن دلائل اللّه في أنفسهم و في الآفاق، و عن مصيرهم و ما سيحل بهم في الآخرة من الخزي و العذاب.

هل اسماء اللّه توقيفية او قياسية؟

وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ. كل أسماء اللّه حسنة، لأنها تعبر عن أحسن المعاني

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٦

و أكملها، و كلها على مستوى واحد في الحسن، إذ ليس للّه حالات متعددة، و لا صفات متغايرة، حتى عند القائلين بأن صفاته غير ذاته، و لا أفعال متفاوتة، فخلق جناح بعوضة و خلق الكون بأسره سواء لديه، يوجد كلا بكلمة «كُنْ فَيَكُونُ» .. و متى تساوت المعاني تساوت الألفاظ لأنها فرع، و الفرع يتبع الأصل.

(فَادْعُوهُ بِهٰا». أي اذكروا اللّه، و ادعوه بأي اسم شئتم من أسمائه، فكلها ألفاظ تعبر عن تنزيهه و تعظيمه على مستوى واحد، و ليس للّه اسم أعظم، و اسم غير أعظم، فكل ما دل عليه هو أعظم الدلالات، لأن المدلول أعظم الموجودات ..

و من أجل هذا لا نقول مع القائل: ان للّه اسما خاصا هو الاسم الأعظم، و ان من عرفه فاضت عليه الخيرات، و ظهرت على يده المعجزات .. و قيل «ان للّه تسعا و تسعين اسما، و ان من أحصاها دخل الجنة». حتى كأنّ اللّه خلق جنته لمؤلفي قواميس اللغة، لا للمتقين!.

(وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمٰائِهِ سَيُجْزَوْنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ) .. اللحد و الإلحاد الميل عن القصد، و معنى الجملة النهي عن اطلاق أية كلمة تشعر بالربوبية على غيره، سواء أ كان ذلك الغير نبيا أو كوكبا أو صنما أو أي شيء، و أيضا لا يجوز اطلاق أية كلمة عليه تشعر بغير الربوبية كالأب و الابن.

و اختلف علماء الكلام في أسماء اللّه تعالى: هل هي توقيفية أو قياسية؟. و معنى توقيفية الوقوف في أسمائه على ما جاء في الكتاب و السنة، بحيث لا يجوز اطلاق أي اسم عليه إلا إذا نصت عليه آية أو رواية، و معنى قياسية ان أي لفظ كان معناه ثابتا في حق اللّه فيجوز اطلاق هذا اللفظ عليه، سواء أورد في كتاب اللّه، أم لم يرد.

و ذهب أكثر العلماء الى أن أسماء اللّه توقيفية. أما نحن فنجيز مخاطبة اللّه و مناجاته بكل ما يدل على التنزيه و التعظيم، سواء أورد له ذكر في القرآن و الحديث أم لم يرد، و لا نمنع إلا عما منع اللّه عنه، عملا بالمبدأ القائل: كل شيء مباح، حتى يرد فيه نهي على شرط التعظيم .. هذا ما تقتضيه الأصول و القواعد العلمية الدينية، بالإضافة إلى اجماع الأمة قديما و حديثا في كل زمان و مكان على ان لغير العرب أن يعبروا عن ذات اللّه و صفاته و أفعاله بلغتهم الخاصة بهم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٧

وَ مِمَّنْ خَلَقْنٰا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ. كل الناس منهم مؤمن و كافر، و طيب و خبيث، و ما من أحد إلا و يعرف هذه الحقيقة، فما هو القصد من بيانها؟.

الجواب: قال سبحانه في الآية السابقة: ان كثيرا من الجن و الإنس مصيرهم الى جهنم **وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ** فناسب ان يقول هنا:

و ان أمة منهم مصيرها إلى الجنة، و ان تكن هذه أقل من تلك كما تشعر لفظة من. و عبّر عن أهل الجنة بالذين يهدون بالحق و به يعدلون اشارة إلى ان السبب الموجب لدخولهم الجنة هو الهدي و العدل.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٣ الى ١٨٦]

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

اللغة:

الاستدراج من الدرجة، أي ان اللّه يسوقهم إلى الهلاك شيئا فشيئا، تماما كمن يرتقي درج السلم. و الإملاء الإمهال و التأخير. و الكيد المكر، و المراد به

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٨

هنا التدبير الخفي، بحيث لا يشعر المكيد له إلا بعد خسرانه و خذلانه. و الجنة بكسر الجيم، و أصله الستر. و الملكوت المالك غير المملوك. و العمه للقلب، و العمى للعين.

الإعراب:

إن كيدي متين جملة مستأنفة و لهذا كسرت همزة إن. و ما استفهامية انكارية في محل رفع بالابتداء، و بصاحبهم متعلق بمحذوف خبرا، و الجملة مفعول ليتفكروا لأن التفكر من أفعال القلوب التي يجوز تعليقها عن العمل. و ان عسى ان مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن محذوف أي انه عسى، و المصدر المنسبك من أن يكون فاعل عسى، و قد استغنت عسى بالفاعل هنا عن الخبر، كما استغنت عنه في قولك عسى ان تقوم كأنك قلت: قرب قيامك، و مثله عسى أن تكرهوا شيئا. و اسم يكون ضمير مستتر يعود الى الشأن، و جملة قد اقترب أجلهم خبر كان، و الجملة من عسى و فاعلها خبر ان.

المعنى:

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. قد تتابع النعم على الإنسان، فيتمادى في طغيانه اغترارا بكثرته و ثروته ذاهلا عن المخبآت و المفاجئات، حتى إذا قال الناس طوبى له فاجأته ساعة السوء .. و قد اغتر أبو سفيان بيوم أحد، و قال: يوم بيوم بدر، حتى إذا جاء نصر اللّه و الفتح استسلم صاغرا. قال الإمام علي (ع): كم من مستدرج بالإحسان اليه، و مغرور بالستر عليه، و مفتون بحسن القول فيه، و ما ابتلى اللّه أحدا بمثل الاملاء له **وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ.** الاملاء الامهال و عدم الاستعجال، و المراد بكيد اللّه انه تركهم يغترون بإحسانه الظاهر، حتى إذا ركنوا اليه أخذهم من حيث لا يشعرون: أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ- ٥٧ المؤمنون.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٢٩

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ. هكذا يبث اللصوص و السفاحون دعاياتهم المضللة ضد كل مخلص في كل زمان و مكان ..

محمد مجنون و ساحر و كذاب، و لمه؟ لأنه يأبى الكذب و الضلال، و يحارب اللصوصية و الاستغلال .. افترت قريش على محمد .. و هي تعرف من هو محمد منذ نشأته، حتى تجاوز الأربعين من عمره الشريف، و تعرف فيه العقل و الصدق و الأمانة، و لكنها تعرف أيضا ان رسالة محمد هي الخطر الأكبر على سلطان قريش و طغيانها، و من أجل هذا وحده قالت: انه مجنون عسى أن يخدع بهذا الافتراء من استغلوه و استعبدوه .. فدعاهم القرآن إلى التفكر و التدبر في أمر محمد (ص)، و هو صاحبهم، و عشيرهم الذي سبروه و خبروه، دعاهم القرآن أن يتفكروا: هل أخذوا عليه مأخذا، أو وجدوا في عقله و خلقه مغمزا؟ **إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ** يبين الحق، و ينذر من خالفه، و هذا هو ذنبه الوحيد عندهم.

أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ.

ملكوت مبالغة في الملك، و المعنى ان السموات و الأرض و كل ما فيهما من شيء يخضع لسلطانه، و يدل على وحدانيته، و ان ما من عاقل ينظر الى أي شيء في هذا الوجود مجردا عن كل غاية إلا آمن باللّه و كتبه و رسله، أما الذي لا يفكر إلا في مصلحته فلا يهتدي و لن يهتدي إلى اللّه و لا لشيء من الخير **وَ أَنْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ.**

بعد أن طلب اللّه اليهم التفكر و التدبر في خلق الكون و أشيائه نبههم إلى الموت هادم اللذات، و مفرق الجماعات، و انه ربما فوجئوا به عما قريب، و هم في ضلالهم سادرون. نبههم الى هذا عسى أن يتوبوا و يثوبوا الى الرشد.

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟ الضمير في بعده يعود الى القرآن، و ليس بعد القرآن بيان أوفى، و لا دليل أقوى، فمن لا تقنعه دلائل اللّه فلا يقنعه شيء.

مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلاٰ هٰادِيَ لَهُ ذكرنا معناه قريبا عند تفسير الآية ١٧٨ من هذه السورة **وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ.**

أي ان اللّه يتركهم يترددون في الضلال و يمهلهم إلى أجل، ثم يجازيهم بما أسلفوا، و ليس في هذا الإهمال ظلم، لأنه جاء بعد البيان و التحذير، و بعد اليأس من ارعوائهم و هدايتهم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٧ الى ١٨٨]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السّٰاعَةِ أَيّٰانَ مُرْسٰاهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّي لاٰ يُجَلِّيهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لاٰ تَأْتِيكُمْ إِلاّٰ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ مٰا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

اللغة:

الساعة لغة جزء قليل غير معين من الزمان، و عرفا جزء من أربعة و عشرين جزءا من مجموع الليل و النهار، و المراد بالساعة هنا الوقت الذي يفنى فيه العالم و يموت جميع الخلق. و مرساها إثباتها و حصولها من رسا الشيء إذا ثبت و حصل.

و الحفي المستقصي في السؤال.

الإعراب:

أيان اسم مبني لتضمنه حرف الاستفهام، و هو سؤال عن الزمان، و محله الرفع خبرا مقدما و مرساها مبتدأ مؤخر. و بغتة

حال من الضمير في تأتيكم العائد إلى الساعة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣١

المعنى:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسٰاهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّي لاٰ يُجَلِّيهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاَّ هُوَ. المراد بالساعة خراب الكون و موت الخلائق، و يجليها يكشفها و يظهرها، و اللام في لوقتها للتوقيت، مثل أقم الصلاة لدلوك الشمس .. و يدل ظاهر الآية على ان قوما سألوا رسول اللّه (ص): متى تقوم الساعة؟ فأمره اللّه أن يقول لهم: انها من الأمور التي ليس في طاقة البشر معرفتها، و ان علمها مختص باللّه وحده، و هو الذي يكشفها في وقتها المحدود **ثَقُلَتْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ** أي ثقل وقعها على أهل السموات و الأرض لعظمتها و شدتها **لاٰ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً** من غير اعلام سابق.

يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهٰا أي كأنك مهتم بالسؤال عنها مثل اهتمامهم.

لم يكن النبي (ص) يهتم بعلم الساعة و متى تقوم؟ و انما كان يهتم بالعمل لأجلها و الانذار بها، و يربط بين النجاة من هولها و بين العمل الصالح، و من أجل هذا لم يسأل ربه عنها. و قيل: ان أعرابيا سأله: متى تقوم الساعة؟. فقال له النبي (ص): و ما ذا أعددت لها؟. يريد بجوابه هذا أن يفهمه ان الأولى بك أن تسأل عما ينجيك منها، لا عن وقتها و شكلها. فالعاقل إذا أصيب بداء لا يسأل: كيف يموت به؟ و انما يسأل: ما الذي يشفيه منه؟. و أعاد سبحانه **قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اللّٰهِ** لتأكيد حصر العلم بالساعة وحده، و تمهيدا لقوله:

وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ بأن علم الساعة عند خالقها و لا يطلع عليه أحدا.

النبي و علم الغيب:

قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ. هذه عقيدة المسلمين بنبيهم محمد أشرف خلق اللّه أجمعين، لا يملك لنفسه شيئا فضلا عن أن يملكه لغيره، و هذا الاعتقاد بمحمد (ص) هو نتيجة حتمية لعقيدة التوحيد.

وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ مٰا مَسَّنِيَ السُّوءُ. ان كلمة الغيب لا تدل على معناها فحسب، بل تدل أيضا على ان الغيب للّه وحده،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٢

و بالإضافة الى هذه الدلالة فان أقرب الناس الى ربه يعلن للأجيال بأنه أمام الغيب بشر لا فرق بينه و بين غيره من الناس، ثم لا يكتفي بهذا الإعلان بل يستدل على ذلك بالحس و الوجدان و هو انه لو علم الغيب لعرف عواقب الأمور، فأقدم على ما تكون عاقبته خيرا، و أحجم عما تكون عاقبته شرا، و ما أصابه في هذه الحياة ما يسوؤه و يكرهه.

و كيلا يقول قائل: كيف لا يعلم محمد الغيب، و هو الرسول المقرب من اللّه؟. قال محمد (ص) بأمر من اللّه: إن أنا إلا بشير و نذير لقوم يؤمنون.

انه رسول اللّه، ما في ذلك ريب .. و لكن مهمة الرسول تنحصر بتبليغ الناس رسالات ربهم، و إنذار من عصى بالعقاب، و بشارة من أطاع بالثواب، أما علم الغيب، و النفع و الضر فبيد اللّه وحده .. و خص المؤمنين بالبشارة و الانذار، مع انهما يعمان جميع الناس اشارة إلى أن البشارة و الانذار إنما ينتفع بهما من يريد الإيمان الحق، أما المكابر فلا يجدي معه شيئا.

و تسأل: لقد جاء في سيرة النبي (ص) و كتب الأحاديث: ان محمدا (ص) أخبر عن كثير من المغيبات .. من ذلك اخباره بأن المسلمين من بعده يتغلبون على الروم و الفرس، و ان سلمان الفارسي سيوضع على رأسه تاج كسرى، فوضع ..

و أيضا أخبر عن موت النجاشي و عن شهادة زيد بن حارثة و جعفر بن أبي طالب و عبد اللّه بن رواحة و عن نباح كلاب حوأب على عائشة و عن قتال علي بن أبي طالب الناكثين و القاسطين و المارقين، و عن استشهاد سبطه الحسين بن علي .. إلى غير ذلك كثير .. فكيف تجمع بين إخباره عن المغيبات، و بين قوله: **وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ**.

الجواب: ان غيب اللّه لا حد له و لا حصر، وحده ان لا حد له، و هذا الغيب على أنواع: نوع يحجبه اللّه عن عباده، و لا يطلع عليه أحدا كائنا من كان كقيام الساعة. و نوع يطلع عليه من ارتضى من عباده، و إليه أشارت الآية ٢٦ من الجن: عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ. و الآية ١٧٩ من آل عمران: وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشٰاءُ. و نوع يطلع عليه كل الناس كالبعث و النشر، و الجنة و النار.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٣

فالمراد بأن الغيب للّه و عند اللّه انه لا طريق الى معرفته بالتجربة، و لا بالعقل و لا بأي شيء إلا بالوحي منه تعالى، و هو يوحي بشيء من غيبه إلى من ارتضى من رسول حسبما تستدعيه الحكمة و حاجة الناس، و الرسول بدوره يخبرهم بهذا الغيب كما تلقاه من اللّه .. و على هذا فلا يكون إخبار الرسول به علما بالغيب، بل نقلا عمن يعلم الغيب، و الفرق بعيد بين مصدر العلم، و بين النقل عن مصدره، لأن الأول أصل، و الثاني فرع، و أيضا فرق بين من ينقل عمن نقل عن الأصل مباشرة، و بين من ينقل عن هذا الناقل .. قٰالُوا سُبْحٰانَكَ لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ- ٣٢ البقرة.

و هذه الآيات دليل قاطع على فساد ما تقوله الصوفية من ان نفس الإنسان بنحو من الرياضة تنعكس فيها المغيبات .. و قد أسموا هذا الانعكاس علما لدنّيا ..

و لست أدري كيف جمع الصوفية بين الإيمان باللّه و رسالة محمد (ص)، و بين الاعتقاد بهذا العلم الدنّي؟.

و أعجب من هذا ما قاله ابن العربي في الجزء الثالث من الفتوحات المكية الباب الـ ٣١١: ان من أحب اللّه حبا خالصا يستطيع أن يحول نفسه الى أية حقيقة شاء من حيوان أو شجر أو حجر أو ماء .. و قد حدث هذا بالفعل، ذلك ان بعض المحبين من أهل هذه الطريقة- أي الصوفية- دخل على شيخ و حوّل نفسه بين يديه الى كف من ماء .. و لما قيل للشيخ: دخل عليك فلان و لم يخرج، فأين هو؟. قال لهم: هذا الماء هو.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٩ الى ١٩٠]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا لِيَسْكُنَ إِلَيْهٰا فَلَمّٰا تَغَشّٰاهٰا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمّٰا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللّٰهَ رَبَّهُمٰا لَئِنْ آتَيْتَنٰا صٰالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّٰاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمّٰا آتٰاهُمٰا صٰالِحاً جَعَلاٰ لَهُ شُرَكٰاءَ فِيمٰا آتٰاهُمٰا فَتَعٰالَى اللّٰهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (١٩٠)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٤

المعنى:

ليست الآيتان حكاية عن حادثة خاصة حصلت بين زوج و زوجته كما يوهم ظاهر اللفظ، كلا، و انما هما حكاية عن حال الإنسان بما هو مع صرف النظر عن أفراد معينين، و تتلخص حكاية هذه الحال أو هذا التمثيل بأن الإنسان إذا نزل

به ما يكره، أو أراد الحصول على ما يحب التجأ الى اللّه يدعو و يتضرع و يقطع على نفسه العهود و المواثيق ان اللّه إذا حقق له ما يريد شكره و أطاعه، فإذا آتاه اللّه ما أراد تولى معرضا عن عهوده و مواثيقه، و بعد هذا التمهيد الذي ينبغي أن تفهم الآيتان على أساسه نشرع بايضاحهما:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها.

الخطاب في خلقكم لجميع الناس، و المعنى انكم جميعا أيها الناس من شيء واحد جنسا و طبيعة و عنصرا، لا فرق إطلاقا بين شرقي و غربي، و لا عربي و عجمي، و لا بين اسود و أبيض، و لا ذكر و أنثى .. و مسألة الذكر و الأنثى تعم جميع الأجناس، و لا تختص بجنس دون جنس، قال عز من قائل:

وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ- ٤٩ الذاريات، و الغرض من ذلك معروف هو حفظ النوع، و بالاضافة الى هذا الغرض فان اللّه سبحانه قد خلق للإنسان زوجا من جنسه ليسكن كل منهما للآخر و يطمئن اليه، و ليكون بين الاثنين مودة و رحمة.

فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. تغشّاها قاربها، و في الفعل ضمير مستتر يعود الى الزوج و ضمير ها الى الزوجة، و مرت به أي استمرت بالحمل، و لم تسقطه، و أثقلت حان وقت الولادة، و في هذا الحين اتجه كل من الأب و الأم الى اللّه سبحانه، و تضرعا اليه ان يرزقهما ذكرا صالحا أي تام الخليقة و الخلق،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٥

و ان اللّه ان استجاب و فعل أديا شكر هذه النعمة على أكمل الوجوه **فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً** كما طلبا **جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما** ضمير جعلا يعود الى الزوج و الزوجة، و ضمير له يعود الى اللّه، و المراد بما آتاهما الولد الذي طلباه، و المعنى ان اللّه لما رزقهما الولد قالا: الفضل فيه للأصنام و بركاتها، و نسيا اللّه و ما عاهداه عليه **فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** أي يشرك جميع الكافرين و من جملتهم هذان الزوجان. و مرة ثانية نقول: ان الغرض الحكاية عن حال الإنسان بما هو، و ليس الحكاية عن حادثة خاصة.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩١ الى ١٩٨]

أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٩٤) أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (١٩٥)

إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٦

المعنى:

أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ. ان الخلق و الأمر للّه، و هو وحده الذي يقول للشيء كن فيكون، و كل

من عداه و ما عداه بما فيه الأصنام مفتقر اليه تعالى في أصل وجوده و في استمراره في الوجود. **وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** ان النصر و الغلبة و الاعزاز و الاذلال بيد اللّه، و الأصنام أحجار تبول عليها القطط و الكلاب، فلا تنصر و لا تنتصر **وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدىٰ لاٰ يَتَّبِعُوكُمْ سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰامِتُونَ**. هذه الأصنام لا تخلق، و لا تنصر و لا تنتصر، و لا تهدي و لا تهتدي، و لا تدعو أحدا، و لا تستجيب لدعوة أحد، و مع كل هذا تعبدا!

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ عِبٰادٌ أَمْثٰالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ. لقد زعمتم أيها المشركون ان الأصنام آلهة، و الإله ينفع و يضر، و يعطي و يمنع فاطلبوا منهم لنرى هل يستجيبون لطلبكم؟ **أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ آذٰانٌ يَسْمَعُونَ بِهٰا**.

هذا إيقاظ و تنبيه للمشركين الى أنهم خير و أفضل من الأصنام التي يعبدون، لأن لهم عقولا تدرك، و أعينا تبصر و آذانا تسمع، و أرجلا تمشي، و أكفا تبطش، و ألسنة تنطق، و ليس للأصنام شيء من ذلك، فكيف صار الأدون معبودا، و الأكمل عبدا له؟.

و تسأل: ان الواو ضمير للعاقل، فكيف استعملها القرآن في الأصنام، و هي لا تعقل، مثل يخلقون و يبصرون الخ؟.

الجواب: انها تستعمل في العاقل و غيره، و من ذلك قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسٰاكِنَكُمْ. و قوله: و كل في فلك يسبحون. و لكن الأكثر استعمالها في العاقل.

قُلِ ادْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاٰ تُنْظِرُونِ. قل الخطاب لمحمد (ص)، و واو ادعوا للمشركين، و الأمر فيه للتعجيز، و شركاءكم أي أصنامكم، و أصل كيدون كيدوني، و مثلها فلا تنظرون، و محصل المعنى ان اللّه سبحانه أمر نبيه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٧

أن يقول للمشركين: إن كان لأصنامكم شأن كما تزعمون فاني احتقرها و إياكم، فاستنجدوا بها لكيدي و الاقتصاص مني، و لا تمهلوني لحظة، فهذا أوان مقدرتها و سلطانها.

إِنَّ وَلِيِّيَ اللّٰهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتٰابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصّٰالِحِينَ. بعد أن تحدى النبي (ص) المشركين و آلهتهم قال لهم: أنتم تتولون هذه الأصنام، و أنا أتولى اللّه الذي نزل عليّ القرآن، و فيه تبيان كل شيء، و هو أيضا يتولى حفظي و حراستي، فهل لأصنامكم كتاب؟. و هل تتولى هي حفظكم و حراستكم؟.

و كانت النتيجة، كما يعرفها الجميع، إذلال الشرك و المشركين، و إعزاز الإسلام و المسلمين.

وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ. تقدم هذا في الآية ١٩٢، و جاء التكرار لأن النبي (ص) تحدى الأصنام ان تناله بأذى فناسب أن يشير الى أنها أعجز من أن تنصر أو تنتصر.

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدىٰ لاٰ يَسْمَعُوا. أيضا تقدم في الآية ١٩٣ و التكرار للغاية نفسها.

وَ تَرٰاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ. يدل هذا النص على ان الأصنام كانت تماما كهذه التماثيل في الكنائس، و ان عرب الجاهلية كان لهم شأن في فن النحت لأنهم جعلوا أصنامهم بحيث يتخيل الرائي للوهلة الأولى أنها تنظر و تبصر.

و تسأل: لما ذا كرر اللّه و أعاد في آيات متلاحقة متلاصقة ان الأصنام لا تضر و لا تنفع، و لا تنصر و لا تنتصر، و انه ليس لها أيد و لا أرجل و لا أعين الخ حتى بلغت الآيات تسعا، مع العلم بأنه يغني عن كل ذلك القول: انها أحجار و كفى.

الجواب: لقد سيطرت الوثنية على تفكير العرب و عقولهم، و امتزجت بأرواحهم و دمائهم، لأنهم ورثوها عن الآباء أجيالا و قرونا، و كان ايمانهم بها أقوى من ايمانهم باللّه الذي جعلوها شريكة له .. فلم يكن تغيير شيء من عقيدتهم هذه سهلا يسيرا، و كانوا يضحون بالنفس و النفيس إذا ذكرها ذاكر بسوء، فاقتضى ذلك التكرار و التأكيد و الإيضاح .. و لنفترض ان واحدا من رجال الكنيسة حاول

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٨

أن يزيل منها هذه الصور و التماثيل فهل يكتفي بقوله: انها أوراق و أحجار، أو يلقي الخطب الطوال العراض؟.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٣]

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (١٩٩) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

اللغة:

العفو هو الذي يأتي من غير كلفة و مشقة، و العرف المعروف، و هو فعل الخير. و النزغ في اللغة النغز و الوكز، و نزغ الشيطان اغراؤه بالشر و الفساد.

و الاستعاذة باللّه الالتجاء اليه. و المس الاصابة. و الطائف ما يدور حول الشيء و يأتيه من جميع نواحيه. و معنى اجتبيتها اصطفيتها، و المراد بها هنا افتعلتها.

الاعراب:

إذا هم مبصرون إذا هنا للمفاجأة لا تحتاج الى جواب. و لو لا أداة طلب بمعنى هلا.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٣٩

المعنى:

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ. أدب اللّه نبيه محمدا (ص) فأحسن تأديبه، و كان يقول في دعائه: اللهم حسن خلقي و خلقي، و جنبني منكرات الأخلاق، و قد استجاب اللّه دعاءه، و أتم له مكارم الأخلاق، ثم أرسله كافة للناس ليتمم لهم مكارم الأخلاق. و من الآيات التي أدب اللّه بها رسوله الأكرم (ص) هذه الآية، و قد تضمنت أسسا ثلاثة في الشريعة و الآداب، و هي:

١- العفو، و هو السهل اليسير الذي لا مشقة فيه و لا عسر، و يكون في الأفعال و في الأخلاق، و هو في الأموال ما زاد عن الحاجة، و قد امر اللّه نبيه أن لا يشق على الناس فيما يأمرهم به، و ينهاهم عنه، و ان يأخذ زكاة أموالهم فيما زاد عن حاجاتهم، و هذا أصل من أصول الشريعة: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ- ٧٨ الحج، و ان لا يكلفهم الشاق من الأخلاق، كأن يلزم أحدهم أن يتنازل لغريمه عن حقه، و لا يقتص منه لنفسه.

٢- الأمر بالعرف، و هو الخير المعروف الواضح يدركه الإنسان بفطرته.

٣- و أعرض عن الجاهلين، و هم الذين لا ترجى هدايتهم بالحجة و الدليل، و لا بالموعظة و الإرشاد .. و قد يكون

إهمالهم و الإعراض عنهم أجدى في هدايتهم.

و قال الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية: روي عن جعفر الصادق رضي اللّه عنه انه قال: ليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق منها.

وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. النبي يغضب ما في ذلك ريب .. و لكنه يغضب للّه، حتى غضبه لنفسه هو غضب للّه ..

و ربما غضب على جهالة جاهل من الذين أمرهم اللّه بالإعراض عنهم، فتحركه نفسه لمجابهته بكلمة يستحقها، فقال له مؤدبه الأعظم جل ثناؤه: إن صادف و عرضت لك مثل هذه الحال فلا يذهبن الغضب بحلمك فاصبر و استعذ باللّه، فانه يسمع لك و يستجيب، و يعلم ما تلاقيه من أهل السفاهة و الجهالة، و يثيبك عليه.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤٠

و لا بد من الاشارة الى ان قوله تعالى: **وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطٰانِ نَزْغٌ** هو مجرد فرض لمكان ان الشرطية، تماما كقوله: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ. و بديهة ان فرض المحال ليس بمحال، و في المجلد الثاني صفحة ٧٥ فقرة الأنبياء و المعصية بيّنا ان للّه سبحانه أن ينهى أنبياءه المعصومين عن المعصية، لأن نهيه من الأعلى الى من هو دونه، و ليس لأحد غير اللّه أن يأمرهم أو ينهاهم.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذٰا مَسَّهُمْ طٰائِفٌ مِنَ الشَّيْطٰانِ تَذَكَّرُوا. ما من انسان إلا و تنازعه اندفاعات نفسية، بعضها عاطفي، و بعضها عقلي، و بعضها ديني، و في الأغلب ينهزم الدين و العقل أمام العاطفة، لأنها تنبع من ذات الإنسان، و تلازمه منذ تكوينه في بطن أمه، و العقل متأخر عن العاطفة في الوجود، و هو ينمو بالدرس و التجربة، أما الدين فنزل لترويض العاطفة و كبح جماحها. فهو أضعف العوامل و الانفعالات .. اللهم إلا إذا اقتنع الإنسان به اقتناعه بنفسه و كيانه، بحيث لا يرى لنفسه وجودا سعيدا إلا بالدين و العمل بأحكامه، و هذا النوع من المتدينين هم الذين يتغلب دينهم على ميولهم، و هم المعنيون بقوله تعالى: **إِذٰا مَسَّهُمْ طٰائِفٌ مِنَ الشَّيْطٰانِ تَذَكَّرُوا**. أي إذا أغراهم الشيطان بمعصية اللّه، أو وسوست لهم النفس الامارة بذلك تذكروا ما أمرهم اللّه به، و ما نهاهم عنه **فَإِذٰا هُمْ مُبْصِرُونَ** مكائد الشيطان و وسوسة النفس، فيحجمون عن المعصية، و يتغلب دينهم على أهوائهم.

وَ إِخْوٰانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاٰ يُقْصِرُونَ. المراد بالإخوان هنا الشياطين، و الضمير في إخوانهم يعود الى المشركين الذين تقدم ذكرهم، و الضمير المرفوع في يمدونهم يعود الى الشياطين، و الضمير المنصوب يعود الى المشركين، و المراد بلا يقصرون لا يكف الشياطين عن أمداد المشركين بالإغواء و الإفساد، و ملخص المعنى ان الشياطين هم اخوان المشركين لا يكفون عن غوايتهم و تضليلهم.

وَ إِذٰا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قٰالُوا لَوْ لاٰ اجْتَبَيْتَهٰا. كان المشركون يطلبون من النبي آيات و معجزات معينة على سبيل التعنّت، فإذا لم يأتهم بها قالوا له: هلا تأتي بها انت من نفسك؟. أ لست نبيا؟. **قُلْ إِنَّمٰا أَتَّبِعُ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي**.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤١

أي قل يا محمد لهؤلاء المتعنتين: أجل، أنا نبي، و لكن النبي لا يصنع المعجزات، و لا يبتدع من عنده الآيات، و لا يقترحها على اللّه، بل ينتظر الوحي، و يبلغه لعباده.

هٰذٰا بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هذا اشارة الى القرآن، و البصائر هي الحجج و البينات التي

يبصر العاقل بها الحق، و يميزه عن الباطل ..

بعد ان قال النبي (ص) للمشركين: انما اتبع ما يوحى إليّ من ربي قال لهم:

و قد أوحى إليّ ربي بهذا القرآن، و فيه الأدلة الساطعة على نبوتي، و هو هدى و رحمة لمن يريد أن يؤمن بالحق لوجه الحق، فإن كنتم من طلابه كما تزعمون فعليكم أن تتركوا الشرك، و تسلموا، و الا فأنتم طلاب منافع و أرباب غايات.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٦]

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

اللغة:

استمع له و اليه أصغى بقصد. و الإنصات السكوت من أجل الاستماع. و الغدو جمع غدوة، و هي الصباح، و الآصال جمع أصيل، و هو المساء، و القصد دوام الذكر. و خيفة حالة الخوف.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤٢

الاعراب:

تضرعا و خيفة مصدران في موضع الحال من واو فاستمعوا، أي متضرعين و خائفين. و دون الجهر أي و اذكر ربك دون الجهر، و الجملة عطف على و اذكر ربك في نفسك. و بالغدو متعلق باذكر.

المعنى:

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. لما ذكر سبحانه في الآية السابقة ان القرآن بصائر و هدى و رحمة أمر في هذه الآية بالاستماع و الإنصات له، لتدبر ما فيه من الهدى و الدلائل، و ليس من شك ان من تدبر القرآن، و اتعظ به فهو جدير برحمة اللّه و رضوانه.

و اتفق الفقهاء ما عدا الظاهرية على ان الإنصات لقراءة القرآن مستحب و ليس بواجب على غير المأموم الذي يصلي جماعة خلف الإمام.

و اختلفوا في المأموم: هل يجب عليه أن يسمع و ينصت للإمام، و هو يقرأ القرآن في صلاته؟. ذهب جماعة الى الوجوب، و قال آخرون بعدمه.

و على أية حال فان الأمر في قوله تعالى: **فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا** هو للاستحباب لا للوجوب، لأن هذا الأمر حكمه حكم الأمر في قوله: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ** لأنهما جاءا في سياق واحد، و الأمر بالذكر للاستحباب فكذلك الأمر بالاستماع و الإنصات .. هذا، الى ان الإنصات لكل قارئ فيه عسر و حرج، بخاصة في عصرنا الذي أصبحت فيه قراءة القرآن في المكبرات أشبه بالغناء و اللعب ترتفع الأصوات به بمناسبة و غير مناسبة.

وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ. اذكر الخطاب للنبي، و المراد عام، و تضرعا و خيفة أي ليكن مع الذكر خشوع و خوف من اللّه، و دون الجهر من القول معناه اذكر ربك بصوت متوسط بين الجهر و الإخفات، و بالغدو و الآصال كناية عن دوام الذكر و قوله تعالى: **وَ دُونَ الْجَهْرِ**

مِنَ الْقَوْلِ يدل صراحة على ان من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤٣

رفع صوته بالقرآن فقد ترك المستحب و فعل خلاف الأولى بخاصة إذا كان في المكبر، و بصورة أخص إذا كان فيه إزعاج للنائمين. وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ عن ذكر اللّه في نفسك، لأن الذكر باللسان فقط أشبه بكلام فارغ لا معنى له.

و معنى ذكره تعالى في النفس أن ندرك ان اللّه وحده هو الخالق الرازق، و المحيي و المميت، و المبدئ و المعيد .. و أفضل الذكر إطلاقا أن يتقي الإنسان الاساءة الى أخيه الإنسان خوفا من عقاب اللّه، و أفضل منه أن يحسن اليه رغبة في ثواب اللّه عز و جل، و نقول من غير تحفظ: ان هذا المعنى هو المقصود من قوله تعالى: وَ لَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَ اللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ- ٤٥ العنكبوت.

و قوله: وَ اللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ بعد قوله: وَ لَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ يؤيد أن الذكر الأكبر هو الإحسان الى عيال اللّه .. و أخسر الناس صفقة عند اللّه من يهلل له و يكبر، و هو يسعى في أرض اللّه فسادا بالغش و الخداع، و مشايعة الطغاة و المستعمرين ضد عيال اللّه الآمنين و المستضعفين.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ.

قال المفسرون: أراد اللّه بهؤلاء المسبحين الساجدين- الملائكة، و استدلوا على ذلك بـعِنْدَ رَبِّكَ لأن الذين عند اللّه هم الملائكة .. و يلاحظ بأنه من الجائز أن يكون المراد كل من له مكانة و وجاهة عند اللّه، سواء أ كان ملكا، أم بشرا.

و اختلف الفقهاء: هل يجب السجود عند تلاوة آية فيها كلمة يسجدون كهذه الآية؟. نقل الطبرسي في المجمع عن أبي حنيفة القول بالوجوب، و عن الشافعي و الإمامية القول بالاستحباب المؤكد.

و يلاحظ بأن الشيعة الإمامية قد أوجبوا السجود على كل من القارئ و المستمع لآيات السجدة من السور الأربع، و هي ألم تنزيل، و حم فصلت، و النجم، و العلق.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤٥

سورة الأنفال

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤٧

سورة الأنفال آياتها ٧٥، و هي مدنية الا من آية ٣٠ لغاية ٣٦ فإنها مكية.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

اللغة:

الأنفال جمع نفل بفتح الفاء، و هو الزيادة، و المراد به هنا نوع من المال يأتي بيانه. و بين ظرف يتوسط بين اثنين أو أكثر، و المراد بالذات هنا الحال الواقعة بين اثنين أو جماعة. و الوجل الخوف.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤٨

الإعراب:

حقا منصوب على المصدرية، أي أحق حقا، أو صفة لموصوف محذوف أي إيمانا حقا.

المعنى:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ. ذكر سبحانه في هذه الآية ان قوما سألوا النبي (ص) عن الأنفال، و لم يبين المراد منها، و اتفق أهل العلم بالدين على ان أية كلمة ترد في كتاب اللّه و سنة نبيه من غير تحديد لمعناها فإنها تحمل على المعنى الذي يفهمه الناس من الكلمة، فان لم يعرف الناس لها معنى تعين الرجوع الى قواميس اللغة. و تقول هذه القواميس: النفل الغنيمة و الزيادة بوجه عام من غير تحديد لنوعها، و من هنا اختلف المفسرون في المراد بالأنفال: هل هي جميع الغنائم، أو هي غنائم بدر، أو غيرها؟.

أما الشيعة الإمامية فقالوا: لا مبرر لهذا الاختلاف لأنه ثبت في السنة النبوية برواية أهل بيت الرسول (ص) ان المراد بالأنفال الأرض التي تؤخذ من غير المسلمين بلا قتال، و الأرض الموات، سواء أ كانت مملوكة ثم باد المالك، أم لم تكن، و رؤوس الجبال و بطون الأودية، و الآجام، و كل ما اختص به سلطان الحرب، على شريطة أن لا يكون مغتصبا من مسلم أو معاهد، و ميراث من لا ميراث له.

و يتفق هذا مع مذهب المالكية لأنهم فسروا الأنفال بما أخذ بغير قتال احكام القرآن لأبي بكر المالكي المعروف بابن العربي المعافري. و قال أبو اسحق الفيروزآبادي الشافعي في كتاب المهذب: الأنفال أن ينفل أمير الجيش لمن فعل فعلا يفضي الى الظفر بالعدو، كالتجسس و الدلالة على طريق أو قلعة و نحو ذلك. و قال الجصاص الحنفي في كتاب أحكام القرآن: قال أصحابنا:

أن يقول الأمير: من قتل قتيلا فله سلبه، و من أصاب شيئا فهو له.

قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ. هذا بيان لمحل الأنفال، و انها للّه و رسوله،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٤٩

و ما كان للّه فهو لرسوله، و ما كان لرسوله ينفق لإعلاء كلمة الإسلام، و صالح المسلمين، يأخذ منه كل ذي حاجة منهم على قدر حاجته. و التفصيل في كتب الفقه، و منها الجزء الثاني من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق.

فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

هذا يشعر بأن الصحابة قد تنازعوا على الأنفال، و لما سألوا النبي (ص) قال لهم بأمر من اللّه: انها للّه و الرسول، و ان عليهم أن يستسلموا للّه و رسوله، و لا يتنازعوا على الأنفال و لا على غيرها، و ان يتآلفوا و يتحابوا في اللّه، كما هو شأن المؤمنين حقا.

ثم أوضح لهم جل ثناؤه بأن المؤمنين حقا من اتصفوا بالأوصاف التالية:

١- **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**. فالخوف لا ينفك أبدا عن اسم اللّه عند المؤمنين بلقائه و

حسابه و جزائه، و لكنهم في الوقت نفسه يرجون رحمة اللّه، لأنهم يؤمنون أيضا بقوله: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ. و قوله: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

و مما قاله الإمام علي (ع) في وصف المؤمنين: فهم و الجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، و هم و النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. و قال الشاعر في وصفهم:

تعادل الخوف فيهم و الرجاء فلم يفرط بهم طمع يوما و لا و جل

٢- وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً

بأنهم على بصيرة من دينهم، تماما كما لو رأوا الغيب رأي العين، بل قد يشكون فيما تراه العين لأن الحواس تخدع صاحبها بعض الأحيان، فيظن السراب ماء، و الورم شحما، أما قوله تعالى فلا يتطرق اليه الشك و احتمال الخلاف.

الدين لا ينبت قمحا:

٣- **وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**. و ليس معنى التوكل عليه تعالى أن نقول

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٠

بألسنتنا توكلنا على اللّه، و لا أن نترك الأسباب و العمل اتكالا على ان يسخر لنا الأشياء، و نحن قاعدون، و انما التوكل ان نسعى كما أمرنا اللّه راجين التوفيق منه في سعينا مؤمنين بأن العمل شرط أساسي للتوكل، و انه عبادة و طاعة لقوله تعالى: فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ- ١٥ الملك .. ان الإيمان و التوكل على اللّه من غير عمل لا ينبت قمحا و لا يشفي مريضا، و إلا لم يخلق اللّه للإنسان يدين و رجلين من أجل العمل .. نعم، ان الدين الحق ينبت الحب و الإخلاص و الاستقامة، و ليس الخبز و الدواء .. حتى العلم لا يعطينا القمح، و لا يشفينا من المرض، و انما يعلمنا كيف نزرع القمح و نصنع الدواء، و لا يعنيه بعد هذا متنا من الجوع و المرض أو لم نمت، أما الدين فهو الحريص على حياتنا و من أجلها يحثنا على العلم و السير على منهجه، و يعتبر إهماله جريمة إذا أدى الى الفساد و الضرر .. ان العلم يرسم الخطوط لحياة راضية مرضية، و هذا ما يهدف اليه الإسلام، و من أجله أمر بالعلم و حث عليه تماما كما أمر بالصيام و الصلاة، و يعاقب من يستغل العلم للنهب و العدوان كما يعاقب من يحرف الدين لمنافعه الشخصية.

و الخلاصة إذا صح ان الإنسان لا يحيا بالخبز وحده فصحيح أيضا ان الإنسان لا يحيا بالصلاة وحدها.

٤ و ٥- **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ**. الأوصاف السابقة من أحوال القلب، و الصلاة و الزكاة من أفعال الجسم، و هما نتيجة حتمية للإيمان باللّه، و الخوف منه، و التوكل عليه .. فتارك الصلاة و الزكاة لا يعد من المؤمنين حقا، و الدليل قوله تعالى:

أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ.

أولئك اشارة الى الذين جمعوا بين الصفات الخمس، و المؤمنون حقا هم الذين ينعكس الإيمان في أفعالهم، لا في أقوالهم فحسب، و الدرجات عند اللّه تتفاوت تبعا للجهاد و التضحية، و أعلاها لمن ينتفع الناس بهم، و يتحملون الكثير

ليعيش عيال اللّه جميعا في ظل الأمن و العدل و الخصب، و المغفرة التجاوز عن الهفوات و الرزق الكريم الجنة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥١

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥ الى ٨]

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (٥) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)

اللغة:

المراد بالشوكة هنا القوة، و الطائفتان هما العير و النفير، و النفير ذات الشوكة و العير غير ذات الشوكة، و يأتي التوضيح. و دابر القوم آخرهم.

الإعراب:

كما متعلق بمحذوف دل عليه السياق، و التقدير ان القتال حق كما أخرجك من بيتك بالحق، و كما كره فريق اخراجك من بيتك فقد كره أيضا فريق القتال.

و إذ يعدكم إذ منصوب بفعل محذوف أي اذكروا إذ يعدكم، و إحدى مفعول ثان ليعدكم، و تسبك انها لكم بمصدر في موضع نصب بدل اشتمال من إحدى أي يعدكم احدى الطائفتين ملكيتها. و المعنى ملكية احدى الطائفتين، تماما كما تقول: أعجبني زيد ثوبه أي ثوب زيد.

الى بدر:

بعث النبي (ص) و هو ابن أربعين، و أقام بمكة بعد البعثة ١٣ سنة، ثم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٢

هاجر الى المدينة فدخلها يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول، و أقام فيها عشر سنوات، و انتقل إلى ربه و هو ابن ٦٣ سنة يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول، و لما استقر به المقام في المدينة أخذ يرسل السرايا تعترض قوافل المشركين، و تستطلع أخبارهم، و تقلق راحتهم، قال المسعودي: كانت غزوات النبي التي قادها بنفسه ٢٦ قاتل منها في تسع.

و نشير هنا الى خروجه لبدر لأنها موضوع الآيات التي نحن بصددها، و في هذه الغزوة ظهرت أول قوة للمسلمين ترد بها على قوة المشركين الذين ظلوا يطاردون المسلمين بالتنكيل و الأذى أكثر من ١٣ سنة، و المسلمون يتلقون التنكيل بالاحتمال، و الأذى بالصبر، لأن المقاومة مع الضعف الذي كانوا فيه أشبه بعملية الانتحار، و تتلخص قصة الخروج الى بدر بأن رسول اللّه (ص) سمع بأن أبا سفيان رجع من الشام بقافلة ضخمة جهزتها قريش بالكثير من أموالها، و كان من جملة هذه الأموال ما استولت عليه قريش من أموال المهاجرين الذين نفتهم من مكة.

فجمع النبي الصحابة، و حثهم على الخروج ليصادروا أموال القافلة، فتثاقل البعض و كره الخروج رهبة من قريش و شوكتها، ثم مضوا مع النبي، و كان ذلك في ١٧ رمضان للسنة الثانية من الهجرة، و لم يدر بخلد واحد من الصحابة انه مقبل على معركة من أعظم معارك المسلمين، و أبعدها أثرا في حياة الإسلام و المسلمين.

و أرسل يهود المدينة الى أبي سفيان من ينذره، و هو في الطريق، فبعث؟؟؟

أبو سفيان يطلب النجدة من قريش، فخرجت برجالها، و لم يبق أحد قادر على حمل السلاح في مكة، و كان المسلمون إذ ذاك ما يزالون في طريقهم الى بدر، و لكن أبا سفيان تحول عنها الى ساحل البحر الأحمر، و أتى النبي (ص) نبأ قريش، فاستشار (ص) الصحابة أ يمضون لقتال قريش، أو يعودون الى المدينة؟

و في الوقت نفسه قال لهم: ان اللّه وعده بإحدى الطائفتين إذا مضوا للقتال، و الطائفتان هما العير المحملة بالأموال، و النفير و هم قريش الذين خرجوا من مكة لحماية الأموال، فأشار الأكثرون بالمضي للقتال، و كرهه البعض، كما

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٣

كره الخروج من المدينة منذ البداية، ثم أجمعوا على لقاء قريش.

و عندها قال لهم النبي (ص): سيروا على بركة اللّه، و اللّه لكأني أنظر إلى مصارع القوم، فتأهبوا لخوض المعركة، و ابتدأت بها قريش، و كان عددها حوالى الف مقاتل بينهم مائة فارس، و المسلمون نحو ٣٠٠ ليس فيهم إلا فارس و قيل اثنان. و قتل المسلمون من المشركين ٧٠ و أسروا ٧٠، وفر الباقون، و استشهد من المسلمين ١٤ و لم يؤسر أسير، و كانت هذه الغزوة أول نصر للمسلمين تغيرت بعدها أوضاعهم، و انحاز الكثير إلى جانبهم، و أصبحوا يقابلون القوة بالقوة و العنف بالعنف بعد أن كانوا يتلقونه بالسكوت أو الفرار من الوطن ..

بعد هذا التمهيد نشرع بتفسير النصوص.

المعنى:

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ.

المراد بالبيت المدينة .. حين أراد النبي (ص) الخروج من المدينة لمصادرة العير تثاقل جماعة من المؤمنين، و قالوا: لا طاقة لنا بقريش، ثم خرجوا على كره مع من خرج على حب، و في أثناء الطريق أخبرهم النبي بخروج قريش من مكة، و استشارهم: أ يمضون للقتال، أو يعودون الى المدينة، فكره البعض القتال، و قالوا: ما كان خروجنا إلا للعير، و قال الأكثر: نمضي معك للقتال. ثم مضوا جميعا الى المعركة على بركة اللّه. و هذه الآية تشير الى موقفين لبعض الصحابة: الأول كراهية الخروج من المدينة الى العير. و الثاني كراهية المضي لقتال النفير بعد أن خرجوا من المدينة قاصدين العير، و انهم كما كرهوا الخروج الى العير فقد كرهوا أيضا المضي لقتال النفير .. هذا هو معنى الآية، و هو واضح و بسيط، و لكن المفسرين حاروا في تفسيرها، و ذكر صاحب البحر المحيط خمسة عشر قولا.

و من الطريف ما قاله هذا المفسر في كتاب آخر: انه ذكر في البحر المحيط ١٥ قولا للآية، و لم يقتنع بشيء منها، حتى رأى في النوم انه يمشي في رصيف و معه رجل يباحثه في قوله تعالى: **كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ** فقال له: ما

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٤

مر بي شيء مشكل في القرآن مثل هذا .. و لعل هناك محذوفا يصح به المعنى ما وقفت فيه لأحد المفسرين على طائل، ثم قلت للرجل: ظهر لي الساعة ان ذاك المحذوف هو نصرك.

و ما أردت بذكر ما حدث لهذا المفسر الجليل ان أمس من مكانته، و انما أردت التدليل على ان العالم الفطن قد تسد أحيانا في وجهه نوافذ الفطنة، فتلجئه الحيرة إلى التشبث بكل شيء .. حتى بالأحلام يفسر بها القرآن، و هو في واقعه في فطرته على يقين من خطأه، دون أن يلتفت الى هذا الواقع، و هنا مكان الغرابة .. كيف يكون على يقين، و هو غير ملتفت؟. و لكن هذا هو الواقع ..

و الدليل انه لو رأى من غيره ما ارتضاه لنفسه لأنكر عليه.

يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ جادل فريق من المؤمنين في لقاء النفير و قتاله، مع ان هذا اللقاء و القتال حق و خير، و آثروا العير لأنها أكثر أموالا، و أقل رجالا .. و قوله تعالى: **بَعْدَ ما تَبَيَّنَ** يشير إلى أنهم جادلوا بعد أن أخبرهم النبي (ص) بالنصر **كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ** الى الموت و أسبابه عيانا، و هذه صورة يرسمها القرآن لشدة خوفهم من قريش، لأنها أقوى عدة، و أكثر عددا.

و تسأل: ان المسلمين يقدسون البدريين، و يرفعونهم إلى المكان الأعلى، و ها هو القرآن يدين بعضهم صراحة، و انهم جادلوا النبي على رغم بيان الحق لهم و وضوحه عندهم لأن الوحي نزل به و أخبرهم عنه الرسول الأعظم (ص).

الجواب: ان هذا لا يحط من شأنهم، و لا يمس من إيمانهم باللّه و رسوله.

إنهم بشر تهتز نفوسهم إذا رأوا الموت برغم إيمانها و اطمئنانها، هذا إلى انها غمامة صيف عرضت، ثم تقشعت. و مضوا مع النبي، و واجهوا الموت بعزم و ثبات.

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إما الانتصار في الحرب على قريش، و لا عير، و إما العير، و لا انتصار **وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** غير ذات الشوكة هي العير و أموالها، و قد آثروها على القتال و الجهاد في سبيل اللّه، و لكن اللّه أراد الخير لهم و للإسلام بتحطيم الشرك و الطغيان

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٥

وَ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ. المراد بالحق هنا ظفر المسلمين بالمشركين، و المراد بكلماته وعده بأن تكون إحدى الطائفتين للمسلمين، و المعنى انكم أيها المسلمون أردتم الحطام الزائل، و أراد اللّه أن ينصركم على صناديد قريش أعداء اللّه و أعدائكم، و يهلكهم بأيديكم، و يستأصل الكافرين منهم، و يحقق وعده بالنصر لكم، فأيهما خير و أفضل: هذه العزة و الكرامة، أو الأباعر و حمولتها؟.

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ. المراد بالحق في الآية السابقة أي قوله تعالى: **أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ** انتصار المسلمين على قريش، و المراد بالحق هنا الإسلام، و المجرمون أعداؤه، و المراد بالباطل الشرك، و إحقاق الحق يكون بإظهاره و إعلانه على الملأ، أو بانتصار أهله، أو بهما معا، و إبطال الباطل يكون باعلانه، أو خذلان المبطلين، أو بهما معا، و أوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ- ٣٣ التوبة.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٩ الى ١٤]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَ ما جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ ما النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (١٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٣)

ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (١٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٦

اللغة:

مردفين من أردفه إذا ركب وراءه، و المراد ان للألف من الملائكة تبعا.

أو ان الألف يأتي بعضهم في أثر بعض. و الرجز الشيء المستقذر حسا أو معنى.

و الربط على القلب اطمئنانه. و فوق الأعناق الرؤوس. و البنان أطراف الأصابع من اليد أو الرجل. و شاقوا اللّه و رسوله خالفوهما.

الاعراب:

إذ تستغيثون إذ ظرف متعلق بمحذوف أي اذكروا إذ تستغيثون، و قيل بدل من إذ يعدكم. و مردفين حال من ألف. و الضمير في جعله يعود الى الامداد، و هو مصدر متصيد من **مُمِدُّكُمْ**. و بشرى مفعول لأجله. و لتطمئن منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك معطوف على بشرى لأن المعنى إلا للبشارة و للاطمئنان. و فاعل يغشيكم ضمير مستتر يعود الى اللّه، و الناس مفعول به ليغشيكم، و امنة مفعول لأجله. ذلك بأنهم شاقوا ذلك مبتدأ و بأنهم شاقوا خبر، و الكاف لخطاب السامع. و ذلكم خبر لمبتدأ محذوف أي أمر اللّه أو عذاب اللّه ذلكم، و الخطاب للمشاقين.

المعنى:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٧

لما تأكد المسلمون ان القتال واقع لا محالة مع عدو أقوى عدة، و أكثر عددا التجأوا الى اللّه يطلبون منه النجاة من هذه الشدة، و لما علم اللّه منهم صدق النية و العزم أنبأهم جل ثناؤه بلسان نبيه (ص) انه قد استجاب دعاءهم، و انه ينجدهم بألف ملك يأتي بعضهم إثر بعض. و تسأل: قال سبحانه هنا: ممدكم بألف مردفين، و في الآية ١٢٤ من آل عمران قال: يمدكم بثلاثة آلاف منزلين، و في الآية التي بعدها بلا فاصل قال: بخمسة آلاف مسوّمين. فما هو وجه الجمع بين الآيات الثلاث؟. و أجبنا عن هذا السؤال في ج ٢ ص ١٥٢.

وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. يقول جلت عظمته: ان الغرض من هذا الامداد ان تطمئنوا و تصبروا في قتال العدو، لا أن تتكلوا على الملائكة، بل عليكم أن تبذلوا كل جهد، و لا تبقوا منه بقية، أما النصر فلا يكون و لن يكون إلا بمشيئة اللّه، لا بجهودكم و لا بامداد الملائكة. و تقدمت هذه الآية في سورة آل عمران رقم ١٢٦ ج ٢ ص ١٥٢.

ثم ذكر سبحانه ستة وجوه لنعمته على المسلمين.

١- **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ.** في يغشيكم ضمير يعود الى اللّه، و كذلك ضمير منه .. خاف المسلمون من المشركين لكثرتهم، فعالج خوفهم بالنوم، و ما استيقظوا منه إلا و أنفسهم تغمرها السكينة، و كلنا يعلم بالتجربة ان النوم يخفف الكثير من وطأة الحزن و الخوف، قال الإمام علي (ع): ما انقض النوم لعزائم اليوم. أي قد يعزم المرء على أمر فإذا نام و قام انحلت عزيمته.

٢- **وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ.** بعد أن أخذ المسلمون قسطا من الراحة بالنوم وجدوا أنفسهم بحاجة الى الماء، لأنهم لم يكونوا قد وصلوا الى بدر آنذاك، فأنزل اللّه عليهم المطر فشربوا و تطهروا، و هذه نعمة ثانية تأتي

بعد النوم.

٣- وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطٰانِ. كان الشيطان يوسوس للمسلمين، و يخوفهم من المشركين، و قد أذهب اللّه هذا التخويف الذي عبر عنه برجز الشيطان، أذهبه بالنوم و الامداد بالملائكة.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٨

٤- وَ لِيَرْبِطَ عَلىٰ قُلُوبِكُمْ بزوال الخوف و الفزع.

٥- وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدٰامَ. قال أكثر المفسرين: ان ضمير به يعود الى الماء، و ان المراد بالأقدام الأرجل، و ذلك ان المسلمين كانوا في رملة لا تثبت فيها قدم، فلما نزل المطر تلبدت الرملة و تماسكت، و ثبتت عليها أقدام المسلمين.

هذا ما جاء في أكثر التفاسير، أما نحن فنختار ان ضمير به يعود إلى مصدر متصيد من ليربط قلوبكم، و ان المراد بتثبيت الأقدام الثبات في ميدان القتال، و عدم الفرار منه، و المعنى ان اللّه يثبتكم في القتال بما منحكم من ربط القلوب و اطمئنانها.

٦- إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلٰائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ. الخطاب في ربك لمحمد (ص) و في معكم و ثبتوا للملائكة عملا بظاهر السياق، أي ان اللّه مع الملائكة يسمع و يرى، تماما كقوله لموسى و هرون: إِنَّنِي مَعَكُمٰا أَسْمَعُ وَ أَرىٰ- ٤٦ طه.

و تسأل: على أي شكل شارك الملائكة في نصرة المسلمين يوم بدر؟ هل كانت بالضرب و القتل، أو بالتشجيع، و انهم كانوا يسيرون أمام الصف في صورة الرجال المقاتلين، و لا يقاتلون، و إنما يقولون للمسلمين: ابشروا فان اللّه ناصركم، كما قال بعض المفسرين.

الجواب: لقد أخبر سبحانه انه أمر الملائكة أن يثبتوا المؤمنين، و ليس من شك في انهم فعلوا، لأنهم يفعلون ما يؤمرون، و أيضا ليس من شك ان المشركين هابوا المسلمين و تخوفوا منهم، لأن اللّه وعد بذلك، و وعده الحق، و ان المؤمنين انتصروا على المشركين .. هذا كل ما دل عليه ظاهر النص، أما التفصيلات و الكيفيات فهي من الغيب الذي سكت الوحي عنه، فبالأولى أن نسكت نحن، و سكوت الوحي دليل قاطع على ان الإيمان بالتفصيلات ليس من العقيدة في شيء، و إلا وجب بيانها.

فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنٰاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنٰانٍ. قال بعض المفسرين:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٥٩

الخطاب في اضربوا للملائكة. و قال آخرون: بل للمسلمين. ثم اختلفوا في المراد من فوق الأعناق، فمن قائل: المراد الأعناق بالذات، و ان فوق بمعنى على، و من قائل: المراد الرؤوس، و من الطريف قول بعض الصوفية: ان المراد النفوس الخبيثة .. و الذي نختاره نحن ان الخطاب للمسلمين، لأنهم المقصودون بالقتال، و ان قوله: فوق الأعناق و كل بنان كناية عن حث المسلمين على الشدة في قتال المشركين، و ان لا تأخذهم بهم هوادة، و لا يدعوا فرصة تمر إلا ضربوهم في أي عضو من أعضائهم اتفق، فهذه الآية أشبه بقوله تعالى:

وَ لاٰ تَأْخُذْكُمْ بِهِمٰا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ- ٢ النور.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شٰاقُّوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشٰاقِقِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ.

ذلك اشارة إلى لزوم معاملة المشركين بالشدة، و بأنهم بيان للسبب الموجب لهذه الشدة، و هو وقوف المشركين من اللّه

و الرسول موقف المخالف و المعاند ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ذا اشارة الى العقاب الشديد و خطاب كم للذين شاقوا اللّه و الرسول وَ أَنَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابَ النّٰارِ الى جانب ما أصابهم في الدنيا من القتل و الأسر و الهزيمة، و ليست هذه بشيء بالقياس الى النار الكبرى.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ١٩]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاٰ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبٰارَ (١٥) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بٰاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ رَمىٰ وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاٰءً حَسَناً إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذٰلِكُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكٰافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦٠

اللغة:

الزحف الدنو قليلا قليلا. و الأدبار جمع دبر، و هو الخلف، و المراد به هنا الهزيمة. و قال صاحب البحر المحيط: المتحرف للقتال هو الذي يكر بعد أن يفر يري عدوه انه منهزم، ثم يعطف عليه. و متحيزا الى فئة منحازا الى جماعة من المسلمين. و المأوى الملجأ. و الموهن المضعف.

الإعراب:

زحفا حال من الذين كفروا أي زاحفين. و الأدبار مفعول ثان لتولوهم.

و متحرفا أو متحيزا حالان من الواو في تولوهم. ذلكم خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلكم. و تسبك ان اللّه موهن بمصدر خبرا لمبتدأ محذوف أي الأمر كون اللّه موهنا كيد الكافرين، و الجملة عطف على جملة الأمر ذلكم.

المعنى:

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاٰ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبٰارَ.

يقال: زحف العسكر إذا توجه للقتال، و سبق ان المشركين خرجوا من مكة لقتال المسلمين، و هذه الآية من تعاليم الحرب، و هي تأمر المسلمين أن يثبتوا لعدوهم، و لا يفروا منه إذا زحف لقتالهم، لأن الفرار وهن في الدين، و ذلّ للمسلمين.

وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بٰاءَ بِغَضَبٍ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦١

مِنَ اللّٰهِ وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. الا متحرفا لقتال أي تاركا موقفه إلى موقف أحكم و أصلح للقتال، أو متحيزا إلى فئة أي منحازا إلى جماعة أخرى من المسلمين تقاتل العدو لأنهم بحاجة اليه، أو هو بحاجة اليهم، و المعنى اثبتوا أيها المسلمون لعدوكم في المعركة، و لا تفروا منها الا أن تختاروا موقعا أحسن، أو تدبروا خطة أحكم بانضمام بعضكم إلى بعض، و ان من فر من العدو بلا مبرر فقد استحق غضب اللّه و مأواه جهنم.

و قد أفتى الفقهاء بتحريم الفرار من الزحف إلا إذا كان عدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين .. و في

رأينا ان الفقهاء لا يملكون هنا الفتوى بوجوب الثبات، و لا بجواز الفرار، و ان الأمر في ذلك يجب أن يترك لتقدير القائد الأمين الخبير، لأنه هو المسئول عن الحرب، و ليس الفقهاء، فيجب أن يترك له تقدير وجوب الثبات أو الفرار، فقد يرى الثبات مع زيادة عدد العدو ثلاثة أضعاف، و قد يرى لزوم الفرار و الانسحاب من المعركة مع زيادة عدد المسلمين أضعافا مضاعفة، لأن الثبات عملية انتحارية، و في جميع الحالات يجب الأخذ بقوله، لا بقول الفقهاء الدين يفتون، و هم على الوسائد متكئون .. هذا، إلى أن قول الفقهاء في الحروب قد ذهب بذهاب وقته الذي كانت تقاس فيه القوة بالكم لا بالكيف، و بعدد الجيش لا بمعداته الجهنمية الحديثة.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ. انتصر المسلمون ببدر على المشركين، فقتلوا منهم من قتلوا، و أسروا من أسروا، و سبب هذا الانتصار ثبات المسلمين و صبرهم في القتال، أما سبب هذا الثبات و الصبر فهو ما أشارت اليه الآيات السابقة من ان اللّه ربط على قلوب المسلمين، و ثبت أقدامهم، و أمدهم بالملائكة، و أزال الرعب من قلوبهم و ألقاه في قلوب المشركين .. و على هذا تصح نسبة قتل المشركين إلى المسلمين لأنه كان بأيديهم، و بسبب ثباتهم و صبرهم، و أيضا تصح نسبته إلى اللّه تعالى لأنه هو الذي مهد لهم لهذا الثبات و الصبر بالاضافة إلى انه سبب الأسباب .. و في رواية ان بعض المسلمين قال يوم بدر أنا قتلت فلانا.

و قال آخر: و أنا قتلت فلانا. فأنزل اللّه سبحانه: فلم تقتلوهم و لكن اللّه قتلهم.

وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اللهَ رَمىٰ. أجل، ان اللّه رمى، و لكنه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦٢

اختار لرميته كف محمد (ص) الذي فضله على جميع خلقه، و خصه برسالته التي عمت رحمتها جميع العالمين. و روي ان النبي أخذ يوم بدر قبضة من الحصى أو التراب، و رمى بها المشركين، و قال: شاهت الوجوه، فأعقب ذلك هزيمتهم.

و غير بعيد أن تكون هذه الرواية صحيحة، و أيضا غير بعيد أن يكون المراد بالرمية تدبير الأمر و أحكامه، و مهما يكن، فان مشيئة اللّه هي سبب الأسباب، بها وجد محمد (ص) و الحصى و الكون بما فيه، فان أي سبب مباشر أو غير مباشر لأية حادثة من الحوادث فإنها تنتهي إلى قوة عليا وجدت من غير موجد، و إلا كانت كلمة الوجود لفظا من غير معنى، تماما كما لو قلت: لا أحد يعطي المال، حتى يأخذه من غيره فان هذا تعبير ثان عن قولك: لا أحد يعطي المال على الإطلاق، لأنك نفيت الأصل الذي يعطي و لا يأخذ، و بانتفاء الأصل ينتفي الفرع.

وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلٰاءً حَسَناً. البلاء و الابتلاء يستعملان بمعنى الاختبار و يكون الاختبار بالنعمة لإظهار الشكر، و بالمحنة لإظهار الصبر، و أيضا يستعمل كل من البلاء و الابتلاء بالإعطاء، و هذا المعنى هو المراد بالبلاء في الآية، أما المراد بالحسن فهو النصر و الغنيمة، أي ان اللّه سبحانه أمر المسلمين بالثبات و الصبر و عدم الفرار من الزحف، و مهد لهم السبيل الى ذلك ليتم عليهم نعمته بالنصر و الغنيمة **إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**. فقد سمع استغاثة المسلمين و استجاب لهم لأنه علم منهم صدق النية و صحة العزم.

ذٰلِكُمْ وَ أَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكٰافِرِينَ. و لا نعمة أجل و أعظم من ضعف العدو، و إبطال كيده و حيله **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**. الخطاب في أن تستفتحوا و ان تنتهوا و ان تعودوا و في لكم و عنكم و فئتكم، كل أولاء للمشركين

بقرينة السياق و استقامة المعنى. و روي ان المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا اللّه، و قالوا:

اللهم انصر أعلى الجندين، و أكرم الفئتين. فأجابهم اللّه بقوله: ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الخ. أي إن تستنصروا للأعلى و الأهدى فقد استجاب اللّه و نصر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ۴۶۳

الأعلى و الأهدى، فان انتهيتم عن حرب المسلمين و مشاقة اللّه و الرسول فالانتهاء خير لكم و أبقى بعد أن ذقتم من القتل و الأسر و الهزيمة ما ذقتم، و ان عدتم إلى الحرب و المشاقة يحل بكم ثانية ما حل بكم أولا. أما الكثرة التي تعتزون بها فقد رأيتم انها لا تدفع عنكم القتل و الأسر و الهزيمة، فان اللّه هو الناصر، و هو مع المؤمنين، فان أردتم النصر حقا فدعوا الشرك، و آمنوا باللّه و رسوله.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ هُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

المعنى:

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ جاء هذا النداء منه تعالى للمؤمنين بعد قوله: وَ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ و الغرض من النداء و الأمر بطاعة اللّه و الرسول هو تحديد المؤمن الذي ينصره اللّه، و يكون معه أينما كان، و انه الذي يطيع اللّه و رسوله فيما يأمران به، و ينهيان عنه، و ان من خالف و عصى فقد استحق من اللّه العذاب و الخذلان **وَ لاٰ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**. التولي الاعراض، و ضمير عنه يعود الى الرسول، و مفعول تسمعون محذوف أي تسمعون كتاب اللّه و آياته.

وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ هُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ. يستعمل السماع كثيرا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ۴۶۴

في القبول، و منه: لا أسمع منك أي لا أقبل منك. و سماعون للكذب أي قابلون له، و هذا المعنى هو المراد بالسماع في الآية، أي ان اللّه سبحانه نهى المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين يظهرون القبول من النبي و الطاعة لأمره، و يضمرون المخالفة و العصيان.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ. الأصم لا يسمع، و الأبكم لا يتكلم، و الدواب لها آذان تسمع بها، و لكنها لا تفهم الكلام الذي تسمعه، و لها ألسنة و لكنها لا تنطق، فهي لا تفهم و لا تفهم، و من يسمع كلام اللّه و الرسول، ثم لا يهتدي به فمثله كمثل الدابة الصماء البكماء تسمع الكلام و لا تنتفع به.

طالب حق و طالب صيد:

وَ لَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ. الناس اثنان: الأول طالب حق، مجردا عن كل غاية .. و هذا لا يؤمن بمبدإ، و لا يرى رأيا إلا بعد البحث و إمعان النظر في الأدلة، ثم يبني آراءه عليها.

و الثاني طالب صيد لا يؤمن إلا بذاته و مصالحه، فيرحب بما يلائمها، و ان كان باطلا، و يرفض ما ينافيها، و ان كان حقا.

و اللّه سبحانه يسمع دعوة الحق لكل من الاثنين على السواء إلقاء للحجة، قال تعالى: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً و بعد البيان الذي تتم به الحجة على الجميع يزيد سبحانه من النصح و الإرشاد للذين يستجيبون له و ينتفعون به: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً- ١٧ محمد. أما الذين لا يستجيبون إلا لمنفعتهم الذاتية فان اللّه يعرض عنهم، ما دام النصح لا يجدي معهم شيئا.

و هذا هو المراد من قوله: **وَ لَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ** .. و يدل على ذلك قوله بلا فاصل: **وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ** أي لو أسمعهم الحق لأعرضوا عنه لأنه لا يلائم أهواءهم.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦٥

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

إذا في قوله تعالى: **إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ** ليست للشرط، و انما هي لبيان موضوع دعوة اللّه و الرسول، و تقريرها و حصرها بالدعوة إلى الحياة بأكمل معانيها.

و من أحاط بالإسلام علما يجد ان كل أصل من عقيدته، و كل فرع من شريعته يرتكز على الدعوة صراحة أو ضمنا الى العمل من أجل الحياة .. فالإيمان باللّه يستدعي الإيمان بالتحرر من العبودية إلا للّه وحده، و بأنه لا سلطان للمال و لا للجاه و لا للجنس و لا لشيء إلا للحق و العدل، و بديهة ان الحياة الطيبة القوية لا توجد، و محال ان توجد إلا مع الالتزام بهذا المبدأ و تطبيقه. أما الإيمان برسالة محمد (ص) فهو عين الإيمان بشريعة الإخاء و المساواة، و بحرية الإنسان و حمايته، و بكل مبدأ يعود على الانسانية بالخير الصلاح .. ذلك بأن رسالة محمد تهدف الى هدي البشر و إسعاده، و بث العدل بين أفراده، أما الإيمان باليوم الآخر فهو الإيمان بأن الإنسان لا يترك سدى، و انه مسؤول عن كل صغيرة و كبيرة من أعماله يحاسب عليها و يكافأ ان خيرا فخير، و ان شرا فشر .. و هذا الإيمان- كما ترى- أشبه بالقوة التنفيذية، أو بالحافز على العمل بما يوجبه الإيمان باللّه و الرسول.

هذا فيما يعود الى أصول العقيدة، أما الفروع، و أعني بها ما يجوز من الأفعال، و ما لا يجوز في الشريعة الاسلامية فإنها تقوم على مبدأ انساني أشار اليه الإمام جعفر الصادق (ع) بقوله: كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو جائز، و كل ما فيه فساد بجهة من الجهات فهو غير جائز .. هذه هي دعوة اللّه و الرسول التي نص عليها القرآن بصراحة و وضوح: **اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ**

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦٦

وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ. و إذا عطفنا على هذا النص الآية ٣٢ من آل عمران: قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ إذا عطفنا هذه الآية على تلك، و جمعنا بينهما تشكل معنا هذا القياس المنطقي: لقد دعا اللّه و الرسول إلى العمل من أجل الحياة، و حكم سبحانه بكفر من أعرض و تولى عن هذه الدعوة. فالنتيجة الحتمية ان الذي لا يعمل من أجل الحياة فهو كافر «١».

و بهذا يتبين معنا ان الإسلام يسير مع الحياة جنبا الى جنب، و ان كل ما هو بعيد عن الحياة فما هو من الإسلام في شيء،

و ان أي انسان- كائنا من كان- يدعو الى حياة لا استغلال فيها و لا ظلم و لا مشكلات فان دعوته هذه تلتقي مع دعوة اللّه و الرسول، سواء أراد ذلك، أم لم يرد، و ان من يقف في طريق الحياة و تقدمها فهو عدو للّه و للرسول، و ان قام الليل، و صام النهار ..

أما تلك الزمرة التي ظهرت في عصرنا، و باعت دينها للصهيونية و الاستعمار، و تسترت باسم الدين، اما هذه الزمرة العميلة فقد أشرنا اليها في ج ٢ ص ١٦٦ عند تفسير الآية ١٤٢ من سورة آل عمران.

وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. القلب محل الايمان و الكفر، و الإخلاص و النفاق، و الحب و البغض، و عنه تصدر الأعمال خيرها و شرها، و لو لا القلب لم يكن الإنسان إنسانا، و كفى به عظمة قوله تعالى: ما وسعتني أرضي و لا سمائي، و وسعني قلب عبدي المؤمن، و ما من شك ان الذي يتسع لما ضاقت عنه السموات و الأرضين فهو أعظم منها.

و تسأل، كيف اتسع هذا العضو الصغير لمن ضاقت عنه السموات و الأرضون، ثم لما ذا خص تعالى قلب المؤمن دون قلب الكافر؟.

الجواب: ليس المراد بالسعة في هذا الحديث القدسي السعة المكانية، لأن اللّه

---

(١). عند تفسير الآية ٤٧ من المائدة ذكرنا ان الكفر إذا أضيف الى العمل فالمراد به الفسق، و ان الفسق إذا أضيف الى العقيدة فالمراد به الكفر، و عليه يكون المراد بكفر تارك العمل من أجل الحياة الكفر العملي، لا الكفر العقائدي.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦٧

لا مكان له، و انما المراد بها سعة الإدراك و الفهم عن اللّه، و ان قلب المؤمن يفهم عنه تعالى ما لا تفهمه السموات و الأرض، و كذلك قلب الكافر لا يفهم عن اللّه شيئا، لأنه في كنّ من الضلال و الفساد: وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ- ٥ فصلت.

و بهذا يتضح ان المراد بالمرء الذي يحول اللّه بينه و بين قلبه هو الذي أعماه الهوى و الضلال، و عليه تكون هذه الآية بمعنى الآية ٧ من سورة البقرة:

خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ أي انهم لا ينتفعون بقلوبهم بسبب ما ران عليها من الضلال، حتى كأن اللّه قد ختم عليها أو حال بين أصحابها و بينها .. و على هذا تكون نسبة الختم و المنع اليه تعالى مجازا، لا حقيقة.

و ذهب جماعة من المفسرين الى ان معنى قوله تعالى: **يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ** ان القلب في قبضة اللّه يقلبه كيف يشاء، فيفسخ عزائمه، و يبدله بالذكر نسيانا، و بالنسيان ذكرا، و بالخوف أمنا، و بالأمن خوفا .. و كل من التفسيرين محتمل.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٥ الى ٢٩]

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٥) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

اللغة:

للفتنة معان، منها العذاب، و هو المراد من الفتنة في قوله تعالى: **وَ اتَّقُوا فِتْنَةً** بدليل قوله في نفس الآية: **أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**. أما الفتنة في قوله: **أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** فان المراد منها المحبة و الهوى الذي يصد عن الحق. و يجعل لكم فرقانا أي هداية و نورا تفرقون به بين الحق و الباطل.

الإعراب:

لا تصيبن نفي بمعنى النهي، و لهذا دخلت على الفعل نون التوكيد، و الجملة صفة للفتنة. و تخونوا أماناتكم عطفا على لا تخونوا اللّه و الرسول.

المعنى:

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ. هذا تحذير منه تعالى لكل مفتن يفسد في الأرض، بخاصة الذين يبثون الخلافات و النعرات الدينية، و يقلقون راحة الآمنين، و يعتدون على المستضعفين، هذا تحذير منه تعالى بأن شرور الفتنة و مفاسدها لا تقتصر على الظالمين، بل تعم المجتمع بكامله صالحه و طالحه .. و في تفسير الطبري نقلا عن السدي، و هو مفسر كبير، ان هذه الآية تنطبق على أصحاب الجمل الذين حاربوا علي بن أبي طالب و ذكر الرازي عند تفسير هذه الآية: ان الزبير كان يسامر رسول اللّه (ص) يوما إذ أقبل علي رضي اللّه عنه فضحك اليه الزبير، فقال له رسول اللّه:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٦٩

كيف حبك لعلي؟ فقال: يا رسول اللّه أحبه كحبي لولدي أو أشد. فقال له الرسول: كيف أنت إذا سرت اليه تقاتله؟.

و أيضا في تفسير الطبري: ان الزبير بن العوام قال: قرأنا هذه الآية زمانا، و ما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها.

وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. الخطاب لصحابة الرسول (ص) يذكرهم اللّه تعالى بما كانوا فيه قبل الإسلام من الضعف و الخوف، و المهانة و الفقر، و بما هم عليه بعد الإسلام من الأمن و المنعة، و الغنى و العز، لأنهم استجابوا لدعوة الحياة التي دعاهم اليها اللّه و رسوله، و الغرض من هذا التذكير أن يستمروا على الطاعة و الاستجابة لدعوة الحياة، ليعيشوا في ظلها أقوياء أعزاء .. و انهم متى أعرضوا و عصوا عادوا إلى ما كانوا فيه من الضعف و الهوان كما هي حال المسلمين اليوم، بخاصة العرب.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ. و ليست خيانة اللّه و الرسول بترك الصوم و الصلاة فقط، و إنما الخيانة العظمى هي خيانة الأمة و الوطن، هي أن يتولى الطغاة مركز القوة و القيادة، و يتحكموا بالبلاد و مقدراتها، و ان نصبر عليهم و على طغيانهم، و نسكت عن حربهم و جهادهم **وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ**. أي و لا تخونوا أماناتكم. و قال كثير من

المفسرين: ان هذا نهي عن خيانة الأمانة فيما بين الناس من المعاملات المالية .. و ليس من شك ان رد الأمانة واجب، و ان خيانتها حرام، و لكن من الخيانة، بل من أعظمها عدم التعاون مع المستضعفين لاسترداد حقوقهم من الأقوياء الظالمين **وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** و لا أحد أجرأ على اللّه ممن يقدم على معصيته عالما متعمدا.

وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ. جاءت هذه الآية بعد النهي عن الخيانة للتنبيه إلى أن المؤمن لا ينبغي له أن يمنعه المال و الولد عن القيام بواجبه تجاه اللّه و الأمة و الوطن، و المراد بالفتنة هنا المحبة التي تصد عن الحق و الخير.

و قد روي عن النبي (ص) انه قال: الولد ثمرة القلب، و انه مجبنة مبخلة محزنة، تماما كالمال، فانه ثمرة عرق الجبين و كد اليمين، و هو مجبنة لأن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧٠

صاحبه يجبن عن قول الحق و فعله خوفا عليه، كما يجبن خوفا على ولده، و هو مبخلة لأن مالكه يبخل به حرصا عليه كما يحرص على ابنه، و هو محزنة لأن جامعه يحزن إذا أصيب به كما يحزن إذا أصيب بثمرة فؤاده. و أحسن ما قرأت في هذا الباب قول أعرابي في ولده:

أحبه حب الشحيح ماله قد كان ذاق الفقر ثم ناله

إذا يريد بذله بدا له وَ أَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

و العاقل يرغب في هذا الأجر العظيم، و يسعى اليه بالجهاد و العمل الصالح، و لا يؤثر عليه مالا يفنى، و ولدا لا يبقى.

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقٰاناً. كثيرا ما يقع الإنسان فريسة للعاطفة، فتصور له الحسن قبيحا، و القبيح حسنا، و أكثر ما يكون ذلك فيما يتصل بماله و ولده، حيث تبلغ العاطفة ذروتها، و من أجل هذا أمر سبحانه بالتقوى بعد أن حذر من الافتتان بالأموال و الأولاد، أما الفرقان أي الهداية التي يمنحها اللّه للمتقين ليميزوا بها بين الحق و الباطل، أما هذه الهداية فهي نتيجة حتمية للتحرر من الأهواء و الأغراض، لأن الهوى يعمي و يصم ..

و نسب اللّه الهداية اليه لأنه هو الذي أقام عليها الدلائل، و من نظر اليها مجردا عن كل غاية إلا طلب الهداية إلى الحق فإنه بالغها لا محالة.

وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ. قال المفسرون:

المراد بتكفير السيئات سترها في الدنيا، و بالمغفرة الصفح عنها في الآخرة، قالوا هذا فرارا من التكرار .. أما نحن فلا نفر من التكرار في القرآن، و بينا وجهه في المجلد الأول و الثاني .. و المعنى المراد من مجموع الآية أن من يتقي اللّه يمنحه الهداية و الصفح و الثواب، و ما ذلك على اللّه بكثير، لأنه عظيم الأفضال، و عطاؤه سهل المنال يبلغه كل طالب و راغب في مرضاته تعالى.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧١

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٠ الى ٣٥]

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٣٠) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَ ما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَ ما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤)

وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)

اللغة:

إذا نسب المكر إلى الإنسان فمعناه الحيلة و الخداع، و إذا نسب الى اللّه فمعناه إبطال المكر. ليثبتوك أي يمنعوك من الحركة بالحبس أو شد الوثاق. و الأساطير جمع اسطورة أي سطرت في الكتب من غير تمحيص. المكاء التصفير بالفم. و التصدية التصفيق باليد.

الإعراب:

ان هذا ان نافية. هذا هو الحق هو ضمير فصل لا محل له من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧٢

الاعراب، و الحق خبر كان. و اللام في ليعذبهم تسمى لام الجحود لمجيئها بعد النفي، و الفعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك مجرور باللام متعلقا بمحذوف خبرا لكان، و التقدير ما كان اللّه مريدا لعذابهم. و ما لهم مبتدأ و خبر. و المصدر المنسبك من ان لا يعذبهم منصوب بنزع الخافض، و قدره الطبرسي و أبو البقاء في و الصحيح انه من و المعنى أي شيء يمنع من عذابهم و هم يصدون. و صلاتهم اسم كان، و مكاء خبرها.

المعنى:

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ. في الآية السابقة ٢٦ ذكّر اللّه سبحانه المسلمين بنعمه عليهم، و في هذه الآية ذكّر النبي (ص) بنعمه عليه، و ذلك ان المشركين من قريش أجمعوا على الخلاص من محمد (ص)، و اختلفوا في الوسيلة التي يتخلصون بها منه .. فمن قائل: نحبسه و نقيده، و قال آخر: بل نخرجه من مكة، ثم اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة رجلا على أن يقتحم الجميع عليه بيته، و هو نائم في فراشه، و يضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل كلها، و يعجز بنو هاشم عن قتال العرب .. قال المفسرون، و منهم الطبري و الرازي و أبو حيان الأندلسي: ان اللّه أوحى الى نبيه بذلك، و أمره أن يخرج الى المدينة، و أن يأمر علي بن أبي طالب بالمبيت في مضجعه، و بات علي في فراش الرسول، و اتشح ببردته، و لما بادر القوم إلى المضجع أبصروا عليا فبهتوا. و أوصى النبي (ص) عليا أن يرد ودائع للناس كانوا قد أودعوها عند رسول اللّه.

و قوله تعالى: **لِيُثْبِتُوكَ** يشير إلى من قال: احبسوه و قيدوه. و قوله:

أَوْ يُخْرِجُوكَ يومئ إلى من أشار بإخراجه. و قوله: **أَوْ يَقْتُلُوكَ** أراد به ما اتفقوا عليه من القتل.

وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ. أما مكر قريش فهو تآمرهم على قتل محمد (ص) بأسلوب يعجز الهاشميون عن الاقتصاص من قاتله. أما مكر اللّه فهو إبطال مكرهم و كيدهم بما دبر سبحانه من خروج النبي، و مبيت علي

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧٣

في فراشه. و تقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥٤ من آل عمران ج ٢ ص ٦٦.

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ. قالت قريش عن القرآن: انه أساطير، و انها لو شاءت لقالت مثله، قالت هذا، و هي تعلم علم اليقين ان القرآن من عند اللّه، لأنه تحداها و الناس أجمعين على أن يأتوا بسورة من مثله و يدعوا من يشاءون، و لما عجزت قريش لجأت الى الافتراءات و المناورات تخفي عجزها و ضلالها، شأنها في ذلك شأن كل من عجز عن مجابهة الحق بالحجة و المنطق.

وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ. قد تأخذ بعض الناس العزة بالإثم تعصبا لكبريائهم تماما كما يتعصبون لدينهم أو أشد، حتى انهم ليؤثرون القتل على الخضوع للخصم و ان كان محقا، و يستسلمون للهلاك و العذاب، و لا يتنازلون عن تعاليمهم و تقاليدهم و في التاريخ الكثير من هؤلاء، ذكر القرآن منهم فرعون و قوم نوح و غيرهم ..

و قالت قريش حين دعاها النبي (ص) إلى الإسلام: اللهم ان كان محمد محقا في دعواه فأمطر علينا حجارة من السماء. أي انهم يفضلون الهلاك رجما بالحجارة على أن يتبعوا محمدا، و ان كان نبيا مرسلا من اللّه.

فأجابهم اللّه سبحانه بأن العذاب أمامهم، و ان الباب اليه ما زال مفتوحا، و إنما أمهلهم بعض الوقت لسبب واحد أشار اليه بقوله: **وَ ما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ**. أي ان اللّه جل ثناؤه لا يعذب أهل مكة، و محمد بين أظهرهم إكراما له، و تعظيما لشأنه.

وَ ما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. أي و هم يؤمنون برسالة محمد (ص) بعد أن قال عز من قائل: انه لا يعذب قريشا ما دام محمد بينهم- قال:

و أيضا لا يعذبهم إذا آمنوا، سواء أ كان محمد بينهم، أم لم يكن، فقوله تعالى:

وَ ما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ بمعنى قوله: ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ- ١٤٦ النساء، و يدل على ارادة هذا المعنى قوله بلا فاصل:

وَ ما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ. و قوله مخاطبا قريشا: **فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧٤

و بكلمة بسيطة و واضحة ان معنى الآية انه تعالى لا يعذب قريشا إذا كان محمد بينهم، و أيضا لا يعذبهم إذا أسلموا، و عبّر عن الإسلام بالاستغفار لأنه من لوازمه. و بهذا يتضح انه لا حاجة إلى التأويلات التي ذكرها المفسرون بالإضافة إلى أنها تترك القارئ في ظلمات لا يهتدي الى شيء.

وَ ما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ. ما لهم استفهام يتضمن معنى النفي، أي لا شيء فيهم من دين أو خلق يمنع من عذابهم، فإنهم الى جانب شركهم يصدون المسلمين عن عبادة اللّه في بيته الحرام، فما كان المسلم، حتى النبي (ص) يوم كان بمكة يستطيع الصلاة في المسجد الحرام، دون أن يتحمل منهم الأذى و التنكيل، و قد اتفقوا على صد النبي و المسلمين بالقوة عن العمرة عام الحديبية **وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ** أي ان المشركين ليسوا أصحاب المسجد الحرام، و لا هم أولياء عليه، بل هم أعداء اللّه و أعداء بيته فيجب طردهم و منعهم عنه، لأنهم يدنسونه برجسهم و نجاستهم، و من أجل هذا حين قوي الإسلام منعهم من قربه: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ

الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هٰذا- ٢٨ التوبة.

إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ. أي لا يحق لأحد كائنا من كان أن يتولى المسجد الحرام إلا إذا كان برا تقيا إلى جانب إسلامه و إقراره بالشهادتين. فكيف المشرك و الجاحد؟ و موضوع الآية و ان كان خاصا بأولياء المسجد الحرام، و لكن التقوى شرط في كل من يتولى المساجد و المقامات الدينية، لأن السبب الموجب هو طهارة المكان و قداسته .. و الغريب ان أكثر الذين يتولون أمر هذه المقامات هم شرار الخلق الذين يتقنون فن الاحتيال و اللصوصية **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ان الولي على المساجد و العتبات المقدسة يجب أن يكون برا تقيا، انه لا ولاية لفاسق.

و تسأل: ان قوله تعالى: **وَ ما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ** يشعر بأن اللّه قد عذب قريشا، مع العلم بأنه لم يحل بهم ما حل بقوم الأنبياء السابقين كعاد و ثمود و قوم نوح و لوط و غيرهم؟.

الجواب: إن الذين آذوا النبي و المسلمين من قريش قتلهم اللّه يوم بدر بأيدي المسلمين أنفسهم .. و قد كان من جملة القتلى أبو جهل و عقبة بن أبي معيط

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧٥

و النضر بن الحارث و أمية بن خلف و غيرهم من صناديد قريش الذين كانوا يشتدون و يبالغون في أذى المسلمين. و نذكر من باب المثال أمية بن خلف، فقد كان يملك بلالا مؤذن الرسول (ص) و كان أمية يعذبه في الرمضاء، و يذيقه ألوان العذاب، و في يوم بدر خرج أمية مع المشركين، و خرج بلال مع رسول اللّه (ص) و ما أن رأى بلال أمية حتى صرخ: هذا رأس الكفر لا نجوت ان نجا، و اجتمع حول بلال بعض المستضعفين الذين. لاقوا الأذى من أمية بن خلف، و اندفع بلال يضرب أمية بالسيف حتى قتله، و حمل رأسه على سيفه، و هو يرقص طربا.

وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً. المكاء التصفير، و التصدية التصفيق، و كأنّ سائلا يسأل: إن قريشا كانوا يصلون في المسجد الحرام، فكيف استوجبوا العذاب؟ فأجاب سبحانه بأن صلاتهم كانت هرجا و مرجا لا خشوع فيها و لا خضوع، لأنها كانت صفيرا بالأفواه، و تصفيقا بالأيدي **فَذُوقُوا الْعَذابَ** الذي حل بكم يوم بدر، و عذاب الآخرة أشد **بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** و لو أسلمتم لسلمتم من عذاب الدنيا و الآخرة.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَ قاتِلُوهُمْ حَتّٰى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلىٰ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧٦

اللغة:

يركمه يضمه و يجعل بعضه فوق بعض. و المراد بالفتنة هنا الكفر.

الاعراب:

ليميز منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك مجرور باللام متعلقا بيحشرون. و يجعل و فيركمه عطف على ليميز. و بعضه بدل بعض من الخبيث.

و جميعا حال من الهاء في فيركمه. و نعم المولى و نعم النصير المخصوص بالمدح محذوف أي اللّه، و هو مبتدأ، و الجملة من الفعل و الفاعل خبر مقدم.

المعنى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ. كان المشركون ينفقون أموالهم في قتال المسلمين، و صد الناس عن الإسلام، فبيّن سبحانه في هذه الآية أن تلك الأموال ستعود عليهم بالحسرة و الخذلان في الدنيا، و العذاب الشديد في الآخرة، لأن النصر في النهاية لدين اللّه و أهله على الشرك و عبدة الأصنام.

لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ. هذا تعليل و بيان للسبب الموجب لحسرة المشركين و خذلانهم، و هو ان اللّه سبحانه عادل و حكيم، و من عدله ان لا يتساوى عنده الخبيث و الطيب، و المؤمن و الكافر، بل يميز كلا عن الآخر، و يعامله بما هو أهل له، و من أجل هذا يثيب الطيب، و يرفع من شأنه في الآخرة، و قد يجمع له بين ثواب الدارين، و يخذل الخبيث المجرم و يعاقبه في الآخرة دار الحساب و الجزاء، و قد يعجل له نوعا من العذاب في الدنيا حسبما تقتضيه حكمته.

وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ. المراد جنس الخبيث أي ما ينطبق عليه هذا الاسم بدليل قوله: **أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ** و المعنى ان اللّه سبحانه يجمع الخبثاء غدا بعضهم فوق بعض متراكمين متراكبين،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧٧

ثم يلقي بهم في نار جهنم، كما يفعل الحاطب يحزم الحطب في حبله، ثم يجعله وقودا للنار: وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً- ١٥ الجن. **أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ** و أي خسران أعظم من أن يكون المرء بلحمه و دمه وقودا لنار سجّرها جبارها لغضبه على من خان ربه و ضميره! اللهم إنا من عذابك خائفون، و بك لائذون، و أنت كريم لا تطرد من استجار بكرمك، و لاذ إلى رحمتك.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ. الخطاب للنبي (ص) يأمره اللّه به أن يعظ الكافرين، و يقول لهم: ان باب التوبة مفتوح أمامهم، و ان الفرصة سانحة للانتهاء عن الكفر و عداوة اللّه و الرسول، فإن تابوا تاب اللّه عليهم، لأن الإسلام يجبّ ما قبله، كما جاء في الحديث **وَ إِنْ يَعُودُوا** بعد التبين و التأمين الى عداوة اللّه و الرسول، و التجمع لحرب الإسلام و أهله، و انفاق الأموال للصد عن سبيل اللّه و رسوله **فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ** من أمثالهم الذين كذبوا الرسل و قاتلوهم، و المراد بسنة الأولين سنة اللّه فيمن مضى من هلاك الكافرين و نصر المرسلين عليهم: كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ- ٢١ المجادلة.

وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في ج ١ ص ٢٩٩ الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ. أي فان أعرض المشركون عن بيان الرسول و أمانه

فاصمدوا لهم أيها المسلمون و لا تخافوهم، فان اللّه ناصركم عليهم، و حافظكم منهم، و هو خير الحافظين و الناصرين.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٧٩

الجزء العاشر

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨١

[سورة الأنفال (٨): آية ٤١]

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ وَ الْيَتامىٰ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلىٰ عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَ اللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

اللغة:

الغنيمة لغة الفوز بالشيء، و شرعا ما يأخذه المسلمون بالقتال من أموال الكافرين، هذا عند السنة، أما الشيعة فمعنى الغنيمة عندهم أعم، و يأتي البيان.

و اختلفوا في معنى الفيء على قولين: الأول انه الغنيمة، و الثاني المال الذي يؤخذ بغير قتال، أما النفل بفتح الفاء فقد تقدم الكلام عنه في أول هذه السورة.

و المراد بذي القربى قرابة الرسول (ص). و اليتيم من الإنسان من مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم. و المسكين المحتاج. و ابن السبيل المسافر المنقطع في سفره.

الإعراب:

أنما غنمتم ان بفتح الهمزة تنصب الاسم و ترفع الخبر و ما اسم موصول بمعنى الذي اسم أن، و جملة غنمتم صلة، و العائد محذوف أي غنمتموه، و من شيء متعلق بمحذوف حالا من الضمير المحذوف أي قليلا أو كثيرا. و فأن بفتح الهمزة، و خمسه اسم أن، و للّه خبر، و المصدر المنسبك خبر لمبتدأ محذوف أي فالواجب كون الخمس للّه، و الجملة من المبتدأ و الخبر خبر أن الأولى، و المصدر المنسبك من انما غنمتم مفعول اعلموا.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨٢

المعنى:

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ وَ الْيَتامىٰ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ. بحث المفسرون في جهات عديدة عند الكلام عن هذه الآية، أما نحن فنقتصر على جهتين فقط أولا لأن ظاهر الآية يدل عليهما دون سائر الجهات. ثانيا ان الجهات الأخرى لا أثر لها من الناحية العملية. و الجهتان اللتان نتكلم عنهما هما تحديد معنى الغنيمة، و بيان المستحقين للخمس.

و قد اختلف السنة و الشيعة في المعنى المراد من الغنيمة في الآية، فقال السنة:

هي ما يغنمه المسلمون من الكفار بقتال. و على قولهم هذا تكون مسألة الخمس عبارة عن قضية لا واقع لها من الناحية العملية في هذه الأيام، تماما كمسألة العبيد و الإماء، إذ لا دولة إسلامية تجاهد الكفار و المشركين في هذا العصر.

و قال الشيعة: ان الغنيمة أعم مما يأخذه المسلمون من الكافرين بقتال، و انها تشمل المعدن كالنفط و الذهب و غيرهما، و أيضا تشمل الكنز المدفون تحت الأرض إذا لم يعرف له صاحب، و تشمل ما يخرجه الإنسان من البحر بالغوص كاللؤلؤ، و ما يفضل عن مؤنة الإنسان و عياله مما اكتسبه في سنته، و تشمل المال الذي فيه حلال و حرام، و لم يعلم شخص الحرام و لا مقداره و لا صاحبه، و تشمل الأرض التي يشتريها الذمي من المسلم، و التفصيل في كتب فقه الشيعة، و منها الجزء الثاني من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق .. و على قول الشيعة تكون مسألة الخمس مسألة لها واقع من الناحية العملية.

و كما اختلف الشيعة و السنة في معنى الغنيمة فقد اختلفوا في عدد أسهم الخمس و تقسيمها على مستحقيها، قال الشيعة: يقسّم الخمس إلى قسمين، و الأول منهما ثلاثة أسهم: سهم للّه، و سهم لرسوله، و سهم لذوي القربى، و ما كان للّه فهو للرسول، و ما كان للرسول فهو لقرابته، و ولي القرابة بعد النبي هو الإمام المعصوم القائم مقام النبي، فان وجد أعطي له، و إلا وجب إنفاقه في المصالح الدينية، و أهمها الدعوة الى الإسلام، و العمل على نشره و إعزازه.

أما القسم الثاني فهو ثلاثة أسهم: سهم لأيتام آل محمد (ص)، و سهم لمساكينهم،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨٣

و سهم لأبناء السبيل منهم خاصة، لا يشاركهم أحد في ذلك، لأن اللّه حرم عليهم الصدقات فعوضهم عنها بالخمس. و قال الطبري في تفسيره و أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: قال علي بن أبي طالب عليه السلام: اليتامى و المساكين أيتامنا و مساكيننا. و قال الطبري في تفسيره أيضا: ان علي بن الحسين رضي اللّه عنه قال لرجل من أهل الشام: أما قرأت في الأنفال و اعلموا انما غنمتم من شيء فان للّه خمسه و للرسول و قرأ الآية. قال الشامي: نعم، و انكم لأنتم؟. قال: نعم.

أما مذهب السنة فندع الكلام عنه الى عالمين كبيرين: أحدهما من القدماء، و هو الرازي، و الثاني من الجدد، و هو المراغي أحد شيوخ الأزهر و رؤسائه في زمانه، قال الرازي: القول المشهور ان ذلك الخمس خمسة أسهم: الأول لرسول اللّه، و الثاني لذوي قرباه من بني هاشم و بني المطلب، دون بني عبد شمس- أي الأمويين- و بني نوفل، و الثالث لليتامى، و الرابع للمساكين، و الخامس لابن السبيل .. هذا، في حياة رسول اللّه و أما بعد وفاته (ص) فعند الشافعي انه يقسم الخمس على خمسة أسهم: سهم لرسول اللّه، و يصرف الى ما كان يصرفه اليه من مصالح المسلمين، و سهم لذوي القربى من أغنيائهم و فقرائهم:

و الباقي لليتامى و المساكين و ابن السبيل. و قال أبو حنيفة: ان سهم رسول اللّه بعد وفاته يسقط بسبب موته، و كذلك سهم ذوي القربى، و إنما يعطون لفقرهم كغيرهم من الفقراء: و يقسم الخمس على اليتامى و المساكين و ابن السبيل. و قال مالك: الأمر في الخمس مفوض إلى رأي الإمام.

و قال الشيخ المراغي: روى البخاري عن مطعم بن جبير من بني نوفل انه مشى هو و عثمان بن عفان من بني عبد شمس إلى رسول اللّه (ص) و قالا له:

يا رسول اللّه أعطيت بني المطلب و تركتنا، و نحن و هم بمنزلة واحدة .. قال الرسول (ص): إنما بنو المطلب و بنو هاشم شيء واحد- و علق الشيخ المراغي على هذا الحديث الشريف بقوله-: و سر هذا ان قريشا لما كتبت الصحيفة و أخرجت بني هاشم من مكة، و حصرتهم في الشعب دخل معهم فيه بنو المطلب، و لم يدخل بنو عبد شمس، و لا بنو نوفل للعداوة التي كانت بين بني أمية بن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨٤

عبد شمس لبني هاشم في الجاهلية و الإسلام، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبي (ص) و يؤلب عليه المشركين و أهل الكتاب إلى أن أظفر اللّه رسوله، و دانت له العرب بفتح مكة، و كذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علي و قاتله.

و نعطف نحن على قول الشيخ المراغي و كذلك قتل يزيد حفيد أبي سفيان الحسين بن علي سبط الرسول الأعظم (ص)، و قال الشاعر في هذا العدوان الموروث أبا عن جد:

فابن حرب للمصطفى و ابن هند لعلي و للحسين يزيد

إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلىٰ عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَ اللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

. قال المفسرون: المراد بيوم الفرقان و اليوم الذي التقى فيه الجمعان هو يوم بدر، لأن اللّه فرّق فيه بين الكفر و الإيمان بإعلاء كلمة الإسلام على الشرك، و أيضا فيه التقى الجمعان: جمع المؤمنين، و جمع المشركين، و دارت دائرة السوء على هؤلاء .. و المعنى ان اللّه سبحانه لا يقبل الإيمان به و بكتابه و نبيه كنظرية مجردة عن العمل، و إنما يقبل الإيمان ممن يحكم و يعمل بما حكم اللّه، قال الرازي: إن قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ

يدل على انه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة كما حكم اللّه لم يحصل الإيمان.

و نعطف على قول الرازي و كذلك إذا لم يحصل الحكم في غير هذه القسمة كما حكم اللّه لم يحصل الإيمان به، لأن السبب الموجب للكفر واحد، و هو مخالفة حكم اللّه عمدا .. و بديهة ان هذا السبب لا يقبل التقييد و التخصيص في شيء دون شيء. و قدمنا أكثر من مرة ان المراد بالكفر في مثل ذلك هو الكفر العملي أي الفسق، لا الكفر العقائدي.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٤٣ الى ٤٤]

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوىٰ وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَ لٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨٥

اللغة:

العدوة بتثليث العين، أي يجوز فتحها و كسرها و ضمها، و هي جانب الوادي، و الدنيا مؤنث الأدنى و هو الأقرب، و

القصوى مؤنث الأقصى و هو الأبعد.

و البينة الحجة الظاهرة. و المراد بذات الصدور ما يختلج في القلوب.

الإعراب:

الدنيا و القصوى صفتان للعدوة. و الركب مبتدأ، و أسفل منصوب على الظرفية متعلقا بمحذوف خبرا للمبتدإ، لأنه بمعنى في مكان أسفل منكم. و ليقضي منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك متعلق بمحذوف أي فعل ذلك لقضائه أمرا. و المصدر المنسبك من ليهلك متعلق بيقضي.

المعنى:

تعرّض هذه الآيات بعض الأسباب التي مهدها اللّه لانتصار المسلمين على

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨٦

المشركين في وقعة بدر، من تلك الأسباب ان اللّه سبحانه ألهم المسلمين أن يرابطوا في أقرب الجانبين من الوادي الى المدينة، أما المشركون فقد نزلوا في الجانب الأبعد منه، و بين الجانبين ربوة تفصل بينهما، و يظهر من سياق الكلام ان الجانب الذي رابط فيه المسلمون كان موقعا حربيا يعينهم على أعدائهم، لأن اللّه سبحانه قد منّ عليهم به، و كان من تدبيره تعالى أن ينزل كل في موقعه، دون أن يعلم بموقع الآخر، إذ لو رأى المسلمون أعداءهم رأي العين لهابوهم، و يئسوا من الظفر بهم، و أيضا من تدبيره انه- جلت حكمته- قلل المشركين عند اللقاء في أعين المسلمين، كل ذلك ليظهر دينه على الدين كله و لو كره المشركون، و من الحكمة أيضا أن تسلم العير التي مال بها أبو سفيان الى ساحل البحر ليتم اللقاء بين جند الحق و جند الباطل، و لا ينصرف المسلمون الى العير عن النفير .. و بعد هذا التمهيد نشرع بتفسير الآيات:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى). الخطاب موجه من اللّه للمسلمين يذكّرهم به بالموقع الذي رابطوا فيه، و هو جانب الوادي الأقرب الى المدينة، و بالموقع الذي اتخذه المشركون، و هو الجانب الأبعد، و يذكّر أيضا بانحراف العير إلى ساحل البحر الذي أشار اليه بقوله: **(وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ)**.

و الغرض من هذا التذكير ان هذه الأشياء كانت لصالحهم، كما تبين فيما بعد.

(وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ). خرج المسلمون مع النبي (ص) من المدينة طلبا للعير و احمالها غير قاصدين القتال، كما قدمنا، و لكن اللّه سبحانه حوّل هذه الرحلة من طلب المال إلى الجهاد في سبيله، و كان في ذلك خير كثير، و لو خرج المسلمون منذ البداية إلى القتال متواعدين عليه مع المشركين، ثم علموا بكثرتهم، لو كان ذلك لعدل بعض المسلمين عن القتال خوفا و رهبة، و اختلفوا مع الذين يريدون القتال، و لما تمّ شيء من نصر أولياء اللّه على أعدائه.

(وَ لكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً). أي و لكن اللّه دبر هذا اللقاء على غير ميعاد ليقع ما أراد من إعزاز الدين، و إذلال المشركين **(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)** المراد بمن هلك من كفر، و بمن حي من آمن، و المعنى ان اللّه نصر أولياءه، و قهر أعداءه يوم بدر ليكون ذلك

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨٧

حجة قاطعة على من يكفر، و حجة ظاهرة لمن يؤمن.

و تسأل: إن ظاهر الآية يدل على ان من صارع الحق يصرع و يغلب، مع ان المبطل كثيرا ما يتغلب على المحق، كما

نشاهد و نرى؟.

الجواب: ان اللّه سبحانه قد وعد المسلمين بالنصر على لسان نبيه- قبل المعركة- مع قلتهم و ضعفهم عدة و عددا، و ذلك حيث يقول في الآية ٧:

«وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ» و قد وفى لهم بالوعد، و تحققت المعجزة بذلك لمحمد (ص) الذي أخبرهم بالنصر حين كانت جميع الدلائل تشير إلى العكس .. هذا، إلى جانب إمدادهم بالملائكة كما في الآية ٩، و إلى رمية النبي (ص) المشركين بقبضة من التراب أو الحصى كما في الآية ١٧، كل هذه و غيرها كانت معجزات باهرات ظهرت على يد محمد يوم بدر، و هي المراد بالبينة و الحجة على من كفر، و الحجة لمن آمن، و ليس المراد مجرد النصر ..

و بكلمة ان المقصود بالبينة في الآية الإخبار بالنصر قبل وقوعه مع ما تم من المقدمات و خوارق العادات، و ليس المراد النصر بالذات (وَ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) لا يخفى عليه شيء من الأقوال و الأفعال و ما يختلج في الصدور.

(إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ). هذه معجزة أخرى لرسول اللّه (ص)، و هي ان اللّه سبحانه أراه في المنام ان المشركين أقلاء عددا ضعفاء عدة، و أخبر النبي الصحابة بما رأى، فاستبشروا و تشجعوا، و لو أراه اللّه الأعداء أقوياء لوهنت عزيمة المسلمين، و ضعفوا عن القتال، و اختلفوا فيه، و لأعقب ذلك الفشل و ذهاب الريح **(وَ لكِنَّ اللهَ سَلَّمَ)** من هذه المشكلة، و لطف بعباده المؤمنين **(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ)**.

أي ان اللّه يعلم ان قلوب المسلمين تشعر بالخوف من القتال إذا أيقنت بكثرة العدو، فأبعد اللّه هذا الشعور عن قلوبهم بما أراه للرسول الأعظم في منامه من قلة العدو و ضعفه.

وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ليشد من عزمكم أيها المسلمون، و تقاتلوا أعداءكم بجرأة و ثبات **وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ** كي لا يبالغوا في الاستعداد لقتالكم و الحذر منكم .. و هكذا كان، حتى قال أبو جهل: إنما أصحاب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨٨

محمد أكلة جزور و كانت عاقبة هذا الاستخفاف و الغرور الوبال و الخذلان، و قد أثبتت الأحداث ان أقوى سلاح بيد العدو هو الاستخفاف به، و عدم الاستعداد له.

لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً. قال المفسرون: انما كرر هذه الجملة لأن التعليل بها في الآية الأولى كان للجمع بين المسلمين و المشركين في القتال من غير ميعاد، أما التعليل بها في هذه الآية فقد جاء لتقليل كل فريق في عين صاحبه .. و ذكرنا فيما سبق ان التكرار في القرآن أسلوب من أساليب الدعاية الناجحة **وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**. انها تصدر منه، و اليه تنتهي، و هو يدبرها بعدله و حكمته.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٤٥ الى ٤٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ وَ اللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ (٤٩)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٨٩

اللغة:

و تذهب ريحكم أي قوتكم و هيبتكم. و البطر الطغيان في النعمة و صرفها إلى غير وجهها. و الرئاء الرياء. و جار لكم ناصر لكم. و تراءت الفئتان التقتا و رأت كل منهما الأخرى. و نكص رجع القهقرى. و فتفشلوا منصوب بأن مضمرة على معنى جواب النهي. و بطرا مفعول لأجله، و يجوز أن يكون في موضع الحال.

عوامل النصر:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

و المراد بالفئة الفئة الباغية التي تسعى في الأرض فسادا، و قوله لعلكم تفلحون أي تظفرون بها و تنتصرون عليها. و ذكر سبحانه في هذه الآية عاملين للنصر على الفئة الطاغية الباغية، العامل الأول الثبات، و اليه أشار بقوله: **فَاثْبُتُوا.**

العامل الثاني الإخلاص، و أشار اليه بقوله **وَ اذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً** فليس المراد بذكر اللّه في الحرب مجرد التهليل و التكبير، و إنما المراد أن يكون القتال و الصمود فيه خالصين لوجه اللّه تعالى، بمعنى أن لا تثار الحرب بحال إلا من أجل إحقاق الحق، و إبطال الباطل، من أجل الحفاظ على سلامة العباد و أمنهم، و الضرب على أيدي الآثمين الذين يسعون في الأرض فسادا بالسلب و النهب، و يثيرون الفتن و الحروب ليتحكموا بالبلاد و أرزاق العباد.

وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ. ذكر سبحانه في الآية السابقة عاملين للنصر: الثبات و الإخلاص و ذكر في هذه الآية ثلاثة عوامل: التقوى بطاعة اللّه و الرسول، و تجنب الاختلاف و الصبر، و لكن الصبر هو الثبات فقوله تعالى، **وَ اصْبِرُوا** في هذه الآية تعبير ثان عن قوله: **فَاثْبُتُوا** في الآية السابقة، كما ان طاعة اللّه و رسوله هي الإخلاص للّه، أما الاختلاف فمنه حسن و قبيح، و التفصيل فيما يلي، و الذي نستخلصه من الآيتين معا ان عوامل النصر الحقيقية ثلاثة:

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٠

١- الصبر و الثبات، و هو توطين النفس على التضحية بكل عزيز لنصرة الحق على الباطل، و كما ينتصر الحق بمحق الباطل و زواله ينتصر أيضا بالكشف عن الباطل، و إظهاره للناس على حقيقته. و الصبر ضروري لبلوغ أية غاية من الغايات، فما من تلميذ أو أستاذ أو مخترع أو فنان، أو تاجر، أو أي كان ينال شيئا من النجاح إلا بالصبر و الثبات، و على مقدار صموده لتحمل المشاق و الآلام يكون فوزه و نجاحه، و بهذا نجد السر في قوله تعالى: **إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.** و قوله: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ. و قوله: وَ لا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ.

و قوله: وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. إلى غير ذلك .. و قد جربت الصبر طالبا و مؤلفا فما وجدت أحلى منه مغبة، و لا أجدى عاقبة. و تقدم الكلام عن الصبر في فقرة مستقلة ج ١ ص ٢٤٠.

٢- الإخلاص، و هو ان يقصد العامل بعمله وجه اللّه، فيثق به لا بسواه و يؤمن إيمانا قاطعا بأن ما عند اللّه خير و أبقى من الجاه و المال و البنين، فلا يؤثر شيئا من هذه على طاعة اللّه و مرضاته .. و قد يبلغ المرء ما يبتغيه من أهداف شيطانية، و لكن هذا لا يعد نصرا إلا إذا اعتبرنا الباطل فضيلة، و اللصوصية غنيمة، و الفساد تقوى و صلاحا.

٣- تجنب نوع من الاختلاف، لأن الاختلاف قد يكون في الآراء و و جهات النظر، مع الإخلاص و التجرد للحق، و هذا لا يتنافى مع طاعة اللّه و الرسول، و لا يمنع من الاتفاق على الهدف كجهاد المفسدين و محاربتهم، و كثيرا ما يكون وسيلة للتمحيص و جلاء الحقيقة.

و قد يكون سبب الاختلاف الأهواء و حب الذات، و التكالب على الدنيا و حطامها، و هذا هو المقصود بقوله تعالى: **وَ لاٰ تَنٰازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ** و الأمثلة على إضرار التنافس في المكاسب و الأرباح لا يبلغها الإحصاء، و بين دفتي التاريخ منها المئات، و لسنا بحاجة الى التاريخ البعيد، لنستخرج منه الأمثلة، فإن تاريخنا الحاضر مع إسرائيل كاف و مغن عن جميع الأمثلة .. فبالأمس القريب قرأت عن الكاتب الأمريكي سالزبرجر انه كتب مقالا لجريدة الهيرالد تربيون قال فيه ما نصه بالحرف: واشنطن توازن الخلل العددي بين العرب و إسرائيل،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩١

و تؤكد أنه و ان بدا في غير مصلحة إسرائيل إلا أنها توازن دائما بينه و بين الانقسام المستمر بين الدول العربية لأن هذا الانقسام يجعل تفوق العرب العددي مجرد أرقام لا قيمة لها. و قبل هذا الكاتب أعلن المسئولون في إسرائيل أكثر من مرة أنهم ربحوا حرب ٥ حزيران لمساندة الولايات المتحدة، و اختلاف كلمة العرب، و أي شيء أحب إلى إسرائيل من أن يحمل العرب السلاح على بعضهم البعض من ان يشهروه في وجهها، و لذا لعب الاستعمار و الصهيونية دورا أساسيا في اذكاء الصراع العربي، و قد وجد، و للأسف، من يستجيب لهما، بل و يتكلم بلغتهما أيضا .. و على أية حال، فان الثورة تواصل الزحف و لا بد أن تصل و تنتصر على الاستعمار و عملائه آجلا أو عاجلا.

وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ بَطَراً وَ رِئٰاءَ النّٰاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. بعد أن أمر سبحانه المسلمين بثلاثة، و هم يخرجون الى الحرب: الثبات و الإخلاص و الاتفاق نهاهم عن ثلاثة: البطر، و الرياء و الصد عن سبيل اللّه، و نسب هذه الأوصاف إلى كفار قريش لأنهم خرجوا إلى بدر لحرب النبي (ص) بطرين مرائين صادين المسلمين عن سبيل اللّه قال المفسرون: قاد أبو جهل قريشا لحرب النبي في بدر، و في طريقه أتاه ابن الحقاف الكناني بهدية من أبيه، و قال لأبي جهل: يقول لك أبي: ان شئت أمدك بالرجال، و ان شئت زحفت معك. فقال أبو جهل: ان كنا نقاتل اللّه كما يزعم محمد فو اللّه مالنا باللّه من طاقة، و ان كنا نقاتل الناس فو اللّه ان بنا على الناس لقوة، و لا نرجع عن قتال محمد، حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور، و تعزف علينا القيان .. و تسمع العرب بذلك.

و يتجلى البطر في أوسع معانيه بقول أبي جهل: و ان بنا على الناس لقوة.

أما الرياء فيتجسم بقوله: و تسمع الناس و من أجل هذا نميل الى قول من قال: ان هذه الآية نزلت في أبي جهل، أما عاقبة هذا البطر و الرياء فقتل من قتل، و فيهم أبو جهل، و أسر من أسر، و هزيمة الباقين.

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ وَ قٰالَ لاٰ غٰالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النّٰاسِ وَ إِنِّي جٰارٌ لَكُمْ فَلَمّٰا تَرٰاءَتِ الْفِئَتٰانِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيْهِ وَ قٰالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرىٰ مٰا لاٰ تَرَوْنَ

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٢

إِنِّي أَخٰافُ اللّٰهَ وَ اللّٰهُ شَدِيدُ الْعِقٰابِ. هذه الآية تقول بصراحة: ان هناك شيئا اسمه الشيطان شجع قريشا على حرب النبي في بدر، و ضمن لهم النصر، و انه لما أيقن بسوء مصيرهم خذلهم و تبرأ منهم .. و قدمنا أكثر من مرة أننا نؤمن بكل ما

دل عليه الوحي، و لا يأباه العقل، و أننا ندع التفاصيل للغيب، و لا شيء في حكم العقل يمنع من وجود شيء يرى أو لا يرى يوسوس للناس بالباطل و يغريهم به .. و قد أمر اللّه سبحانه نبيه الكريم أن يتعوذ من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس جنّا كان أو أنسا.

إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ. وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

المنافقون هم الذين يظهرون الإسلام، و يبطنون الكفر، أما قوله و الذين في قلوبهم مرض فيشمل المنافقين و الكافرين و الفاسقين، و عليه يكون عطف مرضى القلوب على المنافقين من باب عطف العام على الخاص.

و قد حكى اللّه في هذه الآية عن مرضى القلوب انهم دهشوا حين رأوا إقدام القلة المسلمة على حرب الكثرة الكافرة، و لم يفهموا تفسيرا لهذا الإقدام الا تهور المسلمين و غرورهم بعقيدتهم، أما الثقة باللّه، و التوكل عليه، و فوز الشهيد بالجنة فكلام بلا معنى في مفهومهم، لأن كل شيء عندهم صفقة تجارية، حتى الدين.

هل الفدائيون مخربون؟

في هذا الظرف الذي تتألب فيه قوى الشر، و تتآمر على العرب و المسلمين، و يطرد فيه الشعب الفلسطيني من دياره، و يلقى به في العراء نساء و شيوخا و أطفالا، في هذا الوقت الذي يقض فيه الفدائيون مضجع إسرائيل، و يقلقون راحتها، و يعبّرون عن إرادة كل حر، و رغبة كل مخلص في تحرير الأرض المحتلة، في هذا الأوان بالذات يقف معمّم على حدود إسرائيل، و في قرية من قرى الجنوب، يقف هذا المعمم، و ينادي في الجموع من مكبر الصوت: الفدائيون مخربون .. تماما كما يقول دايان و أشكول و ايبان.

الفدائيون مخربون يا محترم، و أنت و إسرائيل مصلحون؟ و لما ذا الفدائيون

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٣

مخربون؟ أ لأنهم متمسكون بحقهم، و في سبيله يقتلون و يقتلون، أو لأنهم غيروا و بدلوا اسم اللاجئين باسم الفدائيين؟ و هل أنت في قولك هذا مطيع للّه و رسوله، و مجاهد مناضل تؤدي واجبا دينيا و وطنيا؟.

و أي دين من الأديان يحرم التضحيات من أجل دفاع الإنسان عن وطنه و إرادة الحياة فيه حرا كريما، و إن عظم الثمن؟.

أنا أعرف منطقك أيها المعمم، انك تقول: إن إسرائيل تجيب عن عمل الفدائيين بالانتقام من الأبرياء، و نحن نسألك بدورنا: أين كان الفدائيون في ٢٩ آب سنة ١٨٩٧ حين عقد الصهاينة مؤتمرا عاما بسويسرا و قرروا فيه طرد العرب من فلسطين و إحلال اليهود محلهم؟ هل كان هذا القرار و التصميم نتيجة لضربات الفدائيين آنذاك؟ ثم ما قولك في مجزرة دير ياسين، و المذابح التي قام بها اليهود للسكان الآمنين قبل أن تدخل الجيوش فلسطين؟.

يجب أن تعرف أيها المعمم أنت و كل عربي ان فلسطين لا تشبع أطماع إسرائيل و معها الأردن و لبنان و سوريا و العراق، انها تهدف لاذلال العرب جميعا، و إخضاعهم للصهيونية و الاستعمار سياسيا و اقتصاديا، انها تطمع في نفط الكويت و قطر و أبي ظبي و السعودية، و في السوق العربية الاستهلاكية، و في أيدي العرب العاملة الرخيصة.

و قد وضعت لأطماعها هذه التصاميم و رسمت لها المخططات بالتآمر مع دول الاستعمار .. و العمل الفدائي هو الذي أفسد على إسرائيل هذه المخططات، و تلك التصاميم، و حملها على الاعتقاد بأن دون أحلامها وجود إسرائيل بالذات.

فخير ألف مرة أن نتحمل الألم الذي يفرضه عمل الفدائيين من أن تحقق إسرائيل أطماعها التي لا يحدها شيء، حتى النيل و الفرات .. هذا، إلى أن المرحلة التي نحن فيها تحتم علينا أن نواجه العدو بمقاومة الفدائيين كخطوة أولى، و أن نتحمل

كل عبء بسببها دفعا لما هو أشد و أعظم.

و بعد، فما قولك أيها المعمم في السرايا و البعوث التي كان يرسلها محمد (ص) لتقطع الطريق على أعدائه المشركين، و تنهب أموالهم، و تقتل و تأسر رجالهم، و تسلبهم الراحة و الأمن في ديارهم، و كان يقود بعضها بنفسه، كما فعل حين

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٤

غزا يهود بني قريظة بعد أن نكثوا عهده، و انضموا لحربه مع أبي سفيان عدو اللّه و رسوله في حرب الأحزاب، فلقد أمر النبي (ص) جيشه الذي كان يقوده بنفسه أن يحرق زرع اليهود و يقطع أشجارهم، و يهدم مساكنهم، فهل كان النبي في عمله مصلحا أو مخربا؟.

و قد تواتر قوله: من مات دون عقال من ماله مات شهيدا .. فكيف بمن مات في مقاومة إسرائيل عدوة اللّه و الوطن و الانسانية جمعاء؟.

قال تعالى: إِنَّ اللهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرٰاةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بٰايَعْتُمْ بِهِ وَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ- ١١٢ التوبة.

و لا عامل اليوم بهذه الآية في الأمة العربية إلا الفدائيون، و فداؤهم هو حجر الأساس لثورة الشعب العربي بأسره.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٠ الى ٥٤]

وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلٰائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقٰابِ (٥٢) ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كٰانُوا ظٰالِمِينَ (٥٤)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٥

اللغة:

أدبارهم أي ظهورهم. و الدأب العادة.

الإعراب:

جملة ذوقوا عذاب الحريق مفعول لقول محذوف أي و يقول الملائكة للكفار ذوقوا. و بظلام الباء زائدة، و ظلام خبر ليس، و المصدر المنسبك من ان اللّه ليس بظلام للعبيد مجرور بالباء المحذوفة أي بأن اللّه ليس بظلام. كدأب آل فرعون الكاف بمعنى مثل في موضع رفع خبرا لمبتدأ محذوف أي دأبهم مثل دأب آل فرعون. و المصدر المنسبك من ان اللّه سميع عليم مجرور بحرف جر محذوف متعلقا بمحذوف أي و ذلك كائن بأن اللّه سميع عليم.

المعنى:

وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلٰائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ. و لو ترى خطاب لكل من يرى، لأن القصد منه العظة و الاعتبار، و المراد بالذين كفروا كل كافر أخذا بظاهر اللفظ من حيث هو، و

قيل: المراد بهم خصوص كفار قريش الذين حاربوا النبي (ص) ببدر عملا بقرينة السياق لأن الحديث ما زال عن وقعة بدر، و ضرب الوجوه و الأقفية كناية عما يقاسيه الكفار من العذاب عند الموت، و يجوز أن يكون الضرب على حقيقته و ان لم يشاهد بالحس، و أيا كان الأمر فان الكافر يخزى عند الموت و بعده، و لا تهمنا الصورة و الكيفية.

ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ. كيف، و هو ينهى عنه، و يعاقب عليه؟. و قال السنة: ان العقل يجيز على اللّه تعالى أن يعاقب الطائع، و يثيب العاصي، و أيضا يجيز العقل على اللّه تعالى أن يخلف وعده المواقف ٨ المقصد الخامس و السادس من المرصد الثاني في المعاد. و المذاهب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٦

الاسلامية لأبي زهرة فصل بعنوان منهاجه و آراؤه رقم ١٠٤.

و قال الشيعة: العقل لا يجيز على اللّه أن يعاقب المطيع، و يجيز عليه أن يتفضل على العاصي، لأن العادل لا يعاقب من أطاع، و الكريم الحليم يسمح عمن أساء.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقٰابِ. أي ان ما أصاب المشركين يوم بدر من القتل و الأسر لأنهم كذبوا محمدا (ص) ان ما أصاب هؤلاء يشبه ما أصاب المشركين السابقين من الهلاك، لأنهم كذبوا أنبياءهم، كآل فرعون و من كان قبلهم.

ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. الظاهر من النعمة هنا الرزق، و من تغييرها سلبه و إزالته ..

و هنا سؤال يفرض نفسه، و هو ان ظاهر الآية يدل على ان القوم الذين أنعم اللّه عليهم بالرزق فانه يبقيه عليهم ما داموا مطيعين، فإذا عصوا سلبهم إياه، مع ان الذي نراه من عصاة كثيرين انهم كلما ازدادوا عصيانا ازدادوا ثراء، أو لا يتغير عليهم شيء.

الجواب: ان الآية لم تصرح بلفظ المعصية و لا بلفظ الكفر، و كل ما دلت عليه ان اللّه لا يزيل النعمة عن أهلها إلا إذا غيروا ما بأنفسهم، و لكنه جل ثناؤه لم يبين نوع التغيير، و مثلها الآية ١١ من سورة الرعد: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ. و آل فرعون الذين مثل اللّه بهم في الآية السابقة كانوا مشركين من قبل و من بعد، أجل انهم ازدادوا طغيانا بعد أن جاءهم موسى (ع) بالبينات، و على هذا يتعين حمل الآية التي نحن بصددها على معنى ان اللّه لا يهلك قوما في الدنيا إلا إذا أرسل اليهم رسولا و دعاهم الى اللّه مشافهة وجها لوجه، فأعرضوا عن دعوته كآل فرعون، و من سبقهم من قوم نوح و لوط و غيرهم، و إذا لم يرسل اللّه اليهم رسولا كذلك فانه يؤخر عقابهم الى يوم الحساب و الجزاء .. أما آية الرعد فإن لنا رأيا في تفسيرها نبينه في حينه ان شاء اللّه.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ. مر نظيره في سورة آل عمران الآية ١١ ج ٢ ص ١٧.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٧

وَ كُلٌّ كٰانُوا ظٰالِمِينَ. أي كل من آل فرعون الذين كذبوا موسى (ع)، و كفار قريش الذين كذبوا محمدا (ص) ظلموا أنفسهم بالكفر، و ظلموا الناس بالصد عن سبيل اللّه.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٦٣]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لاٰ يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَ إِمَّا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ إِنَّ اللهَ لاٰ يُحِبُّ الْخٰائِنِينَ (٥٨) وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ يُعْجِزُونَ (٥٩)
وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ (٦٠) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مٰا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٨

اللغة:

أصل الدابة لكل ما دب على وجه الأرض، ثم غلب استعماله في ذوات الأربع، و الثقف الظفر. و التشريد الإبعاد. و النبذ الطرح. و رباط الخيل حبسها و اقتناؤها. و جنحوا مالوا. و السلم بفتح السين و كسرها ضد الحرب، و يشمل الصلح و المهادنة، و يذكّر و يؤنث.

الإعراب:

الذين عاهدتم منهم بدل بعض من الذين كفروا. و اما تثقفنهم و اما تخافن اما ركبة من كلمتين ان الشرطية و ما الزائدة، و دخلت نون التوكيد على الفعل لوجود ما، و مفعول انبذ محذوف أي عهدهم، و لا يعجزون أي و لا يعجزونني. و جملة ترهبون به حال من الواو في اعدوا. و حسبك مصدر بمعنى اسم الفاعل أي كافيك، و هو مبتدأ و اسم الجلالة خبر، و يجوز أن يكون فاعلا سادا مسد الخبر، مثل أ قائم زيد.

المعنى:

تتضمن هذه الآيات قواعد و أحكاما في السلم و الحرب نشرحها فيما يلي حسب ترتيب الآيات:

١- **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لاٰ يَتَّقُونَ**. يقول سبحانه: إن جماعة من الذين كفروا و لا يرجى إيمانهم قد عاهدوا النبي (ص) على المسالمة و حسن الجوار، و لكنهم أضمروا الغدر و نقضوا العهد أكثر من مرة، و لم يتقوا ما يترتب على ذلك من العذاب و الوبال .. و قد وصف اللّه هؤلاء بأنهم شر من دب و يدب على وجه الأرض، و قال جماعة من المفسرين: انهم يهود بني قريظة عاهدوا الرسول، ثم نكثوا عهده، و أعانوا عليه مشركي مكة يوم بدر، و لما

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٤٩٩

انتصر النبي (ص) على المشركين اعتذر اليه اليهود فقبل عذرهم و صفح عنهم، ثم عاهدوه ثانية و نكثوا يوم الخندق .. و لا غرابة أن يخون اليهود و يغدروا، و إنما يستكثر منهم الصدق و الوفاء.

٢- **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**.

الخطاب للنبي (ص) بيّن اللّه فيه حكم هؤلاء الكفرة الغدرة، و انه ان ظفر بهم فليقس عليهم، حتى يتعظ بهم غيرهم ممن تراوده نفسه بالخيانة و الغدر. و بهذا يتضح ان المراد بمن خلفهم غيرهم.

٣- وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ. المراد بالخوف هنا العلم، و على سواء أي تكون أنت و هم سواء في العلم بنقض العهد، و المعنى إذا كان بينك يا محمد و بين قوم عهد، و علمت يقينا انهم خائنون بظهور أمارات قاطعة على انهم يضمرون الغدر و الاغتيال، و يتخذون من العهد ستارا يدبرون من ورائه المكر السيء، إذا كان كذلك فألق اليهم عهدهم، و أعلمهم انك قد نقضته، بحيث تكون أنت و هم في العلم بالنقض سواء، و لا تبدأهم بقتال قبل أن تعلمهم بذلك كي لا تنسب إلى الغدر و الخيانة إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ.

و بكلمة: ان الإسلام يوجب الوفاء بالعهد لأهل الوفاء، أما الذين يتخذون من العهد وسيلة للغدر و الاغتيال فان الإسلام يأمر بنقضه لأنه كيد لا عهد: وَ أَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ- ٥٢ يوسف. قال الإمام علي (ع): الوفاء لأهل الغدر غدر، و الغدر بأهل الغدر وفاء.

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ. معنى سبقوا أفلتوا، و لا يعجزون أي لا يعجزونني، و المراد من مجموع الآية لا يحسبن أحدا ان اللّه يفوته مطلوب.

٤- وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ. الآيات السابقة تعرضت لابرام العهد مع الغير، و الحكم فيمن ينقضه، و في هذه الآية أمر اللّه سبحانه المسلمين باعداد القوة و استكمال العدة للأعداء، و المراد بالقوة كل ما يتقوى به على العدو رمحا كان، أو صاروخا، أو أي شيء .. و خص سبحانه

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٠

الخيل بالذكر، لأنها كانت من أعظم مظاهر القوة آنذاك، و روي عن النبي (ص) انه تلا هذه الآية، و قال: الا ان القوة الرمي، الا ان القوة الرمي، الا ان القوة الرمي كررها ثلاثا، و القصد بيان أهمية الرمي و تأثيره في الحروب و قد أثبت تاريخها صحة هذه النظرية التي نطق بها الرسول (ص) منذ أكثر من ألف و ثلاثمائة سنة، حيث لا قاذفات قنابل و لا صواريخ موجهة، و قد اتجهت عباقرة العقول في كل عصر الى تقوية الرمي و تطويره من السهم إلى الرصاص، و منه الى القنابل، و منها الى الصواريخ و القذائف الذرية و الهيدروجينية .. و قد استعمل المسلمون مع الرسول الرمي بالمنجنيق في غزوة خيبر.

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ.

قسّم سبحانه أعداء المسلمين إلى نوعين: نوع ظاهر العداء يعرفهم المسلمون بذلك، و نوع غير ظاهر يجهل المسلمون عداوتهم، و اليهم الاشارة بقوله:

وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ و هم كل من يتمنى للمسلمين الفشل و الخذلان خوفا على سلطانه و استغلاله، و منهم الدول المجاورة كالفرس و الروم الذين تغلب المسلمون عليهم حين قويت شوكة الإسلام.

القوة الرادعة و القوة المعتدية:

و نقف قليلا عند قوله تعالى: تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ لأنه ينطوي على مبدأ يحفظ المجتمع الانساني من الفوضى، و يردع الطغاة الأقوياء من التلاعب بحياة الناس و استغلالهم .. و هذا المبدأ هو وجود قوة في قبضة أهل الحق و العدل يردعون بها أهل الظلم و الباطل، و يخضعونهم لحكم اللّه و شريعته التي تدعو الناس جميعا أن يعيشوا طبقا لقوانين الحياة و سننها، و لا ينحرف عنها أحد، فإذا ما راودته نفسه بالميل و الانحراف أرغمته القوة على الرجوع الى تلك السنن و القوانين.

و لو ان أرباب العقول و المتخصصين بحثوا عن السبب لمشكلات الحياة و ويلاتها لوجدوه في ضعف القوة الرادعة عن العدوان، و استفحال القوة المعتدية. و يكفي مثالا على ذلك القوة التي تملكها الولايات المتحدة، و تستغلها في السلب و النهب، دون رادع و زاجر إلا نضال الشعوب العزلاء.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠١

يقول نيكولاس سبيكمان في كتابه الاستراتيجية الامريكية في السياسية العالمية، يقول: مسموح لنا نحن الامريكيين بكل أشكال الجبر و القسر بما فيها حروب الدمار ان نملي ارادتنا و نفرضها بالقوة على الذين لا قوة لهم. و أيضا يقول ليو ويلتش الأمريكي: و أجبنا أن تحقق زعامتنا الايجابية بالقوة على العالم سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا، و لا ينبغي أن يكون ذلك إلى أجل مسمى، انه واجب أبدي لا يجوز التفريط فيه.

و لا سر لهذا التعاظم من أعداء اللّه، و الجهر بالعدوان على عياله و عباده من غير مبالاة إلا عدم الخوف و الرهبة من القوة الرادعة التي تجعل كلمة اللّه هي العليا و كلمة الباطل هي السفلى.

و نفذ القادة في الولايات المتحدة ما جاء في كتاب الاستراتيجية الامريكية، و اعتبروه انجيلهم المقدس دون كتاب اللّه، و مارسوا جميع أشكال الجبر و القسوة بما فيها حروب الدمار ليفرضوا ارادتهم على الذين لا قوة لهم، فألقوا بالقذائف المحرقة على الأطفال و العجائز و الحوامل، و بالقنابل الكيماوية على المحاصيل و وسائل الرزق و الحياة من نبات و حيوان لتموت جوعا البقية الباقية من قنابل النابالم و غيرها من القذائف .. و لهذه الغاية أقامت الولايات المتحدة على أرضها العديد من قلاع الموت، أنشأت فيها المعامل و المختبرات لاكتشاف أشد المكروبات فتكا بالإنسان و الحيوان و النبات، و لاختراع الغازات التي تذهب العقل، و تنهك الأعصاب.

فأي عجب بعد هذا إذا أنشأت الولايات المتحدة على أرض فلسطين قلعة الموت و الفناء، و ترسانة التخريب و التدمير، و أطلقت عليها اسم دولة إسرائيل؟.

أجل، لا عجب في شيء من ذلك، و إنما العجب أن تعترف الدول بما فيها الدول الصغيرة الضعيفة- ان تعترف بهذه القلعة و الترسانة التي قامت و أسست على عداء الانسانية جمعاء، و ان يكون لها من يمثلها و يدافع عنها و يبرر أعمالها في الأمم المتحدة .. و برغم هذا و فوق هذا فنحن لا نيأس أبدا من انتصار الحق، و خذلان الباطل في يوم من الأيام، فهذه أصوات الاحتجاج ضد الطغاة المعتدين ترتفع في كل مكان، حتى في الولايات المتحدة، و هذا الشعب الفيتنامي الباسل قد أودى بهيبة الامريكيين، و قتل من جيوشهم عشرات الألوف، و أرغمهم أن

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٢

يحرقوا من أموالهم البلايين.

٥- **وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ.**

هذا ترغيب في انفاق المال الذي لا بد منه لإعداد القوة الرادعة. و تقدم الكلام عن ذلك في ج ١ ص ٣٠١ عند تفسير الآية ١٩٦ من سورة البقرة، و ج ٢ ص ١٠٧ عند تفسير الآية ٩٢ من آل عمران.

٦- **وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.** السلم عام يشمل ترك الحرب بالهدنة و الصلح، و بدفع الجزية، و الدخول بالإسلام، و قوله تعالى لنبيّه: **فَاجْنَحْ لَهٰا** هو أمر حتم بمسالمة كل من يسالم كائنا من كان إلا إذا دلت الدلائل القطعية على أن سلمه مكر و تمهيد للوثبة و الاغتيال على غرة.

و ينبغي أن نفهم ان المراد بالسلم في الآية سلم الجميع من قاتل و من لم يقاتل، و ليس سلم الأطراف المتنازعة فحسب، كالتعايش السلمي بين الاتحاد السوفياتي و الولايات المتحدة الذي تسللت هذه من خلفه لتدبير المؤامرات و الانقلابات لصالحها في الدول المحايدة، و ضرب الحريات في آسيا و افريقيا و أمريكا اللاتينية لتزيد من أرباح شركاتها الاحتكارية على حساب دم الشعوب و خبزها و مستقبلها.

و تسأل: قال سبحانه في هذه الآية: **وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا.**

و قال في الآية ٣٥ من سورة محمد: فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَ اللهُ مَعَكُمْ. فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟.

الجواب: لا منافاة بينهما، فالأولى تأمر المسلمين أن يسالموا من يسالم، و الثانية تشد من عزائمهم، و تقوي فيهم الروح المعنوية، و تنهاهم عن الانهيار و الفرار من العدو، و يؤيد ذلك قوله تعالى: فَلاٰ تَهِنُوا. و قوله: وَ اللهُ مَعَكُمْ. فهذه الآية، و هي فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم تماما كالآية ١٠٣ من سورة النساء: وَ لاٰ تَهِنُوا فِي ابْتِغٰاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمٰا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللهِ مٰا لاٰ يَرْجُونَ.

٧- **وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ.** ضمير الخطاب موجه للنبي (ص)، و ضمير الغائب في يريدوا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٣

و يخدعوا عائد إلى الذين جنحوا للسلم، و المعنى ان كان هؤلاء يبيتون لك يا محمد الخيانة و الغدر من وراء جنوحهم للسلم فلا تخش غدرهم، فأنت في أمان من اللّه و هو كافيك شرهم، و قد أيدك من قبل بنصره و بالمؤمنين.

و تسأل: لقد مر قريبا عند تفسير قوله تعالى: **وَ إِمَّا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ** مرّ ان اللّه أمر نبيه أن ينقض عهدهم إذا خاف منهم الغدر و الخديعة، و في هذه الآية أمره بالاستجابة لهم إذا طلبوا السلم، حتى و لو كانوا مريدين الخيانة في الواقع، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟.

الجواب: أمره اللّه هناك بنقض العهد مع اعلامهم بالنقض إذا كان على يقين من غدرهم بما ظهر له من الامارات القطعية، و أمره هنا بمسالمتهم و ان أرادوا الغدر في الواقع إذا لم تقم الدلائل القطعية على غدرهم، و إنما احتمل ذلك، و في مثل هذه الحال يأخذ النبي بالظاهر و يعاملهم بحسبه، فان الظاهر للناس، و الباطن للّه.

وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مٰا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

ليس من شك ان اللّه سبحانه هو الذي ألف بين قلوب الصحابة بعد أن كانت عصية على التأليف بخاصة بين الأوس و الخزرج الذين امتدت الحروب بينهما ١٢٠ سنة .. و أيضا ليس من شك ان اللّه سبحانه يجري الأمور على سننها، و المسببات على أسبابها، و سبب التأليف بين قلوب أصحاب محمد (ص) هو الإسلام و إيمانهم به نظريا و عمليا، و الإسلام من عند اللّه، فصحت النسبة اليه تعالى.

و قلنا عند تفسير الآية ٢ من هذه السورة ان الدين لا ينبت قمحا، و لكنه ينبت سبا و إخلاصا .. و نظير هذه الآية التي نحن بصددها الآية ١٠٣ من سورة آل عمران، و تجد تفسيرها مفصلا في ج ٢ ص ١٢٢.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٤ الى ٦٦]

يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتٰالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ

صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَ اللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٤

اللغة:

حسبك كافيك. و التحريض الحث. و التخفيف رفع المشقة. و الضعف بكسر الضاد من المضاعفة أي زيادة الشيء مثله في المقدار، و بفتحها ضد القوة المادية و المعنوية، و كذلك بضم الضاد، و قيل الضم يختص بضعف العقل.

الإعراب:

حسبك اللّه مبتدأ و خبر، و مر في الآية ٦٢. و من اتبعك من في محل رفع عطفا على اسم الجلالة. و ان يكن منكم عشرون منكم خبر مقدم ليكن، و عشرون اسمها.

المعنى:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. قيل: معناه يكفيك اللّه يا محمد، و أيضا هو يكفي المؤمنين الذين اتبعوك، و على هذا التفسير يكون محل من النصب عطفا على الكاف في حسبك، أما نحن فنميل الى قول من قال: ان من محلها الرفع عطفا على اسم الجلالة و يكون المعنى يكفيك

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٥

يا محمد اللّه و المؤمنون برسالتك، و دليلنا على ذلك قوله تعالى في الآية السابقة ٦٢:

فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ فإنها صريحة بأن اللّه و المؤمنين نصروا محمدا، فكذلك: **حَسْبُكَ اللهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**. و مهما يكن، فان القصد أن يطمئن النبي و يعلم بأن معركته مع الكافرين مضمونة على كل حال، لأن القوة التي تسانده لا غالب لها.

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ. يقول جل ثناؤه لنبيه: شجع يا محمد أصحابك على القتال، و أخبرهم بأنهم كفء لأعداء اللّه و أعدائهم، حتى و لو زاد عددهم عشرة أضعاف ذلك بأن المؤمنين يفقهون أمر اللّه، و يعتقدون باليوم الآخر، و ان السعادة تنال بالجهاد و الاستشهاد، فيقدمون عليه بنية صادقة، و عزم قوي، أما الكافرون فإنهم لا يفقهون أمر اللّه، و لا يعتقدون بالمعاد، و لهذا يحجمون شحّا بحياتهم و حرصا عليها من الفناء و الحرمان.

الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَ اللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. أطال المفسرون و الفقهاء الكلام حول هذه الآية، فمنهم من قال: إنها ناسخة للآية المتقدمة التي فرضت على المسلم أن لا يفر من عشرة، و قال آخر، شق على المسلمين أن يقابل الواحد منهم عشرة، فجاء التخفيف بقوله: **الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ** الخ، و أفتى الفقهاء استنادا الى هذه الآية بتحريم الفرار من الزحف إلا إذا كان عدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين .. و بينا عند تفسير الآية ١٥ من هذه السورة ان الفقهاء لا يملكون الفتوى بذلك، و ان الأمر فيه يترك لتقدير قائد الجيش الخبير الأمين وحده.

و من أجل هذا نرجح ان الآيتين هذه و التي قبلها لم تردا لبيان حكم الفرار من الزحف بوجه عام، و إنما هما خاصتان بالنبي و أصحابه فقط، و لا تتجاوزان إلى غيرهم، و اللّه أعلم بمراده.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٦

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٧١]

مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيٰا وَ اللّٰهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لاٰ كِتٰابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللّٰهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمّٰا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيٰانَتَكَ فَقَدْ خٰانُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

اللغة:

أسرى جمع أسير، و الأسر الشد على المحارب و أخذه. و الإثخان الشدة، يقال: أثخنه إذا اشتد عليه. و العرض ما يعرض و لا يدوم. و مسّكم أصابكم.

الاعراب:

لو لا كتاب كتاب مبتدأ، و سبق صفة له، و الخبر محذوف، أي لو لا كتاب كائن. و حلالا حال من الموصول في مما غنمتم، أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي كلوا أكلا حلالا.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٧

المعنى:

مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ. اتفق المفسرون على ان هذه الآية نزلت في أسرى بدر، و ظاهر السياق يدل على ذلك، و اختلفوا في تفسيرها على أقوال، و لإيضاح المراد منها نورده بصيغة السؤال و الجواب:

إذا قامت الحرب بين المسلمين و عبدة الأوثان، و أمكن اللّه المسلم المقاتل من كافر ينازله فهل يجب على المسلم قتل هذا الكافر، أو يجوز له أسره، و إذا أسره بناء على جواز الأسر فهل يخير النبيّ بين قتل الأسير، و بين أن يطلقه بفدية أو بدونها؟.

و لا بد في الجواب من التفصيل بين حالين: الأولى أن تقع المعركة بعد أن يعظم شأن الدين في الأرض، و تتم القوة له و لأهله بحيث لا يضرهم كيد العدو و مكره لمكان القوة الرادعة، و في مثل هذه الحال يخير المسلم المقاتل بين القتل و الأسر، فإذا أسر كان الخيار للنبي بين قتل الأسير و إطلاقه بفداء أو غير فداء، قال تعالى: فَإِذٰا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقٰابِ حَتّٰى إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثٰاقَ فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا فِدٰاءً- ٤ محمد. و السر في ذلك واضح، و هو وجود القوة الرادعة.

الحال الثانية أن تقع المعركة قبل أن يتمكن الدين في الأرض، و تتم له القوة و الغلبة، فإذا نمكن المسلم المقاتل في مثل هذه الحال من الكافر المحارب فعليه أن يقتله و لا يأسره، و السر إلقاء الرعب في قلب كل من يحاول إعلان الحرب على المؤمنين، و يدل على هذا قوله تعالى: **مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ** أي لا أسر من

الكفار، حتى تتم للدين القوة الرادعة التي يذل بها أهل الكفر و الطغيان.

تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيٰا هذا الخطاب موجه بصفة خاصة لمن أسر أسيرا من المشركين بقصد الغنيمة و أخذ الفدية غير مكترث بما يترتب على حياته من الفساد في الأرض **وَ اللّٰهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** يريد لعباده ثواب الآخرة لأنه خير و أبقى من

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٨

عرض الدنيا **وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** يهب العزة للمؤمنين و إن لم يكن لهم أسرى، و هو حكيم في تدبيره و أمره و نهيه.

لَوْ لٰا كِتٰابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ. لقد سبق في قضاء اللّه أن ينصر دينه و نبيه بالفئة القليلة التي حاربت معه ببدر، و ان ينكل بالكثرة الكافرين قتلا و أسرا و نهبا بأيدي المؤمنين، و لو لا قضاؤه هذا لعذّب المؤمنين الذين أسروا أعداء اللّه طمعا بالفدية، لأنه تعالى يريد أن يكون الجهاد و العمل خالصا لوجهه الكريم، و في الحديث: من كانت هجرته إلى اللّه و رسوله فهجرته إلى اللّه و رسوله، و من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر اليه و تجدر الإشارة إلى انه تعالى لم يبين نوع العذاب الذي كان سيوقعه بالآسرين من الصحابة لو لا قضاؤه السابق: هل هو العذاب الدنيوي أو الأخروي.

و تسأل: إذا كان الأسر محرما قبل أن يظهر اللّه دينه على الدين كله فكيف أجاز رسول اللّه (ص) للصحابة أن يأسروا يوم بدر، و يقبل هو الفدية من الأسرى قبل النصر الشامل الكامل؟ فان المفروض ان معركة بدر كانت الأولى، و أعقبتها معارك استمرت إلى عام الفتح و النصر.

و حار المفسرون و غيرهم في الجواب عن هذا السؤال أو الاشكال، و تضاربت فيه أقوالهم، و استسلم بعضهم قائلا: إن النبي غير معصوم عن الخطأ، حاشا اللّه و رسوله الذي لا ينطق عن الهوى .. و الذي نرجحه ان اللّه سبحانه قد استثنى من تحريم الأسر كل من أطلقه النبي (ص) من أسرى بدر، و قد أسلم الكثير منهم و حسن فيه بلاؤهم، بل كان فيهم من أخرج كرها إلى حرب المسلمين، قال ابن الأثير في المجلد الثاني من تاريخه بعنوان ذكر غزوة بدر الكبرى:

قال رسول اللّه (ص) لأصحابه يومئذ: قد عرفت رجالا من بني هاشم و غيرهم أخرجوا كرها، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله .. و كان في الأسرى سهيل بن عمرو، فقال عمر بن الخطاب: دعني اقتله يا رسول اللّه، فلا يقوم عليك خطيبا، فقال النبي (ص) دعه، فسيقوم مقاما تحمده عليه ..

و من جملة أسرى بدر أبو العاص بن الربيع زوج بنت رسول اللّه (ص)، و بعثت

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥٠٩

زينب بفداء زوجها، و فيه قلادة كانت لأمها خديجة، فلما رآها رسول اللّه (ص) رقّ رقة شديدة، و قال للمسلمين: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، و تردوا عليها الذي لها فافعلوا، فأطلقوا الأسير، وردوا القلادة .. و قد أسلم أبو العاص بعد ذلك.

و قتل النبي (ص) من الأسرى من لا يؤمن شره، و لا يرجى خيره، و لم يقبل الفدية منه، قال ابن الأثير: و كان في الأسرى النضر بن الحارث، و عقبة ابن أبي معيط، فأمر النبي بقتلهما، فقال عقبة: أليس لي اسوة بهؤلاء الأسرى؟ فلم يلتفت الرسول إلى قوله، لأنه يعلم بخبثه و غدره، و ان حياته شر و فساد في الأرض .. فإطلاق النبي لبعض الأسرى، و قتله البعض الآخر يشعر بوجود مصلحة للإسلام و المسلمين في إطلاق من أطلق منهم، و قد ظهرت هذه المصلحة فيما بعد كما أشرنا .. و من أجل هذا صح استثناء أسرى بدر من حكم التحريم.

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. الخطاب موجه لمن حارب مع النبي (ص) ببدر، و يتضمن الاذن بالأكل مما غنموه في معركة بدر فدية كان أو سلبا، و هذا دليل على ان الأسر من المشركين في معركة بدر جائز، لأن إباحة أحد العوضين تستدعي إباحة العوض الآخر، و في الحديث:

إذا حرم اللّه شيئا حرم ثمنه.

يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بعد أن أخذ النبي (ص) الفدية من الأسرى أمره أن يقول لهم: ان آمنتم باللّه يعوض عليكم خيرا من الفدية دنيا و آخرة، و قال المفسرون: ان قوما من الأسرى أظهروا الإسلام، فأمر اللّه نبيه أن يقول لهم: ان كان ما قلتموه حقا فان اللّه يعلمه و يعوض عليكم خيرا مما أخذ منكم، و يغفر لكم، و ان كان نفاقا فقد كفرتم و مكرتم من قبل، و أمكن اللّه نبيه منكم.

ثم ذكر المفسرون، و منهم الرازي و الطبرسي ان النبي (ص) قال لعمه العباس،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥١٠

أفد نفسك و ابني أخيك عقيلا و نوفلا «١». فقال العباس: كنت مسلما فأكرهوني على الخروج، فقال له النبي: ان يكن ما تقول حقا فاللّه يجزيك. قال العباس:

ليس معي شيء. قال النبي: أين الذهب الذي سلمته لزوجتك أم الفضل، و قلت لها: ان حدث بي حدث فهو لك و لأولادك؟. قال العباس: من أخبرك بهذا؟. قال: اللّه تعالى أخبرني. قال العباس: أشهد أنك رسول اللّه، و اللّه ما علم بهذا أحد إلا اللّه .. و قال العباس بعد ذلك: صدق اللّه و رسوله لقد عوضني اللّه عما افتديت أضعافا كثيرة.

وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيٰانَتَكَ فَقَدْ خٰانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

الضمير في يريدوا عائد الى الأسرى الذين أطلقهم النبي (ص)، و المعنى لا تخف يا محمد من خيانة من سرحت و أطلقت من الأسرى، و ما ذا عسى أن يفعلوا إذا أرادوا الغدر و الخيانة؟. فليس بعد الشرك و إعلان الحرب شيء، و قد حاربوك من قبل فسلطك اللّه عليهم: وَ مَنْ عٰادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَ اللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ- ٩٦ المائدة.

و هذا دليل آخر على أن اللّه أباح الأسر للمسلمين في وقعة بدر.

و الخلاصة ان اللّه أوجب قتل أهل الشرك في حربهم مع أهل الايمان إذا وقعت قبل أن يعظم شأن الدين إلا في معركة بدر فإن اللّه سبحانه قد أباح فيها للمسلم المقاتل الأسر لمصلحة الإسلام و المسلمين.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٧٢ الى ٧٥]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهٰاجِرُوا مٰا لَكُمْ مِنْ وَلاٰيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّٰى يُهٰاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاّٰ عَلىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ وَ اللهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ إِلاّٰ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسٰادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولٰئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتٰابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

(١). أسلم عقيل بن أبي طالب قيل وقعة بدر، و أخرجه المشركون لحرب ابن عمه محمد (ص) كرها، فاستأسر هو لابن أمه علي (ع).

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥١١

اللغة:

الهجرة فراق الوطن. و آواه أسكنه منزله. و المراد بالولاية النصرة في قوله:

بعضهم أولياء بعض. و الميراث في قوله: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض.

الإعراب:

من شيء من زائدة و شيء مبتدأ و مالكم خبر، و الجملة خبر الذين آمنوا و لم يهاجروا. فعليكم النصر مبتدأ و خبر، و يجوز نصب النصر على معنى الزموا النصر، مثل عليك زيدا. و الهاء في تفعلوه عائد الى النصر.

المعنى:

قسمت هذه الآيات المؤمنين إلى أقسام، و تعرضت للولاية فيما بينهم بسبب

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥١٢

الإيمان و الهجرة، و أشارت إلى ولاية الكافرين، و ميراث أولي الأرحام، و التفصيل فيما يلي:

١- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ.**

و هم المهاجرون الأولون، و قد وصفهم جل و عز بالإيمان، و هجرة الأوطان، و الجهاد بالنفس و المال في سبيل اللّه و بهذه التضحية لا بمجرد الايمان أثنى عليهم القرآن، و تحدث كثيرا عن استجابتهم للّه و رسوله.

و تسأل: المفروض ان المهاجرين دخلوا المدينة، و لا شيء معهم من المال، و من أجل هذا آواهم الأنصار في مساكنهم، و آثروهم في المأكل و الملبس على أنفسهم، و إلى ذلك أشار تعالى بقوله: **وَ الَّذِينَ آوَوْا** فمن أين جاءهم المال الذي جاهدوا به في سبيل اللّه؟.

الجواب: أولا ان أغنياء المهاجرين كانوا ينفقون على فقراء المسلمين قبل الهجرة. ثانيا انهم هاجروا من ديارهم تاركين مساكنهم و مزارعهم نهبا للمشركين رغبة في مرضاة اللّه .. و لا شيء أعظم من تضحية الإنسان بمسكنه و أرضه، و بكل ما جمعه لحياته و حياة أولاده.

٢- **وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ.** و هؤلاء هم الأنصار، و نعتهم سبحانه بأنهم آووا النبي و من هاجر معه في مساكنهم، و آثروهم على أنفسهم و أولادهم، و بأنهم سالموا من سالمهم، و عادوا من عاداهم، و لهذا شرفهم اللّه بهذا الوصف، حتى أصبح اسم الأنصار علما عليهم مدى الدهر.

و قوله: **أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ** إشارة إلى المهاجرين و الأنصار معا، و ان كلا منهم يتولى من أمر صاحبه ما يتولى من نفسه نصرة و دفاعا .. و في الحديث: مثل المؤمنين في تراحمهم و توادهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى و السهر.

و قارن بعض المفسرين بين المهاجرين و الأنصار، و فضّل أولئك على هؤلاء، أما نحن فنميل إلى انهم عند اللّه سواء، و تشعر بذلك الآية التي نحن بصددها، و الآية ١٢ من الواقعة: وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فان المراد بالسابقين

المهاجرون و الأنصار، أولئك سبقوا إلى الإيمان و الهجرة، و هؤلاء سبقوا

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥١٣

إلى الإيواء و النصرة، فكان كل فريق من السابقين الأولين، و قد وصفهم سبحانه بذلك في الآية ١٠٠ من سورة التوبة: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ.

٣- **وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا** هؤلاء آمنوا باللّه و رسوله، و لكنهم رفضوا الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام، مع ان القرآن أمرهم بها، و حثهم عليها، و لكنهم رفضوا تمسكا بأموالهم، و خوفا على مصالحهم، و سبق الكلام عن هؤلاء، و عن حكم الهجرة في ج ٢ ص ٤١٨ و ما بعدها عند تفسير الآية ٩٧ من النساء.

و قد بيّن سبحانه حكم الذين آمنوا و لم يهاجروا بقوله: **ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**. أي ان هؤلاء لا يعتبرون أعضاء في المجتمع الإسلامي، و لا يثبت لهم شيء من حقوق المسلمين المقيمين في دار الإسلام، لأنهم قد اختاروا حكم الشرك و المشركين على حكم الإسلام و المسلمين .. أجل، إذا تركوا أرض الشرك إلى أرض الإسلام كان لهم حق الدفاع و النصرة، و أيضا إذا اعتدى عليهم معتد من أجل دينهم و عقيدتهم، و حاول أن يفتنهم عن الإسلام، و يردهم إلى الشرك فعلى المهاجرين و الأنصار أن يدافعوا عنهم، و لا تجب نصرتهم في غير ذلك، لأن رابطة الدين تحتم على كل واحد من أهله أن يدافع عن دين أخيه، و إن كان فاسقا .. و بكلمة ان الدفاع عن عقيدة الفاسق دفاع عن الدين بالذات، لا عن شخص الفاسق.

و كأنّ سائلا يسأل: إذا اعتدى معتد من الكافرين على مؤمن من الذين آمنوا و لم يهاجروا، و كان بين الكافر المعتدي، و بين المسلمين المقيمين في دار الإسلام عهد و ميثاق في الأمان و المسالمة، و استنصر المؤمن المعتدى عليه بمن في دار الإسلام من المسلمين، إذا كان الأمر كذلك فهل تجب نصرة المعتدى عليه على المعاهد المعتدي؟.

فأجاب سبحانه بقوله: **إِلاَّ عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**. أي ان النصرة لا تجب في مثل هذه الحال محافظة على الوفاء بالعهد و الميثاق، و الإسلام و ان كان عهدا و ميثاقا أيضا، و لكنه لا يجيز بحال الخيانة و الغدر، حتى بالكافر.

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥١٤

لا أثر لاسم الدين:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ. قد يوهم ظاهر الآية ان مجرد المشاركة في الكفر بين اثنين تستدعي بطبيعتها ان يناصر كل منهما الآخر .. و هذا لا ينطبق على الواقع، فان تاريخ أهل الكفر بعضهم مع بعض تاريخ حروب و دماء .. و كذلك تاريخ المسلمين .. و قد دلتنا التجارب ان المصلحة هي التي تجمع و تفرق، أما مجرد المشاركة في الألفاظ و الأسماء الدينية، كمسلم و مسيحي فقد يكون لها شيء من الأثر، و لكنه لا يبلغ حد الولاية، أي يتولى كل واحد يحمل هذا الاسم من أمر صاحبه و شريكه فيه ما يتولى من نفسه إلا إذا تجرد عن كل غاية إلا الغاية الدينية، بحيث يضحي بجميع مصالحه، حتى بنفسه و أهله و ماله في سبيل دينه و معتقده، و هذا هو المراد من قوله تعالى عن المهاجرين و الأنصار: **أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ**. و قوله: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ- ٧١ التوبة. أي ان الأمر بالمعروف عندهم هو المصلحة.

أما المراد من قوله: **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ**. و قوله:

وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ- ١٨ الجاثية. و قوله: الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ- ٦٧ التوبة.

أما المراد من هذه الآيات فهو ان الكفار و الظالمين و المنافقين يتفقون يدا واحدة ضد الحق، على ما بينهم من العداء و التناقضات، لأن المصلحة المشتركة تجمعهم و توحد صفوفهم، و هي الدفاع عن المنافع و الامتيازات، و قد تكرر ذلك مرات و مرات قديما و حديثا، فمن التاريخ الحديث تكتل المستعمرين و المستغلين ضد الشعوب و الثورات الوطنية، على ما بين الدول الاستعمارية، و الشركات الاحتكارية من التنافس على الأرباح، و من القديم اتفاق مشركي العرب و يهود الحجاز و المنافقين، اتفاقهم و إجماع كلمتهم على محاربة الإسلام و المسلمين، و لا دافع إلا المصالح المشتركة، فلقد بلغت العداوة بين المشركين و اليهود الغاية قبل الإسلام .. و بهذا نفسر قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ**.

أما ما ذهب اليه أكثر المفسرين من أن المراد به ان الكفار يرث بعضهم بعضا،

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥١٥

أما هذا التفسير فبعيد عن ظاهر اللفظ. و تكلمنا عن نظير هذه الآية، و عن المصلحة المشتركة بين كثير من اليهود و النصارى في هذا العصر عند تفسير الآية ٥١ من سورة المائدة بعنوان اليهود و البترول و النصارى.

إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ. إلا هنا مركبة من كلمتين إن الشرطية، و لا النافية، و الهاء في تفعلوه تعود إلى النصر في قوله: **فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ** و المعنى انكم أيها المسلمون إن لم تنصروا من استنجد بكم من المسلمين على الكافرين الذين حاولوا أن يفتنوه في دينه، و يردوه إلى الشرك، إن لم تنجدوه تكن فتنة و فساد بتسلط الشرك على الإيمان و الباطل على الحق.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ. ذكر سبحانه في الآية السابقة المهاجرين و الأنصار بهذا اللفظ لبيان ما يجب على كل واحد منهم تجاه الآخر من الدفاع و المناصرة، ثم أعاد هنا للثناء عليهم بقوله: **أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** و لبيان شأنهم، و ما أعد الله لهم غدا من العفو عن السيئات و الثواب الجزيل الذي عبّر عنه بقوله: **وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ**.

و ما قرأت شيئا أبلغ من وصف الإمام زين العابدين (ع) للمهاجرين و الأنصار و هو يناجي ربه، و يطلب لهم الرحمة و الرضوان بقوله:

اللهم و أصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة، و أبلوا البلاء الحسن في نصره و كاتفوه و أسرعوا إلى وفادته، و سابقوا إلى دعوته، و استجابوا له، حيث أسمعهم حجة رسالاته، و فارقوا الأزواج و الأولاد في إظهار كلمته، و قاتلوا الآباء و الأبناء في تثبيت نبوته، و انتصروا به، و من كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته .. فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك و فيك ..

و كانوا مع رسولك لك اليك.

- ملحوظة- هذه المناجاة جاءت في الصحيفة السجادية التي تعظمها الشيعة، و تقدس كل حرف منها، و هي رد مفحم لمن قال: ان الشيعة ينالون من مقام الصحابة.

٤- وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ. هؤلاء هم الذين آمنوا باللّه و رسوله، و هاجروا إلى المدينة، و جاهدوا بأنفسهم و أموالهم

تفسير الكاشف، ج٣، ص ٥١٦

بعد السابقين الأولين، و مع ذلك فحكمهم واحد من حيث وجوب النصرة و الدفاع.

وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

قال المفسرون: بعد أن آخى النبي (ص) بين أصحابه، و بينه و بين علي (ع) «١».

أصبحوا أولياء في النصرة، و في الميراث أيضا، أي انهم يتوارثون بهذه المؤاخاة لا بالنسب و القرابة، ثم نسخ التوارث بهذه المؤاخاة، و عاد الى التوارث بالرحم و القرابة.

و استدل الشيعة بهذه الآية على ان من كان أقرب إلى الميت نسبا فهو أولى بميراثه من الأبعد، سواء أ كان الأبعد ذا سهم، أم لم يكن، و سواء أ كان عصبة، أم غير عصبة، فبنت الميت تحجب أخاه عن الإرث لأنها أقرب منه إلى الميت، و أخته تحجب عمه لنفس السبب، و هكذا يحجب الأقرب الأبعد من جميع المراتب، و تكلمنا عن ذلك و أقوال السنة و الشيعة فيه، كما أشرنا إلى التوارث بالمؤاخاة، و إلى أسباب الإرث في الجاهلية، كل ذلك تكلمنا عنه في ج ٢ ص ٢٦٢ و ما بعدها عند تفسير الآية ١١ من سورة النساء.

---

(١). قال الشيخ محمد الغزالي في كتاب فقه السيرة ص ١٤٢ طبعة ١٩٥٣: و لقد صح ان رسول اللّه (ص) جعل عليا منه بمنزلة هرون الى موسى، و هذا يؤيد رواية مؤاخاة النبي لعلي.